اتجاهات الفكر الاسلامي المعاصر

في مصر

في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري

الجزء الاول

الطبعة الاولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م



دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

العليا - غرب مؤسسة التحلية - ت : ٤٦٥١٦٨٩ / ٤٦٣١٧٢٢
ص.ب. ٦٤٩٠ - الرياض ١١٤٤٢ - تليفاكس : ٤٦٣١٢٣٦
المملكة العربية السعودية

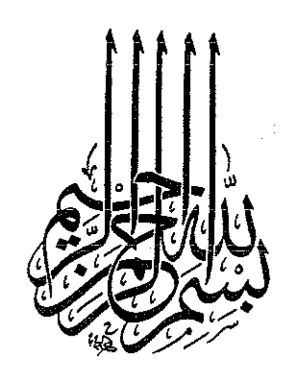
اتجاهات الفكر الاسلامي المعاصر في مصر

في النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري

تأليف
دكتور حمد بن صادق الجمال
أستاذ الثقافة الاسلامية المساعد
بجامعة الملك سعود

الجزء الاول

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض



هذا الكتاب

هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية أعدّها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه في الثقافة الاسلامية من كلية الشريعة بالرياض بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية. وقد أشرف عليها فضيلة الأستاذ الشيخ مناع خليل القطان.

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم: فضيلة الشيخ مناع بن خليل القطان الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والمشرف العام على إدارة الدراسات العليا بالجامعة

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تتجدد الحياة من عصر لعصر بتجدد ما يسود فيها من فكر في كل مجتمع، فالحياة الفكرية هي التي تصوغ كيان الأمة، وتحدد أهدافها، وتوجه مسارها لتحقيق هذه الأهداف، لذا كانت العناية بتنمية الفكر وصفاء منابعه عناية بالأمة نفسها في أخص مقوماتها.

ويعيش كل جيل من الأجيال عصره، ويتأثر بالاتجاهات الفكرية التي تحدث فيه، وحيثما نظر الإنسان في تاريخ الحضارة الإنسانية بعامة، والحضارة الإسلامية منها بخاصة.. أدرك هذه الحقيقة، وهذا يقتضي من الباحثين والمفكرين والدارسين أن يولوا اهتمامهم بدراسة أي ظاهرة فكرية، لسبر أغوارها وتناول آثارها، والاستفادة منها.

ولا يشك أحد في أن الفكر الإسلامي المعاصر بالمفهوم الشمولي للإسلام، قد أحدث تحولاً كبيراً في العالم الإسلامي بعد فترة من الركود غشيتها التيارات الفكرية الغازية، التي وجهت سهامها نحو الأمة الإسلامية، لتوهن من شأنها وتبسط نفوذها عليها، حيث تهاوت معظم ديار الإسلام أمامها وأسقط في يدها.

ثم شاء الله أن تنزاح هذه الغمّة، فظهر من رجالات الإسلام من أنار الله بصيرتهم، فقاموا على أمر الدعوة إلى الإصلاح في جوانب الحياة المتعددة، وبذلوا جهدهم بياناً وتربية

وتوجيهاً لتبصير الأمة، والذود عن حياض عقيدتها، والأخذ بيدها إلى المنهج الإسلامي السديد، وصراط الله المستقيم.

والكتاب الذي بين يدي القاريء «اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» رسالة تعالج هذا الموضوع، قدمها الأخ «حمد صادق الجمّال» إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ونال بها درجة الدكتوراه في الثقافة الإسلاميّة.

وقد أشرفت على هذه الرسالة، ورافقت صاحبها في إعدادها. فلم يدخر وسعاً في البحث والدراسة حتى فرغ منها.

وهي رسالة جامعية تشق طريقها إلى المكتبة الإسلامية، وتقدم زاداً فكرياً يتعرف به القاريء على الاتجاهات الفكرية بالعصر الحاضر في «مصر» التي كانت ــ ولا تزال ــ معياراً لما تنبض به الحياة الإسلامية في أقطار الإسلام.

وأسأل الله أن ينفع بها، ويوفق صاحبها إلى مزيد من العطاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مناع بن خليل القطان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[1].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[2].

أما بعد:

إن التفكّر هو أسمى ما يقوم به الذهن من العمل. وأن الفكر الإسلامي الحق بنوع الخصوص هو الخلاصة المقتبسة من نور القرآن وهديه، والمستفادة من كلام سيد المرسلين وإمام المهتدين صلى الله عليه وسلم، وبذلك كان الفكر الإسلامي هو منار الحضارة الإنسانية لما فيه من الإيجابية والتجدد، والشمول والقدرة على التطور والحركة، وفيض الحياة، والتقبل والالتقاء بالحضارات والفكر الإنساني، وهو قادر على أن يحتفظ بمقوماته، فلا يكون تابعاً ولا مستورداً.

وذلك لأنه يقوم أساساً على التوحيد وسيادة الإنسان للكون تحت حكم الله وفيه تترابط كل القيم وتتكامل، ولا يتجزأ وفق نظرة الشمول، التي تشمل طابع الروح وطابع المادة، فهو مزيج من الروح والمادة، والعقل والقلب والدنيا والآخرة.

(١) من خطبة الحاجة كما رواها: أبو داود ٣٣١/١ والحاكم في المستدرك ١٨٢/٢ ـ ١٨٣، والبيهقي في سننه ٧/ ١٤٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠، ٧١.

فالمسلمون بحق هم أول من جمع بين حرية الفكر واستقامة الدين، وأن الإيمان العميق بالله قد جنّب الثقافة الإسلامية الانقسام إلى دينية وعقلية. فالثقافة الإسلامية أساساً مستمدة من «القرآن الكريم»، الذي هو مصدر القيم الأساسية للفكر الإسلامي. والذي أضاء الدنيا بحضارة لم تنضب، ولن تنتهي على مدى قرون عديدة. حتى اتصل الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصال عدوان مسلح طوال قرنين كاملين من الزمان خلال الحروب الصليبية وكان من نتائج هذا الاحتكاك المباشر أن عرف الغرب لأول مرة أموراً أهمها:

أ ـ معرفة قوة العقيدة الإسلامية بقرآنها وسنة نبيها.

ب ـ معرفة ضعف المسلمين في مجتمعهم ببعدهم عن أصول عقيدتهم.

جـ ـ معرفة عظم ما يملك المسلمون من ثروات في بلادهم.

د ـ معرفة أساس التوحيد وعدم وجود أي سلطة لبشر مع سلطة الله تعالى.

فكان لهذه المعارف الأربعة من قبل الغرب الأثر الأكبر في رسم خطة جديدة ومنهج جديد للتعامل مع الشرق الإسلامي، وكان لا بد من العمل على زيادة ضعف المجتمع الإسلامي وتفككه للحصول على ما لدى المسلمين من ثروة، تُعدّ في تنوع مصادرها ومقدار كميتها، أضخم ما عرف من ثروة في أي مكان آخر من العالم القديم. فكانت نهاية القرن السادس عشر الميلادي هي بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصالاً اقتصادياً: بكشف موارد الثروة فيه أو استغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل تجاري، أو في أي صورة أخرى.

ثم استتبع الاتصال الاقتصادي، اتصال آخر: هو نفوذ الغرب المسيحي على التوجيه السياسي للشرق الإسلامي، ثم نما هذا النفوذ وتضاعف حتى وصل إلى منتهى ما يصل إليه نفوذ قوي على ضعيف مع بدايات القرن الرابع عشر الهجري (في النصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين). ولم تكن الحصيلة هي هذا فقط: في حدود الاستغلال الاقتصادي لرفع مستوى الغرب وتقدم صناعته من جانب وإضعاف مستوى الشرق والحرص على تخلفه من جانب آخر، بل كان أيضاً للتنفيس عن الهزيمة الصليبية في الحروب الماضية، وإظهاراً للحقد الصليبي على بقاء بيت المقدس في ظل السيادة

الإسلامية فماذا كان بعد ذلك!! كان الاستعمار وكان الاستشراق وكان التبشير: أركان التغريب الثلاثة.. وأسلحة الغرب في سبيل استمرار نفوذه السياسي على الشرق الإسلامي. والطريق لإبقاء تخلّف المسلمين وتأخرهم، وإشباعاً للحقد الصليبي في نفوس الغرب.

وكان أول الطريق لتحقيق غايتهم في كل ما سلف إفساد الإسلام والتراث الإسلامي. وذلك بالمفارقة بين الغرب والشرق، من تقدم الأول وتأخر الثاني.

وبدأت خطوات «الجاهلية العلمية» بتقديم المفارقة الأولى ثم بناء النتيجة عليها. مقدمات: الغرب متقدم والشرق متأخر، ينبني على ذلك الاستنتاج بالمقابلة بين المسيحية والإسلام، فالمسيحية: دين المتقدمين، والإسلام: دين المتخلفين!!. بل ينبني على ذلك أكثر، بأن التمسك بالدين الإسلامي هو سبب تخلف المسلمين!! هكذا يقدمون ويستنتجون ما يريدون، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. ثم انطلقت أبواقهم ودعاتهم أن من يريد التقدم والحضارة فليتبع الغرب كل ما في الغرب من خير وشرّ، ونفع وضرّ.. ولكن لا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامي إلا إذا اتخذ موقفاً من الإسلام يقرّبه من المسيحية!! وعلى هذا قامت حركات التغريب التي سمّاها أصحابها تجديداً في أفكار كثير من المستغربين أمثال طه حسين وأحمد لطفي السيد ونادوا باتباع الغرب اتباعاً كاملاً في حلوه ومرّه وخيره وشرّه، وهاجموا لغة القرآن وأخلاق القرآن وكل ما هو إسلامي، وتبعهم في ضلالهم مَن تبعهم. وهدى الله من قام للدفاع عن دينه والوقوف في وجه أعدائه لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وليتم الله نوره ولو كره الكافرون. فكان جمال الدين الأفغاني، وكان محمد عبده، وكان حسن البنا. جاءوا ليدفعوا حملة التشوية عن الإسلام وليواجهوا المستعمر وجهاً لوجه والله غالب على أمره.

وبذا نشأ في التفكير الإسلامي منذ ذلك الحين ثلاثة اتجاهات:

أحدهما: ممالأة الاستعمار الغربي «في تقريب الإسلام من المسيحية» أو في تبديله إلى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر مثل التصوّف وغيره.

وثانيهما: التأصيل الإسلامي لجميع المفاهيم والقيم للعودة بالمسلمين إلى إسلامهم

الصحيح كما يصوره القرآن والسنة، وإلى إعادة تماسك الجماعة الإسلامية، والسعي إلى تحريرها، وعدم انصهار المسلمين والذوبان في غيرهم.

والاتجاه الثالث والأخير: هو فصل الدين عن الدولة أو فصل الدين عن الحياة وأصبح لكل اتجاه من ذلك أنصاره ودعاته، والعاملين على إظهاره، والدعوة له كل حسب قوته وحسب من يسانده.

وقد أصبحت حفيّا بكل ما سبق، منفعلاً به متفاعلاً معه وعندما جاء بحثي عن موضوع لأطروحتي، استخرت الله واخترت:

(الاتجاهات الفكرية عند المسلمين في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري)

أهمية الموضوع:

وترجع أهمية هذا الموضوع إلى الأمور الآتية:

١ ـ موجات الغزو الفكري التي وفدت على بلاد المسلمين في الفترة مناط البحث قبلها وبعدها.

٢ ـ الحاجة إلى بيان موقف قادة الفكر الإسلامي ومواجهتهم لهذا الغزو الفكري.

٣ ـ تبصير أجيالنا الحاضرة بجهود السابقين، وبما يراد بهم وبإسلامهم من أعدائهم، حتى يكونوا على وعي وحذر من ناحية، ويواصلوا جهودهم ومتابعة المسيرة في صد هذا الغزو من جهة أخرى.

وهذا الذي دعاني أن أختار هذا الموضوع لأهميته في واقعنا المعاش الآن، ومن تصارع جهات عدة لمحاربة الإسلام وقيمه وفكره. فتكون كتابتي عن هذا الموضوع: دليلاً على الطريق: نوراً يضيء، وناراً تحرق، نوراً للحق والداعين له، وناراً على الباطل وأهله.

لماذا مصر؟ ولماذا القرن الرابع عشر؟:

إن أهمية هذين البعدين في الموضوع:

الأول: وهو البعد المكاني، أي لماذا مصر، ومصر بالذات؟

١ ـ فمصر جزء من الأمة الإسلامية وقوة لها تأثيرها الذي لا ينكر، ولذا كانت مصر نصب أعين الغرب، وهدفه الأول في حربه على الإسلام، وذلك لكونها محط أنظار المسلمين للقدوة والإصلاح بالنسبة للحركة الإسلامية المعاصرة وهذا ما يهمنا في بحثنا الآن، وذلك غير أسباب مكانية وسياسية أخرى.

٢ ـ كما أن مصر من أكثر البلاد الإسلامية اتصالاً بالفكر الغربي بجناحيه الرأسمالي والشيوعي، وقد تعرضت لألوان ومراحل من الغزو الفكري والثقافي، مما يجعلها من أهم الحالات الجديرة بالدراسة من هذه الزاوية.

الثاني: البعد الزمني في الفترة مناط البحث فقد كانت هذه الحقبة هي الفعل ورد الفعل الحقيقي في جميع الجوانب وخاصة الجانب الفكري والتي تبلورت فيها جميع الاتجاهات والصراعات والاجتهادات الفكرية.

الهدف من البحث:

ومما سبق يتضح هدفي من هذا البحث: في أن هذه الحقبة الزمنية تمثل واقعنا المعاصر الآن: من فرقة بين شعوب الأمة العربية[١] والإسلامية، ووهن وضعف في كيانها، جعلها مطمعاً لكل أعداء الإسلام للتهجم علينا والنيل منا بجميع الوسائل والطرق.

وفي دراستها يكون تلمّس الداء، ومن ثم الوصول إلى الدواء الذي يفيد حاضرنا، وينير مستقبلنا، حتى يتضح لنا المنهج السليم الذي يوافق الشرع لنسلكه، ونظهر أيضاً المناهج التي حادت عن الطريق فبعدت عن المسلك الصحيح والسبيل القويم، لتكون موضع النقد والتبيان للناس حتى لا يقعوا في بريق شراكها، ومنعطفات بعدها عن الدين الصحيح.

---

(١) وصلت هذه الفرقة إلى حد الاجتياح العسكري لدولة بكاملها في باطن دولة أخرى أمام سمع وبصر العالم أجمع وبكل صفاقة وصلف يقول المعتدي أن ذلك من حقه.

منهجي في البحث:

عنيت بعنوان البحث اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، أن الفكر الذي درسته في هذا البحث هو فكر المسلمين في تلك الحقبة، سواء كان هذا الفكر مخالفاً أو محالفاً لمبادىء الإسلام ملتزماً أو غير ملتزم.

ولتعدد جوانب الموضوع واتساعه وشموله لمناحي كثيرة في الفكر الإسلامي فقد بذلت قصارى جهدي في الإلمام بجوانبه المتعددة بدون إقلال مخل، أو تطويل ممل، ولكن للوصول إلى تشخيص الداء وإظهاره، حتى يتسنى معرفة الدواء وعلاجه، أو البعد عن مكان الإصابة ومواطن العدوى.. وهذا مما جعلني أتعمد الإطالة أحياناً بل والتكرار في بعض المواضيع لمساندة حق أو محاربة باطل. ولم لا!!؟ فأهل الباطل نراهم يلتفون حول باطلهم، ويتخذون كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، الوسائل الظاهرة والوسائل الباطنة، كل ذلك لإظهار باطلهم، وتزيين زيفهم وكذبهم، ونحن في الجانب الآخر نقف كأننا لا نرى!! أو كأن الموضوع لا يهمنا!! وأن الأمر لا يعنينا في كثير أو قليل، ولكن الأمر جد خطير!! هذا أستاذ الجيل وذاك عميد الأدب وتلك ذكراه وهذا ما قدمه، وهذا ما أنتجه وهذا.. وهذا وهذا.. وأبناؤنا يرون ذلك فينبهرون بالأضواء المسلّطة على الأحجار، والأبواق الناعقة بذكرها! وشكرها وتأييد ما دعت إليه من اتباع حضارة الغرب والتقدم والمدنية. فيختلط الحابل بالنابل في فكر هذا الجيل المسكين، ولا يعرف أين الطريق؟ لذا رأيت أن من الواجب على كل باحث مسلم أن يطرق مسامع الشباب وينير لهم الطريق دائماً بالتذكير، بطريق الأصالة الإسلامية والمنابع الصافية للفكر الإسلامي. ويبصرهم بما يفعله أعداء الإسلام في حربهم ضد الإسلام وعقيدة الإسلام، وماذا يخططون لهدم هذا الدين، والبعد بالمسلمين عن مصدر عزهم ومجدهم وهداهم «القرآن الكريم»، وكان هذا منطلقي في تناول هذا البحث. ولا أحسب نفسي قد غطيت كل ما هو مطلوب، ولكن حسبي أنني وضعت بعض المعالم التي توصل إلى الطريق. الطريق الموصلة إلى مفاهيم الإسلام الصحيحة، مع تحرير الفكر الإسلامي من أي خبائث دخيلة تفرض عليه، أو أي محاولات تسعى لاحتوائه وتشويه عقيدته. وأيضاً التركيز على إظهار أعداء الإسلام من رجال الغرب أو من أبناء جلدتنا،

الناطقين بلغتنا - وهم أضرّ الأمرّين، والذين يسعون إلى تحديث الإسلام، بإعادة النظر في تعاليمه وتطويع نصوصه وتأويلها تأويلاً فاسداً لايجاد المواءمة بينها وبين التصورات «العصرانية» في الغرب، ولو عن طريق خنق النصوص وابتذالها على غير أصول العربية ومقاصد التشريع. ويقومون أيضاً بمحاولة تنظير الأصالة في البلاد الإسلامية وفق المفهوم العلماني من أجل أن تحجب ارتباط هذه الأمة الأصيل بدينها وعقائدها وقيمها، وتعرّي الفكر الإسلامي من أهم أصوله القائمة على الوحي والنبوّات.

وقد تناولت الموضوع وجعلت أساسه «الشمولية في الإسلام» فهو كل لا يتجزأ فلا يمكن أن ننفذ جانب التشريع الاقتصادي ونقول هذا هو الإسلام. أو جانب التشريع الجنائي ونقول هذا هو الإسلام. فهذا كله غير صحيح؛ وإنما الإسلام هو: دين ودولة، عقيدة وقيادة، خلق وسلوك، وهو مجتمع وحضارة إنه الإسلام ومقياسه الأساسي هو القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ.

﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾[1].

ويلزم أن ننوّه عن مفهوم الإحالات في الحاشية:

أ - «انظر» وذلك عند التصرف القليل أو الكثير في النص أو الاستفادة من الفكرة.

ب - «راجع» عند الإحالة على توسع في الموضوع في مراجع أخرى.

جـ - «قارن» عند الإحالة إلى مرجع آخر به عكس الفكرة أو مناقضاً لها.

د - «نقلاً عن» أي أن المنقول ليس من مصدره الأصلي.

هـ - «وعنه» أي أنه تم الاطلاع على المصدر الأصلي والمصدر الناقل عنه.

ز - عند اغفال الإحالات السابقة وكتابة المرجع مباشرة دل ذلك على أن الكلام منقول نصاً بدون أي تصرف فيه.

هذا غير عشرات المراجع التي رجعت إليها واستفدت منها في توضيح أو مساندة الأفكار التي تضمّنها البحث، وكان لا بدّ من الاطلاع عليها ولم ترد في قائمة المراجع.

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩ .

الصعوبات التي واجهت البحث:

لم يكن الموضوع الذي طرقته في هذا الكتاب بالموضوع الموقوف على المتخصصين في اتجاه معيّن، فلا يخوض فيه إلا العارف به، والملمّ بأطرافه، فيكون الرجوع الى أي مصدر عنه هو فيصل النقطة المراد بحثها. بل كان موضوعنا عاماً، معاصراً، معاشاً، لذا كان مهماً لجميع قطاعات المجتمع بجميع مفاهيمه وتخصصاته. فتناوله بالبحث والعرض والتقصي أقلام شتى من الباحثين، المتخصصين وغير المتخصصين، ذوي اتجاهات وميول متباينة ايضاً. فكنت في جميع مراحل البحث إذا بدأت في بحث إحدى النقاط وجدت أمامي كمّاً هائلاً من المراجع التي بحثت وجالت وصالت فيها، وكلّ له اتجاه معيّن في فكره، سواء كان هذا الاتجاه ظاهراً أو مستوراً، يطلق رصاصه مسموعاً مدوياً، أم يدس السمّ في العسل، وكل منهم يسوق الحجج والأدلة المؤيدة لرأيه، المساندة لاتجاهه. ومعظم هؤلاء من المحدثين الذين لا يشيرون في الأعم الأغلب - إلى مصادرهم فيما يدلون به - هذا من ناحية الباحثين الكُثُر في هذا الموضوع.

أما الشق الآخر وهو قلة الوثائق التاريخية مع صعوبة الحصول عليها أو كونها تمثل رأي السلطة فقط. والتي ما تزال تؤمن بذات الاتجاه[1] وذلك لقرب الحقبة محل البحث.

وقد كنت إزاء ما سبق أتناول أي مسألة أو رأي بحسّ المؤمن أوّلاً، ليتيسر لي تلمّس الرأي الذي أمامي ولأي وجهة يتجه، ثم أحاول ردّه إلى الأصول الإسلامية الأصلية، إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإذا لم يكن فأرجع إلى آراء أئمة السلف ثم أئمتنا المعاصرين. وفي ذات الوقت لا أندفع مع المغالين في تطرف آرائهم وأحكامهم، ولا أنساق وراء الآراء المسمومة.. وذلك كله واضعاً نصب عيني إعلاء كلمة الله وجعل «لا إله إلاّ الله» هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله من وراء القصد، والهادي الى سواء السبيل.

(١) مثل قيام السلطة في مصر حتى الآن بمحاربة الاتجاه الإسلامي بكل الوسائل.

خطة البحث

وقد كانت خطتي في هذا الموضوع على النحو التالي:

بدأت البحث بمقدمة وباب تمهيدي ثم جاء الموضوع بطرفيه العقدي والمنهجي فجعلت قسماً لكل شق منهما واحتوى القسم الأول على أربعة أبواب واحتوى القسم الثاني على ثلاثة أبواب ثم كانت الخاتمة.

١ ـ المقدمة:

ذكرت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره، ثم منهجي في تناول الموضوع ثم خطة البحث التفصيلية.

٢ ـ باب تمهيدي:

تكلمت فيه عن الأوضاع السياسية والفكرية في العالم الإسلامي عامة وفي مصر خاصة وذلك في ثلاثة فصول تناولت في الفصل الأول الوضع السياسي في العالم الإسلامي المعاصر بدأتها بالخريطة السياسية للإسلام ثم أسس العلاقات الدولية في الإسلام وكذا وضع العالم الإسلامي بين العوالم المعاصرة.

ثم خصصت مصر بتوضيح أثر الوضع السياسي على الفكر فيها بدءاً بالحملة الفرنسية حتى نهاية حكم أسرة محمد علي.

وكان **الفصل الثاني**: عن مصادر فكر المسلمين في مصر في تلك الفترة وخصائصه وشملت هذه المصادر النقلية منها وهي: القرآن الكريم والسنة المشرفة ثم العقلية: وتكلمت فيها عن المذهب الأشعري.

أما **الفصل الثالث:** فتكلمت فيه عن المؤسسات التعليمية في مصر، خاصة الشرعية منها وبدأتها بالأزهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ثم الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) وذكرت بعضاً من رجال هذه المؤسسات لتوضيح أُكِلِ كلّ منها.

ثم شمل **القسم الأول** من البحث: «**الاتجاهات الفكرية في الجانب العقدي**» في أربعة أبواب:

تناولت في **الباب الأول**: **الاتجاه الصوفي**: فأوضحت أصول الصوفية ونشأتها ثم ذكرت الطرق الصوفية وأقسامها الهامة ثم بيّنت أثر الصوفية في الفكر الإسلامي من ناحية العقيدة ومن ناحية الأخلاق والسلوك.

أما **الباب الثاني:** فكان في **الاتجاه العقلي:** واحتوى هذا الباب على أربعة فصول: الأول منها في: مفهوم العقل وموقف الإسلام منه وكيف كرّم الإسلام العقل ولكن في إطار وظيفته وبمقدار حدود لا يتعداها فيميل كل الميل كما فعلت المعتزلة.

وقد أوضحت في **الفصل الثاني** هذا المذهب: مذهب المعتزلة وكيف أنهم بوضعهم العقل في غير محله زاغوا بعيداً عن طريق الحق.

ثم كان **الفصل الثالث عن: المدرسة العقلية الحديثة.** كيف نشأت وما مدى انزلاقهم عن الطريق وما مدى إلتزام منهجهم بالأصول الإسلامية او بعدهم عنها. وتكلمت في هذا الفصل كذلك عن نشأة رائد المدرسة الشيخ محمد عبده.

ثم كان التقييم لهذه المدرسة ومنهجها ورجالها في **الفصل الرابع.**

وكان **الباب الثالث عن: الاتجاه التغريبي:**

بدأته بفصل عن المفاهيم وتحديدها: الاستعمار والتغريب والغزو الفكري والتبشير والاستشراق.

وفصل آخر عن الفكر الاسلامي في مواجهة التغريب بأجنحته الثلاثة الاستعمار والتبشير والاستشراق ووضّحت في هذا الفصل كيف بدأ الاستشراق وما هو هدفه الرئيسي

الذي ينحصر في الحقد ضد القرآن الكريم والتشويه لصورة السنة والسيرة وكذا تشويه التاريخ الإسلامي. أما التبشير فقد أوضحنا وسائله في التعليم والبعثات والإعلام والمؤتمرات.

وكان من المحاور الرئيسة المستهدفة في الهجوم على الإسلام هي اللغة العربية ووعاؤها الأزهر الشريف. وتكلمت أيضاً عن مدارس التغريب وأوّلها مدرسة الاستعمار ثم مدرسة الصحافة ثم مدرسة الترفيه والتسلية وكان لكل مدرسة سمتها المميزة وضررها البالغ.

أما الباب الرابع: الاتجاه الأصيل:

وهو الاتجاه الملتزم بمفهوم الإسلام الشامل وقد أخذت مؤسستين لتوضيح مفهوم هذا الاتجاه هما: الجمعية الشرعية، وجماعة الإخوان المسلمين. وأوضحت كيف كانت الجمعية الشرعية بدايات خيّرة للأصالة، ولكنها كانت غير كاملة للمفهوم الحقيقي للاتجاه الأصيل.

أما جماعة الإخوان المسلمين فكانت هي النموذج الحق الأقرب إلى هذا الاتجاه لتكون من جماعة المسلمين، بفكرها ومنهجها ووسائلها الموصلة إلى غاياتها.

ثم نأتي إلى **القسم الثاني: الاتجاهات الفكرية في الجانب المنهجي** والذي شمل ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الاتجاه التجديدي:

فبيّنت في **الفصل الأول: ما هو مفهوم التجديد ومتى يقع؟ ومن يقوم به؟** وما هو مفهوم الاجتهاد؟ وما هي شروط المجتهد ومنزلته؟ ثم أوضحت ماهية التجديد البعيد عن المنهج الإسلامي. وأن التجديد يتضمن اتجاهين رئيسين هما اتجاه التغريب واتجاه الإصلاح وركزت خلال دراستي لهذين الاتجاهين على الجانب المنهجي فيهما.

ففي الفصل الثاني: تناولت الاتجاه التغريبي بدراسة شخصيتين ممن نهلوا وتربوا في أحضان الغرب وتثقفوا بثقافته فتشبعوا به فكراً ومسلكاً، فقاموا بمحاولة التطبيق الغربي على الفكر الإسلامي، فكان منهجهما في التجديد هو محاولة أخذ الطابع الغربي والأسلوب الغربي في تفكير الغربيين وهما الشيخ علي عبد الرازق في مجال الفكر السياسي الإسلامي. والدكتور طه حسين في مجال الثقافة والتعليم.

أما اتجاه الإصلاح فقد اخترت شخصيتين انطلقتا من منطلق إسلامي بمفاهيم إسلامية واختطا لنفسيهما منهجاً إسلامياً للإصلاح الديني والسياسي. هما الشيخ محمد عبده في مجال الإصلاح الديني والشيخ عبد الرحمن الكواكبي في مجال الإصلاح السياسي.

أما الباب الثاني: في الاتجاه التوفيقي: فبعد أن قدمت له بتوضيح مفهومه ومدلول المنهج ومبرراته جاء **الفصل الأول: في المنهج التوفيقي عند الكواكبي** مع سوق نماذج من بعض الآيات من تفسيره.

والفصل الثاني: في منهج التوفيق عند طنطاوي جوهري. فقمت بالتعريف به وبمنهجه في التفسير.

ثم جاء **الفصل الثالث: من مدرسة المنهج التوفيقي في تفسير القرآن** فتكلمت عن عالمين أحدهما من مصر والآخر من الغرب. والأول هو الشيخ الشعراوي والثاني هو العلامة موريس بوكاي وسقت بعضاً من تفسيراتهما العلمية.

والباب الثالث: الاتجاه التأصيلي:

وفيه أفردت فصلاً عن التأصيل في المنهج التجريبي الإسلامي الذي كان أساساً للحضارة الإنسانية قديماً وحديثاً ثم اقتصرت دراستي لهذا الاتجاه على التأصيل في مجالين هما: مجال الفلسفة الإسلامية ومجال التاريخ الإسلامي.

وفي تأصيل الفلسفة الإسلامية أوضحت مفهومها وما هي دواعي التأصيل؟ وذلك للرد على منكري الفلسفة الإسلامية ثم ذكرت بعض التطبيقات لذاتية الفلسفة الإسلامية وأولها علم الكلام وعلم أصول الفقه وعلم التصوّف الإسلامي. ثم تكلمت عن رائد المدرسة الحديثة للفلسفة الإسلامية الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق أول من نادى بأعلى صوته بتأصيل الفلسفة الإسلامية وردّها إلى الإمام الشافعي بكتابه في أصول الفقه (الرسالة) في وقت ضاعت فيه كلمة الحق بين أبواق التغريب وأعوانه وهم في أوج قوتهم في تلك الحقبة.

ثم نأتي إلى **الفصل الثاني: في تأصيل التاريخ.** فبدأت هذا الفصل بدراسة دواعي

تأصيل التاريخ الإسلامي حيث تعرّض للتشويه والتحريف كما سلف في الأبواب السابقة وتفريغه من محتواه الإيماني بواسطة الفرق الضالة أولاً ثم المستشرقين وأعوانهم بل تابعيهم الذين أتموا الهجوم على تاريخنا من الداخل. أمثال الرجل الذي ظهر على مسرح هذا البحث عدة مرات إنه عميد الأدب طه حسين ولنسوق إنكاراً من إنكاراته المتعددة في مجال تاريخنا وعقيدتنا، حيث نراه ينكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مكذّباً القرآن الكريم. فيقول: «للتوراة أن تحدّثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضاً؛ ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»[1]. ويكفينا هذا المثال لنضع مؤشراً لهذا الفكر الضالّ وهذا المنهج الكُفْري، توضيحاً وتنبيهاً للباحثين من شباب الإسلام.

ثم أردفنا بتوضيح مفهوم التفسير الإسلامي للتاريخ وأسسه، وعليه كانت المسيرة الإسلامية للتاريخ مثالاً للتناول الإسلامي لتاريخ البشرية.

ثم ختمت البحث بفضل الله وتوفيقه، بخاتمة قلت عنها: أنها لن تكون ملخصاً لما ذكرناه خلال هذا البحث، ولا إظهاراً لأهم النقاط التي تناولناها، ولكنها ستكون نقطاً إشارية، وأضواءً إرشادية، لنسير على الدرب السليم، ونسلك الطريق القويم لنصل إلى الفكر الإسلامي العظيم، الذي يربطنا ويربط الأجيال المسلمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص ٢٦.

شكر وتقدير

بعد أن منّ الله عليّ بإتمام هذه الرسالة، لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الله العلي القدير بالشكر والحمد على تمام فضله وجزيل نعمته.

ثم أتوجه بالعرفان بالجميل الحسن، والضراعة إلى الله عزّ وجلّ: أن يجزل الثواب ويزيد من فضله لكل من أعانني على إتمام هذه الرسالة.

وأخصّ معالي **الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي** مدير الجامعة لما شملني به من رعاية صادقة، مذلّلاً كل العقبات لأتم رحلتي العلمية، فجزاه الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء.

وكذا فضيلة **الدكتور سعود بن عبد الله الفنيسان**، وفضيلة **الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد**، عميدا كلية الشريعة السابق واللاحق، فبقدر ما أسديا لي من فضل، أن يثيبهما بالإحسان إحساناً، وعزّاً وغفراناً، إنه سميع مجيب.

أما قسم الثقافة الإسلامية الذي ارتبط فكري به، وتعلّق قلبي لتحقيق رسالته السامية فلا يسعني إلا أن أدعو الله تعالى إلى رؤسائه المتتابعين، فقد كان لكل منهم لمسة فضل لا تنسى، ومعروف ليس له جزاء إلا من الله تعالى؛ وكذا أعضاء القسم جميعاً بأن يزيدهم الله علماً ونوراً ويقيناً ليتموا رسالتهم في خدمة دين الله.

اما فضيلة **الأستاذ الشيخ مناع بن خليل القطان** المشرف على الرسالة، والذي أعطاني من علمه وحسن توجيهه، وسعة صدره، والذي لم يبخل عليّ بوقته سواء في مكتبه أو في منزله، حتى اللقاءات العابرة كان لي فيها غنم وأي غنم، جعله الله مع الذين تعلّموا العلم وعلّموه، فكان لهم نوراً وشفيعاً يوم القيامة.

وفي هذا الموقف لا أستطيع أن أنسى الجنود المجهولين الذين يعينون الباحثين بكل طاقتهم بإمدادهم بما هم أمناء عليه. إنهم أمناء مكتبة كلية الشريعة والمكتبة المركزية، ومكتبة مركز الملك فيصل، وكذا المكتبات الخاصة للكثير من الفضلاء الذين بذلوا الجهد والعون فجزاهم الله خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين!

الباب التمهيدي

الأوضاع السياسية والفكرية في العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة في مطالع القرن الرابع عشر الهجري

وسيكون هذا الباب عبارة عن مدخل يتناول أهمية هذه الحقبة بالنسبة للعالم الإسلامي وكذا أهميتها لمصر بوجه الخصوص، ثم سنحاول الإلمام بما كانت عليه الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والفكرية والثقافية والعلمية في العالم الإسلامي عامة ثم في مصر خاصة، وذلك بإلماحة عن العالم الإسلامي المعاصر نبيّن فيها جغرافيته، وخريطته السياسية، ثم ننتقل الى بيان جذور الوضع السياسي وانعكاساته على الفكر الإسلامي وأوعيته ورجاله في مصر وذلك في مدخل وثلاثة فصول بيانها كالتالي:

الفصل الأول : أوضاع العالم الإسلامي سياسياً وفكرياً.

الفصل الثاني : مصادر الفكر في مصر وخصائصها.

الفصل الثالث : المؤسسات التعليمية في مصر.

مدخل

أهمية الفترة الزمنية محل البحث بالنسبة للعالم الإسلامي:

كان النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري يمثل فترة هامة في حياة الأمة الإسلامية رغم قصرها بالقياس الزمني. بل كانت من أهم الفترات في العصر الحديث من حيث كثرة تفاعلاتها، وتمخّض أحداثها عن نتائج كان لها أعظم الأثر في جميع الاتجاهات وبخاصة الجانب الفكري. ويرجع ذلك لما يلي من أسباب:

١ ـ حدث في هذه الحقبة هزات سياسية كثيرة في العالم الإسلامي: بضياع الخلافة الإسلامية، مع احتلال الغرب لمعظم الدول الإسلامية عسكرياً، الأمر الذي يدعونا إلى الإلمام بما كانت عليه الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والفكرية والثقافية والعلمية والتي سادت العالم الإسلامي في تلك الحقبة.

٢ ـ ظهور تيارات الدعوة الى القومية بدءاً بالقومية التركية ويطلق عليها «حركة التتريك»، وتتحصل في إحلال كل ما هو تركي محل كل ما هو عربي، والتي وجّهت لتصفية الخلافة الإسلامية، ثمّ القومية العربية والقوميات المحلية الداخلية؛ ومن بينها القومية المصرية الفرعونية التي استهدفت إبعاد مصر عن مكانها العربي والإسلامي.

٣ ـ تعتبر هذه الحقبة من أهم الفترات التي تسارع فيها تطور الفكر عند المسلمين في العصر الحديث، بعد أن حاول الاستعمار بكل صوره محاربة هذا الفكر، وطمس معالمه، والانحراف به عن جادة الطريق. بالضغط والإرهاب تارة، وبالتغريب والاستشراق وعبر حركات التفرنج تارة أخرى، ثم بدسّ الأفكار البعيدة عن عقيدتنا وعن تقاليدنا الإسلامية بكل ما يملك من وسائل.

٤ ـ وإلى جانب هذا كله، فإن هذه الفترة شهدت تياراً جديداً للفكر يجمع بين النظر والعمل: عن طريق اجتهادات فردية، ثم عبر جمعيات ذات اتجاهات جزئية للإصلاح طبقاً لفكر القائمين عليها، أو ذات اتجاه شامل للفكر الإسلامي الأصيل، حسب ما انتهت إليه الظروف الفكرية والعملية في آخر هذه المرحلة.

٥ ـ ولا يفوتنا ذكر ما كان يدور في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة من بدايات لإعادة دولة التوحيد وبنائها من جديد على يد الملك عبد العزيز آل سعود وصحبه الأبرار، ونشر راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لتظلّل الجزيرة العربية بالأمن والأمان؛ ولتنشر العلم والدين في كل مكان. وتزيل أكثر مظاهر البدع والانحراف والفرقة.

أهمية الفترة الزمنية محل البحث بالنسبة لمصر:

شهدت مصر في هذه الفترة نهضة حديثة ووعياً سياسياً وفكرياً تلاقيا للدعوة لتحريرها والأمة العربية من نير الاستعمار.

وقد شهد هذا العصر[1] أيضاً: نشأة الجامعة المصرية عام ١٩٠٨م وظهور الموسوعات الكبرى، والالتجاء إلى ثقافة الغرب والنهل من آدابه وفكره وحضارته، وذلك لتوهم المسلمين أن الحضارة الغربية حضارة عالمية، وأنها ثمرة تجارب الإنسانية، وعلى هذا ساد اعتقاد خاطىء بأن لا مناص لمن أراد التقدم أن يتبيّن مفاهيمها، ويقتبس نظمها، وأن يربط مصيره بمصيرها.

(١) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٢٠ .

الفصل الأول

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين هما:

المبحث الأول : الوضـع السياسي في العالم الإسلامي المعاصر.
المبحث الثاني : جذور الوضع السياسي في مصر وأثره على الفكر.

المبحث الأول

الوضع السياسي في العالم الإسلامي المعاصر

وفيه ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول : في جغرافية الإسلام وخريطته السياسية.

المطلب الثاني : من أسس العلاقات الدولية في الإسلام.

المطلب الثالث : العالم الإسلامي بين العوالم المعاصرة.

المطلب الأول

في جغرافية الإسلام وخريطته السياسية

سنتناول في هذه النبذة اليسيرة شيئاً من جغرافية العالم الإسلامي بمجموعة منتقاة ومترابطة من جوانبه الحيوية ومشاكله المعاصرة المؤثرة في موضوع بحثنا، وليس بمسح جامع أو مانع للعالم الإسلامي سواء في ماضيه أو حاضره.

وليس المقصود بجغرافية العالم الإسلامي دراسة الجغرافيا الإقليمية للعالم الإسلامي.. «ولكن المقصود هو دراسة الإسلام في ذاته من حيث هو ظاهرة في المكان له توزيعه وامتداده الجغرافي الخاص، وعلاقاته (الأيكلوجية) معه. ومن حيث هو عامل مؤثر في إقليمه وفي تشكيل تاريخه وحياة سكانه، وتكوين أو تلوين وجوه النشاط البشري أو العلاقات الاجتماعية فيه، بما في ذلك على الأخص الجوانب السياسية الداخلية وتوجيه السياسة الخارجية والمشاكل الدولية»[١] وبالتالي على النواحي الفكرية.

ليس ثمة بين أيدينا – فيما نعلم – دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام في العالم. وحقاً تحفل كتب المستشرقين والدراسات الإسلامية (الإسلامولوجيا كما يسمونها) بأكثر من مسح تخطيطي أو ثبت إحصائي للمسلمين في هذه القارة أو تلك، أو لانتشار الإسلام التاريخي هنا وهناك، ولكنها في الأعمّ الأغلب لا تعدو أن تكون خطوطاً عريضة أو إلماعات سريعة متناثرة، وكثيراً ما تعتمد على أرقام قديمة أو غير وثيقة، وأحياناً – وهو أمر جد مفهوم – قد لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة[٢].

(١) العالم الإسلامي المعاصر، د/جمال حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٦ .
(٢) العالم الإسلامي المعاصر، جمال حمدان، مرجع سابق، ص ١١ .

وستكون هذه التقدمة مدخلاً لرسم جغرافية الإسلام من حيث هو غطاء روحي واسع الانتشار، بالغ الخطورة في الحياة اليومية المعاصرة، المادية والثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية، لقطاع كبير من البشرية.

ليس من اليسير أن نحصر عدد المسلمين في العالم بدقة، حيث أنه لا الأدوات الاحصائية ولا التقديرات الكمية موفورة أو متيقن منها، فهي لا تعدو أن تكون أرقاماً قديمة أو غير موثوق منها، فضلاً عن أنها لم يتحرّ في عملها النزاهة العلمية المطلقة لأسباب نعلمها جميعاً[1].

كما ذكرنا آنفاً أنه ليس من السهل أن نحصر عدد المسلمين في العالم بالدقة المطلوبة، حيث أن الاحصاءات ليست ميسورة دائماً، ولا تكون يقينية إذا وجدت.. «ولكنها تتراوح الآن بين ٥٠٠ و٦٠٠ مليون، وربما رفعها البعض إلى ٧٠٠ مليون، ومن الكتابات الدارجة ما يقفز بالمجموع على غير أساس إحصائي الى ثلاثة أرباع البليون[2]. ومن الإنصاف بل من الواجب العلمي هنا أن نقرر أنه بقدر ما تجنح التقديرات الغربية إلى التهوين والتقليل من حجم الإسلام، بقدر ما يندفع بعض الكتابات العربية إلى التهويل والتضخيم ويبقى أن الإسلام يمثل بالتقريب ١٥٪ من سكان هذا الكوكب الذين يبلغون اليوم نحواً من ٣٥٠٠ - ٣٦٠٠ مليون نسمة، أو قل إن واحداً من كل ستة او سبعة أشخاص في العالم يدين بالإسلام»[3].

والإسلام بعد هذا في توسع حركي مضطرد، بل لعله اليوم أكثر الأديان نمواً من الناحية العددية، وذلك لعاملين:

أولهما:

أن الإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة وقوى مضافة على امتداد جبهة عريضة في أفريقيا، وأيضاً في آسيا المدارية[4] بالإضافة إلى أمريكا شمالها وجنوبها.

(١) أن تكون الدراسات مغرضة لرسم خريطة البلد على هوى المستشرقين وأفكار الغرب.
(٢) في كتابات حديثة أوصلها الكاتب والمفكر الإسلامي د/ علي جريشه إلى ألف مليون مسلم (أنظر حاضر العالم الإسلامي، د/ علي جريشة ط ٣ دار المجتمع للنشر والتوزيع جدة، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م).
(٣) العالم الإسلامي المعاصر، د/ جمال حمدان، ص ١٢.
(٤) أي الدول الموجودة على مدار السرطان وتشمل تركيا ودول جنوب شرق آسيا.

أما العامل الثاني:

فمن المتفق عليه أن أغلب مناطق العالم الإسلامي يُعدّ من أقاليم النمو السكاني السريع، حيث لم تزل معدّلات المواليد مرتفعة في الوقت الذي انخفضت فيه معدّلات الوفيات انخفاضاً كبيراً. «أي أن الإسلام يكسب، ويكسب بمعدل المتواليات الهندسية، ومن المرجح - وكل أمر بإذن الله - أن قوته النسبية ستتمدد باستمرار، وقد لا تحل دورة القرن العشرين الميلادي إلا وقد أصبح خمس البشرية من المسلمين»[١].

ونحن إذا قسنا موضع الإسلام بين الأديان السماوية[٢] الموجودة الآن لوجدنا أن المسيحية والإسلام هما الديانتان السماويتان اللتان تتقاسمان العالم اليوم بل تتنازعانه. أما اليهودية - وهي دين مغلق - فهي غير داخلة في مضمار التبشير بين الناس. أما من حيث الرقعة ومدى الانتشار فالإسلام دين عالمي، غير محدود برقعة معينة أو بجنس معين، وذلك رغم ما يدّعيه البعض من أنه دين جزئي أو إقليمي، أو أنه دين «أفريقاسي»... والواقع المعاصر الآن يدحض هذا الادعاء، إذ أنه لا توجد دولة في عالم اليوم لا يتمثل فيها الإسلام ولو ببضع عشرات من الآلاف[٣]، كما في استراليا أو غرب أوربا مثلا. أما إذا نظرنا إلى دار الإسلام - الحقيقية - لوجدناها تغطي حيزاً جغرافياً هائلاً.

الإطار العام:

فالإطار الخارجي الأقصى للإسلام يصل شمالاً حتى أعالي الفولجا عند خط العرض ٦٠ ° شمالاً، ويترامى جنوباً حتى نهاية افريقيا عند الرأس على خط عرض ٣٥ ° جنوباً[٤].

أما شرقاً بغرب - فنحن نستظل بالإسلام - من خط طول ١٢٠ ° شرقاً - حيث الفلبين - إلى حوالي ٢ ° غرباً عند الرأس الأخضر. فهذه شقة تبلغ ٩٥ ° ونحو ١٤٠ °

---

(١) المرجع السابق، د/ جمال حمدان، ص ١٣.

(٢) الأديان السماوية المعروفة على وجه الأرض الآن هي: الإسلام والمسيحية واليهودية.

(٣) نجد ذلك واضحاً في أقصى الأماكن مثل نيوزيلاند وجزر فيجي والجزر المنتشرة في أقصى النصف الجنوبي من الكرة الأرضية.

(٤) أنظر حاضر العالم الإسلامي، د/ علي جريشة، ص ٣٠.

بالعرض، أي حوالي ربع وثلث محيط الأرض على الترتيب، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي»[1].

وبذلك نستطيع أن نقول أن آسيا هي مركز ثقل الإسلام وبيته الحقيقي مثلما كانت منبته الأصلي، وهي وحدها تضم حوالي ٥٠٠ مليون مسلم، فهي إذن للإسلام كأوربا للمسيحية: قلعة وكعبة وقلباً وروحاً، غير أن العدد النسبي للمسلمين في آسيا أضعف منه بكثير في أفريقيا، حيث لا يزيد عن ١/٥ مجموع سكان القارة. وبعامة بالنسبة لهاتين القارتين نجد أن دار الإسلام تتركز في النصف الجنوبي من قارة آسيا، وفي النصف الشمالي لقارة افريقيا كما هو واضح من خريطة العالم الإسلامي.

وعلى العموم فإن العالم الإسلامي من حيث الموقع ليس كما يحلو لبعض الجغرافيين الأجانب أن يصوّره نطاقاً صحراوياً فقيراً في موارده متخلّفاً في سكانه... بل إنه (في سرة العالم) ممسكاً بأطرافه، متحكماً في محيطاته وبحاره وخطوط ملاحته، زاخراً بأهم الأنهار، وأخصب الأراضي، وأعظم الثروات. ومدخلا المحيط الهندي في أرض إسلامية (مضيق ملقا في الشرق بين الملايو وسومطرة، ومضيق باب المندب في الغرب) وبذا يمكن التحكم في الملاحة الدولية بين الشرق والغرب. ومدخلا البحر المتوسط في أرض إسلامية أيضاً، (شرقاً قناة السويس وغرباً مضيق جبل طارق).

والبحر الأبيض كان يوماً ما كله بحيرة إسلامية، ولا تزال شواطئه الشرقية والجنوبية كذلك والبحر الأسود والبحر الميت، والبحر الأحمر كذلك بحيرة إسلامية لولا إسرائيل[2].

وكذا أنهار النيل والفرات ودجلة وبردى ونهر السند ونهر النيجر وغيرها تجري في بلاد إسلامية. وقد انتهى أحد العلماء في بحث علمي [3] إلى أن مركز العالم كله - إذا أريد رسم دائرة - في مكة المكرمة، وبالتحديد الكعبة المشرفة... وبذا يصح جغرافياً أن نقول إن الأمة الإسلامية أمة وسط في موقعها، وأمثل الشيء أوسطه في كل شئ. ومن ثم فإن

(١) العالم الإسلامي المعاصر، د/ جمال حمدان، ص ١٥.
(٢) حاضر العالم الإسلامي، د/ علي جريشة، ص ٣٠.
(٣) هو الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين - رحمه الله - في كتابه: «القبلة».

العالم الإسلامي جغرافياً واستراتيجياً يتفوق في موقعه على اي بقعة في العالم كله[1].

الموارد الطبيعية: أما من حيث الموارد الطبيعية فيجدر بنا أن نبيّن ماذا يقصد بالموارد الطبيعية: فهي الموارد التي يتكوّن منها الغلاف الصخري أو القشرة الأرضية الصلبة. والمواد التي يتكوّن منها الغطاء النباتي أو الحيواني، والمواد التي يتألف منها الغلاف المائي والغلاف الجوي.

أما الغلاف الصخري فيشمل: الثروة المعدنية، والتربة والمياه الجوفية. أما الغطاء النباتي والحيواني فيشمل: الثروة النباتية طبيعية كانت أم زراعية، وفضلاً عما يوجد على سطح الأرض من حيوان[2].

أما الغلاف المائي فيشمل: الكائنات البحرية الحية ومنها الأسماك، وكذلك الأملاح المعدنية التي يستخلص منها بعض المعادن.

أما الغلاف الجوي فيقصد به: عناصر المناخ اللازمة للإنتاج مثل: الحرارة والضوء والأمطار[3].

(١) المرجع السابق، د/ علي جريشة، ص ٣١.
(٢) جغرافية العالم الإسلامي، محمود طه أبو العلا، ط ١٩٦٦/٢م، ص ١٢١، ص ١٢٢.
(٣) يقصد به البيئة الصالحة لاستنبات الزرع.

المطلب الثاني

من أسس العلاقات الدولية في الإسلام

قبل الإسلام كانت معظم العلاقات الدولية علاقات خصومة وعدوان، وكان قانون الغاب: قانون القوة والغلبة وسيطرة القويّ على الضعيف هو الذي يتحكم في الميدان الدولي، فجاء الإسلام ليقرر مبادئ انسانية عامة تحل محل المبادئ البائدة وتقيم العلاقات بين الدول على أساس جديد(١).

قرر الإسلام مجموعة من المبادئ لتقوم عليها علاقات بني الإنسان أفراداً وجماعات، فجعل السلم لا الحرب أساساً للصلات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول.

وقد وَجّه أعداء الإسلام فرية كبرى وردها عندنا بعض الذين لا يعقلون، وهي أن الإسلام دين السيف، وأنه لا يعرف إلا العدوان والحرب سبيلاً للعلاقات الدولية. وهذا محض افتراء من عند أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان**﴾(٢)، وقوله: ﴿**فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**﴾(٣). كما قرر القرآن الكريم.

فالإسلام لم ينتشر قط بحد السيف، وإنما كان سبيله الجهاد من أجل اعلاء كلمة

---

(١) أنظر: معالم الثقافة الإسلامية، عبد الكريم عثمان، مؤسسة أنوار الرياض، الطبعة الرابعة (١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م)، ص ٢٢٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٠.

الله، ونشر الدعوة الإسلامية، ولم يجرّد سلاحاً للعدوان على غير المسلمين.

لهذا، فقد اقتصرت أسباب الحرب عل أسباب رئيسة:

أولهما : إما دفاعاً عن كلمة الله ضد البغاة من الكفار وغيرهم، امتثالاً لقوله تعالى: **﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾**[1].

ثانيهما : وإما درءاً لفتنة يشعلها الكفار نكاية في الإسلام والمسلمين، لقوله تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾**[2].

وثالثهما : دفع اعتداء الحكومات غير الإسلامية على عقيدة المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيها، ورفع الحجر الذي تضعه الحكومات على نشر الإسلام[3] وحماية الدعوة، لا للغلب أو المخالفة في الدين، كما قرر جمهور الفقهاء. والدعوة إلى الإسلام تكون أولا بالحجة والبرهان، لا بالسيف والسّنان[4]. لأن الإسلام يجنح دائماً للسلم لا للحرب وهذا هو المفهوم من روح التشريع العامة[5] بدليل قوله تعالى: **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾**[6] ونجد تقرير مبدأ السلم العالمي في قوله تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام، لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة﴾**[7].

---

(١) سورة الحج، آية: ٣٩ .

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٣ .

(٣) العلاقات الدولية في الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر ص ٨٩ وما بعدها.

(٤) السياسة الشرعية، الشيخ عبد الوهاب خلاف، ص ٨٣ .

(٥) العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، الدكتور وهبه الزحيلي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١م، ص ٩٤ .

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦١ .

(٧) سورة النساء، الآية: ٩٤ .

المطلب الثالث

العالم الإسلامي بين العوالم المعاصرة

إن العالم المعاصر يتنازع السلطة عليه الآن معسكران، وكل معسكر يضم مجموعة من الدول تدور في فلكه، بعد أن نجح أعداء الإسلام في القضاء على الخلافة الإسلامية في أوائل القرن العشرين الميلادي.

١ ـ المعسكر الرأسمالي:

فلئن كانت الرأسمالية مذهباً اقتصادياً، إلا أنه صار عَلَماً على معسكر سياسي بعينه، تسوده الرأسمالية[1]، مذهباً اقتصادياً باعتبار الحياة نفعاً مجرّداً، وتغليب مصلحة الفرد على صالح الجماعة، وتسوده الديمقراطية من الناحية السياسية. وتسوده الوجودية ومذاهب التحرر من الناحية الاجتماعية. وبالتالي نجده من الناحية العقدية لا يعترف بالدين، وهو في نفس الوقت لا ينكره، ولا يشغل نفسه بالهجوم عليه وملاحقته كما فعل «ماركس» وأتباعه. بل يجتهد قدر طاقته في فصل الدين ونظرياته عن الحياة وقضاياها، وقوقعته في حيز ضيق لا يتعداه، وذلك فيما قالوه: دع ما لقيصر لقيصر، ودع ما لله لله.

وقد كانت انجلترا تتربع على عرش الزعامة لهذا المعسكر حتى العقد الخامس من هذا القرن (الميلادي) – تقريباً – ولكنها منذ ذلك الحين، ورثت الولايات المتحدة الأمريكية هذا النفوذ في الشرق الأدنى، ما سمحت به بريطانيا، وكذلك ما لم تسمح به، وورثت في

(١) ويطلق على أمريكا ودول الغرب.

النهاية زعامة هذا المعسكر[1]. ثم تسللت الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المناطق، وذلك تحت ستار مناصرة حركات التحرر، لتفرض استعمارها الجديد على المنطقة كلها عن طريق «صناعة الزعماء» وصناعة الانقلابات وصناعة الشعارات.

٢ ـ المعسكر الاشتراكي:

ثم نأتي إلى ثاني المعسكرين النابعين من أغرب همجية يمارسها الإنسان المتحضر اليوم على الأرض، همجية أو جاهلية القرن العشرين، والذي وصفها الأستاذ محمد قطب بالجاهلية العلمية. فعلى حين كانت الهمجية الأولى همجية القوة والبطش والإغارة، فإن همجية اليوم: ذكية من نوع فريد معقد.. تخطّط وتدّقق وتنفّذ بأحدث الأساليب العلمية حتى تصل إلى ما تصبو إليه. ونعني بهذا المعسكر الذي يتخذ الاشتراكية العلمية منهجاً اقتصادياً، وقد صار هذا الشعار الاقتصادي رمزاً لهذا المعسكر مميزاً له عن المعسكر الأول. وهو يتخذ دكتاتورية «البرولوتريا» شعاراً سياسياً، كما يتخذ التحلل الأخلاقي والأسري شعاراً اجتماعياً وهو وإن بدا متناقضاً مع المعسكر الأول إلا أن الحقيقة غير ذلك فإن الماركسية عندما سارت من النظرية إلى واقع التطبيق، لم تفعل أكثر من استبدال ظلم الرأسمالية بظلم جديد، فوارق في توزيع السلطات بين من يملكون كل السلطة، ويملكون ما لم يملكه الاقطاع قبلهم، والشعب مقهور بما خلب بصره وخلع قلبه من شعارات لها البريق المميت وصار الصراع الجديد بين المجتمع والفرد. ولا غرابة في ذلك إذا عرف أن المسيطرين على المعسكر الأول من اليهود، وهم كذلك مسيطرون على الثاني. ولذلك كانت فلسفة النظامين هي الصراع مع تغيير في قطبية الصراع من السالب الى الموجب ومن الموجب إلى السالب ولذلك نرى من ناحية الظاهر أن المعسكرين يقتربان. ومنذ أزمة كوبا سنة ١٩٦٢م بدأت سياسة الوفاق، ومن ثم توزيع مناطق النفوذ بينهما. وكذلك الاتفاق المسلّم به على ألا تقوم للمعسكر الثالث قائمة وهو المعسكر الإسلامي.

---

(١) أنظر: حاضر العالم الإسلامي، د/ علي جريشة، ص ٣٨ .

٣ ـ المعسكر الإسلامي:

إن قاعدة الانطلاق للمجتمع الإسلامي أو المعسكر الإسلامي لا تكمن في نظرية من نظريات البشر، ولا في منهج من المناهج الوضعية، ولكن تتمثل في عقيدة شاملة آتية من عند الله تعالى للناس كافة. تنشئ لهم تصوراً خاصاً للحياة والقيم والمعاملات، وتحدّد لهم منهاجاً للعمل يترجم هذا التصور، وتلك هي أبرز المميزات للمنهج الإسلامي الشامل.

وقد وضعنا المعسكر الإسلامي معسكراً ثالثاً تجاه المعسكرين السابقين حيث كان العالم الإسلامي هو المعسكر الوحيد الذي لا يناطحه معسكر آخر فهو «الباب العالي» ولسوف يشغل - بإذن الله - المقام الأول بمقتضى عدده وموقعه، وطاقاته وخبراته، وعقيدته، ... ولن يكون ذلك إلا بمعرفة المسلمين بإسلامهم، وحقيقة عقيدتهم السماوية فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وما يعتري العالم الإسلامي اليوم من ضعف وتفكك، إنما هو وليد مؤامرات المعسكرين ومن وراءهما، ولكن بحول الله تعالى وقوته، ثم يقظة أبنائه، ثم بمقتضى سنن الله في كونه وبحاجة الإنسان لهذا الدين سوف ينهض، وسوف يعود، وعلى أعداء الإسلام أن يختاروا لأنفسهم ليوم قريب. إما أن يكفّوا عن حربنا في ديننا وعن إخراجنا من ديارنا ليكونوا في مقام العهد وإلا فليختاروا لأنفسهم موقع الأعداء [1] ويومئذ نتبع قول الله تعالى: **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا ان الله مع المتقين﴾**.»[2] وقوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾**[3].

---

(١) راجع: حاضر العالم الإسلامي، د/ علي جريشة، ص ٤٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

المبحث الثاني

جذور الوضع السياسي في مصر وأثره على الفكر

سنبيّن في هذا المبحث مسألتين رئيستين، مع تمهيد يسبقهما، على النحو التالي:

أما المبحث الممهّد، فيتعلّق بدراسة للحملة الفرنسية على مصر، باعتبارها ركيزة الانقضاض الأوربي الصليبي على الشرق المسلم.

وأما المسألة الأولى فتتعلق بدراسة لأسرة محمد علي التي حكمت مصر في الفترة محل الدراسة وتركت بصماتها الإيجابية والسلبية على الوضع السياسي والفكري بمصر. وسنخصّص لهذه المسألة مطلباً.

وتتعلق المسألة الثانية بدراسة أهم رواد الفكر الإسلامي الذين برزوا في الحقبة محل الدراسة، باعتبار بروزهم يمثل فجر البعث إلى فكر إسلامي عصري، رغم ما صادفوه من عقبات وعراقيل. وسنخصّص لهذه المسألة مطلباً آخر.

وسنخصّص للنقط الثلاث السالفة ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول : الحملة الفرنسية على مصر.

المطلب الثاني : حكم أسرة محمد علي لمصر.

المطلب الثالث : تبلور الفكر في مصر على يد جمال الدين الأفغاني.

المطلب الأول

الحملة الفرنسية على مصر

جذور البلاء:

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر في عام ١٧٩٨ - ١٨٠١م وبقيت ثلاث سنوات وثلاثة شهور. ولم تكن لها نتيجة تذكر من الوجهة الحربية ولكن نتائجها السياسية والفكرية والأدبية والاقتصادية كان لها أعظم الآثار[١]؛ والتي أخذت صفة الاستمرار والانتشار.

فكان أول ظهور العلمانية بمصر مع حملة نابليون تعبيراً عن روح الثورة الفرنسية، وأنها اتخذت طابعاً رافضاً لكل ما هو ديني، ولهذا فهؤلاء المتحدثون يطلقونها لتعبّر عن الإطار العام الذي احتوى الأفكار التي حملها نابليون[٢].

وهذا الفهم له إدراك شبيه بالمعنى نفسه لدى الجبرتي المؤرخ المعاصر للحملة الفرنسية فهو يصف الفرنسيين بأنهم: «لا يتديّنون بدين، ويقولون بالحرية والتسوية»[٣]. فكانت الحملة الفرنسية هي طليعة الاستعمارية الغربية، وكانت تجربة السنوات الثلاث التي قضتها في

---

(١) أنظر: تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، محمد رفعت، جـ ١ ص ٨٠، (الطبعة الرابعة، نوفمبر ١٩٣٢ م) المطبعة الرحمانية بمصر.

(٢) جذور العلمانية (الجذور التاريخية بين العلمانية والإسلامية في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨ م)، د/ السيد أحمد فرج ص ١٠، دار الوفاء للطباعة والنشر (الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م).

(٣) عجائب الآثار والتراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ص ٧١٧ (مطبعة الشعب ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م) وعنه جذور العلمانية ص ٢٧ .

مصر، كافية لإقناع هذه الاستعمارية أنه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يلعبه مشايخ الأزهر[١]، فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر على ضفاف النيل[٢].

وبهذا المفهوم وضع الاستعمار الغربي أول مبادئه لاستعمار البلاد الإسلامية.

أما في الجانب الآخر «الجانب الإسلامي» فقد ظلت الفكرة الإسلامية سائدة مسرح الحياة الفكرية في مصر بلا منازع حتى جاءت الحملة الفرنسية وما خلفته من ورائها من أفكار، بدأت «بالفكرة الوطنية» والتي تولدت عنها «الفكرة القومية».

---

(١) يقصد بذلك رفض كل ما هو ديني.

(٢) ... ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك، طباعة الدار العلمية بيروت، ط ١ (١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م)، ص ٣٣٥ وما بعدها.

المطلب الثاني

حكم أسرة محمد علي لمصر

سبق أن مهّدنا لدراستنا هذه بفكرة عن الحملة الفرنسية على مصر وما أدّت اليه من محاولة خطيرة لنشر الفكر الغربي الصليبي في منطقتنا الشرق أوسطية المسلمة. ننتقل بعد هذا لدراسة حكم أسرة محمد علي لمصر وما تركته من آثار ايجابية وسلبية على الفكر الإسلامي المعاصر.

١ ـ ظهور فكرة «الوطنية»:

أدّت الحملة الفرنسية إلى ظهور ما يسمى بالفكرة الإسلامية كنوع من رد الفعل للتيارات الفكرية الجديدة، على أن ذلك لا يعني أن أياً من الفكرتين الوطنية أو القومية قد اصبحت منافساً قوياً للفكرة الإسلامية طوال القرن التاسع عشر، فقد بقيت الوطنية محصورة لدى قليل من المثقفين المصريين الذين بعثوا إلى أوربا فتأثروا بها، فضلاً عن أن أسباب رواج الفكرة الوطنية - ترجع نسبياً وفي المقام الأول - إلى زعم المروّجين لها بأنها من المفاهيم الاسلامية، والى رفع شعار «حب الوطن من الإيمان»، وكذلك إلى التشجيع الحكومي الذي صادفته في البداية من خلال رغبة حكام مصر من أبناء محمد علي في استكمال استقلالهم عن دولة الخلافة[١]. وكان أول من قال بهذه الفكرة القومية هو الشيخ

(١) أنظر: الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ ـ ١٩٤٨ م، د/ زكريا سليمان بيومي، مكتبة وهبه ـ القاهرة طبعة أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م، ص ٧.

رفاعة الطهطاوي وذلك عندما عاد من فرنسا عام (١٨٣١م) منبهراً بثقافة الغرب، غير مستغرب لها حيث أنه أرجعها الى أصولها الإسلامية، وذلك لعمق أساسه الثقافي الإسلامي بتعلّمه في الأزهر، «ومن هنا فإن جذور رفاعة قبل سفره الى فرنسا كانت أصيلة، وكان فهمه للإسلام مفهوماً صحيحاً[١]، ولكن فإن اتصاله بالحضارة الغربية غيّر مفاهيمه، وأربك مقاييسه وتصوراته وانحصرت أفكاره في حضارة الغرب وعلوم العصر على نحو كان أرضية وقاعدة لكل من جاء بعده من المفكّرين والمجددين»[١].

ودفع هذا الرجل إلى اتجاه التجديد في الفكر الإسلامي في ذلك الحين ما عاناه من جمود في تعليمه في الأزهر، والجمود الفكري كان يشمل العالم الإسلامي في ذلك الوقت لوقف الاجتهاد مع اتخاذ مذهب فقهي واحد، هو المذهب الحنفي مذهباً رسمياً للدولة لا يحيد عنه أحد ولا تخرج عنه مسألة. ثم ما رآه في الغرب من قيم ومفاهيم أخذت اسسها من الإسلام والشرع الحكيم. وطبقها الغرب، ونسيها المسلمون لبعدهم عن العقيدة الصحيحة. مثل الحرية والمساواة وغيرها كثير. وساعده على ذلك أستاذه الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر الذي كان معروفاً بسعة أفقه، وتطلعه إلى نهضة فكرية إسلامية.

وكذلك كانت كتابات الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد وصلت إلى القاهرة ودار حولها كثير في الأزهر واستطاعت أن تكسب لها بعض الأنصار[٢]. ولقد وجد رفاعة في «الفكر الغربي» ثروة ضخمة أحسّ بحاجة أمته إلى نقلها إلى الفكر الإسلامي والثقافة العربية رغبة في القضاء على مرحلة الضعف والجمود، وقد إلتمسها وفق فلسفة أساسية هي أن هذه المبادىء في الحرية السياسية والاجتماعية هي ذات جذور أصيلة من الفكر الإسلامي[٣].

وكان رفاعة يرى ضرورة المزاوجة بين القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي والحضارة الغربية الحديثة.

---

(١) اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار (منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى)، أنور الجندي، دار الاعتصام، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ص ٥٥ .

(٢) أنظر المرجع السابق، أنور الجندي، ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦ .

وقد أقام فلسفته على اساس الجمع بين المبادىء الفكرية المستمدة من جوهر الإسلام والمبادىء الاقتصادية المادية[1]. ومنها رأيه بأن التمدن والعمران يقومان على قاعدتين:

١ ـ تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية.

٢ ـ توفير الثروة القومية بتنمية المنافع العامة.

وكان رفاعة في عموم مفهومه بعد انبهاره بالغرب وحضارته أن يلبس المبادىء الغربية بلباس الاسلام.

ومن هنا كان موقفه من العلم وإعلانه أن العلم بعامة هو ما دعا إليه الإسلام؛ وليست العلوم الشرعية والفقهية وحدها. يقول: «واعلم أن كل العلوم شريعة، ولكل علم منها فضل، والإحاطة بجميعها أمر محال[2].

ويتضح لنا من كل ما سبق أن رفاعة الطهطاوي بهره فكر الغرب، وحضارة الغرب. ولم يكن يعرف بعد أبعاد هذه المؤامرة الخطيرة التي صنعها لويس والتي ترمي إلى القضاء على النفوذ الخاص والذاتية الخاصة للإسلام، ولم يكن يعرف مؤامرة الغرب في احتواء الفكر الإسلامي وصهره في بوتقة العالمية والأممية حتى يضيع طابعه المميز وذاتيته المفردة، ومن ثم ينصهر المسلمون في حضارة الغرب حتى يصبحوا جزءاً من القطيع العام، وما تزال محاولة صهر المسلمين في بوتقة الغربية مستمرة منذ ذلك التاريخ ١٧٩٨م إلى اليوم ١٩٨٩م.. بعد قرن كامل ما تزال تعقد مؤتمرات تستقطب بعض الشعوبيين، وذلك لخداع المسلمين وقهرهم على أن يقبلوا أسلوب العيش الغربي، وأن ينصهروا في بوتقة التكنولوجيا والحضارة الغربية[3].

ويقول الدكتور محمد محمد حسين عن ذلك في كتابه[4] «الإسلام والحضارة الغربية»: «وتأثّر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوربي واضح فيما كتبوه أثناء

---

(١) أنظر المرجع السابق ذات الصفحة.

(٢) أنظر المرجع السابق، ص ٥٧ .

(٣) أنظر عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٢٢ .

(٤) الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ص ١٧ .

إقامتهم في أوربا أو بعد عودتهم منها، ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين، أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦م - ١٨٣١م) وهو رفاعة الطهطاوي، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات (١٨٥٢م - ١٨٥٦م) وهو خير الدين التونسي.

نستطيع أن نجد فيما كتبه كل منهما آراء مشتركة، هي صدى لتفكير القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا، وفي فرنسا الثائرة بوجه خاص، وهي آراء تظهر للمرة الأولى في المجتمع الإسلامي، ربما ردّداها عن حسن قصد دون أن يسبرا أغوارها البعيدة أو يتعمّقا حقائقهما، ولكنهما على كل حال قد وضعا البذور التي تعهّدها من جاء بعدهما بالسقي والرعاية حتى نمت وضربت جذورها في أرض الإسلام.

ومعظم هذه الآراء نجده قد عرض عرضاً سريعاً عاجلاً قد يبدو ضئيل الخطر ولكن خطورة الطهطاوي وخير الدين ترجع إلى أنهما قد جلبا هذه البذور الغربيّة الغربية وألقياها في التربة الإسلامية.

ثم يستطرد الأستاذ محمد حسين موضحاً فيقول[1] «للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلاماً عن الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوربا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذها وحدة وجودية، يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر، ليكوّنا وحدة متكاملة، ذات شخصية مستقلة، تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين.

وللمرة الأولى نجد عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها الأساس في نهضة أي أمة وفي تقدمها. ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الغربية التي تقوم على المصارف[2] والشركات، عرضاً يبدو مجرداً من التعليق في بعض الأحيان، ومشوباً بالاعجاب والتساؤل عن إمكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى.

(١) الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٨.
(٢) بما فيها من نظام ربوي مخالف للإسلام.

ويورد كلاماً كثيراً عن المرأة، مثل تعليم الفتيات ومنع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين، واعتبار المرأة نصف المجتمع وذلك كله مما أوحت به الحياة الاجتماعية الأوربية. وكان أول كتاب له احتوى تلك الأفكار هو كتاب: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا ونشره بعد عودته، ثم ألّف كتابين بعد ذلك في عصر اسماعيل هما: «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» و «المرشد الأمين للبنات والبنين» وهما كتابان موجهان للناشئة من بنين وبنات، كما هو واضح من عنوان الكتاب الثاني. أما صاحبه في هذا الطريق خير الدين التونسي لم يترك سوى كتابه: «اقوَم المسالك في معرفة أحوال الممالك» الذي ضمّنه نفس الأفكار، وسار فيه نفس المسار.

ويقول مؤلف كتاب الإسلام والحضارة الغربية[1] مفصلاً ما كتبه رفاعة الطهطاوي: «تكلم الطهطاوي في مقدمة كتابه «مناهج الألباب» عن حب الوطن والتعلق به، ووجوب الاهتمام بالمنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية – ص٨. واشاد بموقع مصر وخصبها وتوافر أسباب التمدن لها، وما كان من قديم مجدها، وأورد كثيراً من الأقوال المأثورة في (حب الوطن)، بين حديث شريف، أو كلام يعزى إلى اصحاب رسول الله ﷺ، أو حكمة مشهورة أو شعر، وبيّن أن الوطن جامعة تجمع بين ساكنيه على اختلاف الأديان، حين قال: «فجميع ما يجب على المسلم للمسلم، يجب على أعضاء الوطن، من حقوق بعضهم على بعض، لما بينهم من الأخوة الوطنية، فضلاً عن الأخوة الدينية. فيجب أدباً لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه، فيما يخص شرف الوطن، وغناه وثروته، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات، وتحصيل المنافع العمومية، وهي تكون بين أهل الوطن على السويّة، لانتفاعهم جميعاً بمزية النخوة الوطنية ص٩٩». ثم أيد رأيه بكلام ابن حجر في أن ظلم الذّمّي حرام، وعقب عليه بقوله: «وهذا يؤيد ما قلناه من أن أخوّة الوطن لها حقوق، ولا سيما وأنها يمكن أن تؤخذ من حقوق الجار، مما للجار على جاره، خصوصاً من يقول بأن أهل الحلّة كلهم جيران».

ومن هذا نرى انبهار الشيخ رفاعة الطهطاوي بكل ما رآه في الغرب من نظم

(١) الإسلام والحضارة الغربية، محمد حسين، ص ١٩ .

وسلوك.. ففي كل رأي رآه ويريد أن يقنع نفسه به أولاً ثم يقنع الناس به يلبسه ثوباً إسلامياً ليخرجه إلى المجتمع المسلم بدون حرج في نفسه أو أمام الناس وذلك عندما أراد أن يبرز حب الوطن والوطنية.. فيؤيد ما يقول بأحاديث الرسول ﷺ، وآثار من الصحابة مع إيراد ما يستطيع جمعه من الحكم والشعر مؤيداً به ما يقول. فكانت هذه الفكرة تقدمة غير مقصودة لفكرة القومية التي استشرى أوارها فيما بعد وكانت وبالاً على المسلمين في أعز ما لديهم فكانت المعول الرئيسي في هدم صرح الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م. وأبرز أيضاً صوراً أخرى لمجد مصر في عصر الفراعنة، هنا وهناك في مواضع متفرقة من الكتاب، تساق بأسلوب الفخر والاعتزاز بالوطن وحبه.

ونراه حين يتكلم عن ضرر البطالة والكسل، يقدم صورة من نشاط المجتمع الفرعوني القديم، والذي يتجلى فيما خلفوه من آثار ضخمة. وينسى الرجل في قمة انبهاره وتسلط فكرة الوطن والوطنية عليه. ما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره**﴾[٢]. وينسى الرجل قول النبي الكريم ﷺ: «إن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٣]. وقوله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه..»[٤] واستعاذته ﷺ من العجز والكسل بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل[٥]. والأحاديث والآيات كثيرة في هذا المعنى فالدين الإسلامي دين العمل. (فلا رهبانية في الإسلام).

ولكن الشيطان حينما يتسلط على الإنسان يعميه عن كل هذا الخير والنور، ولم يرِهِ سوى آثار الفراعنة وتماثيلهم!! سبحانك اللهم تهدي من تشاء.

وفي الواقع كانت كتابات رفاعة رافع الطهطاوي في الدعوة للاقليمية المصرية، وقبول الحضارة الغربية دون تحفظات.. كانت جزءاً مما كان يقوم به محمد علي من لعب دوره

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٥.
(٢) سورة الزلزلة، آية ٧، ٨.
(٣) أخرجه البخاري باب البيوع ١٥، أنبياء ٢٧.
(٤) أنظر: المقاصد الحسنة ١٢٢، وصحيح الجامع الصغير ١٤٤/٢، وقال عنه انه حسن.
(٥) رواه أحمد بن حنبل ٣، ٢٣١، البخاري دعوات ٣٨، ٣٦، ٤٠، الجهاد، ٢٥، ٧٤ ومسلم ذكر، ٤٩ – ٥١، ٧٣.

المرسوم في توسيد الأرض للنفوذ الأجنبي، والخروج من دائرة الإسلام[1]. فكان أول من استصدر فتوى بإمكان تحرير بعض الأوقاف الإسلامية لمضي الوقت عليها وغير هذا من المبررات الشكلية. وكان ذلك بناء على طلب فرنسا بواسطة ممثلها في مصر «وقد استغلت السلطات الفرنسية في الجزائر هذه الفتوى ونزعت أملاك الأوقاف وتعهدت بأن تصرف على المساجد والأئمة من خزانتها. دفعت من الخزانة الفرنسية ما يكفي لصيانة هذه المساجد بادىء الأمر، ولكنها استنت سنة لغيرها من الحكومات الاستعمارية الغاشمة في مختلف الأصقاع الإسلامية، فقد أنقصت عدد الأئمة ومرتبات العلماء، وأنزلت عدد المساجد حتى أنه لم يبق بمدينة الجزائر أكثر من ثمانية عشر مسجداً، وهي نفس الخطة التي تكرر تنفيذها في فلسطين بعد أكثر من مائة سنة، وكان محمد علي بشهادة المؤرخين دمية في يد المصالح الغربية».

وقد دفع محمد علي إلى التحرر من الوجهة الإسلامية بصفة عامة والالتجاء الى الأسلوب الغربي، واتباعه قذة بقذة.. وذلك في سبيل إقامة نظام سياسي مستقل عن الدولة العثمانية. فوقع في أخطاء جسام منها:

١ ـ الاستبداد والبعد عن نظام الحكم الإسلامي المبني على الشورى ﴿**وشاورهم في الأمر**﴾[2].

٢ ـ مخالفة الشريعة بإدخال القوانين الوضعية.

٣ ـ الاستيلاء على أملاك المسلمين وكذلك الأوقاف الإسلامية.

٤ ـ الاحتكار: باحتكاره الزراعة والتجارة والصناعة فضرب على مصر حجاباً من الفكر والجمود.

٥ ـ ولاؤه الكامل لفرنسا واستجلاب المستشارين منها في جميع أمور الدولة.

٦ ـ قضاؤه على نفوذ علماء الأزهر[3] الذين كانوا موئل الشعب عندما تحزب عليه الأمور.

وعندما وقفوا في وجه استبداده. عمد بالاتفاق مع النفوذ الأجنبي على عزل الأزهر

(١) أنظر عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩ .

(٣) ودورهم معروف في مواجهة الحكام المماليك، وفي مواجهة الحملة الفرنسية، ووقفوا في وجه استبداد محمد علي.

عن الحركة الثقافية التعليمية ونقل مركزها الى المدارس والمعاهد والبعثات. ثم ظهرت الطبقة الجديدة التي تخرجت بعيداً عن الأزهر من المدرسة الحربية ومدارس المعلمين والهندسة فقد كانت فئة علمانية لم تدرس أصول الإسلام ولم تعرف الوجهة الصحيحة لبناء المجتمع الإسلامي، ولم تمتد يد الإصلاح طوال هذا العصر الى الأزهر بل تركه محمد علي كما كان على نظامه القديم.

وكان محمد علي مع هذا منسجماً مع وجهته الاستبدادية، ومع وجهة النفوذ الأجنبي المتعاظم الذي كان يرى أن نفوذ الإسلام سيقف حتماً أمام دخول أنظمة الربا والاحتكار، والنظام القضائي الغربي الذي استقدمه محمد علي(١).

ونستطيع القول بأن عمل محمد علي على تحقيق غايات محددة هي:

أولاً : القضاء على نفوذ الأزهر وتحطيم جبهة العلماء القادرة التي تحمل راية الجهاد في سبيل الله، والتي قاومت الفرنسيين ألف يوم وهزمتهم وحطمت وجودهم، وقاومت غطرسته واستبداده عندما انفرد بالحكم.

ثانياً : التوسع في الولاء للغرب وتدمير نظام التعليم والتربية والثقافة الإسلامية، ونظام الشريعة الإسلامية المطبّق في المجتمع.

ثالثاً : محاولة خدمة أهداف الغرب بالتغريب.

رابعاً : محاولة خدمة أهداف النفوذ الغربي بتحطيم الدولة السعودية التي تحمل لواء تحرير الفكر الإسلامي من قيد التقليد والدعوة الى التوحيد الخالص.

خامسا : القضاء على المماليك.. تلك القوة الوطنية الموجودة في قلب البلاد.

سادساً : ومأساة هذا العهد هي: أن محمد علي لم يؤمن بالحركة الشعبية التي مهّدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلي مطامعه.. ولقد ساق مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد، متجاهلة مصالح الشعب(٢).

ويحسن بنا أن نعرّج الى العهد الذي يليه لنرى ماذا كان فيه..

---

(١) أنظر: عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٣٦.

(٢) دراسات في تاريخ مصر الحديث، عمر عبد العزيز عمر، ص ٢٥٢ (عن الميثاق الوطني، ص ٢٣).

عصر اسماعيل

بعد أن أخذنا اللمحات التي تهمّنا من عصر محمد علي والمؤثّرة على الفكر والثقافة.. نتجه إلى دراسة عصر إسماعيل ودراستنا كما سبق تختلف تماماً عن دراسة المؤرخ فإننا لا ندرس تاريخ فترة بعينها، ولكننا نستقي ما نراه مؤثراً في الناحية الفكرية والعقدية.. وسواء كان هذا التأثير في الاتجاه الفكري الأصيل أو الاتجاه المضاد. أو مدخلاً للتغيير.. أو لتصحيح المسار..

ويعتبر عصر اسماعيل من العصور التي أفرخ فيها الشر.. وأنبتت بذور التغريب واشتد عودها. وجلبت على البلاد الإسلامية عامة الاستعمار والاحتلال لمعظم هذه البلدان.

فلم ينته القرن التاسع عشر إلا وقد عظم شأن الاستعمار الغربي، واستفحل وسقطت أكثر الدول الإسلامية تحت سيطرته ونفوذه، وبذلك دخلت صلات الإسلام والمسلمين بالحضارة الغربية في طور جديد، أصبح فيه تأثير الحضارة الغازية أكثر قوة وفعالية، لأنها انتقلت مع الجاليات الأجنبية التي استقرت في بلاد المسلمين بامتيازات وتميزات وحماية بعيدة عن متناول المواطنين، وأصبحت هذه الجاليات بحضارتها تحيا بين ظهرانيهم، وتعيش في قلب بلادهم، وتقدّم نموذجاً حياً لأنماطها الفكرية والاجتماعية، يسري من طريق المشاهدة والتقليد. وفرضت الدول الغربية الغازية لغاتها وثقافاتها في البلاد التي احتلتها، تيسيراً على الغربي المستعمر في التعامل من ناحية، وتمهيداً لمحو طابع المستعمرات الشخصي وامتصاصها من ناحية أخرى، ومضت سياسة إرسال المبعوثين من هذه البلاد في طريقها، ولكن لم تعد حرة في توجهها، فقد أصبح العدد الأكبر منها يوجه الى الدول المتسلطة، واصبح أكثرها يوجه توجيهاً أدبيا او فلسفياً او تربوياً، بل إسلامياً في بعض الأحيان، ينقلون فيه أصول البحث في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامي عن المستشرقين من الغربيين، صحيحهم - إن وجد - وسقيمهم وما أكثره. وبالتالي صارت المجالات الصناعية والخبرات الفنية وقفاً على المستعمرين الأوربيين، الذين حوّلوا المستعمرات وأهلها الى مزارع ومناجم وعمّال لإنتاج المواد الأولية.

وأصبح التعلم في داخل البلاد الإسلامية يجري على تخطيط غربي رسمه الاستعمار.

ولم يكن هدف الاستعمار من نشر حضارته هو تمدين البلاد التي استعمرها كما كان يتشدق به ويزعمه، ولكنه كان يقصد بذلك إزالة الحواجز التي تقوم بينه وبين هذه الشعوب، وهي حواجز تهدد مصالحه الاقتصادية، وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة وغير مأمونة العواقب؛ كانت هذه الحواجز الناشئة عن الاختلاف في الدين، وفي اللغة، وفي التقاليد والعادات سبباً في إحساس الوطنيين بالنفور من الأجنبي المحتل، بل الشعور بالخطر الذي يحيط به ويتهدده في بعض الأحيان. وكان هذا الإحساس بالغربة وبالخطر أعظم ما يكون حين يتعامل المستعمر الغربي مع المسلمين.

وقد كان عصر اسماعيل هو القنطرة المباشرة الى الاحتلال.. فقد دخل اسماعيل مرحلة الاحتواء الغربي الذي كان يمهد للسيطرة على مصر[1]. وذهب بعيداً في الترف والبذخ والاستدانة.. فقد عُرِفَ اسماعيل بالإسراف، وعدم تقدير العواقب وضعفه أمام الملذات والشهوات، وقد أدت هذه العوامل مجتمعة الى التبذير في أموال الخزانة العامة... فلم تكفه الملايين التي كان يجمعها من الضرائب. بل عمد الى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة. وذلك بعد أن «كانت مصر تتفجر من أرضها ينابيع الثروة لتعم بقاعها، وطفحت ففاض خيرها على جيرانها من الأقطار الشرقية، بل وصل مدّ نيلها الى أقاصي البلاد الغربية، فتوارد اليها الغرباء، وقصّاد الكسب من كل مكان، وما خاب لها قاصد، ولا أخفق فيها سعي ساع، فأثرى في مغانيها الفقراء، وعزبها الأذلاء، واصبحت قبلة لآمال كثير من الغربيين، ومحط رحال الراجين من الشرقيين وكل وفد يجد أهلاً خيراً من أهله، وسكناً خيراً من سكنه، وتكاثرت فيها العناصر الغربية. وساد بها الأمن وعمّت الراحة، وعمّت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الأوربية العظيمة»[2].

فأغرت هذه الأموال المغامرين وطلاب المال من دول أوربا عامة والذين كانوا أساس البلاء فيما بعد، عندما قربهم الحكام فزينوا لهم القبيح، واستبدلوا بالصالح الفاسد. وأدخلوا

---

(١) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٣٩ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، السيد محمد رشيد رضا، ٣٣٣/١ .

أنظمتهم الاقتصادية على دولة الإسلام بما فيها من معاملات ربوية في مصارفهم وشركاتهم. وفتحوا أبواب الدين والربا للدولة والحاكم.

وكانت هذه القروض الوسيلة التي تذرعت بها الدول للتدخل في شؤون مصر ووضع الرقابة المالية عليها، ولقد كانت الديون من الوسائل الفعّالة لتدخل الدول الأوربية في شؤون الأمم الشرقية، ولم يكن إسماعيل بحاجة الى من يبصره بمطامع انجلترا والدول الاوربية في مصر. كذلك فقد كان ركونه الشديد للأوربيين والدول الأجنبية، واعتماده عليها وثقته بهم ثقة لا حدّ لها، كانت من عوامل تورطه في القروض الأجنبية.

ومن مظاهر هذه الثقة: ان عَهدَ للأجانب من رعايا الدول الاستعمارية بمهمات خطيرة من شؤون الدولة وأطلعهم على اسرارها، ومكّن لهم من مرافقها، ففي عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية، والتي تغلغلت في البلاد. وعَهدَ الى الأجانب بمناصب كبرى، (بتعيين صمويل بيكر حاكماً لمديرية خط الاستواء وغوردون حاكماً بعده، وفنرنجر محافظاً لسواحل البحر الأحمر، وليستون رئيساً لأركان حرب الجيش المصري[١]).

وقد أدى هذا الى أن نالت الدول الأجنبية حقوقاً ومزايا تعطّل سلطان الحكومة، وهذه المزايا اشبه ما تكون بالوصاية على مصر، وقد ظهرت هذه الوصاية بمظاهر مختلفة: من إنشاء صندوق الدين[٢]، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر، إلى تعيين وزيرين أجنبيين في الوزارة المصرية لهما حق النقض، أي وقف كل عمل تشريعي وتنفيذي للحكومة. كما جمع إسماعيل حوالي مليون فدان بنزع قطع الأرض من صغار الفلاحين، وهي ما سمّي بالدائرة السنية.

ولما قدم الإنجليز بصفة دائنين ثم مستعمرين وزّعوا أراضي إسماعيل على أعوانهم، الذين مكّنوا لهم من تثبيت أقدامهم في استعمار مصر، وكانت هذه أول خطوة في نشوء الإقطاع في البلاد.

وهكذا كان إسماعيل قنطرة الى احتلال مصر الذي تم بعد ذلك في عهد توفيق. بعد

---

(١) عصر إسماعيل، عبد الرحمن الرافعي، ١٠٨/١ وما بعدها.

(٢) عبارة عن خزائن فرعية يجمع بها بعض إيرادات الدولة المخصّصة لسداد الديون الأجنبية.

أن تآمرت بريطانيا على أسهم مصر في قناة السويس، وعلى جيشها بقيادة عرابي. وقد تم هزيمة مصر في الثورة العرابية بعامل الخيانة التي دبرها الإنجليز مع بعض الخونة المصريين أمثال سلطان باشا الذي دلّهم على مواقع الجيش.. وخططه[(١)].

وبذلك سقطت مصر في براثن النفوذ الإنجليزي الذي سيطر عليها أكثر من سبعين عاماً (١٨٨٢م - ١٩٥٤م). يقول الشيخ محمد عبده: «إن إسماعيل أفسد الإدارة وأفسد الأخلاق، فلما وجدنا ريح الحرية وأردنا أن ننهض بالإصلاح، كان فساد الأخلاق هو الذي عاقنا لإفساد الإدارة، ولولا ذلك لكانت هذه المدة كافية لأن نرتقي فيها ونكون أمة»[(٢)] وقد كان لإسماعيل باشا دور رئيسي في فرض القانون الفرنسي وإنشاء المحاكم المختلطة، ومحاربة وتشويه كل من يتصدى له من العلماء، فكان يقول: «لا يمكن أن يعمل في هذا القرن بما وضع للعرب منذ نحو ثلاثة عشر قرناً»[(٣)].

في هذه المرحلة العصيبة ومطامع النفوذ الغربي تتسع، كانت كل القوى تعمل على تغريب مصر، كان نوبار باشا يعدّ القوانين للمحاكم المختلطة، وكان الخديوي إسماعيل يناور حين دعا رفاعة الطهطاوي ليطلب الى الأزهريين عمل قانون إسلامي حتى لا يصطدم بالغربيين الذين يريدون أن يفرضوا قانونهم بديلاً للشريعة الإسلامية.

فكانت تلك الفترة من أدق المراحل في تاريخ حركة التغريب. فقد قدم القانون الوضعي الذي يحجب الشريعة الإسلامية وجاء معه الربا والتعامل الربوي في ميدان الاقتصاد، وجاء معه التعليم العلماني.

ويقال أن محمد علي كان قد فكر في أن يضع قانوناً إسلامياً في مصر من جميع المذاهب ولكنه أهمل الفكرة، أما إسماعيل فقد سيق سوقاً إلى إنشاء المحاكم المختلطة - وكان هذا عملاً رآه في وقته عظيماً - وكان يسود أوربا في ذلك الوقت القانون الفرنسي، وأنشأ الغربيون قانوناً خاصاً للأجانب تطبقه المحاكم المختلطة. وبعد قيام الثورة العرابية سنة

(١) أنظر: عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٠ .
(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، السيد رشيد رضا.
(٣) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٠ .

١٨٨١م، جاءت وزارة شريف باشا ورأت إصدار قانون مدني وجنائي مستمد من الشريعة الإسلامية، وعهد في وضعه الى قدري باشا وزير الحقانية.

ثم جاء الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م فتألفت وزارة رياض باشا والذي كان شريف باشا عضواً فيها، فقرر هذا المجلس العدول عن وضع قانون من الشريعة والاكتفاء بترجمة القوانين المطبقة في المحاكم المختلطة. فقام بتلك الترجمة مجموعة من تلاميذ رفاعة الطهطاوي.

اما الطهطاوي نفسه فقد قام بترجمة القانون الفرنسي بما فيه من دساتير ونظم. وأيّد ذلك الشيخ العدوي بأن أصدر كتاباً وقال فيه: «أن قانون نابليون (ويقصد القانون المدني) موافق من مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة».

ثم حدثت نقطة تحوّل خطيرة في تاريخ مصر الإسلامية وذلك عندما نقلت «نظرية الفائدة» من القانون الفرنسي: وبتطبيقها في مصر خرجت مصر بهذا العمل منذ ذلك اليوم عن الشريعة الإسلامية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع.

المطلب الثالث

تبلور الفكر في مصر على يد جمال الدين الأفغاني

تبلور الفكر الإسلامي في هذه الحقبة في مصر وبدأ يؤتى ثماره الطيبة على يد مفكّرين ودعاة مسلمين أخلصوا لدينهم وتفانوا في رفع لوائه، وكان منهم السيد جمال الدين الأفغاني الذي فتحت دعوته روح البعث - بفضل الله - في مصر ثم في البلاد الإسلامية. وسنعالج فيما يلي ما تحقّق على يد هذا الداعية من إصلاح ديني.

طرح جمال الدين الأفغاني مفهوم الإسلام، واسعاً قوياً جهيراً من خلال تلاميذه الذين التفوا حوله يستقون منه، وينقلون عنه وكانت كلماته تدعو الى ثلاث غايات:

١ ـ إلتماس مفهوم القرآن.

٢ ـ الوحدة الإسلامية.

٣ ـ تقييد سلطة المستبدين من الحكام.

وكل ذلك أملاً في ابراز الجامعة الاسلامية.

وكان مفهومه في ذلك كله امتداداً لمفاهيم من سبقه من الرواد في الدعوة لدين الله. سواء في مصر أو خارجها من بلاد العالم الاسلامي.

أولاً: أساس حركة اليقظة عند جمال الدين الأفغاني:

فلما جاء جمال الدين قدّم مفهوماً إسلامياً واسعاً يمثل قاعدة أساسية لحركة اليقظة الإسلامية، وأبرز عمد هذه القاعدة ينحصر فيما يلي:

١ ـ أن أبرز ما دعا إليه جمال الدين هو تجميع المسلمين في وحدة جامعة وكان منطلقه في هذا ذلك الخطر الزاحف الذي رأى بوادره في ايران والهند وأحس أن النفوذ البريطاني يكثّف جهوده للسيطرة على الأمة الإسلامية، وقد كشف عن مفهومه هذا بوضوح حين قال: «هذه الأمم الإسلامية وإن اختلفت بهم البلدان، وتباينت البقاع والمكان، وتنوعت الأجناس، وافترقت الألسنة فقد وحّدتهم وحدة الإسلام، وجمعتهم جامعة الدين، وهي جامعة كبرى تتلاشى أمامها الجامعات الصغرى، وتلغي الفروق فيكون جميع المسلمين بها إخواناً. حكومة إسلامية تأتمر بالإسلام وتعاليمه، إمامها القرآن، وأساسها العدل والشورى، واختيار خير الناس لتولي أمورها.

ولست أعني ان يكون لهم إمام واحد، فإن هذا ربما كان متعذراً وإنما أعني أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك في ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع، فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم»[1].

٢ ـ حرّر جمال الدين العقيدة في مواجهة جبرية الصوفية السائدة والمسيطرة في تلك الحقبة، وأنكر دعوى خصوم الإسلام القائلين بأن سبب ضعف المسلمين يعود إلى اعتقادهم بالقضاء والقدر، وقال إنهم قالوا ذلك نتيجة ما رأوا في المسلمين من فقر وفاقة وضعف واستكانة الى الذل، والعقيدة الإسلامية - فيما لو علموا - براء مما ينسبونه إليهم. وأن عقيدة القضاء والقدر في الإسلام تحمل معتقدها على التحلي بأكمل الصفات من جرأة وإقدام، والتخلق بخلق البسالة والشجاعة، واقتحام المهالك واحتمال المكاره، والجود والسخاء، واحتقار الموت كل ذلك في سبيل الحق وإعلاء كلمة الله.

٣ ـ كشف عن جوهر الإسلام من منطلق مفهوم عميق أصيل حين قال: «إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأنبت لكل نفس صريح الحق في اي فضيلة، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة. أعني الإقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل وتمادت بها المجاراة الى محاسن الأعمال.

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، السيد رشيد رضا، ١/١١٧.

. وان الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعتدين بغير دليل وتوبيخ المتبعين للظنون، هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم وكلّما خاطب خاطب العقل وكلّما احتكم احتكم الى العقل.

٤ ـ ردّ على الدهريين أصحاب المذهب المادي (الطبيعيين)[١] وأسماهم الدهريين الذين نشروا هذا المذهب في الهند. وقال ان هذا المذهب (النيتشرية) سيفرق المسلمين هناك الى طائفتين، طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر، والطائفة الأخرى المناوئة لنفوذه وولايته[٢].

ودعا إلى مقاومة الإلحاد الديني بصفة عامة، وتوضيح ضرورة الدين للمجتمع الإنساني بعامة.

وأعلن الأفغاني أن أسلوب الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية يتخذ صوراً مختلفة للقضاء على الشخصية الإسلامية التي مصدرها القرآن، والتي تجمع بين المسلمين في رباط واحد. وأن أخطر أسلحة الغرب في هذا المضمار كانت منصبّة على إفساد عقيدة المسلم بتشكيكه فيها أو تنفيره منها ليسهل إبعاده عنها.

ولقد كان المذهب الطبيعي Nature وهو ما سمّاه الأفغاني بمذهب الدهريين، سلاحاً خطراً ضد المسلمين. قال: لقد وجد الإنجليز أن الإسلام يطلب من أتباعه أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في اوطانهم، ولاحظوا ان ذلك طبيعة الإسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها؛ ولا انتزاعها من فطرة أبنائه، ففكروا في أمر يضعف هذه العقيدة .... ورأوا نشر عقيدة التعطيل وهي الإلحاد وتسمّى بالنيتشرية Nature وأسسوا مدرسة لنشرها بين النشء وبث مبادئها في نفوس الشباب المسلم.

وبذلك سعى الإنجليز لجعل المسلمين دهريين، ولم يسعوا في جعلهم مسيحيين.. لأنهم رأوا فشل دعوة التبشير بين المسلمين.

---

(١) أي المنسوبين إلى الطبيعة Nature.

(٢) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٣ .

٥ ـ كذلك دعا جمال الدين إلى إعادة التنظيم السياسي في العالم الإسلامي على أساس القوة الإسلامية (بالتقريب بين السنة والشيعة)[١].

٦ ـ ركّز جمال الدين الأفغاني دعائم دعوته على تفهم القرآن والتمعّن في معانيه ومقاصده، وقال أن من يفهم القرآن فهماً صحيحاً، ويعرف صحيح الحديث. يستطيع أن يجد في القرآن عاصماً للأمم الإسلامية من الفرقة والجور والضعف، ومصدراً للعزة والمنعة والشجاعة، كما دعا الناس الى التماس عقيدة الرعيل الأول من السلف الصالح.

تلك العقيدة الصافية التي لم تَشُبها أخلاط الفرق التي ظهرت بعد الصدر الأول من الإسلام، والتي توزعت أصوله واخطأت فهمها، واتّبعت ما يبثه الزنادقة والباطنيون من البدع، وما وضعه الحاقدون على الإسلام من الأحاديث الكاذبة التي حوّرته تحويراً شديداً، وأبعدته عن أصوله ففرّقت شمل هذه الأمة، وأضعفت كيانها، فتضعضعت أركانها بالتواكل الذي جاءها من أهل الحلول والتصوف[٢].

٧ ـ كشف عن زيف دعوى إغلاق باب الاجتهاد: قال ما معنى باب الاجتهاد مسدود، وبأي نص سد. أو اي إمام قال لا يصحّ لمن بعدي أن يجتهد ليفقه في الدين، ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه. إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، ذلك أن اجتهادهم مما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر.

٨ ـ الإسلام والعلم: إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله[٣].

٩ ـ كانت دعوته إلى تغيير المجتمع الإسلامي قائمة على أسس واضحة ودعاماتها: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[٤] فقد دعا المسلمين إلى أن يغيروا ما

---

(١) لا يمكن التقارب بين الحق والضلال إلا أتباع الحق.

(٢) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٥ .

(٣) لقد أخطأ الشيخ في هذا القول لأن ما كان في وقته معتبراً من الحقائق العلمية أصبح الآن بعد تقدم العلم ووسائل الفحص والاستنتاج نظريات خاطئة أو ناقصة لظهور نظريات جديدة في ذات المعنى مثل: (النظرية الذرية).

(٤) سورة الرعد، الآية: ١١ .

بأنفسهم.. حتى يغير الله ما بهم، وحثّ على العمل ونهى عن التكاسل، وقاوم النظرية الصوفية السلبية في العزلة عن المجتمع وقال: «فناء الصوفي في الله وفنائي في خلق الله» ودعا إلى إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح، وإزالة ما حل بها من اليأس والتمسك بالأصول التي كان عليها المسلمون لا يتقدمون في المدنية الحديثة ما داموا متمسكين بأصول دينهم.

ودعا إلى تأمين الألفة بين الأمم الإسلامية، وتحذير الشرق عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم، والإفساد في بلادهم، وبيان المظالم التي تعانيها الأقطار الخاضعة للاستعمار والاضطهاد[1].

١٠ ـ أعلن جمال الدين أن إصلاح السلطة الزمنية يستدعي قيام حكم الشورى، وأن إصلاح السلطة الدينية يستدعي الاهتمام بالتعليم... «حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم، وفك الحجز عنهم، والعكس بالعكس...».

دعا إلى الرجوع إلى القرآن الكريم والبعد عن تفسيرات المفسّرين التي دعت إلى الاختلاف.

وأعلن أن الدين من المقوّمات الأساسية للبشر الذين لا غنى لهم عن سلطتين زمنية وروحية.

١١ ـ يرى أن ضعف المسلمين بدأ حقيقة منذ ظهور الباطنية والعقائد الفاسدة – الطبيعية والدهرية وليست الحروب الصليبية هي بداية هذا الضعف وامارته؛ بل كانت إحدى نتائج هذا الضعف ذلك أن هذه العقائد هي التي مهّدت لهذه الحروب الصليبية وكذا لحرب التتار. وهاجم الخلط[2] والألباس[3] الذي قام به البعض فانتشرت قواعد الجبر،

---

(١) أنظر عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٦، ٤٧ .

(٢) (الخلط) من (خَلَطَ) الشيء من باب ضرب (واختلط) فلان أي فسد عقله (والتخليط) في الأمر الافساد فيه. أنظر: مختار الصحاح، ص ١٨٤ .

(٣) الألباس: (لَبَسَ) عليه الأمر خلط ومنه قوله تعالى: ﴿**وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ وفي الأمر (لُبْسَةٌ) بالضم أي شبهة يعني ليس بواضح.
أنظر: مختار الصحاح، ص ٥٩٠ .

وما أدخله الزنادقة وما أحدثه السفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود. وما وضعه الوضّاعون في الأحاديث الشريفة ينسبونها للرسول ﷺ.

ويقول: ما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم، والدفاع عن ولايتهم، وفعالية المعتدين وطلب المنفعة من كل سبيل.. فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم فيتقدمون على من سواهم، إن الأصول الدينية الحقة المبرأة من محدثات البدع تنشيء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة. إن القرآن كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكّموه في أحوالكم وطباعكم[1].

١٢ ـ الأمور التي يتم بها سعادة الأمم أربعة

أولاً : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، والإسلام يقتضي ذلك لأن أول ركن بني عليه صقل القلوب بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام. وخلع كل عقيدة بأن الله جلّ شأنه يظهر للناس بلباس البشر... أو أن الذات المقدسة نالت في بعض أطوارها شديد الإيلام، وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق.

ثانياً : أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف، طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق لأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني ما عدا رتبة النبوّة فإنها بمعزل عن المطمع، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة، أعني الإقبال على وجوه الشرف.. تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل، وتمادت به المجاراة إلى محاسن الأعمال.

ثالثاً : أن يكون عقائد الأمة وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحاشى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها. والإسلام يكاد يكون منفرداً بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون.

---

(١) أنظر تاريخ الأستاذ الإمام، السيد رشيد رضا، وعنه عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٤٨ .

رابعا : أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، وطائفة أخرى على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها؛ فمن أهم الأركان الإسلامية نصب المعلم، وإقامة المؤدب والآمر بالمعروف.

في الواقع إن دعوة جمال الدين لم تنبت بغير بذور، ولم تظهر بغير جذور، ولكنها كانت صدى لما ظهر في شبه الجزيرة العربية من دعوة محمد بن عبد الوهاب لتحرير العقيدة الإسلامية دعوة التوحيد الخالص من الجبرية الصوفية، والتي كان قد عم بلاؤها أنحاء الدولة الإسلامية في العهد العثماني.

ولقد كان الأزهر أيضاً في تلك الآونة غارقاً في التقليد والجبرية والصوفية اللهم إلا بعض الأصوات التي نادت بتحرير العقيدة والعودة إلى مفاهيم الدين الصحيح ولكن قوى الشر من العقائد الدخيلة (الباطنية وغيرها) كانت أقوى صوتاً وأصلب عوداً..

وظل الوضع كذلك حتى أتى جمال الدين ببوادر اليقظة الإسلامية، فكوّن مدرسته من رجال الأزهر وأيضاً من المثقفين المدنيين خريجي مدرسة الحقوق وغيرها، ومن المعلّمين.

وقد جاء جمال الدين إلى مصر (١٨٧٠ - ١٨٧٩م) وهي واقعة بين براثن المطامع الغربية، تتلوى من ضربات الغرب المتتابعة لتضع مصر تحت نفوذه، فمن ديون أغرقت بها إسماعيل، إلى تغريب في الحياة والاجتماع والتعليم، إلى إدخال القوانين الوضعية لإبعاد الشريعة شيئاً فشيئاً من حياة الناس ومن تحاكمهم ثم حكمهم، وكان بادىء ذي بدء بالمحاكم المختلطة ثم الامتيازات الأجنبية، ثم بالدستور كاملاً مكملاً، وكان هذا المخطط كاملا لجميع الدول الإسلامية بالمنطقة، وكان هذا الخطر الداهم قد عمّ الهند وفارس. ثم جاء دور مصر لتقع في براثن النفوذ البريطاني بعد مغادرة جمال الدين لها، والذي جاءها يحمل في صدره تنكيس أعلام بريطانيا في المشرق، بنشر اليقظة الإسلامية التي تقف في مواجهة النفوذ الغربي عامة، ومحاربة التغريب والغزو الثقافي خاصة برفض فكرة الأخذ بالحضارة الغربية ومدنية أوربا أساساً لبناء الحضارة الإسلامية الجديدة، وقال جمال الدين بأعلى صوت وأوضح عبارة(١): «إنا معشر المسلمين إذا لم نؤسس نهوضنا وتمدّننا على قواعد

(١) تاريخ الأستاذ الامام، السيد محمد رشيد رضا، ـ وعنه، عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٥٠، ٥١.

ديننا وقرآننا فلا خير فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة عارنا وتأخرنا إلا من هذا الطريق، إن ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط، لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية، وهو يعلن تحيّزنا إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطتهم علينا، وبذلك تتحول صيغة الإسلام التي من شأنها رفع راية السلطة والتغلب.. إلى صيغة خمول وضعة واستئناس بالحكم الأجنبي».

لا بد من حركة دينية.. إن الحركة الدينية الصحيحة المبرأة من الزيف هي الأساس الذي تقوم عليه النهضة، فالحركة الدينية بما تقوم عليه من تصحيح الاتجاه النفسي.. وردّه إلى الأصول الأولى للدين، هي الأساس الحق للنهضة بصفة عامة، أو لتحقيق التمدن الصحيح. إن حركتنا الدينية هي كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص عن فهم العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها، مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتحركوا في طلب مجد أو تخلّص من ذل.

ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب نهايته، فهماً تثبط هممهم إلى السعي وراء الإصلاح والنجاح في نظير ذلك. مما لا عهد للسلف الصالح به، فلا بد إذن من بعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى، ولا بد من تهذيب علومنا، وتنقيح مكتبتنا، ووضع مصنّفات فريدة المأخذ، سهلة الفهم. فنستعين بتلك الكتب والعلوم التي تضمنها إلى الوصول إلى الرقي والنجاح. فلا بدّ إذن من الحركة الدينية.

ثانيا: منهج جمال الدين في الاصلاح الديني:

وهكذا لخّص جمال الدين رأيه بأن الحركة الدينية هي أساس النهضة والتمدن الصحيح.. ورسم منهاج هذه الحركة في عدة عناصر واضحة هي:

١ ـ تنقية الإسلام مما علق به من الشوائب (ركّز ذلك في الرد على الدهريين وجبرية الصوفية).

٢ ـ تأليف حكومة اسلامية رائدها التعاليم الاسلامية الحقة والعدل والشورى، واختيار خير الناس لتولي الأمور، والجامعة الاسلامية لا تنافي مشاعر ومصالح أهل الديانات الأخرى.

٣ ـ مناهضة الاحتلال وتحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار والاعتماد على استرجاع قوة المسلمين في تكافلهم وتآخيهم ومناهضة الاستغلال بكل قوة والتأليب عليه من غير هوادة.

٤ ـ طرح ما طرأ على الإسلام من عادات غريبة في السلوك والرجوع إلى موقف المسلمين الأول من القرآن، واستلهامهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الإسلامي.

٥ ـ محاربة الاتجاه الإستعماري في التفكير، بالوقوف في وجه الشبه التي تثار، والتخريجات المغرضة لنصوص مصدري الإسلام: القرآن والسنة الصحيحة وبيان زيفها بالأسلوب العلمي والتاريخي.

٦ ـ تقريب مبادىء الإسلام من العقلية الإسلامية الحديثة، والتنديد بالمثقفين الذين يصطنعون أساليب الغرب (عن علم أو غير علم) أداة لتمكين المحتل. أ. هـ.

«ولا ريب أن طرح هذه المنظومة الضخمة في أفق الفكر الإسلامي في هذه المرحلة الدقيقة من حياة مصر والأمة الإسلامية، في فترة إرهاصات الاحتلال وتكثيف الديون، والضغط للقضاء على حرية مصر واحتوائها عسكرياً وسياسياً كان من أكبر القوى النفسية والاجتماعية والعقلية التي قادت سفينة الدعوة الإسلامية إلى طريق النجاة، وكان إيذاناً بما جاء بعده من محاولات لتركيز قوى الأصالة الإسلامية في وجه الحرب التغريبية التي أعلنت في قوة»[١].

(١) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ٥٢.

الفصل الثاني

مصادر فكر المسلمين في مصر
في تلك الفترة وخصائصه

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول : المصادر النقلية وخصائصها.

المبحث الثاني : المصادر العقلية وخصائصها.

المبحث الأول

المصادر النقلية وخصائصها

وذلك في مطلبين:

المطلب الأول : القرآن الكريم والسنة.

المطلب الثاني : الخصائص.

المطلب الأول

القرآن الكريم والسنة

١ - في التعريف بهما:

تعريف القرآن:

القرآن في الأصل مصدر: قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، ومعناه في اللغة: الجمع والضم، فالقراءة ضم الحروف بعضها إلى بعض في النطق.. قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم(١).

كما أشار تعالى لذلك بقوله: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**(٢) وقال: **﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾**(٣).

فالقرآن الكريم هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ لهداية الناس، وبيان الطريق المستقيم التي يسلكونها، نزل به الروح الأمين «جبريل» عليه السلام على رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه. يدل على ذلك قوله تعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾**(٤) **﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك**

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٣) سورة النحل، الآية : ٨٩.

(٤) الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٥.

افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا، وقالوا أساطير الأولين، اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا، قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾[١].

ولم يحدث لكتاب من الكتب شهرة القرآن الكريم، ولذا كان غنياً عن التعريف، ومن هذا لا نجد الأولين من أئمة المسلمين يعنون بتعريفه، وكانوا إذا تكلموا عنه تكلموا عن بيانه للأحكام، وبيان السنة له: من تقييد مطلقة، أو تخصيص عامة، أو غير ذلك مما يكشف عن المراد من عباراته.

تعريف السنة:

هي المصدر الثاني للتشريع وأصل من أصول الدين الاسلامي، وذلك ثابت بنص القرآن والسنة، قال تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[٢] وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «انى قد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا. كتاب الله وسنة نبيه»[٣].

٢ - القرآن والسنة مصدر للفكر الاسلامي:

إن الفكر الاسلامي منذ أن تنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ كان مصدره الأول هو القرآن الكريم ثم سنة نبيه الكريم ﷺ. والمفاهيم والقيم التي غرستها العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين.

فالقرآن الكريم ينبوع الهداية الأولى، ولباب الحق الذي لا يرقى إليه زيغ ولا تلتبس به شبهة.. وقد أمر النبي ﷺ أن يتلوه بلسانه، وأن يشغل بدراسته، ويذكر ببيانه، ويخرج الناس به من الظلمات إلى النور.

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٤ ـ ٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.
(٣) المستدرك، ٩٣/١، كتاب العلم.

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين﴾[1].

والسنة الشريفة من هذا الهدى المستقيم، ومنه تنبجس[2]، وفي وجهته تنطلق. وصاحبها المعصوم يستحيل أن ينطق بباطل، أو يفعل شيئاً لهوى يعرض أو شهوة تغلب، فهو من جهاته كلها محفوظ بأعين الله[3].

والسنة هي المصدر الثاني الذي يلي القرآن الكريم في تبيان عقائد الإسلام، وعباداته وآدابه وشرائعه ومناهجه[4].

جاء الإسلام لينشىء أمة ذات طابع خاص متميز متفرد، وهي في الوقت ذاته أمة جاءت لتحقيق منهج الله في الأرض ولقيادة البشرية لانقاذها مما كانت تعانيه من الضلال قيادة ومناهج وتصورات، فقدّم القرآن الكريم للبشرية كل عناصر الكينونة الإنسانية التي تلبّي كل جوانبها وتتعامل مع كل مقوماتها: الحسي منها والفكري، البديهي منها والبصري، فضلاً عن سائر عناصر الإدراك البشري، كما تتعامل مع الواقع المادي للإنسان. ولهذا تكيّفت الجماعة الإسلامية الأولى تكيّفاً فريداً فتسلمت قيادة البشرية، وحققت لها هذا النموذج الفذ الذي لم يعهده التاريخ، سواء في عالم الضمير والشعور أم في عالم الحركة والواقع.

وكان القرآن هو المرجع الأول لتلك الجماعة، فمنه انبثقت هي ذاتها وكانت أعجب ظاهرة في تاريخ الحياة البشرية! ظاهرة انبثاق أمة من خلال نصوص الكتاب، وبها عاشت وعليه اعتمدت بالدرجة الأولى، باعتبار أن السنة ليست شيئا آخر سوى الثمرة الكاملة النموذجية للتوجيه القرآني كما لخّصتها عائشة رضي الله عنها وهي تُسأل عن خلق رسول

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢ .
(١) بجس الماء فانبجس: أي فجره فانفجر.
ـ مختار الصحاح: ص ٤١ .
ـ تاج العروس: مادة: بجس.
ـ القاموس المحيط: مادة: بجس.
(٢) هموم داعية، محمد الغزالي، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م، ص ١٠١ .
(٣) عناصر القوة في الإسلام، سيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الثانية (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م)، ص ٨٧ .

الله ﷺ فتجيب تلك الإجابة الصادقة العميقة: «كان خلقه القرآن» أخرجه النسائي[1].

جاءت رسالات السماء لتهدي الإنسان منذ آدم عليه السلام إلى يوم الدين لتوحيد الله وقد قدمت للبشرية من البراهين القاطعة ما لا يدحض، ومن الأدلة ما لا ينقد، ونادى جميع الأنبياء والمرسلين بعبادة الله وحده.

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله﴾[2].

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[3].

﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله﴾[4].

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله﴾[5].

فكانت رسالات السماء كلها تنادي بنداء واحد، وتدعو إلى أصل واحد هو: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره». وقد تكرر هذا النداء الرباني بين آيات الكتاب في أكثر من مائة موضع على لسان رسول الله[6].

وفيما يتعلق بالإسلام فيكفي أن نشير إلى أنه نقل البشرية من الشرك وعبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار.

هذا هو الإسلام الذي نقل العرب من أسوأ العادات إلى أسماها؛ من الاكفهرار عندما يبشر أحدهم بالأنثى بل إلى وأدها.. إلى الترابط الأسري المتوازن بحب الأبناء **﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾**[7].

﴿وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾[8].

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص ٤ وما بعدها.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦ .
(٣) سورة الأعراف، آية: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ .
(٤) سورة الأعراف، آية: ٦٥ .
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٥ .
(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٨، ٣٩ .
(٧) سورة النحل، الآية: ٥٨ .
(٨) سورة التكوير، الآية: ٩ .

وقوله تعالى:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[1].

من عبادة أصنام صنع بعضها من العجوة.. إلى عبادة خالق السموات والأرض العزيز المتعال.

ومن الاستكانة والضياع بين معسكري الروم والفرس والاكتفاء بحراسة قوافل تجارتهم نظير الفتات. إلى فتح بلاد الفرس ونشر الإسلام فيها وإدخالها في كيان الأمة الإسلامية فضلاً عن مجابهة الروم وطردهم من منطقة الشام ومطاردتهم في عقر دارهم.

من البداءة والجهل إلى ابتكار علوم الرياضيات، بل وإلى قياس محيط الأرض على نحو لم يتجاوز بضع كيلومترات عما سجّلته الأجهزة الألكترونية الحديثة.

من الشعر وأسواقه إلى الموسوعات في مجال المعارف العامة، طب وفلك ورياضة وفلسفة.

من أمة أتي عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً إلى أمة شرفت بأن وصفها الله تعالى في محكم آياته بأنها خير أمة أخرجت للناس. وحصيلة القول أن القرآن رفع أمة من العدم ثم سما بها الى ذروة البشرية.

٣ - عقيدة التوحيد: حجر الأساس في إطار الفكر الإسلامي المعاصر[2]:

من المسلّمات أن رسالات السماء جميعا جاءت منادية بتوحيد الله تعالى. فأخذت البشرية عن مبدأ التوحيد قوام الحقيقة الأبدية المطلقة في وجودهم وعلاقاتهم وتصوراتهم لتصلح من شأنهم، وتقوّم اعوجاجهم، وتزجرهم عن الطغيان والظلم والإسراف. وهكذا كانت قيمة التوحيد هي التي تكشف للإنسان الحقيقة في أمر الكون والخلق، منبعه ومردّه إلى الله خالق كل شيء بقدر ومسخر كل شيء بحكمة، إله واحد له وحده كل صفات

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦ .

(٢) أنظر: قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الثانية ـ ١٣٩٨ هـ ١٩٨٧ م، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ . وانظر: مقومات التصور الاسلامي، سيد قطب، ص ٨٤ .

الألوهية وتميزها، ليتعبد له الإنسان طائعاً مختاراً في علاقاته بإخوانه من بني البشر، وفي تصريفه للكائنات وفق قانون الخلق وحكمته وطلبا له، ومن هنا فرسالات السماء في إفراد الله الخالق العليم الفرد الصمد بالألوهية، وتأكيدها لهذه القضية الكبرى لم يكن ذلك عبثاً ولا سفسطة، فقد جاء رسل الله الكرام - عليهم صلوات الله وسلامه - وتنزلت الرسالات من عند الله - سبحانه - لتقرير هذه الحقيقة الكبرى.. حقيقة التوحيد. توحيد الألوهية، واختصاص الله سبحانه بها وخصائصها وتوحيد العبودية لله وحده بلا شريك. والدينونة لله وحده بلا منازع.

وكان تابعاً لقضية «التوحيد» وإفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية وتثبيتاً لذلك المفهوم لكلمة «لا إله إلا الله». فكانت دعوة القرآن الكريم كلها هي إخلاص الدين لله: **﴿ألا لله الدين الخالص﴾**[1]. **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين﴾**[2]. **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾**[3].

ومن ذلك نرى أن الإيمان بـ «لا إله إلا الله»، يستتبعه الإخلاص لله في العبادة. «والإخلاص المطلوب في العبادة هو براءة هذه العبادة من الشرك، وتلك هي حقيقة «التوحيد»»[4].

ويأتينا بعد ذلك سؤال يستوضح بيان العبادة الحقة، السليمة، «فما العبادة المطلوبة من العباد، وما كيفية البراءة من الشرك؟ العبادة كما بيّنها الله في القرآن الكريم تشمل أموراً ثلاثة:

١ ـ الاعتقاد الجازم بأن الله واحد في ذاته وفي أسمائه وصفاته.

٢ ـ والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية التي افترضها على عباده.

٣ ـ والالتزام بما أنزل الله من التحليل والتحريم والإباحة والمنع.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) سورة الزمر، الآية: ١١.
(٣) سورة البينة، الآية؛ ٥.
(٤) واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص ٣٤.

وأيما أمر اختل من هذه الثلاثة فهو ناقض للتوحيد ومدخل في الشرك الذي يخرج الناس من الإسلام، مع اعتبار معين في هذا الشأن: هو أن المعصية - بغير استحلال - لا تنقض أصل الالتزام، ولا تخرج الناس من الإسلام، ما داموا يقرّون بالأمر المنزل من عند الله، ولا يجعلون مخالفتهم له تشريعاً مضاهياً لشرع الله، أو قائماً بذاته مناقضاً لشرع الله[1].

أي أن الشرك الذي يخرج من الملّة ليس عصيان ما أمر به الله ولكنه هو التشريع بغير ما أنزل الله **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[2] **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**[3].. **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾**[4].

وقوله تعالى: **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾**[5]. وقوله سبحانه: **﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾**[6]..

وبذلك نجد أن القرآن هو حجر الأساس في بناء الفكر الإسلامي والثقافة العربية فلا يمكن تصور «الفكر العربي الإسلامي» منفصلاً عن تقدير أثر القرآن فيه. فقد رسم القرآن الكريم منهجاً متكاملاً «كمنهج حياة» للإنسان والمجتمع من القيم والمفاهيم المتكاملة الشاملة التي لم يسبق للمجتمع الإنساني تناولها قبل ذلك. وبذلك وضع حداً فاصلاً بين عصر القرآن وعصر ما قبل القرآن.

وقد أبرز القرآن قوانين الفكر الإسلامي وهي: التكامل، والوسطية، والحركة. ففي القرآن يتمثل قيام ترابط الجوانب الروحية والمادية والاجتماعية للنشاط الإنساني، والتقاء عمل الإنسان الدنيوي والأخروي، وتكامل العقل والقلب، وشمول العقيدة والشريعة والخلق دون انفصال[7].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٤، ٣٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٣.
(٧) أنظر: مقدمات العلوم والمناهج ـ الفكر الإسلامي، أنور الجندي، دار الأنصار بعابدين القاهرة، ص ٨.

وكان أول ضوء يشع من نور الإسلام هو الأمر بالعلم والتعلّم فكان قوله تعالى في أول آيات الكتاب الكريم حض على المعرفة العلمية الأصيلة، فهي طريق التعرف على الإسلام قرآنا وسنة فقال العليم الخبير:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾(١).

إن العلم هو الذي ينهض بالإنسان، ويوجهه نحو الخير والتفكر والتدبر في كون الله تعالى وفي شرعه، وهنا يكون السمو والتحضر والتقدم(٢).

يقول الله تعالى:

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٣).

ولذلك كانت كلمة «اقرأ» فتحاً جديداً لبني الإنسان، نحو الفكر والثقافة، والبحث في أحوال المخلوقات، التي لا تعد ولا تحصى ولكن في محيط المفهوم الرباني، **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾**(٤) مع أن العلم كله لله تعالى: **﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾**(٥) ومن هذا كله كان توجيه القرآن لكل مسلم: **﴿وقل ربّ زدني علما﴾**(٦).

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير والمرهبي في فضل العلم، والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن في قوله: **﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾**(٧).

قال الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة(٨).

---

(١) سورة العلق، الآية: ١ ــ ٥.

(٢) تأملات في الفكر الإسلامي، د/ عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م، ص ١٠، ١١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٤) سورة العلق، الآية: ١ ــ ٢.

(٥) سورة العلق، الآية: ٥.

(٦) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، بيروت، محمد أمين دمج، ١/٢٣٤.

ومن هذا يتبيّن اهتمام الإسلام بالعلم، ولا يدانيه أي دين آخر في هذا الاهتمام، أو أي مذهب أو نظام في الغابر أو الحاضر أو المستقبل.

وقد وعد الله سبحانه، المؤمنين، أن يرفعهم ثم خصّ العلماء منهم بفضل الدرجات، إذ يقول سبحانه: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾(١).

وكما خصّ الله تعالى العلماء بالدرجات العلا في الآية السابقة نراه يخصهم بخشيته تعالى فيقول:

﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور**﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿**لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت**﴾(٣). قيل: هم فقهاؤهم وعلماؤهم.

وقال جلّ وعلا:

﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾(٤).

فكان تنبيهاً وتوجيهاً من الله تعالى على مسئولية العلماء في إفتاء الناس، وتوجيههم.

وفي قوله تعالى:

﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾(٥).

والحكمة في هذه الآية بمعنى: العلم والفقه.

وكما جاء في الآيات السالفة الذكر - وغيرها كثير - فيض زاخر من فضل للعلم وحثّ عليه، وتشريف وتكريم لأهل العلم من العلماء، نرى مثله في الأحاديث النبوية فيض عظيم من الحث على العلم، مثل قوله ﷺ:

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٣.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[1].

ويتضح من هذا الحديث أن طلب العلم ضرب من ضروب الجهاد.

ومن حث الرسول ﷺ على العلم قوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي. ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[2] فالخير كل الخير هنا، هو التفقه في الدين، وتعمق معانيه، واستخراج كنوزه، مع تفاوت الناس في إدراك ذلك، حسبما يمنحهم الخالق سبحانه وتعالى. وليس في هذا التفاوت عيب ما، ما دامت هذه الأمة تسير على الطريق الصحيح، طريق الحق، وهو الإسلام.

«إن هذه الأمة، هي أمة الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وعليها مواصلة البلاغ، إلى كل الأجيال، مع تحري الدقة في كل ما يبلغه المسلم لغيره[3].

يقول ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»[4]. إن العالم المخلص ليس له ثواب إلا الجنة: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة»[5].

ولقد عمل المسلمون بأمر الله تعالى وأمر رسوله الكريم ﷺ، فأخذوا بمبدأ العلم، واحترموا العلم والعلماء. فأصبح لهم بعد قرنين من بداية الإسلام، حضارة شامخة البنيان، وكان منهم أساتذة العالم كله[6].

وقد جعل الإسلام، طلب العلم فريضة، فقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وفي رواية «على كل مسلم ومسلمة»[7]....

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي علم ٢ .

(٢) رواه البخاري علم ١٠ ــ اعتصام رقاق ١٠، ورواه مسلم إمارة ١٧٥، زكاة ٩٨، ١٠٠، وابن ماجه مقدمة ١٧ .

(٣) تأملات في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٢ .

(٤) رواه البخاري، أنبياء ٥٠ ــ والترمذي علم ١٣، الدرامي مقدمة ٤٦٠، وابن حنبل: ٢، ١٥٢، ٢٠٢، ٢١٤ .

(٥) رواه أحمد والترمذي. رواه مسلم، باب العلم.

(٦) أنظر: تأملات في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٢ .

(٧) ابن ماجه، المقدمة ص ١٧، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.

إن الإسلام بهذا الحث على تعلم العلم، يرفع شأن المسلم، ويزيل الحواجز والعوائق التي تحول دون تحصيله للعلم، مما نتج عنه أفضل ثمار المعرفة والعلم، على أيدي علماء الإسلام في كل الميادين[1].

(١) تأملات في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٣.

المطلب الثاني

الخصائص

١ - اعجاز القرآن وحجيته:

والقرآن هو معجزة رسول الله ﷺ وهو معجز بلفظه ومعناه، فإعجازه من ناحية اللفظ يجيء من بلاغته في التركيب والأسلوب، واعجازه من ناحية المعنى من جهة إخباره عن الأمم الماضية، وإخباره عن المستقبل في حوادث حدثت بعد نزوله[١]. وبيانه للحقائق العلمية التي يكتشف عنها العلم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[٢].

وأخيراً ما جاء به من شرائع بلغت غاية السمو والعدالة في الوقت الذي كانت الأمم المتحضرة تقوم على العنصرية في تشريعها[٣].

وذلك كما صرح بذلك القرآن الكريم والسنة.

قال تعالى:

﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله. وإنما أنا نذير مبين، أولم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾[٤].

---

(١) مثل بشارة فتح مكة، وغلبة الروم للفرس وغير ذلك.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٣) انظر: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، محمد مصطفى شلبي ص ٢٢٥ (هامش ٢).

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٥٠ ـ ٥١.

ويروى لنا الأئمة أحمد والبخاري ومسلم بسندهم عن رسول الله صلى الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله، آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1].

تحدّى به العرب فعجزوا مع أنهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وقصة تحديهم موجودة في مواضع عديدة من القرآن الكريم.. ولقد شهد له ألد أعداء الرسول، وهو الوليد بن المغيرة حين سمع الرسول يقرأ شيئاً منه فقال لقومه: «والله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه وقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لِقَوْله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق[2] أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم تحته»[3].

وقد أعجز القرآن العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثله وغير العرب مهما أوتوا من البلاغة والفصاحة فهم عن ذلك أعجز.

وعلى ذلك لزمت الحجة الجميع ووجب التسليم بأنه كلام الله المعجز جاء به رسول الله ﷺ وخاتم النبيين كما أكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[4].

٢ – منزلة السنة من القرآن الكريم وحجيتها

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى باتباع رسوله ﷺ في قوله تعالى:

﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[5].

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ٣١٧.
(٢) مغدق: غزير أي كثير (مختار الصحاح: ص ٤٦٩).
(٣) قول الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن من الرسول ﷺ ولم ترض قريش عن هذا القول واستحثه أبو جهل ليقول غير ذلك فقال: فأنزل الله فيه «دعني ومن خلقت وحيداً... الآيات».
(أنظر: في ظلال القرآن ٢٩/١٨٨ – ١٨٩).
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ويقول سبحانه في آية أخرى:

﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات.

والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون موافقة له من كل وجه؛ فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له.

الثالث: أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرّمة لما سكت عن تحريمه[2].

ويوضح الإمام ابن القيم هذه النقاط الثلاث فيقول:

«ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ: تجب طاعته فيه، ولا تحلّ معصيته، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله ﷺ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به[3] وقد قال الله تعالى: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[4].

وعلى ذلك فالسنة مبيّنة لكتاب الله، ومفسّرة وشارحة ومؤكدة، لأنها قد تبيّن مجملاً فيه مثل قول الرسول ﷺ «صلّوا كما رأيتموني أصلّي»[5]. المبيّن لقوله تعالى: ﴿**أقيموا**

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) اعلام الموقعين، لابن القيم، جـ ٢، ص ٢٨٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٠.
(٥) أخرجه البخاري عن مالك بن الحويرث.

الصلاة﴾[1]. ومثل قوله: «هاتوا ربع عشر أموالكم»[2]. وما في معناه المبيّن لقوله تعالى: **﴿وآتوا الزكاة﴾**[3].

ومن هذا يتبين لنا ضرورة الأخذ بالسنة، وأنها مكملة للكتاب، من تفصيل مجمل، أو تخصيص عام، أو تقييد مطلق. أو إنشاء حكم لم يشر إليه الكتاب[4] وذلك كما سبق أن أوضحنا.

الخلاصة:

ومما سبق يتضح لنا أن القرآن والسنة هما من مصدر واحد. ففي فقه الإسلام لا تتعدد مصادر المشروعية، فالمصدر الأصيل هو الوحي، وكل المصادر بعد ذلك مردودة إليه. وكون الوحي مصدر المشروعية الأصيل يعطي الشرعية الإسلامية مزايا لا تعرفها أي مشروعية أخرى.

وقد تميزت الشرعية الإسلامية بالوحي مصدراً أصيلاً، فاصطبغت بصبغته واشتملت على نوره، وارتفعت على البشر تحكم البشر، حاكماً ومحكوماً على سواء.

ومن قبل الوحي، ومن غير الوحي كانت ظلمات لا يدري الناس معها ما الكتاب ولا الإيمان[5]، يقول سبحانه جلّ وعلا:

﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣، ١١٠.

(٢) صحيح أخرجه البخاري ٣٦٨/١ في آخر حديث أنس بما فرض رسول الله ﷺ على المسلمين (إرواء الغليل ٣/ ٢٩٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٣، ١١٠.

(٤) أنظر: التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف، ص ١٩٨.

(٥) المشروعية الإسلامية العليا، د/ علي جريشة، دار الوفاء بالمنصورة الطبعة الثانية (١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦)، ص ٨٧ ــ ٨٩.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

والوحي ما أوحى به الله سبحانه من كتاب وسنة، الأول بلفظه ومعناه، والثاني بمعناه دون لفظه. فقال تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين**﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢ ـ ١٩٤.

المبحث الثاني

المصادر العقلية وخصائصها

ويشتمل هذا المبحث على تمهيد وأربعة مطالب هي:

المطلب الأول : الأشعرية.

المطلب الثاني : في أصول المذهب الأشعري.

المطلب الثالث : من بقايا الاعتزال في المذهب الأشعري.

المطلب الرابع : في خصائص الفكر الأشعري.

تمهيد

كانت الحقبة مناط بحثنا فترة تكوينية حرجة، في الفكر، في محاولة الرجوع الى العقيدة الصحيحة بعد أن شوّه الاستعمار وأدواته فكر المسلمين في ذلك في اختيار الطريق الصحيح مع تعدّد الدروب، وقد كان من الطرق الهامة في تلك الفترة والتي ولجها كل من أراد إصلاحاً في مصر والعالم الإسلامي، إنه طريق العقل المتمسك بالكتاب والسنة متمثلاً في المذهب الأشعري، بدءاً بالشيخ محمد عبده ومن بعده تلاميذه ثم متبعي خطه العقلي المتميز حتى أن الدكتور سامي النشار من المحدثين. نراه يقول:

«إنني أرى أن الأشعرية هي آخر ما وصل إليه العقل الإسلامي الناطق باسم القرآن والسنة، المعبر عنها في أصالة وقوة، وأن ما بقي للمسلمين بعد في الحياة حتى نهاية الدنيا، هو الأخذ بهذا المذهب كاملاً.. لقد اطمأن المسلمون من قبل في بواديهم، كما اطمأنوا من قبل في حواضرهم إلى المذهب الأشعري، وتخلصوا من شوائب العقل البحت، كما تخلصوا من أدران الغنوص في ضوء هذا المذهب، وحفلت حياتهم في ضوء تعاليمه وتعاليم رجاله، إن ثراء الحياة الإسلامية كلها يعود إليه، وبه وبواسطة رجاله خصبت آراؤهم الفلسفية والسياسية والفقهية والأصولية واللغوية والصوفية والعلمية»[1].

ولذا سوف نكتفي في دراسة المصادر العقلية على المذهب الأشعري موضحين بقدر الإمكان أسسه ونشأته والظروف التي أحاطت به.

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د/ سامي النشار، أنظر المقدمة.
ــ سقت هذا الشاهد لتوضيح مدى ارتباط المثقفين والمتصدين للاصلاح في تلك الفترة بالمذهب الأشعري وافتتانهم به. أنظر ص ٨٧، ٩١ وما بعدها استكمالاً لرأيي في ذلك.

أما المصادر الفكرية الأخرى والتي كان لها الفعل وردّ الفعل في فكر المسلمين في مصر في تلك الفترة وهي:

١ ـ التصوّف في جانبه المعرفي.

٢ ـ الاتجاه العقلي بجناحيه: المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة) والمدرسة العقلية الحديثة.

٣ ـ الثقافة الغربية بكامل مفاهيمها (تغريب – استشراق – تبشير).

٤ ـ الفكر السلفي والتمسك بأصول الدين الحنيف بالعودة للمنابع.

فقد رأيت ذكرها مع اتجاهاتها في داخل أبواب الرسالة حتى يكون الموضوع متكاملاً في كل باب[١].

---

(١) أنظر:
ـ الباب الأول: في الاتجاه الصوفي ص ١/١٤١ وما بعدها.
ـ الباب الثاني: في الاتجاه العقلي ص ١/١٨١ وما بعدها.
ـ الباب الثالث: في الاتجاه التغريبي ص ٢/٢٨٩ وما بعدها.
ـ الباب الرابع: في الاتجاه الأصيل ص ٢/٣٩٥ وما بعدها.

المطلب الأول
الأشعرية

الأساس والنشأة:

مؤسس فرقة الأشاعرة هو أبو الحسن الأشعري[١] الذي نشأ منذ شبابه الأول في أحضان الاعتزال، إذ لزم شيخه الجبائي (زوج أمه وزعيم المعتزلة في ذلك الوقت) وسار في هذا الطريق مبرّزاً فيه، ولكنه لم يلبث بعد أن اعتكف في منزله خمسة عشر يوماً أن ذهب إلى جامع البصرة ليعلن تحوله عن آراء المعتزلة. بعد أن أحس ما يحيق بالعقيدة الإسلامية من أخطار من جراء غلو المعتزلة في آرائهم وتزيدهم في تغليب العقل على النقل، فأزمع أن يرجع عن معتقدهم، وأن يهب للدفاع عن عقيدة السلف ليحفظ للمسلمين إيمانهم ويرد غائلة المنحرفين المبتدعين[٢].وهناك أقوال أخرى في سبب تحوله[٣].

---

(١) أبو الحسن الأشعري: هو أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، ينتمي إلى أسرة عربية نبيلة يتصل نسبها بملوك اليمن، ويمتد نسبه إلى جده أبو موسى الأشعري أحد الحكمين في صفين، ولد في البصرة نحو سنة ٨٧٣هـ (ذكرت بعض المصادر أن مولده نحو سنة ٨٦٠ أو ٨٧٠ للهجرة) ودرس فيها ثم ذهب إلى بغداد يتابع دروسه. وكان أعظم أساتذته وأشدهم أثراً في تشكيل فكره هو زوج أمه محمد بن عبد الوهاب الجبائي، زعيم المعتزلة في ذلك العصر، فتأصل حب الاعتزال في قلب الأشعري، ووصل بذكائه وحضور بديهته أن أصبح هو خط الدفاع الأول عن المذهب الاعتزالي. وبقي حتى سن الأربعين يحتج للمعتزلة ويفحم خصومها إلى أن هداه الله وأعلن على الملأ تحوله عن آراء المعتزلة والتزامه بالسنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. واستمر بقية حياته مدافعاً عن السنة مهاجماً الاعتزال ورجاله حتى لقي ربه في عام ٩٣٥هـ. (أنظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ابن عساكر، دمشق ١٣٧٤هـ، ص ٣٤ وما بعدها، ودراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، عبده الشمالي، دار صادر بيروت، ط ٥ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د/ محمد أبو ريان ص ١٩٥).

(٢) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي، أبو ريان، ص ١٩٥، ١٩٦.

(٣) منها: أنه رأى النبي ﷺ في منامه، وأنه حثه على اتباع سبيل أهل الحق من المؤمنين وأن ينبذ الكلام ويناصر أصحاب المذاهب المروية.

ويلمح معظم مؤرخي الفرق أن من أقوى الأسباب بل السبب الرئيسي في تحول الأشعري عن الاعتزال هو المناقشة التي جرت بين الأشعري وأستاذه عن حكم الزاهد والكافر والطفل الصغير بعد الموت. وأن هذه المناقشة ونتيجتها كانت هي السبب في إيقاظ ذهن الأشعري، وهي التي دفعت به إلى الانفصال عن أستاذه والتحول عن مذهبه.

ومضمون هذه المناقشة أن الأشعري سأل الجبائي عن حال أخوة ثلاثة بعد الموت: أحدهم بَرّ تَقيّ والثاني كافر فاسق شقي والثالث طفل صغير، فأجابه قائلاً: الزاهد في الدرجات والكافر في الدركات أما الصغير فمن أهل السلامة. فسأله الأشعري: هل يؤذن للصغير بالذهاب إلى درجات الزاهد؟ فأجاب الجبائي باستحالة ذلك لأن الزاهد وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته، أما الصغير فلا طاعات له. فاحتج الأشعري قائلاً عن الصغير: «أن التقصير ليس منه وأنّ اللّه لم يبقه ولم يقدره على الطاعة»، ويرد الجبائي قائلا: أن اللّه يقول له (أي الصغير) كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، وصرت مستحقاً للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك.

ولم يلبث الأشعري أن عاد إلى التساؤل قائلاً: فلو قال الأخ الكافر يا إله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟ فرد عليه الجبائي قائلا: إنك مجنون(١).

وكانت نتيجة هذه المناقشة مع شيخ الاعتزال في عصره، هي الرجعة المدوية للأشعري عن مذهب الاعتزال، اذ أعلن في جمع حاشد من على منبر مسجد البصرة أنه براء من هذا المذهب بقوله: «من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان ابن

وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه منشأ ميله إلى السنة ومحاربته المعتزلة سببه خلاف في الرأي بينه وبين الجبائي في مصير الأولاد الذين يموتون قبل بلوغ سن الرشد، فحاول الجبائي أن يثبت جدلاً صحة قول المعتزلة أن اللّه يختار الأصلح لعباده فلم يفلح، وعجز عن إقناع مناظره بأن العقل هو المقياس الأكمل والمرجع الوحيد.

انظر: ــ تبيين كذب المفتري، مرجع سابق، دراسات في تاريخ الفلسفة ص ٢٠٧، تاريخ الفكر الفلسفي، ص ١٩٦.

(١) انظر: المواقف، العلامة عضد الدين، شرح الجرجاني مع ما سبقهم للمولى حسن جلبي والمولى عبد الحكيم اللاهوري ١٩٨/١ .

فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال البشر أنا فاعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة، فخرج لفضائحهم ومعايبهم»[١].

ويبدو واضحاً من هذا الإعلان أن هناك مشاكل ثلاثاً رئيسية كانت موضع الجدل عند المعتزلة على عصر الأشعري وهي:

١ ـ مشكلة خلق القرآن.

٢ ـ نفي إمكان رؤية الله تعالى في الآخرة.

٣ ـ حرية الإرادة الإنسانية أي مسألة الاختيار.

وكان لموقف أبي الحسن الأشعري من هذه المشكلات الثلاث وتحديدها في ضوء عقيدة السلف وبأسلوب المتكلمين الشائع في ذلك العصر أن أصبح له الفضل الأكبر في صياغة علم الكلام في شكل العلم المنظم المعتبر[٢].

كان الأشعري مناظراً قويّ الحجة، وكان أسلوبه في رده على خصومه ومناقشتهم هو أسلوب المتكلمين الحافل بالقياسات العقلية، وهو في استخدامه للجدل الكلامي لم يتقيد كثيرا بالتزام مناهج علم الكلام كما فعل أتباعه فيما بعد.

وبالرغم من أنه كان حريصاً على إظهار تمسكه الشديد بمذهب السلف إلا أنه احتفظ ببعض مبادىء الاعتزال[٣].

ويوضح ابن عساكر أنه ليس له في مذهب السنة أكثر من بسطه وشرحه وتأليفه في نصرته[٤]. وقد رفض أن يكون مذهبه مذهباً جديداً يضاف إلى المذاهب الأربعة، فهو يرى أن هذه المذاهب جميعاً على حق لاختلافها في الفروع دون الأصول. ولهذا فقد جهد في

---

(١) انظر: ـ تبيين كذب المفتري، ابن عساكر، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠ وما بعدها.
ـ الإبانة في أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، ص ٣،٤ .
ـ دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، عبده الشمالي، ص ٢٠٤ .
ـ تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، أبو ريان، ص ١٩٦ .

(٢) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي، أبو ريان، مرجع سابق، ص ١٩٧ .

(٣) انظر المرجع السابق، ذات الصفحة.

(٤) انظر: تبيين كذب المفتري، مرجع سابق، ص ٣٦٢ .

أن يظهر مذهبه في صورة تندرج تحتها هذه المذاهب الأربعة[1]. وذلك بعد أن توفر له دراسة مذاهب جميع الفرق فاجتمعت لديه آراء مختلفة المصادر، صاغها في قالب عقله ودينه، فأخرج منها مذهباً وسطاً معتدلاً.

---

(١) تاريخ الفكر الفلسفي، أبو ريان، ص ١٩٧.
وانظر: دراسات في تاريخ الفلسفة، عبده الشمالي، ص ٢١٠.

المطلب الثاني

في أصول المذهب الأشعري

ولنتبين هذا المذهب(١) كيف بدأ؟ والى أين انتهى؟ نسوق ما قاله أبو الحسن الأشعري في مقدمة كتابه: «الإبانة في أصول الديانة» حيث يقول: خلق الله الأشياء بقدرته ودبرها بمشيئته. أما بعد فان كثيراً من المعتزلة وأهل القدرية مالت بهم أهواؤهم الى التقليد لرؤسائهم ومن مضى من أسلافهم فتأوّلوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً. ولا نقلوه عن رسول رب العالمين، ولا عن السلف المتقدمين، فخالفوا رواية الصحابة عن نبي الله في رؤية الله بالأبصار وأنكروا شفاعة رسول الله، وجحدوا عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون. وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون ودانوا بخلق القرآن نظيراً لقول اخوانهم من المشركين. وأيقنوا أن العباد يخلقون الشر، نظيراً لقول المجوس الذين يثبتون خالقين أحدهما يخلق الخير والآخر يخلق الشر. وزعمت القدرية أن الله تعالى يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر. وزعموا أن الله عز وجل يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء خلافاً لما أجمع عليه المسلمون. ورداً لقول الله: ﴿**وما تشاؤون الا أن يشاء الله ان الله كان عليماً حكيماً**﴾(٢) فسماهم رسول الله مجوس هذه الأمة.

وزعموا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم رداً لقوله تعالى:

---

(١) لقد كان كلام أبو الحسن في الابانة عندما رجع إلى الحق بترك الاعتزال مطابقاً هنا مذهب أهل السنة ولكن من جاءوا بعده خالفوا أهل السنة في تأويلهم الصفات الخبرية وهذا أبرز الأصول التي خالفوا فيها السلف.

(٢) سورة الإنسان، آية: ٣٠.

﴿**قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله**﴾[1] وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله. ووصفوا أنفسهم بالقدرة على ما لم يصفوا الله بالقدرة عليه، كما أثبت المجوس للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوه لله فكانوا مجوس هذه الأمة.

وقنطوا الناس من رحمة الله، وحكموا على العصاة بالنار والخلود خلافاً لقوله تعالى: ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[2]وزعموا أن من دخل النار لا يخرج منها خلافاً لما جاءت به الرواية عن رسول الله من أنه تعالى: «يخرج من النار قوماً بعدما امتحشوا وصاروا حمماً». ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله تعالى: ﴿**ويبقى وجه ربك**﴾[3] وأنكروا أن يكون لله يدان مع قوله: ﴿**لما خلقت بيدي**﴾[4] وأنكروا أن تكون له عين مع قوله: «لتصنع على عيني» وأنا ذاكر ذلك إن شاء الله باباً باباً.

فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والحرورية، والرافضة، والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي به نقول، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث. ونحن بذلك معتصمون وبما كان عليه أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل.

وجملة قولنا إننا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله إله واحد فرد، لا إله غيره. وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله استوى على العرش كما قال: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[5] وأن له وجهاً كما قال: ﴿**ويبقى وجه ربك ذو الجلال**﴾[6] وأن له يدا كما قال: ﴿**ويداه مبسوطتان**﴾ وأن له عيناً بلا كيف كما

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٩ .

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨ .

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٧ .

(٤) سورة ص، الآية: ٧٥ .

(٥) سورة طه، الآية: ٥ .

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٢٧ .

قال: ﴿**تجري بأعيننا**﴾، وأن من زعم أن اسم الله غيره كان ضالاً. وأن لله علماً كما قال: ﴿**أنزله بعلمه**﴾[1]. ونثبت لله القدرة كما قال: ﴿**أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة**﴾[2]. ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج.

ونقول إن كلام الله غير مخلوق، وأن الاشياء تكون بمشيئة الله، وأن واحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله. وأن أعمال العباد مخلوقة لله كما قال: ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾[3]﴿**هل من خالق غير الله**﴾[4]، وأن الله وفّق المؤمنين لطاعته ولم يجبرهم، ولطّف بهم وهداهم وأضلّ الكافرين ولو هداهم كانوا مهتدين، وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين وأننا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره، ونعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ونقول إن القرآن غير مخلوق، وندين أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة. ونرى ألا نكفر أحداً من أهل القبلة لذنب يرتكبه كالزنى والسرقة وشرب الخمر كما دانت بذلك الخوارج.

ونقول إن من عمل كبيرة من الكبائر وما أشبهها مستحلاً لها كان كافراً إذا كان غير معتقد تحريمها. ونقول إن الإسلام أوسع من الإيمان، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[5].

(١) سورة النساء، الآية: ١١١.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١٥.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٩٦.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٥) الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، المقدمة.

المطلب الثالث

من بقايا الاعتزال في المذهب الأشعري

لقد أجمل الأشعري في هذه المقدمة جل المسائل العقدية المختلف عليها بين سائر المذاهب والفرق وردّها إلى قول السلف فيها بصفة مجملة. ثم نراه قد فصل ما ذهب إليه عندما ناقش مناظريه في نحو أربع وعشرين قضية يتعلق معظمها بالمسائل الإلهية. وسوف نسوق بعضاً منها ليس على سبيل الحصر والعدّ، ولكن على سبيل المثال والسّرد، لنوضح شيئاً مما علق بفكره من بقايا الفكر المعتزلي الذي كان يعتنقه أربعين سنة سبقت من عمره. فمن هذه المسائل:

١ - صفات الله وتنزيهه:

الذات الإلهية في رأي الأشاعرة قديمة أبدية بسيطة وغير مشابهة للحوادث. وقد توسطوا بين المعتزلة والحشوية والمجسمة في مسألة الصفات فلم يجاروا الجبرية والجهمية ومتطرفي المعتزلة المبالغين في نفي الصفات الجسمية والمعنوية حتى التعطيل، والمنكرين أن يكون لله علم وقدرة وغيرهما من الصفات الجوهرية.

ولا جاروا الصفاتيين وأمثالهم من المجسمين والمكيفين الذاهبين إلى أن لله علماً كالعلوم وسمعاً كالأسماع. ولكنهم التزموا حدود السلف في التنزيه، فقالوا: إن لله علماً لا كالعلوم وقدرة لا كالقدرة، أي أن صفات الله تعالى غير صفات الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى. وهذه الصفات الإلهية قديمة وقد ردّوها إلى سبع صفات هي: القدرة، والعلم والحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وكذلك الأسماء المشتقة منها قديمة أيضاً مثل:

القادر والعالم والحي والمريد والسميع والبصير. أما صفات أفعال الله: كالخالق والرازق والمعز والمذل فهي غير قديمة في نظرهم[1]، وكأنهم يميزون بين صفات الذات وصفات الأفعال، ويجعلون الأولى قديمة والثانية محدثة.

ويثبت الأشاعرة قدم صفات الذات بقولهم: أنها لو كانت محدثة لأحدثها الله في ذاته، وهذا محال لأنه ليس محلاً للحوادث، ومن المحال أيضاً أن يحدث الله صفاته في غير ذاته، والاحتمال الأخير هو أن تكون الصفات محدثة قائمة بذاتها، وهذا أيضاً محال لأن الصفة لا يمكن أن تقوم بذاتها بدون موصوف. وعلى هذا فصفات الله قديمة في ذاته، وهي غير منفصلة بعضها عن البعض الآخر، وغير مباينة لبعضها الآخر، ولا هي مغايرة لذات الله، فقالوا: لله علم لا كالعلوم وبصر لا كالأبصار، وصفاته المعنوية مظاهر لكمالاته، وهي حقيقة ثابتة فيه لا تنفصل عنه ولا تنفصل إحداهما عن الأخرى، وليست بإله جديد، ولا هي غير الله.

٢ - القرآن كلام الله:

من صفات الله تعالى «الكلام»: ﴿**وكلم الله موسى تكليماً**﴾[2] والقرآن الكريم هو الصورة التي ظهر لنا بها الكلام الإلهي، ولهذا كان القرآن بصفته كلام الله، مثار جدال طويل بين المتكلمين من مختلف الفرق من حيث قدمه أو حدوثه.

فقال **السلف**: إن القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق، وأنه تعالى لم يزل متكلماً. اذا شاء، ومتى شاء وكيف شاء.

والسلف بيّنوا أن كلام الله قديم، أي جنسه قديم لم يزل. ولم يقل احد منهم القرآن قديم، بل قالوا أنه كلام الله منزل غير مخلوق[3].

---

(١) راجع: الاقتصاد في الاعتقاد، الإمام الغزالي ص ٣٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

(٣) انظر: ــ شرح الطحاوية، علي بن علي بن محمد الدمشقي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق ط أولى ١٤٠١ هــ، ص ١٢١ وما بعدها.
ــ مجموع الفتاوي ج ١٢ ص ٣٧، ص ٥٤، ص ١٦٨، جــ ٦ ص ٥١٨.

وقال جمهور **المعتزلة**: ان كلام الله حادث في محل، فهو مخلوق أوحى الله بمعانيه، ووضع النبي نصه.

أما الأشاعرة:

فقد فرّقوا بين المعنى واللفظ، أي بين الكلام النفسي الذي يجول في النفس والكلام المتلفظ به وهو دليل على الكلام النفسي، والدليل غير المدلول، فكلام الله النفسي قديم والقرآن كذلكِ قديم، أما الحروف والأصوات (القراءة) التي هي دلالة الكلام النفسي والتي هي فعل القارىء فهي مخلوقة[1].

وعلى ذلك نرى أن المذهب الأشعري يقول بأن كلام الله «قديم غير حادث ولا مبتدع، أما الحروف فهي مثل الأجسام والألوان والأصوات وسائر ما يحتويه العالم من أشياء فهي مبتدعة مخترعة، أي أنها محدثة في حدود الزمان، ولا يعني خلق اللفظ أنه من عند الرسول، بل هو من عند الله، ولكن خلق لفظ القرآن حدث قبل الوحي في الأزل السحيق حيث تُلي على الملائكة والملأ الأعلى ثم نزل به بعد ذلك جبريل على الرسول ﷺ[2][3].

٣ - نظرية الكسب في الفعل الإنساني:

إذا تساءلنا: ما هي حقيقة الفعل الإنساني؟ لزمنا معرفة ما إذا كان الإنسان مسيَّراً أم مخيَّراً في أفعاله، ويترتب عليه إذا كان مسيَّراً: كيف تفسر التكليف الشرعي؟ أي تحمله تبعة أعماله، ونرتب له الجزاء عليها إما ثواباً أو عقاباً؟

فقد رفض الأشاعرة قول «الجبرية» القائلين بأن الله خالق أفعال العباد، وكذلك رفضوا قول المعتزلة بأن العباد خالقون لأفعالهم، لأن الإنسان لا يعلم بدقائق حركة يده المتقنة، ولهذا فهو ليس فاعلها، بل أن لها فاعلاً محكماً متقناً هو الله.

---

(١) نهاية الإقدام، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٥.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري، ص ١٥.

(٣) وهذا القول بخلق لفظ القرآن فيه نظر حيث يؤول إلى مقولة المعتزلة بأن القرآن مخلوق.

والحقيقة عندهم أن أفعال العباد تتم بالمشاركة بين الله وعباده، فلا يستقل أي من الطرفين بها وحده، ولما كان الله لا يحتاج إلى معين في أفعاله الخاصة فيبقى أن العبد هو المحتاج إلى عون الله في أفعاله؛ ومن ثم فإن الفعل ينسب إلى فاعلين هما: الله والعبد(1).

وقد اتجه الأشاعرة إلى العقل في تقسيم الفعل الواحد إلى ثلاثة وجوه بين الله والعبد:

١ - إتقان الفعل وإحكامه.

٢ - القدرة على تنفيذه أي الاستطاعة.

٣ - الإرادة التي تختار واحداً من الممكنات.

فالله تعالى له إتقان الفعل ثم له الاستطاعة.

أما الإرادة التي يخصص بها الفعل ببعض الجائزات دون بعض، أي التي تختار واحداً من عدة ممكنات فهي للعبد.

وعلى ما تقدم فقد سمى الأشاعرة عمل الله، أي إتقان الفعل والاستطاعة: خلقاً وإيجاداً واختراعاً؛ أما عمل العبد أي «الإرادة» فقد سموه «كسباً». مستدلين بقول الله تعالى: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾(2). فالله تعالى يخلق في العبد الفعل والاستطاعة ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها**﴾(3) والعبد يتصرف بهذا الفعل كما يريد فيوجّه إما إلى فعل الخير، وإما إلى فعل الشر ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها**﴾(4). فيكتسب بذلك إما ثواباً أو عقاباً. ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾(5). وهكذا يكون - عندهم - للتكليف الشرعي معنى، بحيث يتحمل الإنسان تبعة أعماله.

---

(1) انظر: نهاية الإقدام، مرجع سابق، ص ٦٧ ــ ٦٨.

(2) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(3) سورة الشمس، الآية: ٧، ٨.

(4) سورة الشمس، الآية: ٩، ١٠.

(5) سورة الزلزلة، الآية: ٧، ٨.

المطلب الرابع

في خصائص الفكر الأشعري

وقد كانت السمة المميزة لمذهب الأشاعرة المواءمة في موقفهم بين الفرق فنراهم هنا يقولون: بإنكار قدرة العبد على الأحداث ويسلمون بقدرته على الكسب فقط. في حين يقول الجبرية بعدم قدرة العبد على إحداث الفعل والكسب، ويقول المعتزلة بقدرة العبد على الإحداث والكسب معاً.

وقد أوجد هذا النهج الذي انتهجوه في ذلك صعوبات كثيرة عليهم فلم يرض عنهم أي من الفريقين ولم يصلوا إلى مرادهم باعتبارهم من أهل السنة وذلك بما انساقوا إليه من مآزق نتيجة لمنهجهم في اصطناع الحلول الوسطى في جملة مسائل بلغت ٢٤ مسألة كما سبق ذكره.

وهكذا نرى تأرجح الأشعرية بين الموقفين السني والعقلي وكيف أنها انتهت إلى موقف سني يميل الى المنهج العقلي(١).

وعلى مدار التاريخ الفكري الإسلامي نرى أن المذهب الأشعري استهوى الكثير من مفكري الإسلام، ولم يكونوا سواء في سلك طريقهم، فمنهم من نحا إلى السنة من طريق العقل، ومنهم من اتجه أكثر إلى العقل في غلاف رقيق من الارتباط بالسلف وأهل السنة على وجه العموم وبالمذهب الشافعي خاصة(٢).

(١) أنظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، أبو ريان ص ٢١١.
(٢) وذلك في محاولتهم التبعية للمذهب الشافعي بعد رفضهم من رجال المذهب الحنبلي.

وبذلك كان الأشعرية يزاوجون بين طريق السلف وطريق الكلام، ويبررون هذا الازدواج في موقفهم بأنه نوع من الاجتهاد. ولكن الشافعية يرفضون استخدام الاجتهاد في غير مباحث الفقه أي في العقائد(١).

وعلى هذا جاء باحث معاصر(٢) ليقطع بانتفاء سلفية الأشعرية ومناقضاً ما قاله الدكتور سامي النشار الذي سبق ذكره في بداية هذا الموضوع(٣). مثبتاً عجز الأشعرية عن إثبات إنتسابها إلى السلف وفشلها في إضفاء صفة الشرعية على موقفها، ومبيّناً كيف أقيمت العقبات في طريق تسلل الأشاعرة إلى مدارس الفقه السني، حتى أن غالبية متأخري الشافعية يصمون الأشاعرة بالتطفل عليهم، وبذلك واجه الأشاعرة عداوة الشافعية والحنابلة على السواء، وكان السبب الرئيسي لذلك هو الاتجاه إلى المنهج العقلي - والذي استهوى الكثير من مفكري الإسلام المعاصرين والسابقين كما ذكرنا - وكان نتيجة لهذه المقاومة العنيفة للأشاعرة أن اندفعوا فيما بعد إلى إيثار طريق النظر العقلي مما أقام بينهم وبين السلف حاجزاً لم يتمكنوا من تخطّيه(٤).

ثم يقول الدكتور أبو ريان: «وعلى هذا فإنه تسقط الدعوى العريضة التي يطلقها بعض مؤرخي علم الكلام المحدثين(٥) والتي مؤداها أن المذهب الأشعري، هو المذهب السني السائد في العالم الإسلامي، وأن من أراد عقيدة السلف الصحيحة فلتكن الأشعرية قبلته. والحق أن البون شاسع بين موقف السلف ومذهب الأشاعرة من حيث أنه لم يثبت أن السلف قد استخدموا الكلام في شرح العقيدة، أو مالوا إلى التأويل في تفسيرها(٦)

والواقع أن الأشعرية حين ظهورها اهتمت بنوع خاص لمقاومة المذاهب الفاسدة الكثيرة في ذلك الوقت وعلى رأسها المعتزلة والفرق الأخرى فكان لا بد لهم من استخدام

---

(١) انظر: طبقات السبكي جـ ٣ ص ٢٦٤ .

(٢) هو الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان أستاذ ورئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية في كتابه تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ـ المقدمات ـ علم الكلام ـ الفلسفة الإسلامية.

(٣) انظر: ص ٨٣ .

(٤) انظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، أبو ريان ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٥) يقصد بكلامه الدكتور علي سامي النشار في كتابه «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام».

(٦) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، أبو ريان، مرجع سابق، ص ٢١٦ .

سلاح عصرهم وهو «علم الكلام» ولكن بريق المنهج العقلي أزاغ أبصار الكثيرين من مفكريهم حتى وصل ببعضهم لتأليه العقل (كما جاء في موضع آخر من هذه الرسالة). فبعدت المسيرة بهم عن طريق السلف وأهل السنة. وقد كان للمذهب الأشعري أثر واضح في فكر علماء مصر في تلك الحقبة مناط بحثنا مما فصّلناه في مواضعه.

الفصل الثالث

المؤسسات التعليمية في مصر

نعالج في هذا الفصل المؤسسات التعليمية في مصر، فنتناول أبرزها وهي: الأزهر، دار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعي، ثم ننتقل إلى الجامعة المصرية مخصصين مبحثاً لكل من هذه الفئات الثلاث من المؤسسات التعليمية:

المبحث الأول : الأزهر.

المبحث الثاني : دار العلوم.

المبحث الثالث : مؤسسات تعليمية أخرى.

المبحث الأول

الأزهر

ويشتمل على توطئة وثلاثة مطالب:

المطلب الأول : ما اضطلع به الأزهر من مهام.
المطلب الثاني : قانون الأزهر الجديد ومعطياته.
المطلب الثالث : من رجال الأزهر.

توطئة

لا أحسب أن مسجداً جامعاً إلتصق بتاريخ مصر والعالم الإسلامي، بل وعلى فترات من تاريخ أوربا في العصور الحديثة، كالأزهر الشريف عبر مسيرته التي تجاوزت الألف عام. لهذا، حق لنا أن نقول إن الأزهر يعتبر من أقدم الجامعات التي بقيت على وجه الأرض حتى يومنا هذا[1] إلى جانب وظائفه المتعددة التي أدّاها خير ما يكون الأداء، تعليماً وتأصيلاً ونشراً للدراسات الإسلامية العربية العليا في المجالات الدينية واللغوية والأدبية.. كان الأزهر مثوى للعلماء الشوامخ من أنحاء المشرق العربي، والمغرب العربي يتصدرون فيه الحلق الدراسية بصفتهم أساتذة زائرين.. أو اساتذة مقيمين، يعكفون إلى جانب التدريس على وضع مؤلفات علمية تثري المكتبة العربية، وتضيف كنوزاً إلى التراث الإسلامي، وفي ذات الوقت كانت تهوي إليه أفئدة الظامئين إلى العلم والمعرفة من الطلبة يأتون إليه من كل فج عميق، من أنحاء العالم الإسلامي يجدون في رحابه العلم والأمن، والرعاية، حيث يقدم إليهم بالمجان: المسكن والجراية وفق نظام رتيب، ويجري عليهم الأرزاق في المناسبات الدينية.. كشهر رمضان والعيدين... وغيرهم.. فكان الأزهر أول من وضع اللبنة الأولى للإسكان الجامعي في العالم[2] وتمتع بسمعة علمية عريضة على مر هذه السنين وقام بدور رائد في دعم الترابط الثقافي بين مصر وشعوب الأمة الإسلامية.

---

(١) انظر: الأزهر في ألف عام، خفاجي، ١/٨، الأزهر جامعاً وجامعة، الشناوي، ١/٩١.

(٢) نظام الأروقة: رواق الشراقوة، ورواق الشوام، والرواق العباسي، ورواق الصعايدة، وهي أماكن سكن كل فئة من الفئات المذكورة.

المطلب الأول

ما اضطلع به الأزهر من مهام

يرى المؤرخون أن الأزهر أسدى للعالم الإسلامي في هذه الحقبة أجلّ الخدمات ولولاه لانهار صرح الفكر الإسلامي انهياراً كان يمكن أن يهدد بالخطر.

فقد أسدى الأزهر إلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية أجلّ الخدمات وإذا كانت مصر قد لبثت خلال العصر التركي ملاذاً لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية، فأكبر الفضل في ذلك عائد إلى الأزهر، وقد استطاعت مصر بفضل من الله، ثم بفضل أزهرها، أن تحمي هذا التراث نحو ثلاثة قرون، وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر في تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية والعالم الإسلامي بأسره، هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالة وأعظم ما وفّق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الحافل الطويل[1].

ولمقارنة سريعة بين حال الأزهر في هذا العصر وسابقه نسوق مؤشراً واضحاً لذلك بذكر مجموعة من العلماء الذين اضطلعوا بالتدريس في الأزهر في هذه الفترة، لنلاحظ أنهم ليسوا من الشهرة كعلماء العصر السابق، وليست لهم مؤلفات ذات بال في المكتبة العربية والإسلامية، ومنهم[2]:

- نور الدين علي البحيري ٩٤٤ هـ
- عبد الرحمن المنادي ٩٥٠ هـ
- شمس الدين العلقمي ٩٦٢ هـ

(١) تاريخ الجامع الأزهر، عنان، ص ١٤٦، ١٤٧.
(٢) الأزهر تاريخه وتطوره، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

- شمس الدين العناني	١٠٩٨ هـ
- شاهين بن منصور	١١٠١ هـ
- عبد الرؤوف البشبيشي	١١٤٣ هـ
- حسن البدري	١١٣١ هـ
- أحمد بن الحسن الخالدي	١١٨٢ هـ
- حسن بن نور المقدسي	١١٨٢ هـ
- عبد الرؤوف السجيني	١١٨٢ هـ

١ - مهام الأزهر في العصر العثماني:

قد استحدثت وظيفة «شيخ الأزهر» في العصر التركي وكان منصب شيخ الجامع الأزهر في عهد الحكم العثماني ليتولى رياسة علمائه، ويشرف على شؤونه الإدارية، ويحافظ على الأمن والنظام بالأزهر(١).

وبالنظر لما كتب عن هذا العصر وأثره على الأزهر وأثر الأزهر عليه: وهو حصيلة ما كتبه المؤرخون الذين تناولوا تلك الفترة بالتأريخ والتحليل: فمنهم من كتب بأمانة، ومنهم من زاد على ذلك في تحامله وتحميله الأحداث أكثر من طاقتها، وفي جملتهم فإنهم يسمون الدولة العثمانية بالاستعمار تارة وبالاحتلال أخرى، وبالظلم والجور والعسف، ولكننا في الوقت نفسه نجد واحداً من المؤرخين المعاصرين والمعترف لهم بالإنصاف بين أقرانه، هو الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي، نجده يقول: «إن الأزهر - جامعاً وجامعة - احتفظ إبان الحكم العثماني بقوته وحيويته وتقاليده، وظل موطنًا للدراسات الدينية وملاذاً للغة العربية وكعبة علمية يحج إليها أعلام الفكر الإسلامي يتصدرون الحلقات الدراسية في رحابه، ومنهم من أثرى المكتبة الإسلامية العربية بروائع الانتاج العلمي في شتى المجالات. كما لم ينقطع عن الأزهر التحاق الطلاب الوافدين إليه من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، لينهلوا من فيضه»(٢) وليس هذا هو أول رأي للاستاذ الدكتور الشناوي، ولكنه كتب بحثاً كاملاً

(١) انظر: الأزهر تاريخه وتطوره، ص ٣٢٠.

(٢) انظر: الأزهر جامعاً وجامعة، الشناوي ص ١٥٤. وقارن: تاريخ الجامع الأزهر، محمد عبدالله عنان، ص ١٣٨.
حيث يرى المؤلف: وأن تصرف العثمانيين بمصر عقب الفتح يشبه أعمال ديوان التحقيق الأسباني بعد سقوط الأندلس.

بعنوان: «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» في جزئين بانياً الرأي المضاد لمعظم الباحثين على أنهم اعتمدوا في كتاباتهم: على الكتب التي وضعها عملاء الاستعمار والصهيونية من قبيل التحامل على الدولة العثمانية والتشهير بها لأسباب فصّلها في كتابه[1] سابق الذكر.

والحقيقة التي نستطيع تقريرها في ذلك أن الدولة العثمانية كانت هي دولة الخلافة الإسلامية.. فلست مع القائلين: «أن تصرف العثمانيين بمصر عقب الفتح العثماني يشبه أعمال ديوان التحقيق الأسباني..» ووصفهم «بالغزاة الترك».. وقولهم: «ونجح السلطان سليم في تحقيق هدفه، فقد امتد الظلام إلى كل مرافق الحياة في مصر، وانهار صرح الثقافة، وأمضت البلاد فترة مريرة في كل اتجاه، وكان الولاة العثمانيون (الباشوات) نماذج في الشر وتشجيع الرشوة وفساد الرأي»[2].

ونوضح حكمنا بأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ومصر جزء منها مثل باقي أجزائها بما يلي:

١ ـ فساد الحكم العثماني لمصر لم يكن أساسه فلسفة النظام في الدولة ولكنه كان بسبب نظام الحكم في جميع أرجاء الدولة.

٢ ـ السلطان سليم كان اجتهاداً منه – ولو أنه خاطىء – يجمع بعضاً من علماء الأزهر. وكان من بينهم صفوة علماء الفقه ومذاهبه وعلوم القرآن، والحديث والمواريث، والافتاء ونواب القضاة على المذاهب الأربعة، فضلاً عن الصناع المهرة وأرباب الحرف، ويصدّر هذه الطاقات إلى عاصمة الخلافة، وكان اجتهاده في ذلك أن عاصمة الخلافة أولى بكل عالم فذ ليكون بها، وأيضاً كل حِرَفيٍّ صَنَاع، ولم يدم ذلك طويلاً حيث أنه بعد وفاة السلطان سليم سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ورأى خلفه وابنه السلطان سليمان القانوني إعادة جميع المصريين الذين أخرجوا من بلادهم على عهد والده وأصدر فرماناً بذلك[3].

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د/ عبد العزيز محمد الشناوي جـ ١ص ٩ ـ ٣٢ حيث تجد عرضاً وافياً لهذه الأسباب.
(٢) الأزهر تاريخه وتطوره، ص ٢٢٤.
(٣) انظر: الأزهر جامعاً وجامعة، الشناوي، جـ ١٨٣/١.

ولما أدرك أن بعض المصريين يتأخرون في العودة أصدر فرماناً لاحقاً في ذات السنة (٩٢٧ هـ) أنذر فيه بالشنق كل مصري يتباطأ في العودة إلى بلاده[١].

أي أن هذا البلاء أو الابتلاء لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات ونصف ثم عاد جميع المصريين إلى القاهرة. وفي ذلك يقول الدكتور الشناوي: «إن ما يمكن أن يذكره باحث محايد أن مصر قد قامت كرها في أثناء إقامة السلطان سليم الأول في مصر بدور دولة رائدة في تصدير ثروة بشرية حضارية إلى استانبول»[٢]

وقد أراد السلطان سليم الأول بترحيل علماء الأزهر أن يضيف رصيداً علمياً إسلامياً متفوقاً إلى الرصيد التركي الإسلامي الحضاري[٣].

٣ ـ لو كان هدف الأتراك هو استعمار البلاد لكان أحرى بهم أن يحاولوا إدخال الدراسات التركية سواء الأدبية منها أو اللغوية أو غيرها في الأزهر.. ولكنهم لم يحاولوا حتى المزج بين الدراسات العربية في الأزهر وبين أي ثقافة تركية، ولم يحاولوا طمس الوجه العربي الأصيل للأزهر بصبغة عثمانية... وبقي الأزهر في مظهره ومخبره، وفي ظاهره وباطنه عربياً إسلامياً أصيلاً.. لأن العثمانيين مسلمون سنيون يريدون الحفاظ على لغة القرآن وعلوم القرآن.

٤ ـ كم من الحكّام في واقعنا المعاش الآن، في عالمنا الإسلامي والعربي، وهم مسلمون (أو منسوبون للإسلام) يفتكون بشعوبهم وبعلمائهم ودعاتهم أشد الفتك، ويذيقونهم ألوان الهوان والتنكيل[٤]، فليس السلطان سليم وحده مع أن ما فعله بالعلماء كان من باب التكريم[٥] لا التنكيل.

---

(١) انظر: بدائع الزهور، جـ ٥ ص ٣٩٧.

(٢) وهذا هو الدور الذي تقوم به مصر طوعاً في القرن العشرين بشكل أكثر وضوحاً وبروزاً، وقوة وشمولاً، بتصدير العقول المصرية والخبرات المصرية إلى شتى أنحاء العالم الإسلامي والعربي.

(٣) الأزهر جامعاً وجامعة، الشناوي، جـ ١ ص ١٨٤.

(٤) مثل ما لاقت جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وكذا الإسلاميون في تونس وسوريا وليبيا... وغيرها من البلاد.

(٥) وذلك بنقلهم إلى عاصمة الخلافة ليكون عملهم وإنتاجهم بها وقد كانت أجمل مكان في العالم في ذلك الوقت بدليل أن الكثيرين تباطأ في العودة إلى مصر عندما أصدر السلطان سليمان المشرّع (القانوني) فرماناً بعودة جميع المصريين إلى ديارهم سنة ٩٢٧هـ.

ونخلص من ذلك بأن الدولة العثمانية هي دولة الإسلام التي كانت تظلل جميع المسلمين في أنحاء الدولة كلها وخطأ الحاكم فيها إنما هو اجتهاد منه.. يخطىء أو يصيب فيه.

٢ - الأزهر في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث لم يقف المطاف بالأزهر عند دوره جامعاً للشعائر الدينية وجامعة للعلوم الإسلامية بل تعدّى ذلك إلى أخذ مكانه في الزعامة الشعبية وقيادة الأمة على مر العصور، ويتجلى ذلك في أروع مظاهره: أيام الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨-١٨٠١ م) حيث تولى شيوخه وطلابه قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها. وكان الأزهر على رأس كل ثورة وطنية اضطرمت بها القاهرة ضد المحتلين. وقد احتمل الأزهر خلال تلك الحوادث العصيبة أعظم التضحيات فضُرب بالمدافع، وانتُهكت حرمته واحتُلت ساحاته، وأروقته، وأُعدم عدة من شيوخه وطلابه[١]، ثم انتهى الأمر بغلقه وتشتيت علمائه وطلابه.

٣ - فكرة عامة عن رسالة الأزهر:

في ظل الإسلام وعلى ضوء هداه قامت في ربوع النيل أقدم جامعة إسلامية في مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط سنة ٢١ هـ. واستمرت في أداء رسالتها الإسلامية من روحية ومادية حتى قام الجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ فأسهم معها في أداء هذه الرسالة بقوة وعزم وإيمان؛ وظلا معا ينشران أضواء الثقافة الإسلامية عدة قرون، ثم حدثت أحداث قعدت بجامع الفسطاط عن أداء رسالته الثقافية، فانفرد الجامع الأزهر بالزعامة العلمية عبر القرون، وظل مصدر علم ومنار هداية ومنبع كرامة وعزة حتى الآن..

وخرج الأزهر على فترات من تاريخه الحافل المديد، عن النطاق العلمي الذي ظل حريصاً عليه، فشارك في الحياة السياسية العامة، وقام بدور رئيسي لا في تاريخ مصر فحسب، بل في تاريخ الأمة الإسلامية وشعوبها على مر العصور. فإن له أعمالاً سياسية خالدة، دفع فيها الظلم والجور وأقرّ العدل ونشر الأمان.

---

(١) الأزهر في ألف عام، خفاجي، ١/١٥٥.

كما أن له أعمالاً علمية خالدة، بعث فيها أشعة العلم والمعرفة في أقطار العالم، وحفظ فيها اللغة العربية والثقافة الإسلامية في عصور التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربي على الأقطار الإسلامية.

كما أن للأزهر أدواراً روحية خالدة، قاوم فيها شتى تيارات الإلحاد والانحرافات، والمذاهب الهدامة، والحملات التبشيرية ودعاة الفوضى والانحلال.

ولهذا كان الأزهر مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الإسلامية من شتى أنحاء العالم. كما كان مصدر الدعوة الإسلامية إلى مختلف الأمم والشعوب.. وهو الآن ملتقى آلاف الطلاب من أرجاء المعمورة، كما أنه مصدّر مئات العلماء إلى مختلف القارات[1].

٤ - مساهمة الأزهر في الجهاد ضد المستعمر الغربي:

تصدّى الأزهر للحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م ووقف علماء الأزهر وطلابه في وجه أول غزو عسكري مسيحي غربي في التاريخ الحديث.. وفجع الأزهر في عدد من علمائه وطلابه.. وأخفقت الحملة في إقامة حكم فرنسي هادىء مستقر على ضفاف النيل، وانسحبت دون أن تحقق هدفها في إقامة مستعمرة فرنسية في مصر، تكون قاعدة لضرب بريطانيا في مستعمراتها فيما وراء البحار. وتصدى أيضا الأزهر للحملة البريطانية على مصر سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م)، وتكبدت الحملة خسائر فادحة.. مما حمل بريطانيا على الجلاء عن مصر في ذات السنة[2].

وانضم علماء الأزهر إلى الثورة العرابية وعلى رأسهم شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الأنبابي وكذا الشيخ محمد عبده.. وقرروا خلع الخديوي توفيق لانحرافه عن الدين الحنيف، وإبقاء عرابي باشا وزيراً للحربية والبحرية.

وكان علماء الأزهر وطلبته في مقدمة المشتركين في ثورة ١٩١٩ م وتساقطوا على

---

(١) انظر مقدمة كتاب: الأزهر تاريخه وتطوره، وزارة الأوقاف وشئون الأزهر، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤ م، القاهرة.
(٢) انظر مقدمة كتاب: الأزهر جامعاً وجامعة، الشناوي، ص ٨ .

أبواب الجامع شهداء وهم في مواجهة القوات البريطانية وكل هذا قليل من كثير عن أهم الأحداث في تاريخ النضال الجهادي للأزهر دفاعاً عن الإسلام والعروبة.

٥ - الإصلاحات الحديثة للأزهر:

من أهم الإصلاحات التي تمت في الأزهر في العصر الحديث ما يلي:

١ - في عام ١٩٢٣ م تم إنشاء قسم التخصص بعد الحصول على الشهادة العالمية وكان يضم هذا القسم عدة شعب منها شعبة الفقه والأصول التي كانت تخرِّج من يتولى القضاء الشرعي، وقد مهدت هذه الشعبة لالغاء مدرسة القضاء الشرعي فيما بعد.

٢ - التوسع في دراسة العلوم الحديثة في المرحلتين الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية.

٣ - وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر مذكرته في إصلاح الأزهر والتي تعتبر بحق دستور الأزهر الحديث، فكان كل ما صدر من قوانين الإصلاح بعدها مستمداً منها أو مقتبساً من فحواها (قانونا سنتي ١٩٣٠، ١٩٣٦).

وبذلك أصبح الأزهر الحديث بالمراحل التعليمية المعروفة (الابتدائية والثانوية والجامعية) وإنشاء الكليات الثلاث، وهي: كلية الشريعة، وكلية اللغة، وكلية أصول الدين مع إنشاء أقسام للتخصص في المادة في كل كلية. وأصبحت هذه الكليات مقصد الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم من كل صوب من أنحاء العالم[1].

---

(١) الأزهر في ألف عام، د/ محمد عبد المنعم خفاجي، عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، جـ ١، ص ٢٠١ - ٢٠٦.

المطلب الثاني

قانون الأزهر الجديد ومعطياته

١ - قانون تطوير الأزهر في عام (١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م):

ولنكمل هذا الموضوع الخاص بالأزهر الذي تتطلع إليه أنظار المسلمين في كل عصر ومصر، فقد صدر هذا القانون ليجعل من الأزهر جامعة دينية علمية شاملة. والذي انتقل بالأزهر إلى مسايرة التطور العلمي في العالم الحديث، محافظاً في نفس الوقت على رسالته الدينية السامية، وتقاليده القديمة[١].

ويقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه عن ذلك:

ودخل التطور في الأزهر بأوسع نطاق فهل يا ترى هذا ما أريد بالأزهر؟ التطوير أم التدمير!! فلا نتعجل الجواب ولنأخذه من أبناء الأزهر الذين أرَّخوا له وما عليه. فيقول الأستاذ محمد عبد الله عنان تحت عنوان «نظرة إلى المستقبل»[٢].

٢ - تقويم لما آل إليه الأزهر بعد تطويره:

ما كسبه الأزهر من هذا الانقلاب في مصايره لا يزال رهن الزمن والمستقبل. ومن سبق القول أن نتحدث عن مزايا نظام جامعي لم يتمخض بعد عن آثاره، ولكنا نستطيع بالعكس أن نقول أن الأزهر الحديث على الرغم من جميع الجهود التي بذلت لإصلاحه منذ

---

(١) الأزهر في ألف عام، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

نصف قرن، وبالرغم من تحويله الظاهر إلى جامعة أزهرية، فقد كثيراً من المزايا العلمية والجامعية الحقيقية التي اقترنت بتاريخه القديم نذكر منها:

١ ـ فقد اختفى جيل العلماء الأعلام المبرزين في علوم الدين واللغة ممن حفلت بهم حلقاته في أواخر القرن الماضي، وكانوا بقية أخيرة لذلك الجيل القديم، من علماء الأزهر الذين وهبوا حياتهم للدرس، وقد كان الأزهر حتى أواخر القرن الماضي يأخذ بنصيب بارز في تكوين الزعامة الفكرية والقومية.

٢ ـ وقد فقد الأزهر كثيراً من خاصته الروحية التي كانت تحمل شيوخه وطلابه على التفاني في التحصيل والدرس، والتعلق بشرف العلم والإعراض عن مغريات الدنيا، وإيثار التقشف والزهد، على الحياة الناعمة.. وتحول شيوخ الأزهر في ظل النظم الجديدة شيئاً فشيئا إلى نوع من أرستقراطية رجال الدين، التي تمتاز ببسطة في الرزق والجاه، وتحول طلابه إلى ميدان الصراع المادي في سبيل العيش، والسعي وراء الوظائف.

٣ ـ ومن جهة أخرى فإن الأزهر الحديث على الرغم من اتسامه بسمة الجامعات العصرية، لا يزال بعيداً عن أن يجاري روح العصر فعلاً في تنظيم مناهجه وأساليبه العلمية. فهو لا يزال يعيش على تراث الأزهر القديم، ولا يزال مرجع الدراسة بالكليات الأزهرية الحديثة في علوم الدين واللغة طائفة من الكتب القديمة التي يعرفها الأزهر منذ العصور الوسطى، فالشاطبية، والهداية، والسنوسية، والصبان، وألفية ابن مالك، وشرحها لابن عقيل، ومختصر السعد وحواشيه، وكتب ابن حجر، والبلقيني، والسيوطي، والبرماوي، والزماوي، والزيلعي، وغيرها، تدرَّس في الكليات للطلبة النظاميين، وبعض هذه الكتب يرجع إلى القرن السادس الهجري كالشاطبية، أو السابع مثل مختصر ابن الحاجب، وألفية ابن مالك، أو الثامن كشرح ابن عقيل ومختصر السعد، ومع أن هذه المصنفات القديمة لا تزال تحتفظ بقيمتها العلمية، فهي لا تصلح سواء بمادتها أو طرائقها العتيقة لعقلية الطالب الحديث، ولم يزود طلبة الجامعة الأزهرية حتى اليوم من الكتب والمذكرات الدراسية الحديثة إلا بقدر ضئيل جداً في بعض المواد المستحدثة: مثل التاريخ الإسلامي، والسيرة النبوية، وتاريخ التشريع، وتفسير بعض آيات الأحكام، وكذا بعض كتب البلاغة والأدب والنحو والصرف، وسيمضي وقت طويل قبل أن يستطيع المشرفون على الدراسة بالجامعة

الأزهرية أن يضعوا من الشروح والتآليف المنظمة الحديثة ما يسدّ حاجة الطلاب.

٤ ـ وقد فقد الأزهر كثيراً من مزايا الدراسة الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة، التي لبثت قروناً تزيّن أروقته وساحاته، فقضى عليها النظام الجديد، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة، تتمثل في إلقاء بعض الدروس العادية في علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى التي توجد بها المعاهد الدينية، وتقرأ فيها الكتب القديمة، ويشهدها الطلاب غير النظاميين، ولا سيما الغرباء وبعض أفراد الجمهور، وتعرف في ظل النظام الجديد بالأقسام العامة.

والواقع أن الحلقات القديمة لم تكن إلا المدرج الجامعي الحديث، وقد كانت تتفوق بلا ريب في عناصرها الجامعية على فصول الكليات الأزهرية، وكان خيراً لو أصلحت ونظمت على غرار الدراسات الجامعية العليا، التي يتولاها أعلام الأساتذة. قد كان في استبقائها على هذا النحو تخليداً لذكرى الحلقات الأزهرية التاريخية التي كانت أيام ازدهارها من محاسن الدهر وآلاء الأزهر، وكانت في كثير من الأحيان مجمع الصفوة من الأساتذة والمستمعين.

ولقد اضطرم الصراع بين الثقافتين القديمة والمحدثة، وقد أحرز الجديد نصره النهائي على تراث القديم وأساليبه، وتبوأت الثقافة المحدثة في مصر المكان الأول وهي تؤكد هذا الظفر كل يوم بما تخرجه من جندها المستنير الطموح إلى الحياة العصرية، بكل ما أوتي من المزايا المعنوية والمادية. على أن ذلك لا يعني أن مهمة الأزهر قد انتهت، أو أنها يجب أن تنتهي، بل بالعكس من ذلك، إن للأزهر مهمة جليلة، يستطيع الاضطلاع بها إذا وفّق إلى الوسائل والأساليب الصالحة لتأديتها. تلك المهمة هي العمل على دعم رسالة الإسلام، ورسالة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بأساليب مستنيرة.. وقد كان الأزهر معقلاً من معاقل هذه الرسالة طوال العصور الوسطى، والعصر التركي، وفي وسعه أن يكون معقلها اليوم[1].

ثم نأتي لعالم آخر من أبناء الأزهر الذين أرَّخوا له، هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

(١) الأستاذ عبدالله عنان في تاريخ الأزهر. نقلاً عن الأزهر في ألف عام، ص ٢١٨.

فنراه يكتب تحت عنوان: «ثورة التطوير في الأزهر» ويقول: «فالقانون لم يكن ثمة كبير حاجة إلى تخطيطاته في بعث روح الثورة المنشودة داخل الأزهر (يقصد إصلاحه)، لكي يؤدي رسالته. فإن الثورة المنشودة التي يتطلبها المسلمون من الأزهر لا يمكن أن يصنعها قانون، بل لا بد أن تشتعل روحها أولاً وقبل كل شيء في نفوس العلماء والطلاب..» ثم أخذ يعدد مآخذه على قانون التطوير بالنظر إلى روح القانون على الوجه التالي نذكر منها:

١ ـ أخذ على القانون إنشاء كليات علمية جديدة لا صلة لها بالدراسات الإسلامية فتشكل عبئاً مادياً وإدارياً مع بعدها عن رسالة الأزهر، وكان يمكن السماح لطلبة الثانوية الأزهرية دخول هذه الكليات في جامعات مصر المختلفة خاصة الجديدة منها (المنصورة – الزقازيق – طنطا – أسيوط) فيتحقق الغرض الذي قالوا به[١].

٢ ـ انتقد وجود كلية الدراسات العربية وهي لا تزيد عن كلية آداب لتحل محل كلية اللغة العربية[٢] وعندنا الكفاية من كليات الإدارة علاوة على كلية دار العلوم.

٣ ـ كليات الدراسات الإسلامية لا بدّ من تضمّنها كلية أو فرعاً لأصول الدين وآخر للشريعة وبذلك نكون أحللنا كليتين جديدتين بدلاً من اثنتين قبلهما. فما هو المردود من ذلك (هو ما ذكرناه في هامش ٢).

٤ ـ نص القانون على إدماج مناهج المعاهد الثانوية والابتدائية من مناهج المدارس الحكومية مع الإبقاء على مناهج علوم الدّين. وبذلك تضمن القانون الإرهاق الكامل للطالب مع ضعف مستواه في الدراسات التي تؤهله لدراسات علوم الدين[٣]. وأيضاً لن يبرز في العلوم الحديثة الأخرى[٤].

---

(١) قالوا نريد أن نخرج الطبيب المسلم والمهندس و... من الأزهر الشريف للعمل في البلدان الإسلامية المختلفة ليقوم بواجبه وبواجب الدعوة وهي كلمة حق أريد بها باطل كما يقولون. فكان الغرض الفعلي هو إبعاد الأزهر عن رسالته التي يؤديها للإسلام والمسلمين على مر العصور. وذلك طبقاً لما رسمه دنلوب في عصر الاحتلال البريطاني لمصر.

(٢) وذلك حتى يمكن إسقاط المواد التي لا يريدونها بالكلية خاصة (العلوم الدينية) وإثبات ما يريدون على أنها كليات جديدة بمناهج جديدة وكل جديد جميل.

(٣) وهذا هو فحوى المطلوب من قانون التطوير (الحق الذي أريد به باطل).

(٤) انظر: الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، جـ ١ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

٣ – هيئات الأزهر في وضعه الجديد:

ونختتم هذا البحث بذكر الهيئات التي يتكّون منها الأزهر طبقاً لقانون التطوير:

١ – المجلس الأعلى للأزهر:

ويرأسه شيخ الأزهر ويشترك فيه كبار العلماء، وخبراء في التعليم والإدارة[١].

٢ – مجمع البحوث الإسلامية:

ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية ورسم نظام البعثات الأزهرية إلى العالم الإسلامي، ومنه.

٣ – إدارة الثقافة والبعثات الإسلامية:

وتجهز الدراسات والبحوث للمجمع وتتابع التنفيذ وتتحمل مسئولية البعثات الإسلامية.

٤ – جامعة الأزهر:

وتضم كليات الدراسات الإسلامية وكليات الدراسات العربية، وكلية المعاملات والإدارة، وكلية الهندسة والصناعات، وكلية الطب، وكلية الزراعة.

٥ – المعاهد الأزهرية:

وتعدّ طلبة الجامعة الأزهرية... ولكن لهم مطلق الاختيار لمتابعة الدراسة الجامعية سواء في كليات الأزهر، أو في غيرها[٢] من الكليات والمعاهد العالية[٣].

---

(١) حيث ألغيت هيئة كبار العلماء لينتفي المضمون الإسلامي لها وحل محلها هذا المجلس الذي يصبح من ضمن اعضائه خبراء التعليم والإدارة من مختلف التخصصات ولا يمنع أن يكون بينهم ذو الفكر العلماني ومن الأفكار الهدامة التي تبعد عن الفكر الإسلامي (خبراء) وبذلك حقق عبد الناصر التخلص من أكبر هيئة لعلماء الإسلام (أهل الحل والعقد) وأحل محلها ما يريد. وهكذا كان التدمير لا التطوير.

(٢) فتح باب التفلت من الدراسة في الأزهر حتى لأبنائه الذي أرهقهم القانون بما حملهم من المواد.

(٣) انظر: الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، جـ ١ص ٢٢١ .

المطلب الثالث

من رجال الأزهر

١ - الدكتور محمد عبد الله دراز* ١٨٩٤ - ١٩٥٨م

نشأته وتعليمه:

هو علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث آتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام، كما نهل من علوم أوربا الشيء الكثير، واتصل بحضارتها اتصالاً وثيقاً دام سنوات طويلة.

ولد - رحمه الله - في قرية (محلة دياى) بمحافظة كفر الشيخ في عام ١٨٩٤ م وانتسب إلى معهد الإسكندرية الديني في عام ١٩٠٥ م. وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام ١٩١٢ م وعلى شهادة العالمية في عام ١٩١٦ م. تعلم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حباً في المظهر بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع. فكان إبان ثورة ١٩١٩ م يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ودينه، كما كان يدافع عن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة (الطان) الفرنسية.

(*) انظر: ـ دستور الأخلاق في القرآن ـ مقدمة الكتاب التي وضعها د/ السيد محمد بدوي و (د/ عبد الصبور شاهين)، دار البحوث العلمية الكويت ط ٣، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
ـ مقدمة كتاب الدين ـ محمد عبدالله دراز ـ دار القلم.
ـ نظرات في الإسلام، محمد عبدالله دراز، مقدمة المحقق محمد موفق البيانوني، مكتبة الهدى، حلب.
ـ النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز، مقدمة الكتاب، دار القلم، الكويت.

في عام ١٩٣٨ م سافر إلى فرنسا في بعثة أزهرية واشتغل للتحضير لدرجة الدكتوراه فكتب رسالتين عن: «التعريف بالإسلام» وعن «الأخلاق في القرآن» نال بهما دكتوراه الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة وذلك في ١٥/١٢/١٩٤٧ م.

كفاحه العلمي والعملي:

وعلى أثر عودته إلى الوطن انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في عام ١٩٤٩ م، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم واللغة العربية بالأزهر وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية.

وفي عام ١٩٥٣ م اختير عضواً في اللجنة العليا لسياسة التعليم كما اختير عضواً في المجلس الأعلى للإذاعة إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلاً لمصر والأزهر.

وفاته:

كانت آخر رحلة له رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة لاهور في يناير عام ١٩٥٨ م وقد ألقى هناك بحثا عن «موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها» ووافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر في ٦/١/١٩٥٨ م.. ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلاً فاضلاً للعالم الأزهري الغيور على دينه، المحافظ على كرامته، المتصوّن في مظهره وسمعته، الداعي إلى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

آثاره العلمية:

امتاز الدكتور دراز بعمق وأصالة في كتاباته، وكانت أفكاره نابضة بالحياة والحيوية، جمعت في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا، كل ذلك في أسلوب سلس رصين.

وقد كان كتابه باللغة الفرنسية «الأخلاق في القرآن» فتحاً لأعين أوربا - وبها ما بها من خراب أخلاقي - بأن الإسلام هو الحل الأمثل لكل ما تعاني منه الإنسانية، أوربية وغير أوربية، من أدواء، ولكن مَن ذا الذي يفتح الأعين؟ وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

وتشتمل مؤلفات الدكتور دراز على مجموعة قيمة من الكتب والبحوث نذكر منها:

١ ـ التعريف بالقرآن (بالفرنسية وترجم إلى العربية).

٢ ـ دستور الأخلاق في القرآن (بالفرنسية وترجم إلى العربية).

٣ ـ الدين (بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان).

٤ ـ النبأ العظيم (دراسات في القرآن).

٥ ـ نظرات في الإسلام (حديث عن الإسلام).

هذا عدا بحوث عدة نذكر منها:

١ ـ أصل الإسلام.

٢ ـ الربا في نظر القانون الإسلامي.

٣ ـ المسئولية في الإسلام.

٤ ـ العبادات: الصلاة والزكاة والصوم والحج.

٥ ـ الأزهر، الجامعة القديمة والحديثة.

رحمه الله رحمة واسعة بما أسدى إلى الإسلام والمسلمين.

٣ ـ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد* رائد مدرسة التحقيق العلمي ١٨٩٨ ـ ١٩٧٣م

يعدّ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد[1]، بكفاحه العلمي الكبير رائد مدرسة التحقيق العلمي، تبع منهجه وتتلمذ عليه المحققون وشراح كتب التراث، وكثير من الشباب منهم من أصبحوا من كبار العلماء وكبار رجالات الدولة في العالم الإسلامي والعربي ممن درسوا على يديه في كليتي اللغة العربية وأصول الدين.

(*) هذا العالم الجليل الذي أفاد الكثير وأعطى لم تحظ المكتبة الإسلامية بمن يوفيه حقه بالكتابة عنه فلم أحصل سوى على مرجعين بهما القليل عن سيرته وحياته. وقد ذكرت مولده بالتقريب.

(١) انظر: ترجمته في: الأزهر في ألف عام، خفاجي ٣/٤٤٥ ـ ٤٤٩.

نال شيخنا درجة العالمية أعلى درجة علمية في عصره عام (١٣٤٧ هـ - ١٩٢٥ م) من الأزهر الشريف. وكان سبّاقا على أقرانه من العلماء.

مناصبه العلمية:

شغل الشيخ الجليل مناصب عدة بادئاً بأستاذ في الأزهر الشريف فأستاذ بكلية اللغة العربية، فمفتشاً عاماً بالمعاهد الدينية. وشغل منصب وكيل كلية اللغة العربية فرئيساً لمفتشي العلوم الدينية والعربية بالأزهر، وكان عضواً بالمجمع اللغوي وكذلك بلجنة الفتوى بالأزهر، وعضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكثير من الهيئات العلمية، وشارك في تأسيس كلية الحقوق بجامعة السودان عام ١٩٤٠ م.

أشرف الشيخ محمد محيي الدين على عدد من الرسائل العلمية منها: «رسالة الدكتوراه المقدّمة من نور الدين محمد العتر».وكانت بعنوان: (الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين) (ط أولى) سنة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م وكان هذا الكتاب من المصادر التي اعتمدنا عليها في التعريف بالشيخ محمد محيي الدين.

آثاره ومؤلفاته:

كان الشيخ محمد يقف دائماً رائداً في أفكاره[1] وتوجيه الاهتمام إلى المجالات المبحوثة. وكان له عناية خاصة بالحس الأدبي في اللغة، واهتمام كبير بتربية الحس اللغوي.

وتنقسم أعماله إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ دراسات أدبية وإسلامية ولغوية قيّمة ومنها على سبيل المثال: كتابه أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية، المعاملات الشرعية ومؤلفه القيم «تصريف الأفعال». ودراسته للفكر الإسلامي عند الشيخ محمد مصطفى المراغي[2]، في عدد نوفمبر ١٩٤٥ م من مجلة الكتاب التي كانت تصدرها دار المعارف.

---

(١) فهو أول من فكر في تأليف كتب دينية بالرسوم للأطفال.
وهو أول من اعتنى بكتب التراث وحققها، وكان رحمه اللّه أشهر شارح لكتب القدماء في مختلف فنون العلم.

(٢) انظر ترجمته ص ٢٦٩ .

٢ ـ تحقيقات الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، والتي نبغ فيها شيخنا فكان من أكثر من حققوا في مختلف العلوم ومنها على سبيل المثال سيرة ابن هشام - مقالات الإسلاميين للأشعري ونفح الطيب للمقري، وكثير غيرها مما لا يسع المجال لذكرها.

٣ ـ شرح كتب التراث في الثقافة العربية وتذليل صعوباتها للباحثين، ومن تلك الكتب ما زادت طبعاته على الخمس والعشرين[١] طبعة مثل: «التحفة السنية» الذي لا يزال يدرس في العالم العربي والإسلامي كشرح للأجرومية. وشرحه على «شرح ابن كثير» وغير ذلك الكثير الذي يصعب حصره.

ولا يسعنا المجال لاحصاء آثاره ومؤلفاته - رحمه الله - الذي حقّق وشرح وألّف في كثير من المجالات مما أثرت المكتبة العربية والإسلامية. ويسّر على طلاب العلم الكثير فتلمذ على يديه من لم يره إلا من خلال آثاره ومؤلفاته. رحم الله شيخنا الكبير، الذي توفاه الله عن نيف وسبعين عاماً في مارس ١٩٧٣ م. بعد أن قدم أجلّ الخدمات للعلم ولشباب الإسلام بما حقق وألّف، واختطّ من مناهج تربوية رائدة.

(١) كتاب التحفة السنية وهو شرح للأجرومية.

المبحث الثاني

مدرسة دار العلوم

ويشتمل هذا المبحث على تمهيد ومطلبين:

المطلب الأول : أثر مدرسة دار العلوم في الحياة الفكرية في مصر.

المطلب الثاني : من رجال دار العلوم.

تمهيد

إن أكثر الناس لا يعلمون من أمر هذه المدرسة إلا القليل مع اعترافهم بما ظهر من آثارها العظيمة في الديار المصرية وفي سائر البلاد العربية منذ أشرقت طلعتها في سماء المعارف. أضاءت على ربوع التعليم أنوارها وانفردت بالفضل الجليل، فهي منار العلوم العربية في الديار المصرية، وأخرجت للعالم جهابذة حذاقاً، تعطّرت بهم مصالح الحكومة وأرجاء القطر، فمنهم القاضي والمدرِّس والكاتب والمحامي.. الخ ومن الناس من يحيط تاريخها بجهالات أو تخرصات مخالفة للحقيقة[1].

أبدأ كلامي عن مدرسة دار العلوم بهذه الفقرة من تقرير مسئول عن التعليم في مصر في تلك الفترة. وهي فقرة جامعة تلمّ بأطراف الموضوع الذي نريد بحثه بإذن الله عن هذا الوعاء الفكري الذي أثر في مصر بل وفي المنطقة العربية بأكملها.. ولكي نوضح مسار هذا الصرح الشامخ في نفع وتوجيه الحركة الفكرية في مصر والعالم العربي والإسلامي يجدر بنا عندما نتكلم عن دار العلوم أن نثبت جانباً عن أثرها وتأثيرها في ذلك.

---

(١) من تقرير لأمين سامي باشا بتاريخ ١٩١٠م.
(ناظر دار العلوم لمدة ١٦ سنة ونصف، تقويم دار العلوم، ص ٢٩).

المطلب الأول

أثر مدرسة دار العلوم في الحياة الفكرية في مصر

إن الموجّه الأول للفكر هو التعليم، وقد أنشئت دار العلوم أول ما أنشئت لتخريج معلّمين للغة العربية ولكن بصورة متطورة عما كان يتم في الأزهر.. وذلك بإدخال «المواد العصرية» أو «المواد الصناعية» كما كان يسميها الشيخ محمد عبده الذي كان يعمل مدرِّساً بدار العلوم في سنة ١٨٧٤ - ١٨٧٥ م[١] فدرَّس الطلاب مع الصرف والنحو علوم البيان والبديع والمعاني والإنشاء مع باقي المواد التي تدرَّس بالأزهر وكذلك الحساب والهندسة بعدد من الحصص ليس بالقليل (٦ حصص أسبوعياً). هذا عدا التاريخ والجغرافية الطبيعية والكيمياء والخط، وحصص كل منها لا تقل عن حصص التفسير والفقه. ثم جاء دور اللغات الأجنبية. الفرنسية والانجليزية. ونلخِّص فيما يلي الآثار الهامة لمدرسة دار العلوم:

الآثار الهامة لمدرسة دار العلوم:

١ ـ في الواقع نستطيع أن نقول إن معلمي اللغة العربية من خريجي دار العلوم في السنوات الأولى من إنشائها لم يستطيعوا أن يجددوا كثيراً في طريقة تدريس هذه اللغة، فظلت طريقة الأزهر وروحه وكتبه قائمة في المدارس. حيث أن مادة «التربية» لم تدخل في مناهج الدراسة بدار العلوم إلا بعد مضي أربعة عشر عاماً من إنشائها (سنة ١٨٨٦ - ١٨٨٧ م)[٢].

---

(١) تاريخ الإمام، السيد رشيد رضا، جـ ٢ص ٥٤٧ .
وعنه: تاريخ التعليم في مصر، ص ٥٨٧
(٢) انظر: تاريخ التعليم في مصر، ص ٥٨٨

٢ - من جهة التعليم الديني يُعدُ إنشاء دار العلوم في سنة ١٨٧٢ «أول عناية اتجهت لترقية التعليم الديني، فقد قصد بها تغذية فئة من طلبة (تلك) الجوامع بلبان الفنون العصرية»[١].
أما في رسالة التوحيد فقد قيل أن من أغراضها «توجيه التعليم الديني وجهة عصرية»[٢].

٣ - كان رأي الشيخ محمد عبده الذي قدّمه لرياض باشا رئيس الوزراء وهو توسيع نطاق دار العلوم بحيث لا تكون مختصة بمدرّسي اللغة العربية بل «يرتب التدريس فيها على طريقة تؤدي إلى تكثير الأساتذة المهذبين لكل نوع من أنواع المعارف[٣] اللازم تعميمها في الأمة؛ ولكل طبقة من طبقات المدارس». وكان الشيخ محمد عبده يريد لها أن تكون مركزاً لنشر ثقافة دينية ومدنية واسعة، ومنبعاً لحركة إصلاحية قوية، فهي تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري والديني والخلقي، ويذهب في ذلك إلى حد أن يرى أنه: «يمكن أن ينهي أمرها إلى أن تحلّ محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر»[٤].

٤ - وفي سنة ١٨٨٧ م أصبحت دار العلوم غير قاصرة على تربية معلّمي المدارس فعمل خريجوها في وظائف القضاء والنيابة بالمحاكم الشرعية، وأيضاً في الإفتاء[٥] هذا إلى جانب من عمل بالأعمال الحرة في المجالات المختلفة[٦].

---

(١) التعليم في مصر، أمين سامي باشا، ص ٧٦٧,

(٢) رسالة التوحيد، الإمام محمد عبده، ص ١١١ .

(٣) وفعلاً تم تعيين الطلبة المتخرجين من دار العلوم لتدريس المواد الأخرى غير اللغة العربية بالمدارس الابتدائية حتى أن بعض النجباء منهم تم تعيينهم للتدريس بالدار ذاتها بعد تخرجه لمواد الحساب والجغرافيا والهندسة (انظر: تاريخ التعليم في مصر، ص ٥٩٥).
ومنهم من درّس وألّف مثل الشيخ ابراهيم علي سلامة الذي عمل مدرّساً لمادتي الرياضة وإمساك الدفاتر بمدرسة التجارة المتوسطة وألّف كتباً منها:
١ ــ ستة آلاف مسألة في الرياضة (٥ أجزاء).
٢ ــ المقاييس.
٣ ــ التمارين والاختبارات في المحاسبة وإمساك الدفاتر (بالاشتراك).
(تقويم دار العلوم، ص ٥٧٧ هامش (١).

(٤) من مذكرة وضعها الأستاذ الإمام عقب عودته من المنفى ورفعها إلى اللورد كرومر بعنوان «هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات إليه من نظام التربية في مصر» ونشرها السيد رشيد رضا في تاريخ الإمام جــ ٢ ص ٥٤٨، ٥٤٩.
وهذه من سقطات الشيخ محمد عبده في طريق اجتهاده في الإصلاح.

(٥) انظر: تقويم دار العلوم، مرجع سابق، ص ٢١، ص ٢٢ .

(٦) منهم من عمل في المحاماة. والمقاولات وغيرها.

٥ - إنشاء مدرسة (دار العلوم) في سنة ١٨٧٢ م لإعداد معلمين للغة العربية كان حافزا لإنشاء مدرسة أخرى لإعداد المعلمين لسائر مواد الدراسة[١] فكانت مدرسة المعلمين العليا فيما بعد.

٦ - ومن الآثار الحيّة لدار العلوم ما خلفت من رجال سيظل نفعهم وذكرهم على مر الأجيال وعلى رأسهم الإمام حسن البنا[٢] - رحمه الله - الذي جدد للأمة دينها، وقام بتربية جيل سيمتد أثره أجيالاً متعاقبة إن شاء الله. وغيره الكثير من رجال دار العلوم في مجالات الفكر المختلفة سنذكر نبذة عن نموذج من نماذج هؤلاء النفر.

---

(١) انظر: تاريخ التعليم في مصر، ص ٥٩١ .

(٢) انظر ص ٤٣١ وما بعدها.

المطلب الثاني

نماذج من رجال دار العلوم

الشيخ عبد الوهاب النجار* ١٨٦٨ - ١٩٤١ م

١ - مولده ونشأته:

ولد الأستاذ النجار بالقرشية في منتصف مارس سنة ١٨٦٢ م، وكان والده ممن يميلون إلى التصوف وحدث أنه كان يقرأ في كتاب الطبقات للشعراني ساعة بُشِّر بمولده، فسمي وليده عبد الوهاب تيمناً بمؤلف الطبقات، وكأنه اراد بذلك أن يكون الوليد من رجال العلم، وقد سار في تربيته على النحو الذي يريد، فعمل على أن يحفظ القرآن في طفولته، ثم أرسله إلى الجامع الأحمدي في طنطا ليتلقى الدراسة الأزهرية في يفاعته. وفي السنوات الأولى من حياته العلمية شغف بالأدب وسعى إلى مجلس شاعر ناشئ في طنطا بعد أن سمع شعراً من شعره، وكان هذا الشاعر هو حافظ إبراهيم في بداية حياته الأدبية وشاعر النيل فيما بعد.

لقد تأصل حب الأدب في نفس الطالب الناشئ، فأكبّ على كتبه رواية وحفظاً واستيعاباً.

(*) انظر:

١ ـ النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الدكتور محمد رجب البيومي، سلسلة البحوث الإسلامية، سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٢ ـ تقويم دار العلوم، محمد عبد الجواد، ص ٢١٢.

٣ ـ قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ط ٢.

ثم انتقل النجار إلى القاهرة والتحق بدار العلوم فكان نجماً لامعاً، وزميلاً عظيماً «لعبد العزيز جاويش»[1] وغيره من أبناء فرقته الدراسية وتخرج في «دار العلوم» عام ١٨٩٧ م.

وبعد تخرّجه اشتغل بتدريس اللغة العربية بمدرسة عابدين الأميرية، ثم بالمحاماة الشرعية، ثم درّس بكلية غوردون بالسودان، ثم عُيّن مدرّساً للتاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين (قسم الوعظ والإرشاد).

٢ - جهاده العملي والعلمي في سبيل الدعوة:

١ ـ لقد بدأ شيخنا كفاحه في الدعوة مبكراً منذ نعومة أظفاره، حيث فرضت عليه الأحداث ما دفعه لخوض الصراع لاعلاء كلمة الله وهو بعد في سنواته الدراسية الأولى، إذ أن أحد القساوسة الانجليز من «البروتستانت» قد تزيّا بزي الأقباط، ووفد إلى طنطا في بعثة تبشيرية سرية، وكان أكبر همه أن يثير الاعتراضات المغرضة ويذيعها بين الناس، ثم أخذ يجتمع بطلبة المعهد الديني ليلقي إليهم سمومه في ثوب أسئلة دينية تتطلب الإجابة، فلم يطق الفتى الناشئ صبراً على هذا التبشير المقصود، وأخذ يحاصر القس مع نفر من زملائه سائلاً، مساجلاً، متهماً - وذلك بعد أن سلّح نفسه بدراسة المسائل الدينية في أصول الإسلام والمسيحية وهو بعد في سنواته الدراسية الأولى - حتى تحولت طنطا إلى ساحة سجال ديني؛ وانتقل صدى هذا النقاش إلى القاهرة، ثم أبرق إلى انجلترا إلى الجهة الرسمية المتبنية لهذا العمل، فضجت «التيمس» واتهمت المصريين بالتعصب الديني!! وتدخل اللورد كرومر المعتمد البريطاني حين رأى من الحكمة إبعاد القس عن طنطا كي لا يؤجج حرباً دينية، ولولا ثبات النجار ورفاقه، لتمادى المبشّر في غيّه مشمولاً بعناية الحاكمين من المحتلين.

(١) عبد العزيز جاويش: (١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م) أحد رجال الحركة الوطنية بمصر. تونسي الأصل ـ ولد بالاسكندرية وتوفي بالقاهرة، تعلم بالأزهر وجامعة كمبردج. تولى مناصب في وزارة المعارف العمومية بمصر. اتصل بمصطفى كامل الزعيم المصري. تولى تحرير «اللواء» جريدة الحزب الوطني. حوكم مرات عدة بسبب حملته على المستعمرين، سجن ستة أشهر لمقالة عن دنشواي كان خطيباً ممتازاً شارك في إنشاء جمعية الشبان المسلمين. له: «أثر القرآن الكريم في تحرير الفكر البشري»، «خواطر في التربية والسياسة وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة»، كتاب في التربية والتعليم (الموسوعة العربية، ص ١١٨٣).

٢ ـ ولم يكن حظ النجار في القاهرة أقل مما لاقاه في طنطا في سبيل محاربة أعداء الله. فما أن انتهى من دراسته في دار العلوم وعمل مدرّساً للغة العربية في مدرسة عابدين الأميرية، حتى وجد المدرسة الانجليزية في باب الخلق تقوم بالتبشير العلني للنصرانية مشمولة برعاية اللورد كرومر السافرة. فما كان من فتى طنطا المسلم إلا أن استنفر معه شلّة من رفاقه المدرِّسين وتوجه إلى مقر التبشير ليناقش القساوسة فيما يدّعون، ثم والى ذهابه يوميا مع رفاقه إلى المدرسة، إلى أن فوجىء ذات مساء بكوكبة من الجند تخف للقبض عليه مع زملائه، وتحرم عليهم هذا المكان[1] وإلا..

٣ ـ لم يقف الشيخ النجار مكتوف اليدين أمام منعه من المواجهة المباشرة فاتجه على الفور إلى الأستاذ محمد زكيّ الدين وكان من خيرة الدعاة للإسلام حيث اتفقا على تأسيس «جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية»[2] لتجمع الشباب المسلم كل مساء لتعرِّفه حقيقة دينه، وتفنّد مزاعم التبشير النصراني، وتلقي فيها المحاضرات التي تعرِّف بالدين الإسلامي.

٤ ـ ولم يقف نشاطه الفكري والعلمي على المناظرات والمحاضرات ولعل أبرز مجال انفسح أمام الشيخ في مضمار الدعوة الإسلامية هو مجال جمعية الشبان المسلمين، منذ سعى مع الأستاذ عبد العزيز جاويش[3] والدكتور عبد الحميد سعيد[4] إلى تأليفها لتقوم برسالة الإسلام الثقافية والاجتماعية فتصدّ التيار الغربي المناوئ، وتدعو إلى إحياء أمجاد السلف، وترد الثقة بحضارة العرب وعظمة الإسلام، وفي قاعة هذه الجمعية جلجل صوت النجار عالياً في كل مناسبة تحين، بحيث صارت منبراً عظيماً لكبار المخلصين من رجال الشرق

---

(١) انظر: النهضة الإسلامية، محمد رجب البيومي، ص ١٤٥، ص ١٤٦.

(٢) كانت أول جمعية تؤلف للدعوة الإسلامية في مصر وقد اتسع نشاطها في ذلك الوقت، فضمّت الكبار من الوزراء والعلماء والقضاة، وصار لها مجلة تسجل محاضراتها وتذيعها على الناس، (النهضة الإسلامية، ص ١٤٦).

(٣) انظر ترجمته ص ١٣٢.

(٤) عبد الحميد سعيد: ولد بالقاهرة وكان أبوه ابراهيم باشا سعيد من أعيان مصر، بعد أن نال البكالوريا من مدرسة التوفيقية الثانوية سافر في أول بعثة أوفدتها الجامعة المصرية سنة ١٩٠٧م إلى باريس حيث حصل على الدكتوراه في القانون والاقتصاد السياسي، اشترك في حرب البلقان بالجيش العثماني سنة ١٩١٢م شارك أعضاء الحزب الوطني الكفاح ضد الانجليز، رجع إلى مصر سنة ١٩٢٣م. شارك في الحياة النيابية بمبادىء الحزب الوطني. شارك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين وعين رئيساً لها في ديسمبر سنة ١٩٢٧م (أبطال الكفاح الإسلامي المعاصر، د/ محمود دياب، مطبوعات الشعب ط ١، ١٩٧٨م، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢).

والإسلام، فكشفت خداع المروِّجين لمادية الغرب وبهارجه، وأقامت حصناً واقياً للفكرة الإسلامية، وظهرت مجلتها الرسمية فكان الشيخ هو المسئول عن باب الافتاء فيها، وكانت فتاواه تصدر عن ثقافة عريقة، تمدّها خبرة أصلية وافية بأحوال العصر وعمل في الجمعية أيضاً مشرفاً عاماً على اللجنة الثقافية[1] والتي كانت تضم نخبة من الشباب المتخرجين في مختلف العلوم بألمانيا. وساهم في جميع نشاطات الجمعية بقلمه وفكره ولسانه.

٥ ـ لم تكن جمعية مكارم الأخلاق هي نشاطه فقط، بل حاول أن يساهم بكل طاقاته في جميع طرق الإصلاح والخير وما فيه النفع لدينه وقومه.

٦ ـ ولم يقتصر نشاط الشيخ في مجال الدعوة على أروقة جمعية الشبان المسلمين وصفحات مجلتها، بل تعدى ذلك إلى خارج حدود البلاد. فقد أرسلت جمعية الشبان المسلمين سفراءها إلى عواصم عدة من الدول العربية والإسلامية فكان شيخنا سفير الدعوة في عدة أقطار منها: سوريا وتركيا والعراق وفلسطين، وذلك بقلمه ولسانه وفكره. ومن رحلات الدعوة أيضاً رحلته إلى الهند مع اثنين من كبار العلماء بتكليف من الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي[2] شيخ الأزهر. وكانت مهمتهم الوقوف بجانب مسلمي الهند في تلك الفترة بالنصح والإرشاد وشدّ أزرهم في دولتهم. بل رأى أن، يغذي الصحف اليومية بآرائه الدينية والاجتماعية فظهرت مقالاته المتتابعة تعالج شؤون الإصلاح ومنهجه في الدين والحياة، بمفهوم الإسلام الشمولي.

٧ ـ عندما طار ذكره وفكره في الأسماع والأبصار، انتدب للتدريس بالمدارس العالية، ثم رحل إلى الخرطوم في سفارة علمية ليدرّس في كلية غوردون بالخرطوم ثم رجع إلى مصر ليكون أستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية ليشرف على تهيئة جيل جديد يتفتح للبحث العلمي في شتى فروعه. وكان الأستاذ النجار في عمله متعدد العطاء، فكان يشرف على إعداد رسائل الدكتوراه في فروع مختلفة، وأن يناقش اليوم رسالة في الفلسفة، ليناقش في

(١) انظر: أبطال الكفاح الإسلامي المعاصر، د/ محمود دياب، القاهرة، مطبوعات الشعب، يونيه ١٩٧٨م.
(٢) الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر تم ذكره في الاتجاه العقلي ص ٢٦٩ .

الغد رسالة في الأدب وليناقش بعد الغد رسالة في التاريخ(١).

وكان الشيخ النجار من أبرز المناقشين دقة وتحديداً، وقد اعتاد أن يكتب تقريراً مفصَّلاً مسهباً عن كل رسالة متضمناً نقده للرسالة باباً باباً على وجه التفصيل، وكان طلابه يعتزون بنقده وتوجيهاته فيثبتونها في صدر رسائلهم عند طبعها(٢).

٨ ـ إن كتابة التاريخ المعاصرة تختلف اختلافاً تاماً عن كتابة التاريخ في القديم.. فكتب التاريخ في القديم، جلّها كتب رواية وإسناد ولو تعارضت الروايات تعارضاً واضحاً في الموضوع الواحد بل في النقطة الواحدة، أمثال الطبري(٣) والمسعودي(٤) وابن الأثير(٥) حيث كانوا يعتبرون إثبات جميع الروايات من الأمانة العلمية ما دامت معزوة إلى مصدرها.

---

(١) انظر: النهضة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٢) سجل الدكتور زكي مبارك آراء النجار في هوامش رسالته المطبوعة عن أخلاق الغزالي، وكذا الدكتور أحمد البيلي فقد افتتح الطبعة الثانية من رسالته التاريخية عن صلاح الدين بمذكرة الأستاذ النجار الكائنة في عشر صفحات. (النهضة الإسلامية، ص ١٤٧).

(٣) ابن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ = ٨٣٩ ـ ٩٢٣م):
محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، له: «مع أخبار الرسل والملوك» يعرف بتاريخ الطبري، في ١١ جزءاً، و«جامع البيان في تفسير القرآن» يعرف بتفسير الطبري، في ٣٠ جزءاً، و «اختلاف الفقهاء» وغير ذلك. وهو من ثقات المؤرخين، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً.
(تذكرة الحفاظ ٣٥١/٢، والوفيات ٤٥٦/١ وطبقات السبكي ١٣٥/٢ ـ ١٤٠).

(٤) المسعودي: (... ـ ٣٤٦هـ = ... ـ ٩٥٧م): علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبدالله بن مسعود، مؤرخ، رحالة، بحاثة من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها. قال الذهبي: «عداده في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزلياً» من تصانيفه: مروج الذهب والتنبيه والإشراف، وأخبار الخوارج وذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وأخبار الأمم من العرب والعجم وخزائن الملوك وسر العالمين والمقالات في أصول الديانات والبيان في أسماء الأئمة، والمسائل والعلل في المذاهب والملل وغيرها.
(لسان الميزان ٢٢٤/٤، طبقات الشافعية ٣٠٧/٢، والنجوم الزاهرة ٣١٥/٣).

(٥) ابن الأثير: (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ = ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن عز الدين بن الأثير: المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب. ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، توفي بها. من تصانيفه «الكامل اثنا عشر مجلداً، مرتب على السنين بلغ فيه عام ١٦٢٩ هـ وأكثر من جاء بعده من المؤرخين عيال على كتابه هذا و «أسد الغابة في معرفة الصحابة».
(النجوم الزاهرة ١٩٨/٦، ١٩٩، شذرات الذهب ٢٢/٥، ٢٣).

أما الآن فقد سلك المؤرخون مسلك البحث المتماسك ذي المقدّمات والنتائج وهنا يكمن الخطر في كتابة التاريخ. إذ أن أساتذة الاستشراق يعمدون كثيراً إلى روايات ضعيفة يمهّدون لها بالمقدّمات الخادعة ليصلوا إلى نتائج مغرضة مقصودة، تجعل تاريخ السلف نقطة الانحدار والهبوط. ثم يغفلون عن عمد ما يناقضها من الروايات الصحيحة ليستقيم لهم القول على نحو ما يبتغون[1]! وعن هؤلاء المستشرقين أخذ تلاميذهم من المستغربين من أبنائنا، حيث أن تعليمهم العادي لم يمكنهم من التحصين بأصول الدين أمام هؤلاء المغرضين الذين لفّقوا التاريخ ليصلوا إلى ما يريدون. أما رجال التاريخ الإسلامي أمثال عبد الوهاب النجار ومحمد الخضري ورفيق العظم، فكانوا في كتاباتهم أقرب إلى الصواب لأن هؤلاء قد درسوا الشريعة الإسلامية دراسة تمكنهم من تفسير الأحداث واستكناه الأسرار على أصول ثابتة وفهم واضح.

وما سقناه عن تأليف كتاب التاريخ من جانب تلاميذ المستشرقين أو من جانب فقهاء التاريخ الإسلامي، يعتبر قليلاً من كثير إذا قيس بالإلقاء التوجيهي في حجرات الدرس من تأثير وأثر أعجب وأغرب، لأن الأساتذة المستغربين نجدهم يدرسون تاريخ محمد ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما يسردون تاريخ جنكيزخان والإسكندر وتيمورلنك!! بمعنى أنهم يتحدثون عن أناس غرباء أدّوا دورهم الزمني ومضوا، لذلك كانت كارثة الإلقاء الجامعي لا تقل عن كارثة التأليف.. مع أن الأستاذ الحقيقي هو الذي ينفث روحه في تلاميذه، فيعيد الوقائع والأحداث حية متحركة كأنه يعيشها هو وطلابه. وتاريخنا الإسلامي حي بمشاهده الرائعة، رائع بمواقفه الصادقة، فلا أقل من أن نتحدث عنه كما كان، لا كما حتّم ذووا الغرض أن يكون[2].

وأختتم هذه الفقرة بالمثل الذي أثبته الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه: «النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين» حيث يقول عن الأستاذ النجار: «إن أثر الإلقاء البارع في المحاضرات الجامعية ليعظم ويمتد حتى يخلق رجالاً يهيمون بمبادئ الكرامة

(١) انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها، مرجع سابق، ص ١٥٢ .
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٣ .

والحرية والإخاء التي سنّها الإسلام». ولنستمع إلى الاستاذ الكبير أحمد رمزي سفير مصر السابق في روما حين يتحدث في كتابه: «منادمة الحروب» عن أستاذه الشيخ عبد الوهاب النجار، فيقول: «أما الأثر الذي توطد في نفسي فجاء عن التاريخ الإسلامي نتيجة للمحاضرات التي ألقاها علينا رجل من نوادر رجال مصر، ومن أشجعهم وأشدهم تمسكاً بتعاليم هذا التاريخ الإسلامي الذي طالما أهملناه أعني به «المرحوم» الشيخ عبد الوهاب النجار. كنا في السنوات الأولى في مدرسة الحقوق، فأخذنا نتلقى دروساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وتتلمذنا جميعاً على هذا الأستاذ الكبير الذي عرفنا منه رجال المراجع مثل الطبري وابن الأثير والبلاذري[1] وغيرهم... وكان إلقاؤه – رحمة الله عليه – وقت الدرس يحرّك مشاعر الطالب، فهو إذا تحدّث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد، وقرن التاريخ بالأدب وتحدث حديث المؤرخ الواعي، الذي يعيش في الفترة التي يتكلم عنها، وكان رنين كلامه قوياً يتغلغل في النفس، فكنت أخرج من الدرس، وفي مخيلتي الألفاظ والكلمات التي استعملها. ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامي، واطلّعت على كنوزه، وكتبت فيه»[2].

ومن هذا يتبين لنا مدى تأثير الشيخ في تلاميذه. فقد كتب الأستاذ أحمد رمزي هذا القول بعد وفاة النجار بعدة سنوات.

(١) البلاذري: (... ـ ٢٧٩هـ = ... ـ ٨٩٢م)، أحمد بن يحيى بن جابر ابن داود البلاذري: مؤرخ، جغرافي، نسابة، له شعر. من أهل بغداد جالس المتوكل العباسي، ومات في أيام المعتمد، وله في المأمون مدائح وكان يجيد الفارسية وترجم عنها كتاب «عهد أزدشير» وأصيب في آخر عمره بذهول شبيه بالجنون فشد بالبيمارستان إلى أن توفي. نسبته إلى حب البلاذر Anacardium قيل: إنه أكل منه فكان سبب علته. من كتبه «فتوح البلدان» و«القرابة وتاريخ الأشراف ـ ط» أجزاء منه، ويسمى «أنساب الأشراف» ومنه مخطوطة نفيسة في مجلد واحد، كتبت في دمشق سنة ٦٥٩هـ، في خزانة الرباط (٧ جلاوي) و «كتاب البلدان الكبير» لم يتمه.
(معجم الأدباء لياقوت. والفهرست لابن النديم، ولسان الميزان ٣٢٢/١، ومجلة المجمع العلمي العربي ١٣٩/١٦ ومعجم المطبوعات ٥٨٤ وآداب زيدان ١٩٢/٢، والمستشرق بيكر Backer في دائرة المعارف الإسلامية ٨٥/٤ والعرب والروم لفازيليف ص ٢٣٣).

(٢) منادمة الحروب، أحمد رمزي ص ٢٤٥، وعنه: النهضة الإسلامية ص ١٥٤.

٣ - منهجه في التأليف:

كان الشيخ - رحمه الله - متصدراً سابقاً في كتابته لمباحث التاريخ الإسلامي وذلك لاكتمال دراسته للروافد[١] الأخرى للثقافة الإسلامية مع وعي كامل لما يقول ولما يكتب مع إلتزامه بأسس ثابتة واضحة، وفكر مستنير لا جمود فيه منها:

١ ـ القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه فلكل امرئ أن يتدبره بعقله، ويفهمه على الوجه الذي يستقر فيه اعتقاده بشرط أن يكون ذلك جارياً على مقتضى العربية غير مخلٍّ بفصاحته، ولا مخلاً بشيء من مقاصد الدين.

٢ ـ أن الخبر الوارد عن المعصوم ﷺ إذا كان قطعي الثبوت والدلالة، فهو حجة قاطعة على ما تضمّنه، وذلك يشمل شيئين: الكتاب الكريم، والخبر المتواتر.

٣ ـ أقوال المفسِّرين ليست حجة قاطعة فيما نصّت عليه، بل هي أوجه، كما يجوز حمل القرآن عليها، يجوز مخالفتها، وحمل عبارته على غيرها، ولا مؤاخذة على من خالفها[٢].

أصول رئيسية لا يستطيع أن يقف أمامها مشكك أو شاك، ساقها الشيخ بعلم واقتناع واقتدار في وجه من انتقده أو عارضه. هذا في التأليف الإسلامي.

.. أما التاريخ المعاصر فإننا نجد الأستاذ النجار قد اختطّ منهجاً سديداً فريداً في تأريخ الثورة المصرية سنة ١٩١٩ م، فكان يذكر الحوادث في المدن والأقاليم كما يتناقلها المراسلون، سارداً ما يراه من التعقيب الكاشف والملاحظة الموجهة: وذلك بخلاف من أرّخ غيره لثورة سنة ١٩١٩ م. فنجدهم يكتبون التاريخ من الوجهة الرسمية لا من الوجهة الشعبية، فتضم كتبهم سيلاً من الوثائق السياسية الرسمية بين وزارة الخارجية الإنجليزية وزعماء الأمة من أمثال سعد وعدلي وثروت... فهو تاريخ رسمي لا شعبي. وقد كان اتجاه النجار معارضا لهذه الرسمية الارستقراطية في التاريخ، حيث جعل أنباء المكافحين تسيطر على الموضوع وتوجهه[٣].

---

(١) من قرآن وحديث وفقه... وغيرها...

(٢) هذه بعض نقاط من رد الشيخ النجار على تقرير لجنة الأزهر عن كتابه قصص الأنبياء (وللاطلاع على الرد كاملاً مع تقرير اللجنة انظر مقدمة الطبعة الثانية من كتاب قصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار).

(٣) انظر: النهضة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٥٩ .

٤ – آثاره العلمية:

١ ـ ألّف الأستاذ النجار كتابه: «تاريخ الإسلام في عدة أجزاء».

٢ ـ «الأيام الحمراء»: في مخطوط كبير نُشر تباعاً في صحيفة البلاغ.

٣ ـ ترك – عليه رحمة الله – مئات المقالات في صحائف: اللواء – الأهرام – الجهاد – كوكب الشرق، وفي مجلات: الرسالة – الإسلام – مكارم الأخلاق – الشبان المسلمين – الهلال – دار العلوم والجامعة المصرية.

٤ ـ «كتاب قصص الأنبياء» والذي درّسه في كلية أصول الدين، وقد أحيط هذا الكتاب بجدل حاد عنيف قامت له الدوائر الرسمية بالأزهر. ولمزيد من التفصيل يُرجع إلى الطبعة الثانية من كتاب قصص الأنبياء.

رحم الله الشيخ النجار ونفع الله بعلمه وفكره أبناء الإسلام على مر الأجيال.

المبحث الثالث

مؤسسات تعليمية أخرى

١ - مدرسة القضاء الشرعي ١٩٠٧ - ١٩٢٨ م

الإنشاء والنشأة:

ترجع فكرة إنشاء مدرسة القضاء الشرعي إلى علي مبارك باشا عام ١٨٨٨ م حيث فكّر في ذلك ولم يتم له تنفيذها. ثم جاء الشيخ محمد عبده بعد ذلك وصارت فكرة إنشاء المدرسة؛ جزءاً من منهج الإصلاح، الذي دعا إليه الأستاذ الإمام، وكان وزير المعارف في ذلك الوقت هو سعد زغلول أحد تلاميذ الإمام. فبرزت الفكرة إلى عالم الوجود والتنفيذ[١].

وفي ١٢ من المحرم سنة ١٣٢٥ هـ (٢٥ فبراير سنة ١٩٠٧ م) صدر الأمر العالي بإنشاء مدرسة القضاء الشرعي وتولى نظارتها محمد عاطف بركات (بك) (باشا فيما بعد) وهو من خيرة أبناء دار العلوم.

وكان أول عمل يقوم به هو الاختيار الدقيق لأعضاء هيئة التدريس، من خيار مُدرِّسي وزارة المعارف، التي سمحت بأن ينقل إليها من ينتخبهم[٢] فاصطفى لها الرعيل الأول، لإقامة دعائمها، وإرساء معالمها، ممن عرفوا بالفضل والصلاح، ووفرة العلم، إلى الخلق الطيب

(١) انظر: ـ تقويم دار العلوم، محمد عبد الجواد، ص ٢٧٠ .
ـ الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٦٧٢ .

(٢) كان محمد عاطف بركات ابن شقيقة سعد زغلول وزير المعارف (انظر الموسوعة العربية الميسرة).

والسجايا الكريمة، وربط لهم المرتبات المجزية والتي تليق بعضو هيئة التدريس في هذا المعهد.

وكان من هذه النخبة الأساتذة: (وكلهم من خريجي دار العلوم) محمد المهدي بك، محمد الخضري بك، ومصطفى العناني بك، وعبد الرحمن زغلول، وشاعر البادية محمد عبد المطلب، والشيخ عبد الوهاب خير الدين والشيخ عبد العزيز جاويش. فكان منهم مدرسو اللغة العربية وآدابها والفقه والتوحيد والتفسير. بل إن مدير المدرسة عاطف باشا بركات جعل الأساتذة الذين من دار العلوم يدرسون جميع المواد بما فيها الرياضيات والتاريخ والأصول والجغرافيا وغيرها.

الغرض من انشائها:

كان الغرض من إنشاء هذه المدرسة هو: تخريج قضاة شرعيين، ومفتشين وأعضاء في المحاكم، ووكلاء دعاوى[1]، وكتبة للمحاكم الشرعية.

تبعيتها:

كانت المدرسة تابعة للإشراف العلمي من الأزهر فكانت تعتبر قسما من الأزهر يشرف عليها شيخ الأزهر، ومن الناحية الإدارية كانت تبعيتها لوزارة المعارف منها تعيين ناظرها ومدرِّسيها والميزانية وكل ما يخصها.

التفكير في جعل دار العلوم قسماً منها:

كان لنمو مدرسة القضاء الشرعي - في الأعوام الأولى من إنشائها - نمّواً تجاوز حد التصور والتخطيط، أن فكرت وزارة المعارف في اقتضاب فصول دار العلوم، لتفتحها في مدرسة القضاء الشرعي، وقد ظهر أثر ذلك، في العام الدراسي (١٩٠٩ - ١٩١٠ م) والعام الذي يليه. إذ لم يقبل فيهما بدار العلوم غير فصل واحد، بعد ثلاثة فصول على غير عادة.

وكان لما أحرزته المدرسة من نجاح ونمو، قابله تقلص وكساد في دار العلوم إلى حدّ

(١) وكيل دعاوي أي محام بمفهومنا العصري.

التفكير في أن تكون دار العلوم قسماً من مدرسة القضاء الشرعي. (وكما تدين تدان)[1].

ثم سرت سنة الله على خلقه، وجاء للمدرسة بعد فتوتها وقوتها ما يصير إليه كل حي، فتحولت إلى «ضعف وشيبة» حتى ألغيت تلك المدرسة سنة ١٩٢٨ م، وحوّل طلبتها إلى دار العلوم[2] بعد أن خرجت للقضاء الشرعي نخبة ممتازة من القضاة الذين حققوا الهدف من إنشاء المدرسة وعدداً من أساطين العلم والفكر الإسلامي[3].

٢ - الجامعة المصرية

١ - نشأة الجامعة وتطورها:

راودت فكرة التعليم الجامعي خلد المصريين منذ أرسلت البعثات العلمية الى أوربا في عصر محمد علي وبعده، وأشاد الكثيرون ممن تعلموا هناك بفضل الجامعات وهتفوا بذكرها وتحدثوا عن أبنيتها الضخمة وعدد الكليات التي تحويها كل جامعة وبيان ما فيها من العلوم والفنون، وأفاضوا في حديث مزاياها وبيان فوائدها وأنه لا غنى عنها لبلاد تريد أن ترقى الى معارج المدنية، وتنتظم في سلك الحضارة الحقيقية[4].

وتبنى الزعيم الوطني مصطفى كامل الفكرة فدعا اليها على صفحات جريدة اللواء في أكتوبر ١٩٠٤ [5]م.

وتبلورت فكرة تأسيس الجامعة المصرية ونمت وفقاً لرغبة قومية فقامت حركة عامة تدفع الشعب الى التزود من التعليم حيث كان التعليم الرسمي منه غير كاف وغير واف

(١) حيث فكر القائمون على شئون دار العلوم عام ١٨٨٨م في تخريج القضاة الشرعيين ورجال الافتاء علاوة على تخريج المعلمين. تجنباً على الأزهر الشريف وكلياته. (انظر: تقويم دار العلوم، ص ٢٧٠).

(٢) انظر: ـ تقويم دار العلوم، محمد عبد الجواد، مرجع سابق ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
ـ الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٦٧٢.

(٣) أمثال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ.

(٤) الجامعة المصرية: لائحة اجراءاتها الداخلية، وتاريخ مشروعها، مطبعة الجماميز ص ٦.

(٥) الجامعة المصرية القديمة «نشأتها ودورها في المجتمع»، د/عبد المنعم الدسوقي، القاهرة ط ١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ٨.

بالحاجة الجديدة، وزاد تعطش المصريين الى التعليم العالي الحر، وكان قادة الرأي في ذلك الوقت يدعون اليه بقوة ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده، كما اشتدت الدعوة الى وجوب اخراج المشروع من حيز الفكر الى حيز الوجود، وأعرب بعض الأغنياء عن استعدادهم للتبرع له بالمال. كما راودت هذه الفكرة أحمد منشاوي باشا ففكّر في انشاء جامعة من جيبه الخاص ولكن وافته المنية في نفس السنة. ثم تجددت الفكرة وتم انشاؤها بتبرعات المصريين بجميع طبقاتهم حتى نفذ المشروع(١).

لقد بدأت الجامعة أهلية حيث تبرع لها الأهالي بالمال، وقامت بعد جهود ضخمة بذلها قادة الرأي في مصر أمثال مصطفى كامل والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين والأمير أحمد فؤاد وغيرهم، ورغم أنها وجدت معارضة شديدة من سلطات الاحتلال التي أدركت أن انشاء جامعة يعني ايجاد طبقة مثقفة من المصريين تفهم أن الاستقلال ليس مجرد تحرير الأرض ولكنه تحرير الشخصية وتحرير الفكر والارادة فان جدية بعض المصريين في اتمام هذا العمل أخرجته من حيز الفكر الى حيز التنفيذ.

وافتتحت الجامعة المصرية رسميا في ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ م(٢) في حفل أقيم بقاعة مجلس شورى القوانين حضره عدد كبير من رجال الدولة والوجهاء والأعيان ورجال السلك السياسي والأجانب وشيخ الجامع الأزهر والمفتي وبعض رجال الدين. كما حضر الحفل الخديوي عباس الثاني وألقى خطبة أعرب فيها عن اغتباطه بخروج المشروع الى حيز الوجود وأعلن أن الحكومة ستولي مشروع الجامعة بالعناية والرعاية.

وفي مساء ذلك اليوم بدأت الدراسة بالجامعة على نطاق ضيق حيث نظّمت على هيئة محاضرات بعد الظهر يومياً.

ابتدأ التنفيذ بكلية الآداب، وكانت الدراسة في بداية عهدها محدودة ثم جعلت في

(١) انظر: الجامعة المصرية والمجتمع، عبد المنعم الدسوقي، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ص ١٠.

(٢) وفي عام ١٩٢٥م ضمت الجامعة إلى الحكومة فكان في ذلك قضاء على خطها الاستقلالي وبداية للسيطرة الغربية الاستعمارية على مسارها الفكري والتعليمي كما أوضحنا فيما فعله طه حسين من خلال تدريسه بكلية الآداب. ومساندة كل قوى التغريب له في ذلك. (انظر الباب الثالث من القسم الأول).

كل يوم درسين يبتدأ الدرس الأول في الساعة الخامسة بعد الظهر وينتهي في الساعة السادسة ثم يلي ذلك نصف ساعة للاستراحة واختلاط الطلبة بالمدرّسين للاسترشاد بهم فيما يريدون من زيادة الشرح والبيان ثم يبدأ الدرس االثاني ويستمر ساعة أيضا، وبعد نهاية الدرس يختلط الطلبة بأساتذتهم مدة نصف ساعة، وقد اشتمل تدريس المحاضرات على طائفة من الأساتذة المصريين والأجانب[1].

٢ ـ أثر الجامعة في المجتمع المصري:

أحدث إفتتاح الجامعة المصرية في المجتمع المصري آثاراً بالغة الأهمية في أول عهد المصريين بها كانت عيداً متصلاً يحيونه إذا أقبل المساء من كل يوم حيث يزدحمون على غرفات الدرس على إختلاف منازلهم من الفقر والغنى، وعلى إختلاف حظوظهم من الثقافة وعلى اختلاف أزيائهم أيضاً فكان منهم الغنى المترف والفقير المعدم «وكان منهم القاضي والطبيب والطالب والموظف والمجاور في الأزهر الشريف»[2].

ويذكر الخديوي عباس الثاني أنه بعد افتتاح الجامعة اعتقد كل إنسان «أنه له الحق في رفع صوته بالنقد، ولو كان نقداً قاسياً وظالماً»[3].

لقد أوجدت الجامعة في المجتمع المصري جواً علمياً لم تكن مصر تعهده من قبل، جواً لا يقتصر على النحو والفقه والمنطق والتوحيد وإنما يذهب الى مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ والمعرفة لم يكن متاحاً دراستها في مصر من قبل مما أدى الى حدوث صراع بين القديم المتمثل في الأزهر وبين حركات التجديد التي برزت في الجامعة، ومن هنا ظهر في مصر تياران مختلفان، وهذان التياران المتحاذيان أحياناً والمتعاكسان أحياناً قسّما الناس في مصر الى أقسام ووجّهاهم وجهات مختلفة ونشأ عن ذلك اختلاف في الأفكار والآراء وتنازع في مناهج البحث والتفكير. وهذان التياران يتنازعان الشعراء والكتّاب والمؤلفين، ويتنازعان مناهج التعليم، وطرق التفكير، وكل مظهر من مظاهر الحركة العلمية.

(١) الجامعة المصرية القديمة، مرجع سابق ص ٣٧.

(٢) الأيام، طه حسين، الجزء الثالث. القاهرة ـ دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٣م ص ٣٠.

(٣) المصري: العدد ٤٨٦١ في ٩ يونيه ١٩٥١م تحت عنوان «مذكرات الخديوي عباس الثاني».

فمن الشعراء من مثله الأعلى امرؤ القيس، ومنهم من مثله الأعلى شكسبير، ومن الكتّاب من مثله الأعلى ابن المقفع أو الجاحظ ومنهم من مثله فيكتور هوجو أو فولتير، ومن القانونيين من يرى خير مثل هو القانون الفرنسي أو الألماني، ومنهم من يراه بالشريعة الإسلامية[1].

كما قامت الجامعة ابتداء من العام الدراسي ١٩١٦ - ١٩١٧ م باتخاذ عدة وسائل أخرى لإفادة الراغبين في العلم وسعياً لتحقيق الغرض الذي قامت من أجله وهو نشر الآداب والعلوم وترقية مدارك وأخلاق المصريين وهذه الوسائل هي:

١ - فتح أبواب الجامعة لكل من يريد الاستماع للمحاضرات بغير تقاضي أي رسم ولا شروط الا ما يقتضيه آداب الاستماع.

٢ - إلقاء محاضرات ليلية في موضوعات ذات فائدة عامة يلقيها أساتذة الجامعة وغيرهم من كبار رجال الآداب والعلوم بمصر من ذوي الكفاءات المعروفة[2].

هذا عن أثر الجامعة في المجتمع المصري من الناحية الفكرية أما عن أثرها من الناحية السياسية فقد تضامن طلابها مع أفراد المجتمع أثناء ثورة ١٩١٩ م وتعطلت الدراسة بها[3].

ومما تقدّم يتضح أن الجامعة منذ نشأتها لم تترك عملاً يستفيد منه أبناء الوطن إلا ومدت يدها لمساعدته، ورغم العلاقات المالية التي لاحقتها فإن تأثيرها على المجتمع المصري كان واضحاً فقد انتعشت الروح العملية البحتة بانتعاش الروح الوطنية الصادقة، وسارت الحركة العقلية والاجتماعية مواكبة للحركة القومية والسياسية وتمشّت الرغبة في استثمار النهضة العلمية جنباً الى جنب مع الرغبة في تحقيق الأماني الوطنية[4].

---

(١) أحمد أمين: فيض الخاطر. الجزء العاشر. القاهرة النهضة المصرية ١٩٥٦م ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠.

(٢) الجامعة المصرية: تقرير مجلس الادارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة بسراي الجامعة في يوم الاثنين ١٥ اكتوبر ١٩١٧م عن حالة الجامعة المصرية في السنة المكتبية ١٩١٦ ــ ١٩١٧م ص ٣٦.

(٣) الجامعة المصرية القديمة، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) صحيفة الجامعة المصرية، العدد السادس من السنة الأولى مارس ١٩٢٤م.

القسم الأول

الاتجاهات الفكرية في الجانب العقدي

ويشتمل على أربعة أبواب:

الباب الأول : في الاتجاه الصوفي.

الباب الثاني : في الاتجاه العقلي.

الباب الثالث : في الاتجاه التغريبي.

الباب الرابع : في الاتجاه الأصيل.

الباب الأول

في الاتجاه الصّوفي

ويتضمن هذا الباب فصلين هما:

الفصل الأول : الطرق الصوفية وأقسامها.

الفصل الثاني : من أثر الصوفية في الفكر الإسلامي.

الفصل الأول

الطرق الصوفية وأقسامها

ويشتمل هذا الفصل على تقدمة ومبحثين:

المبحث الأول : أقسام الصوفية.

المبحث الثاني : الطرق الصوفية.

تقدمة

إن المتتبع لدراسة الصوفية يجد أن التصوف مرّ بمراحل عدة... اختلف مبناه ومعناه في كل مرحلة... بل اختلف مبناه ومعناه عند كل متصوّف عن الآخر... فقد كان في أوله زهد في الدنيا، وانقطاع لعبادة اللّه عز وجل، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة؛ ثم صار إلحاداً أو خروجاً عن دين اللّه عز وجل... وهذا ما عبّر عنه الواسطي أحد كبار الصوفية حين قال: «كان للقوم إشارات ثم صارت حركات ثم لم يبق إلا حسرات».

والمتصوفة في العصور المتأخرة منهم من سلك في التصوف مسلك الزهد والعبادة. ومنهم من أخذ التصوف حركات ومظاهر لا روح فيها ولا حياة... ومنهم من نحا به بعيداً عن العقيدة الصحيحة والدين القويم فاعتقد في «الحلول والاتحاد» فخرج بذلك عن دين اللّه وعقيدة الإسلام.

ولذا سنتكلم في هذا المبحث بتيسير اللّه عن بعض الطرق الصوفية في القديم والحديث ليتبين لنا مساراتها المختلفة وقربها أو بعدها عن الدين الصحيح. ولكي يظهر لنا مقدار هذا الضابط نسوق أولاً أقسام الصوفية كما أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي فقسمها ثلاثة أقسام وتبعه «الهجويري» في هذا التقسيم، أما الإمام الفخر الرازي فقد قسم الصوفية الى ستة أقسام وذلك في المبحث الأول أما الثاني فنخصصه لإيراد أهم الفرق الصوفية.

المبحث الأول

أقسام الصوفية

أولاً: عند ابن تيمية:

يرى الإمام ابن تيمية[1] أن التصوف ـ بعد العصر الأول ـ تشعّب وتنوّع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف هي:

١ ـ صوفية الحقائق.

٢ ـ صوفية الأرزاق.

٣ ـ صوفية الرسم.

١ ـ صوفية الحقائق:

وهم المتفرغون للعبادة والذكر، والزاهدون في الدنيا، مع شدة الخوف والحزن[2].

٢ ـ صوفية الأرزاق:

وهم الذين وقفت عليهم الوقوف وأجريت لهم الأرزاق بشروط ثلاثة:

أ ـ العدالة الشرعية: بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

---

(١) مجموع الفتاوي، لابن تيمية، مج ١١ ص ١٩، ٢٠ .

(٢) فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم.. حتى أنه روي أن عطاء السليمي رؤى بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي: «يا عطاء أما استحيت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أني غفور رحيم» (مجموع الفتاوي لابن تيمية، مج ١١ ص ١٣).

ب ـ التأدب بآداب أهل الطريق: وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

جـ ـ أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جماعاً للمال، أو غير متخلّق بالأخلاق المحمودة.. أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

٣ ـ صوفية الرسم:

وهم المقتصرون على النسبة، باتخاذ المظهر: كاللباس والوقار ونحوها، وليس لهم رصيد من العمل، فيظن الجاهل - بحقيقة أمرهم - أنهم منهم... وليسوا منهم.

ثانياً: عند الهجويري:

يقسم الهجويري[(١)(٢)] الصوفية الى ثلاثة أقسام ويقول أن منهم:

١ ـ الصوفي:

وهو المتفرغ لعبادة اللّه، المتجه إليه، المتجرد عن العلائق الدنيوية.

٢ ـ المتصوف:

وهو الذي يجاهد نفسه ويقوّمها للوصول الى الدرجة السابقة.

٣ ـ المستصوف:

وهو من تشبه بهم من أجل المنزلة والجاه والمال، ولا رصيد له من العمل المخلص حتى قيل فيه: «المستصوف عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب».

---

(١) الهجويري: هو علي بن عثمان بن أبي علي الجلاب الهجويري الغزنوي، وكنيته أبو الحسن. ولد فيما بين العقد التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجري. من أهم مؤلفاته «الديوان» و «كشف المحجوب» و «ثواقب الأخبار وكشف الأسرار».
توفي بلاهور بباكستان سنة (٤٥٦هـ) تقريباً.
(انظر: مقدمة كشف المحجوب، ص ٤٥ ـ ٩٨ بقلم الدكتورة سعاد عبد الهادي قنديل).

(٢) كشف المحجوب، للهجويري، ٢٣١/١ .

ثالثاً: أقسام الصوفية عند الفخر الرازي:

يقسم الإمام الرازي[1][2] إلى ست فرق نوجزها فيما يلي:

١ ـ أصحاب العادات:

وهم الذين يهتمون بتزيين الظاهر، كلبس الخرقة، وتسوية السجادة...

٢ ـ أصحاب العبادات:

وهم المتفرغون للعبادة، المنقطعون عن الدنيا.

٣ ـ أصحاب الحقيقة:

وهم الذين إذا فرغوا من الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات، بل في التفكر في ملكوت اللّه، وتجريد النفس عن كل ما يشغلها عن ذكر اللّه، فهم حريصون ألا يخلو بالهم عن ذكر اللّه.

٤ ـ النورية:

وهم القائلون بأن الحجاب حجابان: نوري وناري. أما النوري فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة، وأما الناري فالاشتغال بالشهوة والغضب، والحرص والأمل.

٥ ـ الحلولية:

وهم قوم يزعمون أنه قد حصل لهم «الحلول» أو «الاتحاد» فيبدعون دعاوي عظيمة، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب.

---

(١) الفخر الرازي: (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠م): وهو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبداللّه، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له «ابن خطيب الريّ» رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. وله تصانيف كثيرة منها: «مفاتيح الغيب» ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و «لوامع البينات في شرح أسماء اللّه تعالى والصفات» و «معالم أصول الدين» و «المحصول في علم الأصول» وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين. (انظر طبقات الأطباء، ٢٣/٢، الوفيات، ٤٧٤/١، طبقات الشافعية، ٣٣/٥).

(٢) كشف المحجوب، مرجع سابق، ٢٣١/١ .

٦ ـ المباحية:

وهم قوم يدعون محبة اللّه، ويخالفون شريعته، ويقولون أن الحبيب رفع عنا التكاليف... وهؤلاء هم شرّ الطوائف.

وكل ما سبق من تقسيمات وتعريفات، لا تختص بعصر ولا مصر معين، بل يوجد لكل منها أتباع ومريدون في كل عصر ومصر، ففي حاضرنا المعاصر نجد المتصوفة الزهاد، ونجد متصوفة المظاهر وحب الشهرة والمال وكذا نجد متصوفة الزندقة والانحلال.

المبحث الثاني

الطرق الصوفية

في التصنيف السابق لأقسام الصوفية الذي سقناه لإبن تيمية والهجويري والرازي. نجد أن كل قسم ينتمي إليه عدة طرق وكل طريقة لها شيخ والشيخ يتبعه مريدون وشيخ الطريقة هو الذي يختط لمريديه الطريق(١). ونسوق مثلاً لذلك: فالطريقة المحاسبية والطريقة الجنيدية من القسم الذي يسميه شيخ الإسلام إبن تيمية «صوفية الحقائق»، فالطريقتان تتفقان في المعنى العام وتختلفان في بعض المظاهر والأوضاع والمعاني، فالأولى تختلف عن الثانية في أنها تقوم على الرضا، والثانية تقوم على الصحو.

ويعتبر الهجويري (المتوفي سنة ٣٦٥ هـ) من أول من كتب عن طرق الصوفية وقد قسمهم إلى إثنتي عشرة فرقة، منها عشر مقبولة - كما يقول - وإثنتان مردودتان. ذكرهما تحت إسم «الحلولية»(٢).

وجاء بعد الهجويري من المتأخرين الشيخ أبو علي حسن بن علي العجيمي(٣) الحنفي (توفي سنة ١١١٣ هـ) فكتب عن الطرق الصوفية فعدّ منها أربعين طريقاً في رسالة له.

---

(١) هو الأسلوب الذي يختطه الشيخ في تربية مريديه بالأوراد وغيرها.

(٢) كشف المحجوب، مرجع سابق، ٤٠٣/٢ .

(٣) هو الحسن بن علي بن يحيى أبو البقاء العجيمي ولد بمكة سنة (١٠٤٩هـ) من تصانيفه: «خبايا الزوايا» و«إهداء اللطائف من أخبار الطائف» و «حاشية على الأشباه والنظائر».. وغيرها. توفي بالطائف سنة (١١١٣هـ). (الأعلام ٢٢٣/٢).

وقد لخص هذه الرسالة الشيخ أبو سالم العياشي[1] في رحلته[2] من بلاد المغرب وقد أوصلها غيرهم إلى أكثر من ذلك.

وفي الواقع فإن الطرق الصوفية كثيرة جداً، ومن الصعوبة بمكان القيام بحصرها. إذ أن كل من عنّ له أن يبتدع طريقاً فعل... ثم سماها بإسمه أو إسم عائلته أو عشيرته. وهذا مشاهد بكثرة في الأوساط قليلة المعرفة بدينها السليم، خاصة في أفريقيا... إذ بين فترة وأخرى تخرج طريقة جديدة تحمل إسماً جديداً، ولها أوضاع معينة، وأوردة مقررة. وسنذكر في هذا المبحث – بتيسير اللّه ـ بعض الطرق التي تعنينا بشكل موجز وهي:

١ ـ الطريقة الجنيدية:

وتنسب إلى أبي القاسم الجنيد بن محمد[3] ـ رحمه اللّه ـ وطريقته مبنية على الصحو... ويعرّف الجنيد الصحو: «بأنه عبارة عن صحة حال العبد مع الحق». وطريقته من أشهر الفرق في القديم[4].

٢ ـ الطريقة المحاسبية:

وتنسب إلى عبد اللّه الحارث المحاسبي[5]. وهي تقوم على تجريد التوحيد بصحة

---

(١) هو عبداللّه بن محمد بن أبي بكر العياشي أبو سالم من أهل المغرب من بلدة فاس، ولد سنة (١٠٣٧هـ) له مؤلفات منها «الرحلة العياشية» «وإظهار المنة على المبشرين بالجنة». و«تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدار الفانية» توفي سنة (١٠٩٠هـ) (الإعلام، ٢٧٣/٤).

(٢) بغية المستفيد شرح منية المريد، ص ٧٢.

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري وسمي بذلك لأن أباه كان يبيع الزجاج. أصله من نهاوند، ومولده ونشأته في العراق، وكان فقيهاً، وهو من معتدلي الصوفية. توفي سنة (٢٩٧هـ).
(طبقات الصوفية، من ١٥٥، ١٥٦).

(٤) كشف المحجوب، مرجع سابق، ٤١٩/٢.

(٥) الحارث المحاسبي: (... ـ ٢٤٣هـ = ... ـ ٨٥٧م): هو أبو عبداللّه الحارث بن أسد المحاسبي، من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة ٢٤٣هـ وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه: «المسائل في أعمال القلوب والجوارح» و «المسائل في الزهد وغيره» و «البعث والنشور» و «الرعاية لحقوق اللّه عزّ وجلّ» و «الخلوة والتنقل في العبادة».
ومن كلامه: خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم.
(تهذيب التهذيب: ١٣٤/٢، ميزان الاعتدال: ١٩٩/١، وحلية الأولياء: ٧٣/١٠.

المعاملة الظاهرة والباطنة وعلى أن الرضا من جملة الأحوال التي يمنّ اللّه بها على عباده.

أ ـ رضا اللّه عن العبد:

وحقيقته عندهم إرادة الثواب والنعمة والكرامة للعبد[١].

ب ـ رضا العبد:

وحقيقته عندهم إستواء القلب على طرفي القضاء والمنع والعطاء[٢].

ويقولون أن أويس قد أخذ عن روحانية سيد المرسلين. وكل من أخذ من روحانية شيخ من المشايخ تسمى طريقته «أويسية»[٣].

٣ ـ الطريقة الخلوتية:

وتنسب[٤] للشيخ محمد الخلوتي، وتنتهي هذه الطريقة إلى قطب الدين أحمد بن محمد الأبهري. وهي مبنية على الذكر بكلمة «لا إله إلا اللّه» بكيفية مخصوصة. ثم ذكر الجلالة ثم الأسماء العشرة على الترتيب: هو، حق، حي، قهار، وهاب، فتاح، واحد، أحد، صمد، قيوم[٥].

٤ ـ الطريقة الحلمانية:

وتنسب إلى أبي حلمان الدمشقي[٦]. وهو يعتقد حلول اللّه في الأشخاص الحسنة...

---

(١) وهذا يخالف مذهب أهل السنة والجماعة، إذ أن المذهب الحق هو أن يثبت للّه الرضا على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تأويل.

(٢) كشف المحجوب، مرجع سابق، ٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٣) بغية المستفيد، ص ٧٣.

(٤) الصلة بين التشيع والتصوف، د/ كامل مصطفى الشيبي، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص ٤٤١.
ـ بغية المستفيد، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٥) انظر:
ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٤١.
ـ بغية المستفيد ص ٧٤، ٧٥.

(٦) هو أبو حلمان الدمشقي أصله من فارس ومنشأه حلب وأظهر بدعته بدمشق فنسب لذلك.
انظر: الفرق بين الفرق ص ٢٤٥.

كما يقول: بتناسخ الأرواح... كما أنه يقول: «بإباحة المحرّمات... فهو إباحي حلولي»[1]. كما ذهب إلى القول بالحلول الحسين بن منصور الحلاج[2]، وإليه تنسب الحلاجية[3].

٥ ـ الطريقة القلندرية:

وشيخ هذه الطريقة هو السيد حيدر التوني الموسوي[4] وهي مبنية على طيبة القلب والتقلل من الدنيا.

٦ ـ الطريقة القادرية:

وتنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني[5] المتوفي سنة ٥٦١ هـ) ولهذه الطريقة أتباع في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي وخاصة الجزائر ومصر وجاوا وغينيا[6].

٧ ـ الطريقة الرفاعية:

وتنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي[7] (المتوفي سنة ٥٧٨ هـ) وله أتباع كثيرون، وقد صنّف فيه وفي أتباعه كتباً كثيرة.

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٤٥ .
ـ كشف المحجوب ٢/٥٠١ .

(٢) هو الحسين بن منصور وكنيته أبو مغيث، وهو من أهل «بيضاء»، وهي مدينة مشهورة بفارس ونشأ في مدينة واسط بالعراق.
كفره كثير من العلماء وبعض الصوفية. قتل بباب الطاق ببغداد سنة ٣٠٩هـ.
(طبقات الصوفية ص ٣٠٧).

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٤١ .

(٤) بغية المستفيد ص ٧٣ ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٤٦ .

(٥) عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ) المدفون في بغداد حيث تزوره جموع كثيرة من أتباعه للتبرك به، اضطلع على كثير من علوم عصره، وقد نسب أتباعه إليه كثيراً من الكرامات، رزق بـ ٤٩ ولداً، حمل أحد عشر منهم تعاليمه ونشروها في العالم الإسلامي.
(الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٣٤٧).

(٦) بغية المستفيد ص ٧٥ ـ الصلة بين التصوف والتشيع ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ .

(٧) الرفاعي: (٥١٢ ـ ٥٧٨ = ١١١٨ ـ ١١٨٢م): وهو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس: الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن (من أعمال واسط ـ بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها. وقبره إلى الآن محط الرحال لسالكي طريقته. وقد صنف كثيرون كتباً خاصة به وبطريقته.

وجماعته يستخدمون السيوف والحراب في إثبات الكرامات، كان زاهداً كثير الرياضة النفسية، إنتشرت طريقته في غرب آسيا.

وهذه الطريقة شعبة من «القادرية»[1].

٨ ـ الطريقة المولوية:

وتنسب إلى الشاعر المولي جلال الدين الرومي، صاحب كتاب المثنوي[2]، والمتوفي بقونية (سنة ٦٧٢ هـ). وكانت طريقته مشهورة بالسماع[3][4].

٩ ـ الطريقة الشاذلية:

وتنسب إلى أبو الحسن الشاذلي[5] (والمتوفي سنة ٦٥٦ هـ) وله الأوراد المسماة «حزب الشاذلي». وهذه الطريقة منتشرة في المغرب والجزائر ومصر، وفي أنحاء أخرى من العالم.

جمع بعض كلامه في رسالة سميت «رحيق الكوثر ـ ط» وينسب إليه شعر، منه الأبيات الرقيقة التي أولها:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم   أنوح كما ناح الحمام المطوّق

والصحيح أنها ليست له، مات ولم يخلف عقباً أما العقب فلأخيه».

(انظر: ابن خلكان: ٥٥/١.

(١) الصلة بين التصوف والتشيع، ص ٤٥، بغية المستفيد، مرجع سابق ص ٧٥، الإعلام، ١٢٠/٥.

(٢) عبارة عن منظومة بالفارسية تقع في ٢٥٧٠٠ بيت في ستة أجزاء.

(٣) السماع: إدخال الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر وقد انتشروا في تركيا وآسيا الغربية ولم يكن لهم في الوقت الحاضر إلا بعض التكايا في تركيا وفي حلب وفي بعض أقطار المشرق.

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع، مرجع سابق، ص ٤٤٤.
ـ بغية المستفيد، مرجع سابق ص ٧٥، الأعلام، ٢٥٨/٨ ـ ٢٥٩.

(٥) أبو الحسن الشاذلي: (٥٩١ ـ ٦٥٦هـ = ١١٩٥ ـ ١٢٥٨م): هو علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية وصاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي ـ ط». ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن «شاذلة» قرب تونس، فنسب إليها. وطلب «الكيمياء» في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل العراق. ثم سكن الاسكندرية. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. وكان ضريراً. ينتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب، أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق «المكاشفة» قال الذهبي: نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، كان أولى به تركه. وله غير «الحزب» رسالة «الأمين ـ خ» في آداب التصوف رتبها على أبواب، و «نزهة القلوب وبغية المطلوب ـ خ» في شستربتي (١: ٦٩) و «السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل ـ ط». ولتقي الدين بن تيمية رد على حزبه. ولأحمد بن محمد بن عياد كتاب «المفاخر العلية في المآثر الشاذلية» «في سيرته وطريقته».
(انظر: طبقات الشعراني، ٤/٢، التاريخ للزبيدي: ٣٨٨/٧).

وقد تشعّب عنها طرق كثيرة منها: الوفائية، الزروقية، البكرية، الجزولية[1].

١٠ ـ الطريقة النقشبندية:

وتنسب إلى الخواجة بهاء الدين محمد النقشبندي.

١١ ـ الطريقة الأحمدية:

وتنسب إلى السيد أحمد البدوي[2] أكبر أولياء مصر، وأتباعه منتشرون في جميع أرجاء مصر، ولهم فيها فروع: كالبيومية والشناوية وأولاد نوح، والشعبية، وشارتهم العمامة الحمراء[3].

١٢ ـ الطريقة الدسوقية:

وتنسب إلى الشيخ ابراهيم الدسوقي (٦٣٣ - ٦٧٦ هـ) وضريحه بدسوق بمصر، وطريقته تدعو إلى الخروج عن النفس وحظوظها، رأس مالهم المحبة لجميع الخلق، والتسليم والسكون تحت مراد الشيخ وأمره، إنها تدعو إلى العلم والعمل به مع عدم إستحباب الخلوة إلا إذا كانت بأمر من الشيخ[4].

١٣ ـ الطريقة الجهرية:

وتنسب إلى الخواجة أحمد السيوري. ويدّعون أنه أخذها من الخضر عليه السلام، وقد سميت بذلك لأنها تقوم على الجهر بالذكر[5].

---

(١) انظر: ـ الصلة بين التصوف والتشيع، ص ٤٤٥.
ـ بغية المستفيد، مرجع سابق، ص ٧٥.
ـ الأعلام، ١٢٠/٥.

(٢) السيد أحمد البدوي (٥٩٦ ـ ٦٣٤هـ) ولد بفاس، حج ورحل إلى العراق، واستقر في طنطا حتى وفاته، وله فيها ضريح ومقصورة، امتاز بالفروسية، وعكف على العبادة، وامتنع عن الزواج.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، ص ٣٤٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٤٨.

(٥) بغية المستفيد، مرجع سابق، ص ٧٥.

١٤ ـ الطريقة الغوثية:

وتنسب إلى الشيخ غوث اللّه صاحب الجواهر الخمس[١].

١٥ ـ الحزب الجمهوري الإسلامي:

وهو حزب صوفي سياسي. ويقول مؤسسه «محمود محمد طه» بالإختلاط بين الجنسين، وتحريم الحجاب، فهو متأثر بمذهب الإباحية في الصوفية. كما يقول: بأن الإسلام ظلم المرأة كما ظلم أهل الكتاب بفرض الجزية عليهم، وكانت له علاقات مريبة مع بعض السفراء والقساوسة والراهبات، وهذا الحزب منتشر في السودان[٢].

ووصلت إدعاءاته في النهاية وانحرافه العقدي... أن إدعى النبوة ثم الألوهية[٣] وحكم عليه بالإعدام.

وإذا واصلنا تتبع الطرق الصوفية لوجدنا أن هناك طرقاً أخرى حديثة مثل: السنوسية في ليبيا، والتيجانية في أفريقيا، والإسماعيلية، والسمانية، والميرغنية في السودان[٤].

---

(١) بغية المستفيد، مرجع سابق، ص ٧٥.
(٢) الاختلاط في مذهب مسيلمة الثاني الكذاب، د/ الأمين داود، ٧٦م ص ٥ ـ ١٢.
(٣) فضائح الصوفية.
(٤) انظر: الصلة بين التصوف والتشيع، مرجع سابق، ص ٤٤٥.

الفصل الثاني

أثر الصوفية في الفكر الإسلامي

بعد أن تتبّعنا في الفصلين السابقين ما هي الصوفية، ومنشأها وأسسها التي انبنى عليها هذا الفكر الصوفي، وبعضاً من طرقها الشهيرة في القديم والحديث، ومدى بعد أو قرب هذه الطرق عن الدين الصحيح. فإننا – بتيسير اللّه ـ سوف نرى في هذا الفصل هل هناك من أثر لهذا في الفكر الإسلامي، وما مدى هذا الأثر؟ وكنه هذا الأثر ثم نذكر بعضاً من رجاله والمتأثرين به وذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : أثرها في العقيدة.

المبحث الثاني : أثرها في الأخلاق والسلوك.

المبحث الثالث : من رجال هذا الإتجاه.

المبحث الأول

أثر الصوفية في العقيدة الإسلامية

إن الأثر المباشر للفكر الصوفي يتجه أساساً إلى إتلاف وتبديل العقيدة الإسلامية النقية عقيدة الكتاب والسنة... حيث أن الفكر الصوفي خليط من كل الفلسفات والخزعبلات والخرافات التي إنتشرت بين الناس على مر العصور قديماً وحديثاً.

فليس هناك من كفر أو زندقة أو إلحاد إلا ودخل إلى الفكر الصوفي وتلبّس بالعقيدة الصوفية، فمن القول بوحدة الوجود وأن كل موجود هو اللّه، إلى القول بحلول ذات اللّه أو صفاته في المخلوقين، إلى القول بالعصمة، إلى الزعم بالتلقي من الغيب، إلى القول بأن محمداً ﷺ هو قبة العالم، وهو المستوي على العرش، إلى القول بأن الأولياء يديرون العالم ويتحكمون في الكون[1].

وبذلك وصلوا في الزندقة والإلحاد أكثر من العقائد الملحدة ـ والذين أخذوا عنها ـ من البراهمة والهنادك وفلاسفة اليونان الأقدمين، والإشراقيين والغنوصيين، وغيرهم من العقائد الضالة.

ويقولون في الأولياء أقوالاً شتى، فمنهم: من يفضّل الولي على النبي. وعامتهم يجعل الولي مساوياً للّه في كل صفاته فهو يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويتصرف في الكون.

(١) فضائح الصوفية، عبد الرحمن عبد الخالق، مكتبة ابن تيمية ــ الكويت، ط ٤ ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م، ص ٢٥، ٢٦.

أما عقيدتهم في الجنة والنار: فإنهم جميعاً يعتقدون أن طلبها منقصة عظيمة، وكذا النار فإنهم يعتقدون أن الفرار منها لا يليق بالصوفي الكامل لأن الخوف منها طبع العبيد.

ويعتقدون في إبليس أنه أكمل العباد حيث أنه رفض أن يسجد لغير اللّه، وكذا فرعون عندهم أفضل الموحدين لأنه قال: «أنا ربكم الأعلى» فعرف الحقيقة لأن كل موجود هو اللّه[1].

ولذا يلزمنا أن نوضح بعضاً من هذه المسائل ليتبيّن لنا مدى عقيدة الصوفية في ذلك وبُعدها عن المسار الحق.

المسألة الأولى : الإيمان بالإتحاد ووحدة الوجود.

المسألة الثانية : من عقائدهم في القرآن وفي الرسول ﷺ.

المسألة الثالثة : في الذكر الصوفي.

المسألة الأولى: الإيمان بالإتحاد ووحدة الوجود:

زعيم هذه المدرسة هو محيي الدين بن عربي. وهذه المدرسة تقوم على أن اللّه في كل شيء، وهو كل شيء، وليس من شيء في الكون على هذا إلا ويستحق التقديس والإجلال، يقول إبن عربي:

«وقد ثبت عن المحققين أنه ما في الوجود إلا اللّه، ونحن وإن كنا موجودين فإنما كان وجودنا به، فما ظهر من الوجود بالوجود إلا الحق، فالوجود الحق وهو واحد فليس ثمة شيء هو له مثل، لأنه لا يصح أن يكون ثمّة وجودان مختلفان أو متماثلان» ويقول:

«فالحق محدود بكل حدّ، وصور العالم لا تنضبط، ولا يحاط بها، ولا تعلم حدود كل صورة منها إلا على قدر ما حصل لكل عالم من صورته، فلذلك يُجهل حد الحق، فإنه لا يُعلم حده إلا بعلم حد كل صورة[2].

(١) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، مكتبة ابن تيمية ـ الكويت، ط ٣ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٤٨٦هـ. ص ٣٧، ٣٨، ٣٩.

(٢) فصوص الحكم، ابن عربي، ط الحلبي، ج١ ص ٧٠.

وقوله يعني أنه لا يمكن تعريف اللّه، لماذا؟ لأن اللّه هو عين كل شيء فنحتاج في تعريفه إلى الأخذ بتعريف كل صورة من صور الوجود، إذ هو عينها، وصور العالم لا تنضبط، ولا تتناهى، فتعريفه سبحانه، لا يتناهى تبعاً لذلك![1].

وقد قال أبو حامد الغزالي عن الشطح عند الصوفية: وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض المتصوّفة.

أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع اللّه، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الإتحاد، وإرتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب. فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا: كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج، الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس[2].

ومن هذا يتضح قول المتصوّفة بالإتحاد ووحدة الوجود[3] مخالفين بذلك مذهب أهل السنة والجماعة فيمن يؤمن بوحدة الوجود والإتحاد: فاللّه سبحانه وتعالى فرد صمد، لا يشبهه شيء من خلقه، متصف بصفات الكمال ـ كما وصف بها نفسه ـ فله الأسماء الحسنى والصفات العلى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[4]. فهو المتفرد بالجلال، المتصف بصفات الكمال، المنزَّه عن النقائص والعيوب، فمن إعتقد أن اللّه متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ، وخالف شرائع الإسلام.

والدليل قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن اللّه هو المسيح ابن مريم**﴾[5] فقد كفر اللّه النصارى الذين قالوا بإتحاد اللّه (جل وعلا) بعيسى. فما بال من يقول إن اللّه متحد بكل مخلوقاته.

---

(١) انظر: هذه هي الصوفية، د/ عبد الرحمن الوكيل، ص ١٧٣ .

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي، ١/ ٦٠ .

(٣) إن خاصة المتصوفة هم الذين يقولون بتلك النظريات ويؤمنون بها أما العوام فلا يعرفون من تلك الفلسفات شيئاً فليس عليهم إلا الطاعة العمياء لمشايخهم فيما يأمرونهم به.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١ .

(٥) سورة المائدة، الآية: ٧١، ٧٢ .

وقد قال الإمام إبن تيمية بعد أن تحدث عن وحدة الوجود وغيرها من المقالات المنحرفة التي يقول بها الصوفية:

«فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الأباطيل، والواجب إنكارها فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى، الذي لا يصل به المسلمون، لا سيما وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى وفرعون ومن عرف معناها وإعتقادها كان من المنافقين الذين أمر اللّه بجهادهم بقوله تعالى: **﴿جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾**(١) والنفاق إذا عظم كان صاحبه شراً من كفار أهل الكتاب وكان في الدرك الأسفل من النار»(٢)...

وقال في موضع آخر في حكم من قال بمذهب أهل الوحدة، وأهل الحلول، وأهل الإتحاد. أو وافقهم عليه:

«فأقوال هؤلاء ونحوها: باطنها أعظم كفراً وإلحاداً من ظاهرها فإنه قد يظن أن ظاهرها من جنس كلام الشيوخ العارفين، أهل التحقيق والتوحيد، وأما باطنها فإنه أعظم كفراً وكذباً وجهلاً من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام».

«وأما من يقول بالحلول والإتحاد في معين(٣). فهؤلاء كفرهم شر من كفر النصارى الذين قالوا: «إن اللّه هو المسيح إبن مريم...» فهذا كله كفر باطناً وظاهراً بإجماع كل مسلم، ومن شكّ في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم، ومعرفة دين الإسلام فهو كافر، كمن يشكّ في كفر اليهود والنصارى والمشركين(٤)».

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٢) مجموع الفتاوي، ٣٥٩/٢ ـ ٣٦٠.

(٣) كالنصارى الذين قالوا ذلك في المسيح، والغالبة الذين يقولون بذلك في علي بن أبي طالب، الحاكمية الذين يقولون بذلك في الحاكم، والحلاجية الذين يقولون بذلك في الحلاج... وأمثال هؤلاء الذين يقولون بإلهية بعض البشر، وبالحلول والاتحاد فيه، ولا يجعل ذلك مطلقاً في كل شيء، ومن هؤلاء من يقول ذلك في بعض النسوان والمردان أو غيرهم.
(الفتاوي ٣٦٧/٢ ـ ٣٦٨).

(٤) انظر: مجموع الفتاوي، ٣٦٤/٢ ـ ٣٦٨.

المسألة الثانية: من عقائدهم في القرآن وفي الرسول ﷺ

كما سبق أن أوضحنا فنجد أن كل طريقة من الطرق الصوفية لها أوراد مخصوصة، وأعمال تنفرد بها عن باقي الطرق. وكل ورد لا يتلى ألا بأمر من الشيخ. والورد ألفاظ محدودة لا يتعداها المريد كما أمره شيخه. وسنأخذ مثالاً لذلك من تلك الأوراد التي قيل عنها ما يخرج عن دائرة الإسلام. فنرى أن إعتقاد هذه الطائفة بأن «صلاة الفاتح لما أغلق» أفضل من القرآن في زعمهم. وإليك نصها:

«اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطه المستقيم، وعلى آله حق قدره، ومقداره العظيم»[1].

فقد جاء في كتبهم:

ثم أمرني بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق، فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها؟ فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر ومن كل دعاء كبير أو صغير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار»[2].

ويعتقد التيجانيون أن صلاة الفاتح من كلام اللّه مثل الحديث القدسي فقد جاء في بغية المستفيد:

«... مع إعتقاد المصلي أنها ليست من تأليف البكري ولا غيره، وأنها وردت من الحضرة القدسية، مكتوبة بقلم القدرة في صحيفة نورانية»[3].

ولا يخفى ما في هذا من الكذب والتلفيق، وأن تصديق مثل هذه الترهات تكذيب للّه ولرسوله. فاللّه تعالى قال في كتابه العزيز:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[4]

---

(١) أحزاب وأوراد التيجاني، تحقيق محمد الحافظ، ط ٥، ص ١٢.
(٢) جواهر المعاني، علي حرازم، ١/١٣٦.
(٣) بغية المستفيد، مرجع سابق، ص ٣٧٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

وقال جلّ وعلا:

﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته**﴾[1].

ومستحيل أن يحجب الرسول ﷺ مثل هذا الفضل عن أفضل أمته وهم أصحابه رضوان اللّه عليهم، ويؤثر بذلك مجموعة من خدم وعبيد الكفار والإستعمار، عاشوا في شمال أفريقيا على أكل أموال الناس بالباطل وخدمة الفرنسيين، وتضليل المسلمين وصرفهم من التوحيد إلى الشرك، ومن الصراط المستقيم إلى طرق الشياطين[2].

وقد ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن القرآن كلام اللّه نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، بلسان عربي مبين. المتعبد بتلاوته، منه بدأ وإليه يعود، ليس بمخلوق، ولا يشبه كلام المخلوقين، وفضل القرآن على غيره من سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه[3].

حكم من إعتقد أن «صلاة الفاتح لما أغلق» من كلام اللّه أو أنها أفضل من القرآن الكريم:

ومن العجب أن يتصور التيجاني هذا القول وأن ينطق بها لسانه مع معرفته أنه كذب على رسول اللّه ﷺ، وقد قال جمهور العلماء من إعتقد حل الكذب على النبي ﷺ فقد كفر[4].

وقد قال النبي ﷺ: «من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار»[5].

المسألة الثالثة: في الذكر الصوفي:

ونختم مقالتنا هذه عن مدى أثر العقيدة الصوفية في إفساد عقيدة المسلمين بما تزعم معظم طرقهم بتلقي أذكارهم الخاصة عن الرسول ﷺ يقظة لا مناماً. وذلك ليضفي كل شيخ طريقة هالة قدسية على طريقته وأذكارها. ولنأخذ لهذا المثال طريقة أخرى غير التيجانية

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٢) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ص ٣٥٤.
(٣) شرح الطحاوية، ص ١٧٩، ٣٥٢ ـ ٣٥٤.
(٤) فتح الباري، ١/٢٠٢.
(٥) صحيح البخاري.

التي تكلّمنا عنها في النقطتين السابقتين. وهي الطريقة الشاذلية، وكيف زعموا أن الرسول ﷺ علمهم الأذكار الخاصة بهم.

ذكر اللّه تعالى في كتابه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[1] وذلك كان في حياة الرسول ﷺ. وبعد وفاته ﷺ إنقطع الوحي بعد تمام الدين وكماله وتبليغه للناس كافة.

ولكن الصوفية[2] انفردوا عن جميع المسلمين فزعموا أن الرسول ﷺ بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى أنبأهم ليعلمهم أذكار «الطريقة الشاذلية»!! وعن هذه الفرية المتكررة من كل شيخ طريقة كما سبق القول.

ويقول مؤلف[3] كتاب: «مفاتيح كنوز السموات والأرض المخزونة، التي أعطاها ﷺ لشيخ الطريقة الإدريسية المصونة!!» يقول:

«قال سيدي أحمد رضي اللّه عنه إجتمعت بالنبي ﷺ إجتماعاً صورياً ومعه الخضر عليه السلام فأمر النبي ﷺ الخضر أن يلقنني أذكار الطريقة الشاذلية فلقنني إياها بحضرته ﷺ.

ثم قال ﷺ للخضر عليه السلام: يا خضر لقّنه ما كان جامعاً لسائر الأذكار والصلوات والإستغفار وأفضل ثواباً وأكثر عدداً فقال أي شيء هو يا رسول اللّه؟ فقال: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم اللّه فقالها وقلتها بعدهما وكررها ﷺ ثلاثاً.

ثم قال، قل: اللهم إني أسألك بنور وجه اللّه العظيم إلى آخر الصلاة العظيمة ثم قال له قل أستغفر اللّه الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفار الذنوب ذو الجلال والإكرام إلى آخر الإستغفار الكبير فقلت بعدهما وقد كسيت أنواراً وقوة محمدية ورزقت عيوناً إلهية!![4]

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣ .

(٢) وذلك على اختلاف طرقهم فكل منهم افترى هذه الفرية بالتلقي عن الرسول ﷺ.

(٣) هو صالح محمد الكعفري الذي كان إماما لمسجد الجامع الأزهر مدة طويلة وقد توفي عام ١٩٧٩م.

(٤) هذه الدعوى بالطبع هي الباب الذي يدخل منه هؤلاء على المسلمين بالخرافات والخزعبلات التي ينسبونها إلى الرسول، ويدعون بها الغيب فما دام أنه رزق عيوناً إلهية فلماذا لا يطلع على الغيب؟...

ثم قال ﷺ يا أحمد أعطيتك مفاتيح السموات والأرض وهي الذكر المخصوص والصلاة العظيمة والإستغفار الكبير المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة وما فيها أضعافاً مضاعفة»!! واستطرد قائلاً:

قال سيدي أحمد رضي اللّه عنه وقدس سره: ثم لقنها لي ﷺ من غير وساطة فصرت ألقن المريدين كما لقنني به ﷺ.

ومرة قال له رسول اللّه ﷺ لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه في كل لمحة، علمها أصحابك يسبقون بها وكان رضي اللّه عنه يقول أملي على رسول اللّه ﷺ الأحزاب من لفظه حتى إستشكل بعض أصحابه من العلماء مرة كلمة في الحزب الخامس فقال يا أخانا هكذا قال لي رسول اللّه ﷺ»[1] أ هـ.

هكذا يسترسل «مؤلف كتاب مفتاح كنوز السموات» في سرد هذه الحكايات التي لا يقبلها عاقل آمن باللّه ورسوله واستظل بظل الإسلام، وهذه الضلالات والسخافات والتي فيها ما فيها من الدعاوي والكذب والإفتراء. من ذلك إجتماع شيخه أحمد الإدريسي هذا بالرسول ﷺ والخضر. فما علاقة الخضر عليه السلام بالرسول ﷺ وهو ليس من أتباع نبينا محمد وإنما الخضر صاحب موسى عليه السلام على شريعة غير شريعة موسى أيضاً. وقد مات كما مات الرسل والأنبياء قبله وبعده فما علاقة الخضر أن يكون حاضراً مع الرسول، وأن يأمره الرسول أن يعلم الأذكار والأوراد؟ ولماذا يلجأ النبي ﷺ - وحاشاه - أن يعلم شيئاً جديداً بعد إتمام رسالته ولحوقه بربه. ألا تكفي الأذكار والأوراد التي علمها في حياته؟ أنسي هؤلاء قول اللّه سبحانه: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم...**﴾ (سورة المائدة. الآية ٣).

وقد سبق ذكر حكم الإسلام على من يكذب متعمداً على رسول اللّه[2] ويعلق مؤلف «الفكر الصوفي» على ذلك فيقول:

«فما الحاجة بعد إلى أذكار جديدة، وأليس لو كان للرسول هذا الإتصال ببعض الناس أن

(١) مفتاح كنوز السموات والأرض المخزونة، ص ٨، ٩ ــ نقلاً عن ــ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .
(٢) انظر ص ١٦٤ .

يكون ذلك بيان كيف يخرج المسلمون مما يواجهونه من محن ومصائب، ألا يأتي مثلاً الرسول ليحل المعضلات التي تجابه العالم الإسلامي الآن[1].

ورؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا مستحيلة شرعاً وعقلاً.

«قال القرطبي: وهذا القول يدرك فساده ببادىء العقول إذ يلزم عليه ألا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها ﷺ.

وألاّ يراه رائيان في آن واحد في مكانين.

وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم منه أن يخلو قبره الشريف من جسده الشريف فلا يبقى في قبره منه شيء. فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب. لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع إتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره. وهذه جهالات لا يلتزم بها مَن له أدنى مسكة من عقل»[2].

ومن هذا نأخذ أمرين:

أولهما: أن رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا مستحيلة شرعاً وعقلاً.

ثانيهما: أنه قد حدثت حوادث خطيرة في صدر الإسلام كانت الحاجة فيها إلى ظهوره ﷺ شديدة جداً، ومع ذلك لم يذكر أحد أنه ﷺ رؤى يقظة. فكيف يظهر للمفضول ولا يظهر للفاضل[3].

وأكتفي بذكر ما سبق من إفك الصوفية وأثره في إفساد العقيدة الإسلامية بما يتقولونه على الرسول ﷺ وحسبي ما أوردت منه دليلاً.

---

(١) انظر: الفكر الصوفي، مرجع سابق، ص ٢٨٥ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٣٨٤/١٢ .

(٣) شرح المواهب اللدنية، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، المطبعة الأزهرية المصرية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ، ٥/ ٢٩٥ .

أثر الصوفية في الأخلاق والسلوك

ونرى أن الصوفية كما كان إتجاهها الأول لإفساد العقيدة بإبعاد الناس عن القرآن والسنة الصحيحة، بما إبتدعوه من الأذكار والأوراد، فقد كان لهم أيضاً اليد الطولى في إفساد الأخلاق والسلوك.

أولاً: بعض شطحاتهم في هذا الجانب:

ونبدأ في بيان ذلك بما يجب على المريد مع شيخه في أول الطريق.

١ ـ لا تخالف شيخك مطلقاً فيما يأمرك به، هذا هو الأدب الأول والشرط الأول للمريد. وأن تكون موافقة الشيخ بالقلب والجوارح فلا إنكار ولا مخالفة لشيء مما يقوله مطلقاً، ولا إعتراض عليه بلسان أو بقلب وشعارهم في ذلك.

«كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل!!»

ويقول القشيري في بيان ما يجب على المريد: «وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه لأن الخلاف للمريد في إبتداء حاله دليل على جميع عمره. ومن شروطه ألاّ يكون بقلبه إعتراض على شيخه[1] وهذا هو أول الطريق إلغاء شخصية المريد. وعقله، وفكره. ويقصد من وراء هذه الأقوال إماتة قلب المريد.

(١) الرسائل القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق د. (فير) محمد حسن، منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت، ص ٦٥ وما بعدها.

فمن أفكار المتصوفة ومعتقداتهم: أنه لا بد في التصوف من التأثير الروحي الذي لا يأتي إلا بواسطة الشيخ الذي أخذ الطريقة عن شيخه(١). وإذا تتبعنا شطحات الصوفية لوجدنا الكثير، وطال بنا المسير، ولكن يكفينا ذكر البعض ليدلنا على الكل ومنها أيضاً:

٢ ـ الإتيان بأعمال عجيبة وخوارق للعادة:

مثل ما يقوم به رجال الطريقة الرفاعية في إحتفالاتهم في المناسبات التي يحتفلون بها مثل اللعب بالسيوف وحمل الحيات وغيرها من الأعمال البعيدة عن الدين. ويقول إبن تيمية - رحمه اللّه - عن ذلك معلقاً: «وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات، فليس هذا من شعار أحد من الصالحين، ولا من الصحابة، ولا من التابعين، ولا شيوخ المسلمين ولا من المتقدمين ولا من المتأخرين، ولا من الشيخ أحمد بن الرفاعي، وإنما إبتدع هذا بعد موت الشيخ بمدة طويلة»(٢).

٣ ـ ومن هذه الشطحات:

مخالطة الرجال النساء الأجانب والخلوة بهن: وهذا من نظام «الدروشة» بين الرجال والنساء والخلوة بهن، والنظر إليهنّ بحجة النظر إلى جمال خلق اللّه.

فيقول الإمام إبن تيمية عن ذلك:

«وأما مؤاخاة الرجال والنساء الأجانب وخلوتهم بهن، ونظرهم إلى الزينة الباطنة، فهذا حرام

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ الرياض، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، ص ٣٤٤.
وهذا القول يخالف صحيح العقيدة الإسلامية التي لا تجعل واسطة بين المخلوق والخالق. فهذا شرك باللّه تعالى. وما رجا أحد مخلوقاً أو يوكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك. فقال تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون اللّه أنداداً، يحبونهم كحب اللّه، والذين آمنوا أشد حب اللّه، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة للّه جميعاً وأن اللّه شديد العذاب، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا. ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا، كذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار**﴾ (البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧).
(انظر: مجموع الفتاوي ١٠/٢٥٧ ـ ٢٥٨).
(٢) مجموع الفتاوي، ابن تيمية، مرجع سابق، كتاب التصوف ١١/٤٩٤.

بإتفاق المسلمين. ومن جعل ذلك من الدين فهو من إخوان الشياطين»[1].

٤ ـ القول بإسقاط التكاليف ومخالفة الأمور الشرعية:

فعندهم أن المريد إذا وصل إلى مرتبة معينة من المجاهدة يسقط في دائرة «العدمية» فتسقط عنه التكاليف وتجاوز الأمور الشرعية وهذا الأمر عرفته البرهمية حيث يقول البرهمي: «حيث أكون متحداً مع براهما لا أكون مكلفاً بعمل أو فريضة»[2].

وهذا فيض من غيض يبيّن لنا كيف كان التصوف المنحرف طريقاً مفتوحاً وممهداً لدخول كثير من الشرور على المسلمين ومجتمعهم مثل: التواكل، والسلبية، وإلغاء شخصية الإنسان. وتعظيم شخصية الشيخ والكثير من الأمراض الإجتماعية، زيادة على كثير من البدع والضلالات التي يخرج بعضها صاحبه من الإسلام كلية.

وفي الحقيقة أن التصوف الإسلامي الصحيح كانت له يوماً ما صولة ودولة، وكانت له مكانته المرموقة في المجتمع الإسلامي، إلا أنه كسائر العلوم الإسلامية أضيف إليه ما ليس منه، ودخل فيه رجال ليسوا من أهله، كالدجالين والمخرّفين والمشعوذين فوجدوا فيه مجالاً فسيحاً لدجلهم، وخرافاتهم، وشعوذاتهم، فأساءوا إليه أبلغ إساءة، وأصبح التصوف مظهراً من مظاهر الفقر، والجهل والضعف والتخاذل، والإستسلام، والفراغ من العمل، مما كان له الأثر السيء في المجتمع الإسلامي[3].

ثانياً: تقرير الأزهر عن الصوفية في مصر:

ومما سبق ذكره يكفي لتوضيح أثر الصوفية في المجتمع الإسلامي ولنزيد هذه الصورة وضوحاً، والأمر جلاء، أورد هذا التقرير الذي تم عمله في ظل لجنة مشكلّة من قبل أكبر هيئة دينية في مصر: «الأزهر الشريف» بالإشتراك مع وزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الإجتماعية وكذا مشيخة الطرق الصوفية: وكان قرار شيخ الأزهر الخاص بتشكيل اللجنة ليس هو

---

(١) المرجع السابق، ١١/٥٠٥.

(٢) انظر الموسوعة الميسرة للمذاهب والأديان المعاصرة، ص ٣٥٢.

(٣) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ص ١٩١.

الهجوم على الطرق الصوفية، ولكن كان القرار: بتأليف لجنة للنهوض بالطرق الصوفية، ومن هو الذي كتب التقرير، إنه مقرر اللجنة: وهو على مستوى العالم العامل، والداعية الصادق، هو الشيخ السيد سابق[1]. ولأهمية هذا التقرير وشموله عن أحوال الطرق الصوفية خاصة في مصر، سأثبته كاملاً بإذن الله لتتم الفائدة منه وفيما يلي هذا التقرير:

١ - يوجد بالإقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة[2] ما يقرب من ستين طريقة ولكل طريقة شيخ ومريدون.

وهم يمثلون في تشكيلهم النظام الهرمي، إذ يبدأ هذا النظام بالمريدين الذين هم أتباع الطريقة، كقاعدة لهذا التشكيل، ويرأس كل طريقة شيخ، ويتولى الإشراف على هؤلاء الشيوخ المجلس الصوفي الأعلى، وعدد أعضائه أربعة ينتخبهم شيخ مشيخة الطرق الصوفية من بين ثمانية من مشايخ الطرق تنتخبهم جمعية عمومية مؤلفة من مشايخ الطرق، وتجري الإنتخابات بمحافظة القاهرة برياسة السيد المحافظ، وتتجدد الإنتخابات كل ثلاث سنوات.

ويرأس هذا الجهاز كله شيخ مشيخة الطرق الذي يعيّن بقرار من رئيس الجمهورية.

٢ - وهذه الطرق لها نفوذ واسع إذ يبلغ أتباعها عدة ملايين كما أن لها الأثر البعيد المدى في حياة هؤلاء المريدين وفي سلوكهم، فهي التي تملك توجيههم الوجهة التي تريدها بما تلقنه لهم من تعاليم، وبما تبثّه فيهم من أفكار، ثم أن هؤلاء المريدين يتقبلون هذه التوجيهات، ويحرصون عليها، وينفذونها بدقة، إعتقاداً منهم أنها تستوجب رضا الله، وبركات الشيخ، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وهذه الإستجابة عامة في جميع أتباع الطرق الصوفية، فهي ليست قاصرة على فئة من الناس دون فئة، وإنما هي عامة، يستوي في ذلك العالم وغيره ممن لم يدرس علماً، أو يحظ بنصيب منه.

٣ - وكما أن الطرق الصوفية تحظى بقدر كبير من التقدير والإحترام، وتبسط سلطانها على عدد وفير من الأفراد داخل نطاق الجمهورية العربية المتحدة، فهي كذلك لها منزلتها ومكانتها خارج هذا النطاق في قارتي أفريقيا وآسيا، وهي التي يعزى لها الفضل في الوقوف ضد محاولات التبشير والإستعمار في هاتين القارتين، والمحافظة على بقايا التعاليم

---

(١) الشيخ السيد سابق من علماء الأزهر الشريف.
(٢) يقصد به مصر وذلك إبان قيام الوحدة بين مصر وسوريا.

الإسلامية في الجهات النائية التي إنقطعت صلتها بالأجزاء النشطة من العالم الإسلامي(١).

وبعد أن أوضح الشيخ السيد سابق الشكل العام للطرق الصوفية ومكانتها ومدى إنتشارها في مصر خاصة وفي أفريقيا وآسيا أيضاً. ذكر أنه رغم أن لهذه الطرق آثاراً نافعة إلا أنها انحرفت عن المسار السليم حتى أصبحت غير قادرة على مواصلة السير إلى الغاية المنشودة.

ثم يسوق أمثلة من الضلالات التي ترتكبها الصوفية بإسم الدين والتصوف، فيقول:

ومن أمثلة ذلك: تفشّي الأمية الدينية والإجتماعية بين مشايخ الطرق والخلفاء، مما ساعد على إنتشار الخرافات والترهات والأباطيل التي تختلف كل الإختلاف عن المعقول السليم، والمنقول الصحيح، ومبادىء المعرفة الإنسانية، **ومنها:** تقديس المشايخ وأرباب الطرق والإعتقاد فيهم إلى حد يشبه العبادة. **ومنها:** إنتشار الآراء الباطلة والمعتقدات الفاسدة كإعتقاد أن الولي يملك الضر والنفع، وأنه يستطيع شفاء المرضى وإطالة العمر وتوسيع الرزق، وغفران الذنوب، وأن له من الجاه عند اللّه ما يستطيع به أن يفعل ما يشاء ويقضي ما يريد، وأن البركة حلت بمسجده وضريحه، وأنه يصل إلى حد يسقط عنه فيه التكاليف الشرعية(٢). **ومنها:** ظهور المنتسبين إلى الطرق بمظهر كريه في لأحفال الدينية وحلقات الذكر والموالد كالإيقاع الموسيقى، وإنشاد قصائد الغزل، واختلاط الرجال بالنساء، والضرب بالسيف ونحو ذلك من أكل الزجاج وابتلاع النار والحيات. **ومنها:** شيوع الأفكار السيئة التي تشل حركة النشاط الإنساني من التواكل والكسل وأكل أموال السذج من العمال والفلاحين بإسم الدين.

٤ - وهكذا نجد الأمثلة الكثيرة على مدى الإنحراف الذي أصاب هذه الطرق الصوفية، والذي لا يقتصر ضرره على الأفراد المعتنقين لها والمؤمنين بها، وإنما يعم ضرره الأمة جميعها في عقولها وأفكارها وسلوكها وإنتاجها المادي والأدبي.

وفضلاً عن ذلك فإنه يظهر الإسلام بمظهر الدين الذي يحتضن الخرافة ويبارك الجهالة، ويقدّس السذاجة والتغفيل(٣).

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، مرجع سابق ص ٩٢، ٩٣.

(٢) كل هذه الاعتقادات من الاعتقادات الشركية والأخير يخرج من الإسلام.

(٣) الإساءة إلى سمعة الإسلام لدى أعداء الإسلام.

يضاف إلى هذه الأضرار الدينية والإجتماعية والمادية كنتيجة لهذا الإنحراف ما يصيب سمعتنا، ويجرح كرامتنا أمام العالم الخارجي، ولا سيما وأن لنا من الخصوم مَن يحاول بكل وسيلة أن يظهرنا كجماعة متخلفة عن ركب الحضارة، وأننا غير جديرين بأخذ مكاننا تحت الشمس[١].

وهكذا أوضح فضيلة الشيخ السيد سابق في تقريره مدى الضرر الذي يلحق بالإسلام والمجتمع الإسلامي من السلوك المنحرف للطرق الصوفية ضرر في العقيدة وفي إفساد سلوك المسلمين وفي تشويه سمعة الإسلام كدين أمام العالم الخارجي. ثم يورد التقرير بعد ذلك إقرار اللجنة لما جاء به. ثم إتخذت اللجنة توصياتها للإصلاح الذي رأته علاجاً لهذه الحال، وأسوق نص هذه التوصيات فيما يلي:

لهذا كله ولغيره مما لا يتسع المقام لذكره رأت اللجنة التي تم تكوينها حسب القرار رقم ٦١٤ بتاريخ ١٩٥٩/٤/٢٦ م بشأن تأليف لجنة مشتركة من الأزهر ووزارة الأوقاف ووزارة الشؤون الإجتماعية ومشيخة الطرق الصوفية الذي أصدره فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، بعد أن عقدت أربع جلسات إستعرضت فيها جميع الحالات وإسترشدت فيها بتوجيهات فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، رأت اللجنة إتخاذ التوصيات الآتية:

١ ـ يوضع إختبار لمشايخ الطرق الصوفية والخلفاء الحاليين في المواد الآتية:

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ السيرة النبوية
٣ ـ التوحيد
٤ ـ التصوّف
٥ ـ فقه العبادات

على أن يبقى في منصبه من يجتاز الإختبار وتترك فرصة كافية لمن لم يكن له إستعداد كاف، أقصاها مدة عام. ويعزل عن المشيخة أو الخلافة من يثبت عدم صلاحيته.

---

(١) عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، مرجع سابق ص ٩٣، ٩٤ .

ويقوم بهذا الإختبار لجنة مكونة من علماء الأزهر وسماحة شيخ الطرق، ويصدِّق على إختيارهم فضيلة الأستاذ الأكبر.

٢ - يعدّ للمشايخ والخلفاء برنامج تدريبي يزودون فيه بالأصول الصحيحة للتصوف الحقيقي، وبالخطط التوجيهية التي تعينهم على النهوض بواجباتهم وأدائها خير أداء.
ويقوم بوضع البرنامج التدريبي مدير الثقافة الإسلامية مع شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وينفّذ هذا البرنامج نخبة من العلماء الفاقهين لمثل هذه الموضوعات، ويعتمد ذلك كله فضيلة الأستاذ الأكبر.

٣ - توضع شروط خاصة لمن يتولى أي منصب رئيسي من هذه المناصب من حيث الإستمتاع بالسمعة الطيبة والسلوك المهذب. وتقديم صحيفة السوابق. ويقدّم من له نشاط إجتماعي أو ديني ملحوظ. مع مراعاة عدم الإستخلاف بطريق الوراثة، وكذلك تراعى الحالة المالية لضمان عدم الإستغلال بقدر الإمكان.

٤ - أخذ التعهد على كل من يتولى عملاً من أعمال التصوف بمراعاة القواعد الشرعية، ووضع جزاءات للمخالفات الي تصدر عنهم منعاً للمنكرات التي تقع في الحضرة، وحلقات الذكر، وحفلات الموالد.

٥ - وضع خطة لإشتراك المشايخ والمريدين في الخدمات العامة في المناطق المقيمين بها والتي يمكنهم الإسهام فيها، وإفتتاح فصول لمحو أمية المريدين وتدريس التصوف الإسلامي الصحيح، وشغل أوقات الفراغ بالنافع من العلم والعمل، كالنشاط الديني، والإجتماعي، والصحي وتنمية الوعي القومي في القرية.

٦ - تحديد إختصاص الجهاز الإداري على مختلف المستويات المحلية والإقليمية والقومية، على أن تراعى الأسس الإدارية السليمة مع ضمان الإشراف الدقيق على الأعمال التي يقوم بها رجال الطرق على إختلاف درجاتهم بما يضمن تطبيق ما جاء باللائحة الداخلية للطرق الصوفية[١] وما يوضع من مواد للنهوض بها.

٧ - تمثيل الأزهر في المجلس الصوفي الأعلى بعضوين يختارهما فضيلة الشيخ الأكبر.

(١) في ذلك الوقت سنة ١٩٥٩م كان يجري تعديل اللائحة الداخلية للطرق الصوفية ولذلك نوه التقرير على ذلك لتراعى هذه التوصيات في اللائحة الجديدة الجاري العمل فيها مع طلب تمثيل الأزهر في لجنة تعديل اللائحة.

٨ ـ يوضع نظام للإحتفاظ بحصيلة صناديق النذور، والصرف منها على الخدمات والمصالح العامة، وتوزيعها على المستحقين من غير الموظفين.

٩ ـ بحث إدماج الطرق المتشابهة بعضها في بعض.

١٠ ـ إستغلال التجمعات للدعاية الدينية والإجتماعية، ونشر الوعي القومي والثقافي والصحي.

١١ ـ تنفذ التوصيات التي أقرتها اللجنة المشكلة من وزارة الشؤون الإجتماعية والأزهر والداخلية ومشيخة الطرق الصوفية والهيئات المعنية بهذا الشأن.

ونظراً لأن كثيراً من العادات السيئة المنتشرة في الموالد مصدرها عدم الدقة في رعاية الأصول الشرعية ينبغي أن يضع القائمون بالأمر من أهل الطرق من القواعد التنظيمية ما يضمن عدم حدوث مخالفات لهذه الأصول.

١٢ ـ التشدد في تطبيق النصوص التشريعية المتصلة بجرائم الإحتيال، وكتابة التمائم، والعزائم ونشر الدجل والشعوذة.

١٣ ـ تأليف رسائل مبسطة لبيان حكم الإسلام في الموضوعات الآتية ونشرها:

١ ـ التصوف: معناه ـ تطوره ـ رجاله ـ فلسفته.
٢ ـ ما معنى الشريعة، والحقيقة، وهل بينهما فرق؟
٣ ـ من هو الولي؟ وما هي الكرامة؟ وما معنى المقام؟ والحال؟ والإتحاد، والحلول؟
٤ ـ ما هي الطرق ومَن رجالها؟ ومَن هو القطب والغوث والخضر؟ ومَن هم أهل اللّه؟ وأصحاب الديوان؟... الخ
٥ ـ ما هو الذكر الشرعي وكيفيته؟
٦ ـ ما معنى التوسل الصحيح وكيفية الدعاء؟
٧ ـ حكم النذور.
٨ ـ الزيارة الشرعية للأضرحة وحكم السفر إليها.
٩ ـ الموالد، حكم إقامتها، مَن أنشأها؟
١٠ ـ أدب دخول المساجد والمكث بها والنوم فيها.

١٤ ـ على كل هيئة من الهيئات المسئولة مثل: الصحف، الإذاعة، والوعاظ، وأئمة المساجد، ورجال الإفتاء، ووزارة الشؤون الإجتماعية والداخلية وعلماء الأزهر أن تسهم في هذا الأمر، وتقوم بدور إيجابي في رعايته.

١٥ ـ مراجعة الكتب التي تتضمن المسائل الصوفية، ومصادرة ما ينافي التعاليم الدينية منها[١].

(١) انظر: عناصر القوة في الإسلام، السيد سابق، ص ٩٤ ـ ٩٧.

من رجال هذا الإتجاه

الدكتور عبد الحليم محمود «الإمام النوراني»[1]

هو الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر العالم الفيلسوف، المصلح، المتصوف، عبد الحليم محمود[2] (١٩١٠ م - ١٩٧٨ م).

نشأته وحياته العلمية:

نشأ الشيخ في أسرة متدينة، ميسورة مشهورة بالكرم والسمعة الحسنة، ولد في عزبة جده «أبو أحمد» المجاورة لمدينة بلبيس بمحافظة الشرقية في سنة ١٩١٠ م.

كان يحب منبت رأسه «عزبة أبو أحمد» وكذا المحافظة الأم ويقول في ذلك: «على أن هذه العزبة بجمالها ورونقها، تقع في البقعة الأم، «محافظة الشرقية» وإني لفخور «بمحافظة الشرقية» هذه المحافظة التي تتسم بطيبة القلب، وصفاء النفس، والكرم، ولو خيِّرت ما اخترت سواها، والحمد للّه».

(١) كما وصفه مؤلف كتاب النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين.

(٢) انظر ترجمته في:

ـ مشيخة الأزهر، علي عبد العظيم، ٢/٣٢٠ ـ ٣٣٧ .

ـ الحمد للّه هذه حياتي، عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

ـ النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، ٢/٥ ـ ٢٩ .

ـ شيوخ الأزهر ولمحات عن نظامه المعاصر، الأزهر، مطبعة المصحف الشريف، ترجمة رقم ٤٠ .

بدأ أولى حلقات تعليمه في «الكتاب» ليحفظ القرآن الكريم فحفظه في سن مبكرة. والتحق بالأزهر الشريف، ولما فتح معهد الزقازيق التحق به كما التحق بمعهد المعلّمين في ذات الوقت، ونجح في المعهدين معاً. ثم رحل إلى القاهرة حيث نال العالمية سنة ١٩٣٢ م.

وكان رحمه اللّه عالماً إسلامياً كبيراً، فسيح الآفاق، بعيد الأغوار، متصوفاً زاهداً، جمع بين الثقافة العربية والثقافة الغربية حين رحل إلى السربون وظل في فرنسا ملتزماً بالآداب الإسلامية والتقاليد العربية وآثر أن يدرس تاريخ الأديان واستعد للدكتوراه في التصوف الإسلامي واختار شخصية (الحارث بن أسد المحاسبي) وكان بينهما تشابه في المسلك الصوفي وكلاهما يرى أن الكتاب والسنة هما أساس المسلك الصوفي.

وفي أثناء الدراسة قامت الحرب وآثر البقاء حتى نال الدكتوراه سنة ١٩٤٠ م في ظروف صعبة بعد إنقطاعه عن الوطن، وقررت الجامعة الفرنسية طبع الرسالة على نفقتها وهو شرف لم ينله إلا القليل.

حياته العملية:

وبعد عودته إلى مصر بعد رحلة شاقة[1] إبان الحرب، بدأ حياته العملية ـ رحمه اللّه ـ مدرِّساً بكلية اللغة العربية، ثم نقل أستاذاً بكلية أصول الدين سنة ١٩٥١ م فعميداً للكلية سنة ١٩٦٤ م. وكان دائماً في مكان الرّيادة والإصلاح، فمع عنايته بالعلم فقد إهتم كثيراً بحفظ الطلاب لكتاب اللّه.

ثم تولى وزارة الأوقاف، وفي نهاية رحلته الحياتية تولى مشيخة الأزهر فاتسع مجال إصلاحاته والنفع منه، وتحرك في كل إتجاه ينشئ مدارس تحفيظ القرآن، والمعاهد الدينية ويقيم المساجد، وينادي بالبذل وإقامة المؤسسات الإسلامية بالجهود الذاتية. ونادى بأن تُردّ الأوقاف للأزهر حتى يستطيع أن ينهض برسالته.

(١) وصل بعد عام كامل من محاولته بدء رحلة العودة حيث كانت الطرق كلها مغلقة بسبب الحرب، فتنقل من بلد إلى بلد حتى اضطر أن يلف حول رأس الرجاء الصالح.

حياته الفكرية وآثاره:

لقد تعددت إتجاهات الخير والعطاء عند الشيخ عبد الحليم محمود، وسنحاول أن نلمّ بجانب منها بالقدر الذي يهمّنا في هذا البحث.

فقد دعا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وأن فيها النجاة من براثن الإستعمار، والدواء من أمراض العصر. ونادى أيضاً بالدفاع عن اللغة العربية والنهوض بها، حتى لا تنفصل الأمة عن كتاب ربها الذي لا يُفهم إلا بالعربية.

لقد كان جهاد الإمام عبد الحليم محمود في أثناء مشيخته للأزهر رائعاً فقد حارب في جبهات عدة، عاناها المجتمع المسلم في مصر وفي غيرها من بلاد الإسلام.

حارب الوجودية: حين هبت كريح السموم، فتساءل الشيخ عن مكمن الحرية في المذهب الوجودي؟ أهي حرية مطلقة بحيث تصبح إعتداء على حقوق الآخرين. أم هي حرية مقيدة تحترم حقوق الآخرين، وكيف يكون ذلك؟ ومذهب الوجودية يدعو إلى قضاء كل رغبة يتعشقها المرء إستجابة للغرائز والشهوات.

ثم يتساءل بمنتهى الدهشة والإنكار: أي عطاء تقدّمه الوجودية يُسعد الناس جميعاً؟ حتى يعتنقها الأفراد والجماعات؟

وإذا إستحال هذا العطاء المجرد من الظلم فلِمَ ندعو إليه ولدينا عطاؤنا العادل في منهج الإسلام؟

وحارب الشيوعية: صامداً محتسباً، صنديداً قوياً، متخذاً أقوى أسلحته: قلمه ولسانه كاتباً وخطيباً فظهرت كتبه ومقالاته وأحاديثه فاضحاً عوار الشيوعية الحاقدة، مبيّناً أكاذيبهم وضلالهم وكفرهم حتى أصدر فتواه الشهيرة الجريئة، حين اعترفت الدولة - في غياب من الفضيلة - بحزب اليسار المصري (الشيوعي) فأعلنها مدوية:

«أن الشيوعية كفر، وأن الماركسية هي المادية وأن المادية تنكر عالم الغيب فلا إله، وختم الشيخ فتواه بأن المسلمة لا تحل لشيوعي وأنه إذا مات الشيوعي فلا يصلى عليه، ولا

يدفن في مقابر المسلمين، وأن باب التوبة مفتوح، فإذا تاب الشيوعي تاب اللّه عليه» وهي فتوى صريحة لا تعرف خداع الكلمات، ولا نفاق الدبلوماسية وقد ضاقت بها الصحف اليومية، حتى ظهرت في صحف الدعوة الإسلامية وحدها!

ومن مواقفه ـ رحمه اللّه ـ المعدودة في ميزانه يوم القيامة بإذن اللّه. وقفته أمام حاكم جائر، عندما نددت المحكمة العسكرية بموقف علماء الأزهر من الجماعة التي أسموها «جماعة التكفير والهجرة» في قضية مقتل الشيخ الذهبي بأن الأزهر لم يصدر بياناً بتجريم فكر هذه الجماعة. ورغم دقة الموقف في تلك الظروف. فما كان من الشيخ إلا أن يصدر بياناً حاسماً قوياً ردًّا على رئيس المحكمة العسكرية العليا، نقتطف بعضاً منه لنبيّن مدى شدّته في الحق:

«وموقف علماء الأزهر من هذه القضية يتلخص في أمور:

أولاً : إنه إذا كان المطلوب منهم إبداء الحكم الإسلامي في آراء غير معروضة عليهم عرضاً محدداً دقيقاً كاملاً، فإنه يكفي في ذلك الرجوع إلى مؤلفاتهم العديدة التي تملأ الأسواق وإلى مصنّفات العلماء السابقين عليهم التي يزخر بها التراث.

ثانياً : أما إذا كان المطلوب من علماء الأزهر إبداء الحكم الإسلامي في آراء هذه الجماعة بالذات، فقد كان الأمر يقتضي «باسم العلم وباسم العدالة وباسم الإسلام».

١ ـ أن تعرض عليهم آراؤها في مصادرها الأصلية.

٢ ـ أن يطلعوا على كافة الظروف التي أدت بهم إليها.

وهذا للأسف الشديد هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكن منه علماء الأزهر، واكتفت بأن عرضت عليهم المحضر الذي سجلته النيابة.

ثم ندّد بأن الدولة سمحت للفكر الإلحادي وعلى قمته الماركسية ولذا فقد رأى علماء الأزهر أن ما يطلب منهم بتجريم هذا الرأي أو عدم تجريمه، ليس مما يدخل في دائرة إختصاصهم بحال من الأحوال وإنما الذي يدخل بيان الرأي[1]».

(١) مجلة الاعتصام ــ ربيع ثان سنة ١٣٩٨هـ، ص ١٨ .

ويتبيّن لنا من هذا الرد الشجاعة الصريحة التي نفتقدها لدى كل مسئول.

بقي لنا إتجاه هام بل الأهم في حياة الشيخ وهو الجانب الروحي باتجاهه الصوفي. فنرى الشيخ خلال رحلته العلمية يتجه إلى فرنسا علم الحضارة الغربية الحديثة، فلم ينبهر بما رآه من تقدم ـ كما انبهر نفر قبله ـ ولم ينحرف فكره بما درس من فلسفات الغرب كما انحرف وتغرّب أزهريون عندما سلكوا ذلك الطريق الوعر ولكن الشيخ عبد الحليم حفظه اللّه من كل ذلك باتجاهه إلى التصوف الإسلامي الصحيح البعيد عن الإنحراف العقدي. بعد أن يئس من فلسفة الغرب وزخرف حضارتهم البراق. فإتجه إلى يقين المعرفة عن طريق القلب، كما إتجه الإمام الغزالي من قبل[1].

ولنترك الدكتور الإمام يتحدث بنفسه عن سلكه هذا الطريق إذ يقول:

«بعد تردّد بين هذا الموضوع أو ذاك هداني اللّه ـ وله الحمد والمنة ـ إلى موضوع التصوف الإسلامي، فأعددت رسالة عن (الحارث بن أسد المحاسبي) فوجدت في جو «الحارث بن أسد المحاسبي» الهدوء النفسي، والطمأنينة الروحية، هدوء اليقين، وطمأنينة الثقة، لقد ألقى بنفسه في معترك المشاكل، التي يثيرها المبتدعون والمنحرفون، وأخذ يصارع مناقشاً مجادلاً، وهادياً مرشداً، وانتهيت من دراسة الدكتوراه، وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم في الحياة وهو منهج الاتباع. لقد كفانا اللّه ورسوله كل ما أهمنا من أمر الدين، وبعد أن قر هذا المنهج في شعوري، واستيقنته نفسي، أخذت أدعو إليه كاتباً ومحاضراً ومدرِّساً، ثم أخرجت فيه كتاب (التوحيد الخالص) وما فرحت بظهور كتاب من كتبي، مثل فرحي يوم ظهر هذا الكتاب، لأنه خلاصة تجربتي في الحياة الفكرية»[2].

كان تصوّف الشيخ تصوفاً عاقلاً فعالاً، لم يكن هروباً من الحياة، بل كان علاجاً لمعضلاتها، وحلاً لمشكلاتها، وتفاعلاً في الخير معها، فيدفع إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ما وسعه الجهد وبكل الوسائل، ولا يخشى في اللّه لومة لائم.

---

(١) وذلك عندما أراد أن ينقض الفلسفة اليونانية فدرسها أولاً ثم كتب كتابه: «تهافت الفلاسفة» فلم تقم لهم قائمة بعده وهكذا فعل عبد الحليم محمود.

(٢) مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٩٨هـ، ص ٣١٨.

وأخيراً نستطيع أن نقول بعد أن استطلعنا هذه العجالة عن الشيخ عبد الحليم محمود أنه فهم رسالة المسلم في الحياة، فهم أنه خليفة اللّه في الأرض، ومن هنا كان التصميم التام أقوى دعائمه الإصلاحية، وكان النجاح المثمر نتيجة هذا التصميم، لأنه تصميم الموقن الجازم، تصميم المتصوف، الذي إعتقد أن عمره في هذه الحياة مرحلة محدودة، تعد إبتداء لمرحلة مقبلة غير محدودة، حين يقرأ كتابه عند ربه، فيجد سجله الواعي الدقيق، لا يغادر من كبيرة أو صغيرة إلا أحصاها! هذا الإيمان الجازم الموقن، هو مفتاح شخصية «عبد الحليم» وبه حالفه التوفيق وآزره النجاح. رحم اللّه الشيخ رحمة واسعة[1].

(١) لقد أوردت الشيخ عبد الحليم محمود كنموذج واضح لهذا الاتجاه ولو أن عطاءه الفكري جاء بعد الفترة مناط البحث إلا أنه امتداد لها.

الباب الثاني

في الإتجاه العقلي

ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول هي:

الفصل الأول : في مفهوم العقل وموقف الإسلام منه.

الفصل الثاني : المدرسة العقلية القديمة (المعتزلة).

الفصل الثالث : المدرسة العقلية الحديثة.

الفصل الرابع : منهج المدرسة الحديثة ورجالها.

الفصل الأول

في مفهوم العقل وموقف الإسلام منه

ويحتوي هذا الفصل على ثلاثة مباحث وتمهيد بيانها كالتالي:

تمهيد : في المعنى.

المبحث الأول : تكريم الإسلام للعقل.

المبحث الثاني : من مظاهر تكريم الإسلام للعقل.

المبحث الثالث : نطاق وظيفة العقل في الإسلام.

تمهيد

في معنى العقل:

- عقل عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقل الغلام: أدرك وميّز.
- وعقل إليه: عقلاً وعقولاً: لجأ وتحصّن.
- وعقل الظلّ عقلاً: إنقبض وانزوى عند انتصاف النهار.
- وعقل البعير: ضم رسغ يده إلى عضده وربطهما معاً بالعقل ليبقى باركاً.
- عقل الدواء بطنه يعقله ويعقله أمسكه.
- عاقلة الرجل: عصبته وقال إبن دريد: بنو عمه الأَدْنَون.
- العقل: ما يقابل الغريزة التي لا إختيار لها. ومنه الإنسان حيوان عاقل. والعقل ما يكون به التفكير والإستدلال وتركيب التصورات والتصديقات والعقل ما يتميز به الحسن من القبيح والخير من الشر، والحق من الباطل، والعقل القلب، والعقل: الدية، والعقل: الحصن[1].

وفي تاج العروس: العقل أصل معناه المنع[2].

وفي حين أن أهل اللغة لم يفرّقوا بين عقلت وعلمت فجعلوا العقل مساوياً للعلم. نجد أن الأصوليين ناقضوا ذلك، وقال الإمام البزدوي: أن العقل نور يضاء به طريق إصابة الحق

(١) جمهرة اللغة، لابن دريد، ١٢٨/٣ ـ ١٢٩.
المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرين، مجمع اللغة العربية، القاهرة، نشر المكتبة العلمية ـ طهران، ٦٢٣/٢ مادة: عقل.
ـ القاموس المحيط ١٨/٤ ـ ١٩.

(٢) تاج العروس: ٢٥/٨، فصل العين باب اللام.

والمصالح الدينية والدنيوية، فيدرك القلب به كما تدرك العين بالنور المحسات... أي أن العقل نور يضاء به طريق يبدأ به من حيث ينتهي درك الحواس[٣].

---

(١) كشف الأسرار، للبزدوي، ٢/٣٩٤.

تكريم الإسلام للعقل

العقل نور تنجلي به ظلمات الأوهام، ونور تشرق به العلل والأحكام. وقد أثنى اللّه سبحانه في القرآن الكريم على العقل في كثير من الآيات القرآنية. فصرّح في مواضع كثيرة بالدعوة إلى إستعمال العقل. فقال عز وجل:

﴿كذلك يحيي اللّه الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾[1]

﴿كذلك يبين اللّه لكم آياته لعلكم تعقلون﴾[2]

﴿قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾[3]

﴿والنجوم مسخرات بأمره إنّ في ذلك لآيات لقومٍ يعقلون﴾[4]

وذمّ اللّه تعالى بعض الأفعال وبيّن مخالفتها للعقل، فقال سبحانه:

﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾[5]

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[6]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٢ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٨ .

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢ .

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٤ .

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٤ .

وبعد أن رأينا عناية القرآن الكريم بالعقل ومنزلته بالنسبة للإنسان. في الثواب والعقاب، وفي الخير والشر، يجدر بنا أن نشير إلى منزلة العقل في السنة المطهرة بإيراد نخبة من أحاديث الرسول ﷺ: عن عبد اللّه بن عمر ـ رضي اللّه عنهما[(١)] ـ قال، قال رسول اللّه ﷺ: «لاتعجبوا بإسلام أمرئ حتى تعرفوا عقدة عقله»[(٢)] لأن الإسلام في جملة أحكامه وتعاليمه دين العقل والحكمة ويجعل أتباعه دائماً في تدبر وإمعان للنظر في كل ما يحيط بالإنسان في الكون والحياة. وعن علي رضي اللّه عنه[(٣)] قال: «ألاَ لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ولا في عبادة ليس فيها تفقه».

وهذه هي أقوال اللّه عز وجل وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة رضوان اللّه عليهم كلها توضيح كيف أن الإسلام يدعو إلى التدبر وإعمال العقل (في حدود الشرع الحكيم). حيث أنه ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذي لا يعلم لهم فيه مخالف، وأن القياس الصحيح دائر مع أوامرها ونواهيها وجوداً وعدماً، كما أن المعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً، فلم يخبر اللّه ولا رسوله بما يناقض

(١) عبداللّه بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أبو عبد الرحمن. أمه زينب بنت مظعون الجمحية. أسلم مع أبيه وهاجر قبله إلى المدينة. لم يشهد بدراً ولا أحداً، فقد رده النبي ﷺ مع غيره ممن لم يبلغ الحلم، فكانت أول مشاهده الخندق، كان كثير الإتباع لآثار الرسول عليه السلام، فهو من المكثرين عن النبي ﷺ وروى أيضاً عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي ذر ومعاذ وعائشة وغيرهم. وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. شهد فتح مكة، أفتي الناس في الإسلام ستين سنة وغزا إفريقية مرتين، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة وكان مولده ووفاته بها. وكانت وفاته سنة ٧٣ هـ وله من العمر ٨٤ سنة. الإصابة جـ ٢ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠ ترجمة رقم ٤٨٣٤ . أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٣٦ ـ ٣٤١ ترجمة رقم ٣٠٨٠ .

(٢) هذا الحديث: ظاهر من حاله أنه ضعيف أو موضوع. علماً بأني لم أقف عليه وذلك حسب المراجع التي عندي في الأحاديث الصحيحة أو الضعيفة أو الموضوعة.

(٣) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي ﷺ وصهره وأول الناس إسلاماً بعد خديجة، وهو أحد الشجعان الأبطال. ولد بمكة قبل الهجرة بـ ٢٣ سنة. وربي في حجر النبي وروى عنه ولم يفارقه. كان اللواء بيده في أكثر المشاهد. آخاه الرسول لما آخى بين أصحابه. كان من أكابر الخطباء والعلم بالقضاء. كان أحد الشورى الذين نص عليهم عمر. عرض عليه عبد الرحمن بن عوف الخلافة وشرط عليه شروطاً امتنع علي من بعضها فعدل عنه إلى عثمان فقبلها فولاه وبايعه علي. ولما قتل عثمان بايع الناس علياً سنة ٣٥هـ وامتنع بعض الصحابة. وقتل رضي اللّه عنه غيلة في رمضان سنة ٤٠هـ.
ـ الإصابة جـ ٢ ص ٥٠٧ ـ ٥١٠ ترجمة رقم ٥٦٨٨ .
ـ أسد الغابة جـ ٣ ص ٥٨٨ ـ ٦٢٢ ترجمة رقم ٣٧٨٣ .

صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل[1].

وقد أقر النبي ﷺ معاذاً على إجتهاد رأيه فيما لم يجد فيه نصاً عن اللّه ورسوله، فقال شعبة حدثني أبو عون عن الحارث بن عمر وعن أناس من أصحاب معاذ عن معاذ[2] أن رسول اللّه ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء»؟ قال: «أقضي بما في كتاب اللّه». قال: «فإن لم يكن في كتاب اللّه»؟ قال: فبسنة رسول اللّه ﷺ قال: «فإن لم يكن في سنة رسول اللّه ﷺ»؟ قال: «أجتهد رأيي ولا آلو». قال فضرب رسول اللّه ﷺ صدري، ثم قال: «الحمد للّه الذي وفّق رسول رسول اللّه لما يرضي رسول اللّه ﷺ»[3].

وقد علّق الإمام إبن القيم[4] على ذلك بقوله: «فهذا حديث وإن كان عن غير تسمية

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، دار الفكر ـ بيروت ط ٢، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ٥٢/٢ .

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، العالم الرباني أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي الإمام المقدم في الحلال والحرام شهد العقبة وهو لم يتجاوز ثماني عشرة سنة، وشهد بدراً والمشاهد كلها وكان من نجباء الصحابة وفقهائهم وألبائهم رضي اللّه عنه. آخى رسول اللّه ﷺ بينه وبين عبداللّه ابن مسعود. بعثه رسول اللّه ﷺ قاضياً إلى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم روي معاذ عن النبي ﷺ ، وروى عنه ابن عباس وابن عمرو وابن عدي وآخرون من كبار التابعين. قال له الرسول ﷺ كلما ودعه حين أمّره على اليمن. حفظك اللّه من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ومن فوقك ومن تحتك ودرأ عنك شرور الإنس والجن. وقال ابن مسعود كنا نشبه معاذ بإبراهيم الخليل عليه السلام كان أمة قانتاً للّه حنيفاً. وعدّه أنس بن مالك فيمن جمع القرآن على عهد رسول اللّه ﷺ. قدم من اليمن في خلافة أبي بكر ثم خرج إلى الشام ومات بها في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين وقيل أربعاً وثلاثين.
ـ الإصابة جـ ٣ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ترجمة ٨٠٣٧ .
ـ الإستيعاب جـ ٣ص ١٤٠٢ ـ ١٤٠٦ ترجمة ٢٤١٦ .
ـ تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٩ ترجمة ٨ .

(٣) أخرجه أبو داود أقضية ١١، والترمذي أحكام ٣، والنسائي قضاء ١١، والدارمي مقدمة ٢٠، وأحمد ٥، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢ .

(٤) ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ = ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠م) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي. أبو عبداللّه شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروب بالعصي. وأطلق بعد موت ابن تيمية. وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس أغري بحب الكتب، فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً، وألّف تصانيف كثيرة منها: «أعلام الموقعين ـ ط» و «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ـ ط» «وأحكام أهل الذمة» و «تحفة المودود بأحكام المولود ـ ط» و «مفتاح دار السعادة» و «زاد المعاد ـ ط».
ـ الدرر الكامنة ٤٠٠/٣، شذرات الذهب ١٦٨/٦، النجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠، فهرس المؤلفين ص ٢٣٤و ٢٣٥.

فهم أصحاب معاذ، فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث، وأن الذي حدّث به الحارث بن عمرو[1] عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سمّي، كيف وشهرة أصحابه معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى. ولا يعرف في أصحابه منهم كذاب، ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم[2].

ومن ذلك نرى أنه ليس ثمة عقيدة تقوم على إحترام العقل الإنساني وتعتز به وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية. وليس ثمة كتاب أطلق سراح العقل وغالى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم كتاب الإسلام، بل إن القرآن ليكثر من إستشارة العقل ليؤدي عمله الذي خلقه اللّه له[3].

لذا نجد قوله تعالى: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾[4] و﴿**لقوم يتفكرون**﴾[5]، و﴿**لقوم يفقهون**﴾[6] ونحوها تتكرر عشرات المرات في القرآن الكريم لتؤكد هذا النهج الفريد في القيام على إحترام العقل ودعوته دائماً للعمل في التدبر والنظر[7].

ومما سبق نرى أن: الدين الإسلامي دين لا يعرف الكهانة[8]، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به إلى المحراب بشفاعة

(١) الحارث بن عمرو ـ ابن أخي المغيرة بن شعبة الثقفي لا يعرف إلاّ بهذا التعريف ذكره العقيلي في الضعفاء، وذكره ابن حبان في الثقات ـ روى عن معاذ في الإجتهاد. (تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ١٥٢).

(٢) أعلام الموقعين، مرجع سابق ٢٠٢/١.
ـ كتاب الأحكام لإبن حزم ٢٦/٦، المبسوط، للسرخسي ٧٠/١٦.
ـ المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، محمد مصطفى شلبي، ص ١٠١.

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م جـ ١ص ٢٩.

(٤) سورة البقرة، الآية ٧٣ والآية ٢٤٢، سورة الأنعام الآية ١٥١، وسورة يوسف الآية ٢.

(٥) سورة يونس الآية ٢٤، وسورة الرعد الآية ٣، سورة النحل الآيات ١١، ٦٩ وسورة الروم الآية ٢١ وسورة الزمر الآية ٤٢ وسورة الجاثية الآية ١٣ وغير ذلك.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٢٥.

(٨) التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، موسوعة عباس محمود العقاد المجلد الخامس، طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت، ص ٨٤١.

من ولي متسلط أو صاحب قداسة وطاعة، فلا ترجمان بين اللّه وبين عباده يملك التحريم والتحليل، أو يقضي بالثواب والعقاب، ودين هذا شأنه لن يتجه فيه الخطاب بداهة إلى غير الإنسان العاقل[1].

(١) التربية الإسلامية وأثرها في المجتمع د/عبد الرحمن عميرة، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ المجلس العلمي ـ بحوث مؤتمر الفقه سنة ١٣٩٦هـ ١٤٠١هـ ص ٢٧٦.

المبحث الثاني

من مظاهر تكريم الإسلام للعقل

لقد شرّف العلم في كتابه العزيز بتشريف العلماء في قوله تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1].

وفي هذا شرف للعلم، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين. فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟![2].

ولقد أبرز الإسلام مظاهر تكريمه للعقل وإهتمامه به في عدة مواضع نذكر منها:

أولاً: جعل الإقناع العقلي من ركائز الإيمان:

فلم يطلب الإسلام من الإنسان أن يطفيء مصباح عقله ويعتقد، بل دعاه إلى إعمال ذهنه، وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمور مقنعة في شؤون حياته وعقيدته[3].

وكان من أهم هذه التوجيهات القرآنية وأولها:

التوجيه إلى التفكر والتدبر والنظر... في قوله تعالى: **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب﴾**[4].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد محمد محمد الغزالي، ص ٧٧.

(٣) أنظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد بن عبد الرحمن الرومي، ص ٣٠.

(٤) سورة ص ، الآية: ٢٩.

﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً﴾[1].

وهذا كثير في القرآن: يأمر ويمدح التفكر والتدبر والتذكر، والنظر والإعتبار والفقه والعلم والعقل، والسمع والبصر والنطق، ونحو ذلك من أنواع العلم والعقل وأسبابه وكماله، ويذمّ أضداد ذلك[2].

ويعلّق الإمام إبن تيمية بقوله:

«فإذا تبين أن جنس عدم العقل والفقه لا يحمد بحال في الشرع، بل يحمد العلم والعقل ويؤمر به أمر إيجاب أو أمر إستحباب»[3].

ثانياً: حرية الإعتقاد:

أَوْلَت الشريعة الإسلامية حرية الإعتقاد إهتماماً وتقديراً كبيراً، وعملت على صيانتها، فلكل إنسان أن يعتنق من العقائد ما اقتنع به ولا يجبر على إعتناق عقيدة مخالفة إذ لا يفيده الدخول في عقيدة مكرهاً مقسوراً[4]، ولم تكتف الشريعة الإسلامية بإعلان هذه الحرية وإنما إتخذت طريقين:[5]

أ - إلزام الناس بإحترام حق الغير في إعتقاد ما يشاء، فإن كان ثمة معارضة فلتكن بالحسنى، فإن قبل صاحب العقيدة أن يغيرها عن إقتناع[6] فلا حرج وإن لم يقبل فلا يجوز إكراهه، ﴿لا إكراه في الدين﴾[7].

ب - إلزام صاحب العقيدة بالعمل على حماية عقيدته، فإن عجز عن حماية نفسه كان عليه أن يهاجر إلى بلد آخر يحترم أهله العقيدة، ويمكن له فيه من إعلان ما يعتقد، فإن لم

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) الاستقامة، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، طبع جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م، ص ١٥٩ الجزء الثاني.

(٣) نفس المرجع، وذات الصفحة.

(٤) وذلك بخلاف من أسلم فلا يجوز له الإرتداد عن دينه ومن يرتد يستتاب ثلاثة أيام فإذا لم يتب يقتل.

(٥) الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، المختار الإسلامي، القاهرة ١٩٧٨م. ص ٢١٢، ٢١٣.

(٦) إقتناع بعقله وروحه.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

يهاجر فقد ظلم نفسه وإرتكب إثماً عظيماً **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيراً﴾**[١].

ثالثاً: حرية الفكر:

وجاء الإسلام معلناً حرية الفكر، محرراً العقول من الأوهام والخرافات والتقاليد، وداعياً إلى نبذ كل ما لا يقبله العقل، والقرآن الكريم يعتمد في إثبات وجود اللّه تعالى على العقل، فيدعو إلى التفكير في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان، رفي خلق هذا الكون وما فيه من عجائب وقدرة في الخلق: **﴿أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق اللّه السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾**[٢] وقال تعالى: **﴿وما يذّكر إلاّ أولوا الألباب﴾**[٣]. ويتبع ذلك حريات أخرى كثيرة كفلها الإسلام، مثل حرية القول، والعمل، والتعلم والتملك[٤]... الخ.

ومن تشريف الإسلام للعقل عدم تقيده بالرهبانية[٥]، فلا رهبانية في الإسلام[٦].

رابعاً: الدعوة للتعلم:

ومن مظاهر تشريف الإسلام للعقل أمره بالتعلم والحث على ذلك. فمنذ فجر الإسلام كانت أول آية من آيات الكتاب الكريم حض على العلم والتعلم: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٤) انظر: الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة ص ٢١١.

(٥) والرهبانية عكس ما يقولون ــ بأنها تفتح آفاق العقل وتزيد صفاءه.. والحقيقة أنها تظلم العقل ويخبو نوره لإنطواء صاحبها على نفسه واعتزاله المجتمع، فلا يرى النور والظلمة والخير والشر والإيمان والكفر في معترك الحياة.

(٦) والدليل ما روى أحمد في مسنده ٢٢٦/٦،... فقال يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فيّ أسوة؟.. الحديث «ولما روى الدارمي في سننه ك النكاح بـ ٣ من حديث سعد بن أبي وقاص:... ياعثمان إني لم أومر بالرهبانية أرغبت عن سنتي؟ «وعثمان هو ابن مظعون رضي اللّه عنه».

يعلم﴾[1] إن العلم هو الذي ينهض بالإنسان، ويوجهه نحو الخير والتفكر والتدبر في كون الله تعالى وفي شرعه، وهنا يكون السمو والتحضر والتقدم[2]: **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[3].

ومن هنا كانت كلمة «إقرأ» فتحاً جديداً للإنسان نحو الفكر والثقافة والبحث في أحوال المخلوقات التي لا تُعدّ ولا تحصى. ولذلك وجه المولى سبحانه وتعالى، كل مسلم بقوله تعالى: **﴿وقل رب زدني علماً﴾**[4] **﴿يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**[5] وقال: **﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم﴾**[6].

ولذا كان العلم من ضروريات حقيقة التكليف ولوازمه، لأن إمتثال المكلف مبني على علمه بالمكلف به، فلا يتصور وجود التكليف بدون العلم[7].

فلا يكون الإنسان أهلاً للتكليف حتى تكون لديه قدرة على فهم دليل التكليف بنفسه، أو بسؤال أهل العلم[8].

خامساً: المحافظة على العقل:

وذروة التشريف الأمر بتكريم العقل والمحافظة عليه والنهي عن كل ما يؤثر في وظائفه ولو أقل القليل.

---

(١) سورة العلق، الآية: ١ ـ ٥.
(٢) تأملات في الفكر الإسلامي، د/ عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص ١٠ ـ ١١.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٧) انظر: المستصفى، للغزالي، ٨٣/١ ومعه فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت لابن عبد الشكور.
(٨) معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية، مناع بن خليل القطان، من أبحاث ندوة تطبيق الشريعة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ص ٣.

فحرم شرب الخمر فقال تعالى: ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه**﴾[1].

وكان التحريم قاطعاً حتى الكمية التي لا تصل للإسكار، «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»[2] وقال ﷺ أيضاً: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[3] كل هذا حفاظاً على العقل وسلامته.

فالعقل من أعظم نعم الله على عباده، إذ به يدرك البشر قيمة وجودهم، ويعرفون خالقهم وما يستحق عليهم من عبادة، وبالعقل إمتاز البشر على سائر الحيوانات، وتمتعوا بما أوجد الله لهم من الخيرات والملذات، ولأهمية العقل أحاطه الشرع بسياج من الحماية وسد الذرائع الموصلة إلى الإخلال به[4]. وقد جعل الشرع الدية كاملة على من تسبب في إزالة العقل عن شخص مثل قتله سواء بسواء.

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي حسن غريب وابن حبان وصححه، وقال الحافظ بن حجر رجاله ثقات.

(٤) رعاية المصلحة ودرء المفسدة في الشريعة الإسلامية، بحث للدكتور عبد العزيز ابن عبد الرحمن السعيد، ألقاه على طلبة الدراسات العليا بالجامعة، في ١٣٩٩/٣/١٧هـ ـ ٢٤ منه وفي ١٣٩٩/٤/١هـ. ص ٥.

المبحث الثالث

نطاق وظيفة العقل في الإسلام

أطلق الإسلام الحريات ولكن جعل لها إطاراً من العقيدة الصحيحة والخلق القويم، كما أن الإسلام كرّم العقل وشرّفه وأعلى من شأنه ولكن في إطار إسلامي خاص به، وفي حجم معقول لا يتعداه، وفي مجال على قدره حتى لا يضل وفي ذلك أيضاً تكريم للعقل حتى لا ينزلق في مهاوي الردي، ومزالق الضلال فالعقل مثل كل المخلوقات، طاقاته محدودة بحدود، ومدركاته ملتزمة بقيود، فإنه لا يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة وطاقة على الإستيعاب والإدراك، لذا فإنه سيظل بعيداً عن تناول كثير من الحقائق. ولذا أمر الإسلام العقل بالإستسلام والإمتثال للأمر الشرعي الصريح حتى ولو لم يدرك الحكمة والسبب في ذلك.

«فالعقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ولا معطياً له صفة لم تكن له، ولا مفيداً له صفة كمال، إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم، تابع له، ليس مؤثراً فيه»[1].

وذكر إبن القيم كما سلف القول أنه ليس هناك ما يخالف القياس والعقل في الشريعة الغراء[2].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ ١/٨٨.

(٢) انظر: ص ١٨٨ .

لذا نجد أن الإسلام منع العقل من الخوض فيما لا يدركه، وما لا يكون في متناول إدراكه. كالذات الإلهية والروح في ماهيتها ونحو ذلك فقال اللّه تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾[(١)] وقال ﷺ «تفكروا في آلاء اللّه، ولا تفكروا في اللّه»[(٢)]. وقال ﷺ: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق اللّه فمن خلق اللّه؟! فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت باللّه ورسوله»[(٣)].

ورغم تشريف اللّه تعالى للعقل وتكريمه إلاّ أنه بيّن فيما سبق من آيات بعض الأمور الخارجة عن مدارك العقل ومفهومه مثل البحث في أمر الروح والساعة وذات اللّه تعالى، وأمور أخرى من الغيبيات مثل الجنة ونعيمها والنار وعذابها وكيفيتها.

وعلى هذه القواعد والأسس مضى المسلمون في العصر الأول من الإسلام، عرفوا ما للعقل وما عليه، فحفظوا ودرسوا وعقلوا ما للعقل، وما كان ليس له اجتنبوه بل إجتنبوا من قال به أو قرب منه. فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما أتاه صبيغ بن عسل مرسلاً من قبل عمرو بن العاص حيث أنه سار بين أجناد المسلمين مثيراً الشبهات بسؤاله عن متشابه القرآن.

فعندما ما رآه عمر قال له: سبيل محدثة. ثم ضربه وأعاده إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري ألاّ يجالسه أحد من المسلمين. قال أبو عثمان النهدي: فلو جاءنا ونحن مائة لتفرّقنا عنه[(٤)].

ولا يعني هذا أن العصر النبوي كان خالياً من الشبهات التي أطلقها المنافقون، إذ لم يرضوا بحكمه ﷺ فيما كان يأمر وينهي. وشرّعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى.

واعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال: أعدل يا محمد فإنك لم تعدل، حتى

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٥٩ وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة والمعنى صحيح.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر، عبد القادر بن أحمد الرومي المعروف بابن بدران، المكتبة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، ٣٨٥/٦.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل فمن يعدل»؟ فعاد اللعين وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه تعالى. وذلك خروج صريح على النبي ﷺ، ولو صار من اعترض على الإمام خارجياً، أوليس ذلك قولاً بتحسين العقل وتقبيحه؟ وحكماً بالهوى في مقابلة النص، وإستكباراً على الأمر بقياس العقل[1].

واعتبر حال طائفة أخرى من المنافقين يوم أحد (الشبهة الثانية)[2] إذ قالوا: **﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾**[3]. وقولهم: **﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾**[4]. وقولهم: **﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾**[5] فهل ذلك إلا تصريح بالقدر[6]؟ وقول طائفة من المشركين: **﴿لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شيء﴾**[7] وقول طائفة: **﴿أنطعم من لو يشاء اللّه أطعمه﴾**[8] فهل هذا إلاَّ تصريح بالجبر؟[9].

بل منهم من جادل في ذات اللّه[10]: **﴿وهم يجادلون في اللّه وهو شديد المحال﴾**[11] وكانت كل هذه الآراء الشاذة تزول وتنجلي عن المجتمع الإسلامي بمجرد نزول

---

(١) الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ١ / ٢١.

(٢) الملل والنحل، مرجع سابق، ٣٩/١.

(٣،٤،٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤، ١٥٦

والقول بهذه الشبهة على الراجح هو من عبد اللّه بن أبي، لما قيل له قتل بنو الخزرج فقال: هل لنا من الأمر شيء؟ يعني: أن محمداً لم يسمع قولي ويجلس في المدينة، والمعنى: هل لنا من أمر يطاع؟ وهو استفهام إنكاري. وقيل المعنى: هل لنا من الذي كان محمد يعدنا به وهو النصرة والقوة شيء. أي أن محمداً ﷺ كان كاذباً في ادعاء النصرة وقد رد اللّه تعالى على هذه الشبهة بقوله تعالى: **﴿قل إنّ الأمر كلّه للّه﴾**. والمعنى: أن اللّه هو الذي بيده تصريف الأمور من تقدير الأقدار وتحديد الآجال وتحقيق الهزيمة والنصر فلا اعتراض لكم على ما قضاه اللّه وقدّره. وقد رد اللّه جل وعلا على قولهم: **﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا﴾** بقوله:
﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم﴾ فالحذر لا يمنع القدر. ورد اللّه تعالى على قولهم: «لو أطاعونا ما قتلوا» بقوله تعالى: **﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾**. ومعنى هذا أن الله قدر الأقدار، وحدّد الآجال، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فكل من الموت بالقتل والموت بغيره بقضاء اللّه وقدره.

(مناهج الجدل في القرآن الكريم، د/ زاهر الألمعي، ص ٤١١ – ٤١٢).

(٦) الملل والنحل، مرجع سابق، ٣٩/١.

(٧) سورة النحل، الآية: ٣٥

(٨) سورة يس، الآية: ٤٧.

(٩) الملل والنحل، مرجع سابق، ٣٩/١.

(١٠) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١١) سورة الرعد، الآية: ١٣.

الوحي وبيان الحق من الضلال، ولذلك كانت هذه الأفكار تنطفىء في مهدها، ولكنها كانت بذور الفرق أساس الإختلاف فيما بعد بين المسلمين.

غلو البعض في تحديد وظيفة العقل:

والعقل خلقه اللّه جلّت قدرته ليعمل وليقوم بوظيفته التي خصّه الخالق بها، وفي الحدود التي حدّها الشرع الحكيم له وبهدايته دون سرف ولا تفريط، وهذه الحدود تنحصر في فهم شريعة اللّه، واستنباط الأحكام منها، والإيمان والعمل بها. وإذا تعطل أو عُطِّل هذا العقل عن القيام بما إختصه اللّه تعالى به، فيكون الخطر كل الخطر، فيكون الجمود العقلي الذي تنطلق منه المنعطفات والإنحرافات الفكرية والعقدية والتي يتفجر بها العقل فيكون أثرها التدميري في العقيدة والفكر الإسلامي مساوياً وأشد من «الإنفجار النووي» الذي يحطّم كلّ ما يقابله من إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد.

فالواجب وضع العقل في موضعه، فلا جمود مع تحقير العقل وإهمال عمله وذلك كما حدث بين المسلمين في القرنين الماضيين، ولا إفتتان بالعقل إلى حد تأليهه كما ذهب المعتزلة وكما حدث في الغرب وخاصة بعد الفتوحات العلمية التي حصل فيها العلم على إنتصارات عظيمة فسادت الغرب الفلسفة العقلية التي تؤله العقل!! وذلك مع هجوم من المستشرقين على التصور الإسلامي... وللفتنة بالعقل في الغرب، جعل العقل البشري ندًّا للوحي في هداية الإنسان، وأخرج من كونه جهازاً من أجهزة الإنسان يتلقى الوحي ويصدّق ما جاء به، بل إستبعد أن يقع خلاف ما بين مفهوم العقل وما يجيء به الوحي.

ويقول الأستاذ سيد قطب[1] ـ رحمه اللّه ـ عن الذي نادى بذلك ودعا إليه[2]: ولم

(١) الشيخ سيد قطب: عملاق الفكر الإسلامي المعاصر، ولد في عام ١٩٠٦ م ونشا في أسرة متوسطة الثراء، حفظ القرآن الكريم بعد أربع سنوات من دخوله المدرسة في سن العاشرة، أتم دراسته العالية في دار العلوم سنة ١٩٣٣ م، ظهر نبوغه وشاعريته المبكرة وهو ما زال طالباً. عمل في الحكومة في عدد من الوظائف العامة. إشتغل بالنقد الأدبي. واشترك في معاركه مع العقاد وطه حسين وغيرهما تحول إلى الخط القرآني منذ عام ١٩٤٧ م وبدأ تأليف سفره العظيم. في ظلال القرآن وأتمه في سجون عبد الناصر. ترأس تحرير جريدة الإخوان المسلمون ١٩٥٢ م. وتلك الفترة أثرى المفكر الإسلامي بمجموعته القيمة بدءاً من خصائص ومقومات التصور الإسلامي حتى معالم في الطريق. إلى أن أعدمه الطاغية عام ١٩٦٦ م رحمه اللّه وأجزل في عطائه وجعله مع النبيين والشهداء والصديقين. (سيد قطب وتراثه الأدبي، ابراهيم البليهي ــ ذكريات لا مذكرات، عمر التلمساني، ص ٢٨٠ وما بعدها).

(٢) الشيخ محمد عبده ــ رحمه اللّه ــ.

يقف بالعقل عند أن يدرك ما يدركه، ويسلم بما هو فوق إدراكه بما أنه ـ هو والكينونة الإنسانية بجملتها ـ غير كلي ولا مطلق، ومحدود بحدود الزمان والمكان بينما الوحي يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان كحقيقة الألوهية، وكيفية تعلّق الإرادة الإلهية بخلق الحوادث... وليس على العقل إلاَّ التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل إلى إدراكها[1].

وإذا نظرنا إلى الواقع الفكري في هذه الفترة، نجد أن الشيخ محمد عبده ـ رحمه اللّه ـ نشأ في بيئة فكرية جامدة، أغلقت باب الإجتهاد، وأنكرت على العقل دوره في فهم شريعة اللّه، وإستنباط الأحكام منها. فجاء ـ رحمه اللّه ـ ليسوّي بين كفتي الميزان ويعيد للعقل ما فقد من مكانه، فقال في رسالة التوحيد: «الوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار اللّه والعقل الانساني أثر أيضا من آثار الله في الوجود وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يعارض بعضها بعضاً»[2].

وهذا صحيح في عمومه. ولكن يبقى أن الوحي والعقل ليسا ندّين. فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل. وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر. والميزان الذي يختبر الآخر عنده مقرراته ومفهوماته وتصوراته، ويصحح به إختلالاته وانحرافاته. فبينهما توافق وانسجام. ولكن على هذا الأساس. لا على أساس أنهما ندان متعادلان، وكفو أحدهما تماماً للآخر!![3].

خلاصة:

وبعد أن طوّقنا هذه المسيرة اليسيرة في بيان حقيقة العقل وكنهه نقول في التعريف المختار:

ـ العقل ما يكون به التفكير والاستقلال، وتركيب التصورات والتصديقات.

(١) خصائص التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٩.
(٢) نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٩.
(٣) خصائص التصور الإسلامي، ومقوماته، ص ٢٠.

ـ والعقل هو الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم... وهو بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات[1].

ـ والعقل نور يضيء به طريق إصابة الحق، ويتميز به الحسن من القبيح والخير من الشر.

ـ والعقل عند ابن تيمية هو القوة التي بها يعلم الإنسان ويعقل.

ـ والعقل قد يراد به القوة الغريزية في الإنسان التي بها يعقل، وقد يراد به نفس أن يعقل ويعي ويعلم[2].

ـ والعقل والوحي ليسا ندّين متعادلين، وكفو أحدهما الأخر... بل أحدهما أكبر وأشمل، وأحدهما (الوحي) جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر.

وأخيراً فالعقل ينمو ويزداد فهو مطبوع ومسموع، وحد الأول في النمو هو البلوغ، والثاني نموه بالعلم والتجارب، وفي ذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[3].

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين مقطوع

(١) أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م، ص٢١ .
ـ إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، دار القلم، بيروت ط ١، ٧٩/١ .
ـ الإستقامة، ابن تيمية، ١٦٢/٢، وذكر ابن تيمية تفصيل هذا الكلام في رسالى السبعينية ونسب هذا الرأي إلى القاضي أبي يعلى وإلى الجبائي والباقلاني. وانظر تفصيل رأي الأشاعرة عند الجويني في «الإرشاد» ص ١٥ ـ ١٦ حيث عقد فصلاً عنوانه: العقل علوم ضرورية.

(٢) الإستقامة، ابن تيمية، ص ١٦١ .

(٣) إحياء علوم الدين، المرجع السابق، ص ٨٠ .
انظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص ٣١ ونجد أن المؤلف لم ينسب هذه الأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفصل الثاني

المدرسة العقلية القديمة

يحتوي هذا الفصل على مدخل ومبحثين بيانها كالتالي:

مدخل : ١ ـ في نشأة الفرق العقلية.
٢ ـ في نشأة المعتزلة.

المبحث الأول : أصول المعتزلة.

المبحث الثاني : في منهج المعتزلة وتأويلاتهم.

مدخل

١ ـ في نشأة الفرق العقلية:

وبعد وفاة الرسول ﷺ وإنقطاع الوحي بدأ بعض الأفراد بنشر بعض هذه المذاهب الباطلة. فهذا معبد بن خالد الجهني أول من تكلم في القدر[١] بالبصرة ثم قدم المدينة فأفسد بها ناساً. وكان قوله: «لا قدر والأمر أنف»[٢].

وقد أخذ ذلك من رجل نصراني من أهل العراق، أسلم ثم تنصّر، إسمه «أبو يونس سنسويه» من الأساورة[٣].

وقد أخذ عن معبد هذا غيلان الدمشقي[٤] وهو الذي نشره بين المسلمين وقتل من أجله، وقد أنكر عليهم مذهبهم هذا، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة ـ رضوان الله عليهم[٥]ـ. وكانت القدرية تنكر القدر، وعلى النقيض نشأت الجبرية، ونشأت فرق أخرى كثيرة.

---

(١) الخطط المقريزية، للمقريزي، ٤/١٨١، الميزان للذهبي، ٤/١٤١، تهذيب التهذيب لابن حجر، ١٠/٥٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، ص ١٠ .

(٣) تهذيب التهذيب، لابن حجر ١٠/٢٢٦.

(٤) غيلان بن أبي غيلان، أو غيلان الدمشقي: مولي لآل عثمان بن عفان، كان داعية الى القدر، قتل وصلب بالشام، لا تحل الرواية عنه ولا الإحتجاج به، لدعيته التي كان يدعو إليها، وقتل عليها. كانت له أخبار مع أئمة عصره ومجادلات في القدر منهم محمد بن كعب القرظي وربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز الذي دعا عليه بما انتهى إليه أمره من القتل والصلب. وقصة قتله وصلبه رواها هشام الكلبي ونقلها ابن عبد ربه في العقد الفريد وذكر أن الذي حاجّه في حضرة هشام بن عبد الملك هو الإمام الأوزاعي وقد ألزمه الحجة. (أنظر: المجروحين، محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم البستي، ٢/٢٠٠، التاريخ الكبير ٧/١٠٢، العقد الفريد ٢/٢٠١، ٢٠٣).

(٥) الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ط ٢، ١٩٧٧ م، بيروت ص ٤٠ .

ولكي ندرك مقام العقل في خضم هذه المعارك العملية ينبغي لنا أن نقول أن العقل لم يسلم من مذهب التضاد الذي ساد بين تلك الفرق. فذهبت فرقة إلى امتهان العقل واحتقاره واعتقدوا في بعض البله، مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله. أنه من الأولياء، وفضلوهم على متبعي طريقة الرسول ﷺ[1].

وذهبت فرق أخرى إلى المبالغة في تقديس العقل[2] وإعطائه أكثر من حقه في مقابلة الأمور والإعتقادات الشرعية.

وأكثر من إشتهر بهذه الطريقة فرقة «المعتزلة» حتى أن المستشرقين أطلقوا عليهم إسم «العقليين»[3].

ولذا تعتبر هذه المدرسة هي المدرسة العقلية الأولى أو المدرسة العقلية القديمة والتي جاء على منوالها المدرسة العقلية الحديثة أو العصرانيون.

وقبل أن نعرّج بالبحث في المدرسة العصرية الحديثة يجدر بنا أن نلمّ إلمامة تبيّن لنا ما هي المعتزلة؟ وما عقيدتها؟ وأوجه الخلاف بينها وبين السنة.

٢ ـ نشأة المعتزلة:

ونشأتها معروفة، فقد كان واصل بن عطاء وصديقه عمرو بن عبيد تلميذين من تلاميذ الحسن البصري، والحسن البصري هو سيد أهل زمانه علماً وتقىً وزهداً، وعندما كان يلقي درسه المعتاد على تلاميذه إذ دخل عليه رجل فقال: يا إمام ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يقصد الخوارج) وجماعة أخرى يرجئون أصحاب الكبائر، ويقولون لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة. فكيف تحكم لنا إعتقاداً؟[4].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٥٧٣.
(٢) أنظر: المؤامرة على الإسلام، أنور الجندي ص ٣٥، دار الاعتصام القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.
(٣) ضحى الإسلام، أحمد أمين، جـ ٣ ص ٨٩.
(٤) الملل والنحل، الشهرستاني، ٤٨/١

فتفكّر الحسن قبل أن يجيب، فقال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر.

ثم قام إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد[1]، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ومنهم عمرو بن عبيد، ما أجاب به.

فقال الحسن: «إعتزلنا واصل» فسمي هو وأصحابه «معتزلة»[2] ويطلق أيضاً القدريّة والجهمية لموافقتهم في القول بخلق القرآن، ويطلق عليهم المعطلة لتعطيلهم للصفات، ويقال لهم «الواصلية»[3]. أما هم فيسمون أنفسهم «بالعدلية» لقولهم بالعدل أو «الموحدة» لقولهم بالتوحيد.

(١) عمود من أعمدة المسجد وكانت حلقات العلم في المسجد هكذا يختص كل شيخ بالجلوس بجوار عمود معين.

(٢) وقيل في سبب التسمية أيضاً:

أ ـ لأنهم يرون أن صاحب الكبيرة إعتزل عن الكافرين وعن المؤمنين.

ب ـ لوجود الشبه بينهم وبين فرقة يهودية تسمى «افروشيم» ومعناها المعتزلة وهذه الفرقة تنكر القدر. (أنظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ٤٣/١)

(٣) الملل والنحل، مرجع سابق ٤٦/١ .

المبحث الأول

أصول المعتزلة

أجمعوا على خمسة أصول:

١ ـ التوحيد.

٢ ـ العدل.

٣ ـ الوعد والوعيد.

٤ ـ المنزلة بين المنزلتين.

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الخياط وهو ـ أحد زعماء المعتزلة ـ: «وليس يستحق أحد منهم إسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا اكتملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي»[١].

ويشرح القاضي عبد الجبار هذه الأصول الخمسة مبيّناً سبب إقتصارهم عليها فيقول:

«إن المخالف لنا لا يعدو أحد هذه الأصول، ألا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل في التوحيد، وخلاف المجبرة بأسرهم دخل في باب العدل، وخلاف المرجئة دخل في باب الوعد والوعيد، وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة والمنزلتين، وخلاف الإمامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٢].

(١) الإنتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، لأبي الحسين عبد الرحيم الخياط، القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م، ص ١٢٦.

(٢) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار الهمداني، ص ١٢٤.

ولنبيّن مدى بعدهم عن طريق السلف نورد توضيحاً عن الأصل الأول من أصولهم الخمسة:

١ ـ الأصل الأول: التوحيد:

وهذا الأصل يعتبر من أهم أصولهم الذي ذهبوا في تفسيره وفلسفته وتحليله شأْواً بعيداً حتى أنهم نُسبوا إليه. وتسمّوا «بأهل التوحيد» أو «بالموحّدة».

وجميع المسلمين يقولون بالتوحيد، فأهل السنة قالوا: إن اللّه تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

أما المعتزلة فقالوا: إن اللّه تعالى واحد في ذاته لا قسمة له ولا صفة له، وواحد في أفعاله لا شريك له، فلا قديم غير ذاته، ولا قسيم له في أفعاله ومحال وجود قديمين ومقدور بين قادرين. وذلك هو التوحيد[١].

ويترتب على هذا الأصل عند المعتزلة أمور منها:

أ ـ «أن ذات اللّه تعالى وصفاته شيء واحد فاللّه حيّ عالم قادر بذاته لا بحياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته، أما المخلوق فعالم بعلم وقادر بقدرة والعلم والقدرة يحتاجان إلى محل مخصوص، والمحل المخصوص لا بد من أن يكون جسماً، وليس كذلك (القديم) تعالى[٢]، لأنه تعالى قادر لذاته، فلا يجب إذا كان عالماً قادراً أن يكون جسماً وإن وجب أن يكون حياً»[٣].

وطريقتهم نفي الصفات بالتفصيل فيقولون: «إن اللّه واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم، ولا شخص

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني ٤٢/١ .

(٢) وصف اللّه جل وعلا علواً كبيراً «بالقديم» لم يرد في كتاب ولا سنة فهذا مخالف لأهل السنة والجماعة ولا يجوز أن يوصف به تعالى.

(٣) شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص ١٦٢ .

ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة... وهلم جراً»[1].

ونفوا أن تكون الصفات قديمة لأنه لو شاركته الصفات في القدم لشاركته في الإلهية، فقالوا إن: «القديم تعالى لو إستحق هذه الصفات لمعان قديمة. لوجوب أن تكون مثلاً للّه تعالى، وهذا يوجب إذا كان العالم تعالى عالماً قادراً لذاته وجب أن تكون هذه المعاني أيضاً قادرة عالمة، وذلك محال. وأن تكون بعض هذه المعاني بصفة البعض وأن يقع الإستغناء بأحدهما عن الباقي وذلك محال. وما أدى إليه وجب أن يكون محالاً.»[2] وكان إنكارهم كون الصفات حتى لا يتعدد القدماء ولو تعدد القدماء لتعددت الآلهة فبنوا على هذا حدوث الصفات.

وقد أدى بهم هذا إلى تعطيل الصفات عن الذات الإلهية وحدوثها بعد أن لم تكن. تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

أما أهل السنة والجماعة من علماء السلف فهم يصفون اللّه سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل متمسكين بقوله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون**﴾[3].

ب ـ وبنوا على هذا الأصل أيضاً القول بخلق القرآن.

فقالوا: «لو كان كلام اللّه تعالى قديماً لوجب أن يكون مثلاً للّه تعالى، لأن القدم صفة من صفات النفس والإشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل ولا مثل للّه تعالى»[4].

جـ ـ القول بإنكار رؤية اللّه بناء على هذا الأصل أيضاً.

(١) مقالات الإسلاميين، أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٣٨٩ هـ، ٢٣٥/١ .

(٢) شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، مرجع سابق، ص ١٩٧ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠ .

(٤) شرح الأصول الخمسة، مرجع سابق، ص ٥٤٩ .

فقالوا: «إن الواحد منا راء بحاسة، والرائي بالحاسة لا يرى الشيء إلا إذا كان مقابلاً أو حالاً في المقابل أو في حكم المقابل، وقد ثبت أن اللّه تعالى لا يجوز أن يكون مقابلاً ولا حالاً في المقابل ولا في حكم المقابل»(١).

«وأما الكلام في أنه تعالى لا يجوز أن يكون مقابلاً، ولا حالاً في المقابل، ولا في حكم المقابل، فهو أن المقابلة والحلول إنما تصح على الأجسام والأعراض واللّه تعالى ليس بجسم ولا عرض فلا يجوز أن يكون مقابلاً ولا حالاً في المقابل ولا في حكم المقابل»(٢).

وقد بنى المعتزلة على هذا الأصل «التوحيد» عدة أمور ذكرنا منها: تعطيل الصفات - القول بخلق القرآن - إنكار الرؤية.

وهم يكفّرون من خالفهم في هذا الأصل، فقال القاضي عبد الجبار: «أما من خالف في التوحيد ونفى عن الله فإنه يكون كافراً»(٣).

(١) المرجع السابق ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
(٢) شرح الأصول الخمسة، المرجع السابق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص ١٢٥.

المبحث الثاني

في منهج المعتزلة وتأويلهم

ويحتوي على مطلبين هما:

المطلب الأول : في منهج المعتزلة في المعرفة.

المطلب الثاني : من تأويلاتهم.

المطلب الأول

في منهج المعتزلة في المعرفة

لدراسة الإتجاه الإعتزالي لا يوضحه لنا دراسة أصولهم ومسائلهم كلها، فيتضح لنا أن المعتزلة قد سلكوا في هذا المنهج العقلي وقد اشتمل هذا المنهج على خطوتين:

الأولى منها:

تطهير الفكر وضرورة تجرده عن الإلف والعادة وعن مختلف الأهواء بالنسبة لكل من أراد أن يصدر أحكاماً يتوخى فيها الصواب والإخلاص للحق وفي هذا هدم لنظرية التقليد.

الثانية:

تحكيم العقل تحكيماً مطلقاً، حيث أن المعتزلة رفعوا منزلة العقل حتى قالوا عنه: خلق العقل ليعرف، وهو قادر على أن يعرف كل شيء المنظور وغير المنظور.

فحكّموا العقل أكثر من تحكيمهم للشرع، بل جعلوا الأدلة العقلية مقدمة على الأدلة الشرعية، فكذبوا ما لا يوافق العقل من الحديث وإن صح[1] وأوّلوا ما لا يوافقه من الآيات وإن وضحت، بل حاولوا إخضاع عبارات القرآن لآرائهم وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع مبادئهم[2]، وقالوا بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح كما سبق أن أوضحنا.

ويقول الزمخشري وهو من كبار رجال الفكر المعتزلي: «إمش في دينك تحت راية

(١، ٢) التفسير والمفسرون، ٣٧٢/١، ٣٧٣.

السلطان[١]، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان، فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه. وما العنز الجرباء تحت الشّمأل البليل[٢] أذل من المقلد عند صاحب الدليل»[٣].

وقد أوصلهم تحكيمهم العقل وجعله في المنزلة الأولى أن شطحوا بعقولهم حتى أنهم قالوا في تفسير قول اللّه تعالى وهو يخاطب نبيه محمداً ﷺ: ﴿**عفا اللّه عنك**﴾[٤]: «كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت»[٥]. وهذا مناف للأدب في الحديث عن رسول اللّه ﷺ...

ولم يكن تطاول المعتزلة بعقلهم على الرسول ﷺ وحسب، بل تطاولوا على صحابته رضوان اللّه عليهم، فهذا عمرو بن عبيد ـ وهو أحد كبار زعمائهم ـ يقول: «واللّه لو أن علياً وعثمان وطلحة والزبير شهدوا عندي على شراك نعل ما أجزأته»[٦] وقال عن سمرة بن جندب رضي اللّه عنه: «ما نصنع بسمرة قبّح اللّه سمرة»[٧]. ومما قدّمناه عن المعتزلة ومذهبهم العقلي يتضح لنا مخالفتهم للسلف في أصول العقيدة ذاتها. بأصولهم الخمسة التي سبق ذكرها.

---

(١) كنّا العقل بالسلطان.

(٢) الشمال: الريح التي تهب من ناحية القطب (وهي ريح باردة) وفيها خمس لغات: شَمْلٌ وشَمالٌ وشَمْأَلٌ وشَأمَلٌ وجمعها شمالات وشمائل ـ والبليل أي الممطر... (مختار الصحاح للرازي، ص ٣٤٧).

(٣) تفسير الزمخشري، ٤٤٢/٢ .

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٣ .

(٥) تفسير الكشاف، الزمخشري، ١٩٢/٢ .

(٦) تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ١٧٨/١٢ .

(٧) المرجع السابق، ١٧٦/١٢ .

المطلب الثاني

من تأويلاتهم

وقبل أن نترك هذه المدرسة توجّب علينا ذكر بعض تأويلاتهم في آيات القرآن الكريم وهي من السمات الكبرى المميزة لهم ولمنهجهم فنجدهم قد بنوا أساس مذهبهم على العقل ثم بعد ذلك يأتون للنصوص التي توافق أهواءهم ولو ظاهرياً ليعضدوا بها ما يقولون. فهذا مفسرهم الزمخشري يقول في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿**وتفصيل كل شيء..**﴾[1] «يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل»[2].

وكانت معظم تأويلاتهم شاذة ومستغربة لغوياً وعقدياً وعقلياً أيضاً بعيداً عن العقل الذي ينتسبون إليه. فنجد في نفيهم صفة الكلام. يقول بعض المعتزلة في تفسير قوله تعالى: ﴿**وكلّم اللّه موسى تكليماً**﴾[3] أن كلّم من الكلْم بمعنى الجرح فيصير معنى الآية وجرح اللّه موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن، وقد استغرب هذا التفسير من رجالهم أنفسهم. فيقول الزمخشري عن هذا التأويل: «أنه من بدع التفاسير»[4]. ثم يدلي بتأويله بنصب لفظ الجلالة لينفي صفة الكلام عن اللّه تعالى وينسبها إلى موسى. ولكنه ماذا عن قول اللّه تعالى: ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه**﴾[5] قالوا: «وكلمه ربّه» من واسطة كما يكلم الملك،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١ .

(٢) تفسير الكشاف، الزمخشري، ٣٤٨/٢ .

(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٤ .

(٤) تفسير الكشاف، الزمخشري، ٥٨٢/١ .

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣ .

وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح. وروي أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة»[1].

وقد أوّلوا تأويلات كثيرة فاسدة في جميع المناحي التي تتفق مع أصولهم الخمسة وما تفرع منها من مسائل، فقالوا في نفي الصفات وفي العدل، وفي الوعد والوعيد وفي المنزلة بين المنزلتين وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نهاية دولة الإعتزال:

وفي ٢٣٤ هـ وبعد خمسة عشر عاماً عجافاً على أهل الإيمان والتقى من كهنة العقل أهل الإعتزال، الذين قالوا في الدين ما ليس منه في أصولهم الخمسة السابق الإشارة إليها. ولم يكتف هؤلاء بقولهم، وبتقديمهم العقل على كل ما عداه، بل كان دينهم إجبار الناس على معتقدهم، وحملهم على ما تقوّلوا به... إلى أن أراد اللّه برفع الغمة، وإنهاء هذا البلاء عن الأمة، وذلك عندما جاء عهد المتوكل وفّقه اللّه إلى إبطال القول «بخلق القرآن» لعدم اقتناعه به. ثم أعاد الحق إلى نصابه برعاية علماء أهل السنة.

وبذا دالت دولة المعتزلة وأفل نجمهم، واستراح منهم العباد والبلاد، ولم يجرؤ أحد منهم أن يجهر بإعتزاله، ولم تظهر لهم أي علامة يوماً بعد ذلك.

اللهم إلاّ ما ظهر هذه الأيام من نمو بعض البادرات المتطفلة على الفكر الغربي، والسائرة في ركب المستشرقين لإحياء الفكر العقلاني الإعتزالي من حيث يدرون ماذا يفعلون أو من حيث لا يعلمون، وسمّوا أنفسهم بالعصرانيين، والواقع أنهم «معتزلة اليوم»[2]. وهم الذين سنتناولهم ـ بتيسير اللّه ـ في الفصل التالي كما سنتناول أيضاً الإتجاه العقلي الذي ليس بينه تعارض وبين النقل.

(١) تفسير الكشاف، الزمخشري، ٥٨٢/١.
(٢) تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ادارة الطباعة المنيرية ـ الطبعة الأولى، ١٣٥١ هـ، ص ٢٣٠.

الفصل الثالث

المدرسة العقلية الحديثة
«الإمام محمد عبده»

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين هما:

المبحث الأول : في التعريف بالمدرسة ورائدها.

المبحث الثاني : أثر الحالة الإجتماعية والسياسية في الحياة الفكرية عند محمد عبده.

المبحث الأول

في التعريف بالمدرسة ورائدها

ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول : في نشأة المدرسة.

المطلب الثاني : نشأة رائدها وحياته العلمية.

المطلب الثالث : كفاحه العملي والعلمي.



المطلب الأول

في نشأة المدرسة

إزدهرت الدولة الإسلامية وإزدهرت علومها في جميع مناحي المعرفة في الطب والحكمة والرياضيات والفلك والجغرافيا في عصور الإسلام الزاهرة بعد أن انتهت فتنة «المعتزلة» من المجتمع الإسلامي. فأضاء نور العلم والمعرفة.

وبينما كان العالم الإسلامي يزخر حضارة وتقدماً، كانت أوربا ترسف[1] في أغلال الكنيسة التي سيطرت على العقول بما تسوقه من خرافات مع محاربة أي تقدم علمي، واحتفظت لنفسها بحق علم الدنيا وعلم الآخرة، بتفسير الظواهر الطبيعية كما يحلو لرجالها وبصكوك «الغفران» تسيطر بها على الصغير والكبير وغير ذلك الكثير الكثير. والويل كل الويل لمن يخالف الكنيسة فيما تعتقده أو تقوله. فكانت محاكم التفتيش وسجون التعذيب للعلماء الذين يجرؤون على مخالفتها من علماء الطبيعة والكيمياء والفلك وغير ذلك حتى لا يضيع سلطانها وهيبتها من النفوس.

ولكن الحال تغيّر سريعاً عندما قام البابا جريجوري السابع بالحرب الصليبية الأولى في سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩م. والتي استولوا فيها على القدس، ثم توالت بعدها الحملات الصليبية الواحدة تلو الأخرى على العالم الإسلامي وكان نتيجة لتلك الحروب أن نقلت الحضارة الإسلامية إلي بلادهم. فاستولى الأوربيون على الكتب العلمية في شتى العلوم والمعارف

(١) «رَسَفَ» يَرْسُفُ ويرسِفُ رسْفاً ورسيفاً ورسفاناً «مشى مشْيَ المقيد» وارسافُ الإبل طَرْدُها مقيّدةً وأُرسوف بالضم (و) بلد بالشام وارتسف ارتسافاً ارتفع (القاموس المحيط، للفيروزابادي مادة ر س ف).

وأقبلوا عليها دراسة وتجربة وتنمية، ووقفت الكنيسة موقفها فأحرقت كثيراً من العلماء، وأعدمت الكثير. لكن هذا لم يمنع العلماء من الظهور بمظهر الاستشهاد في الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت مما أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكري من سلطان الكنيسة، فهدموا الكنيسة وهدموا الدين معها. وانتهى ذلك الصراع الطويل بانتصار دعاة التحرر والحد من سلطان الكنيسة وحصره، فانكمش نفوذ البابا، ولم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز، وبذلك تحقق فصل الدين عن الدولة[1]. وبذلك ظهر مذهب العلمانية في الغرب لما سبق من أسباب، والذين عملوا جاهدين لتصديره إلينا بالتغريب والإستشراق والتبشير.

ولتباعد المسلمين عن أصول عقيدتهم شيئاً فشيئاً وبُعدهم عن المنهج العلمى في الإسلام، دارت عجلة الزمن، فتقوقع العالم الإسلامي بجمود رجاله واقتصارهم على ما أنتج سلفهم. وجمدوا عقولهم على شرح أو اختصار. ومن ثم فقد كانت المدرسة العقلية الحديثة رد فعل طبيعي للظروف الفكرية والإجتماعية والسياسية كما سنلاحظ فيما يأتي بإذن اللّه.

ويعتبر الشيخ محمد عبده هو مؤسس المدرسة العقلية في العصر الحديث وهو الذي أقام صروحها ودعا إليها ونشرها بين الناس فكان بحق هو صاحبها وهو أستاذها وإمامها الأول[2] ولو أن أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني هو الذي أشعل الشرارة الأولى في فكره، فكان ما كان من نار ودخان، نور يضيء الطريق للإصلاح، ودخان يخنق الأرواح.

ولتكتمل الصورة وتزداد في الإيضاح، لا بد من دراسة سيرة الشيخ محمد عبده والظروف التي أحاطت به من جميع النواحي... لنعرف كيف نبت هذا الفكر؟ وكيف نما وترعرع؟ حتى أثمر ثمراً مختلفاً ألوانه.

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ١/٢٩٤ .

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مرجع سابق، ص ١٢٤ .

المطلب الثاني

نشأة رائدها وحياته العلمية

ولد محمد عبده عام ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩م في حصة شمشير من قرى إقليم الغربية، ثم نشأ في قرية محلة نصر من مديرية البحيرة بمصر، لأب تركماني وأم عربية وقد حدّث عن نفسه فقال: «كنت أسمع المزّاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان. فسألت والدي عن ذلك فأخبرني أن نسبنا ينتهي إلى جدّ تركماني جاء من بلاد التركمان» وقال: «أما بيت والدتي فيقال أنه عربي قرشيّ وأنه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها»[١].

تعلّم القراءة بعد أن جاوز العاشرة من عمره في منزل والده ثم حفظ القرآن في كتاب القرية في سنتين، أرسله بعدها والده إلى طنطا ليحسن التجويد في الجامع الأحمدي. لبث سنة ونصف ولم يفهم شيئاً لوعورة المعلومات وفجاجة الأسلوب، غادره وعاد إلى محلة نصر وقرر الزواج والإلتحاق بالعمل الزراعي، وتزوج سنة ١٢٨٢ هـ ولم يرض والده له ذلك فألزمه بالعودة إلى الجامع الأحمدي، وأرسل معه رجلاً قوي البأس ليوصله إلى المحطة، لكنه فرّ أثناء الطريق إلى قرية «كنيسة أورين» ولجأ إلى أحد أخوال أبيه الشيخ درويش، وقد كان هذا الشيخ واسع المدارك حسن التربية لكثرة رحلاته حتى وصل إلى طرابلس الغرب وتربى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، السيد محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى ـ مطبعة المنار بمصر، ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م، ١٦/١.
هذا الجد كان من مدة طويلة بلغت ثمانية قرون أي أن أصالة محمد عبده في مصريته غلبت هذه الصفة حتى أن بعض المؤلفين أضاف إلى اسمه «محمد عبده المصري».
(أنظر: الإسلام في القرن العشرين، عباس العقاد، ص ١٥٣).

على طريقة الصوفية الحقيقية وعني بتفسير القرآن وحفظ الموطأ وكتباً أخرى.

فلمّا نزل محمد عبده ضيفاً في داره رحّب به، وكلّفه أن يقرأ له جملاً من كتاب خطي جاءه به، فأبى ذلك، فألح الشيخ عليه مع التلطف به حتى قرأ أسطراً، فلما قرأها اندفع الشيخ درويش يفسرها له، ثم عاد إليه يكلّفه القراءة، وعاد يفسر له ثم تركه يلهو ويلعب مع شبان القرية. فما جاء عليه اليوم الخامس إلا وقد عشق القراءة ومقت اللهو واللعب، وهكذا استطاع هذا الشيخ بطريقته اللطيفة أن يحل عقدة محمد عبده تجاه العلم والتعليم بأسلوب لبق ذكي[1].

ويقول أحمد أمين أن الشيخ درويش كان متأثراً بتعاليم السنوسية التي تتفق مع الوهابية في الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الأول في بساطته الأولى وتنقيته من البدع، وذلك على أثر رحلة إلى طرابلس الغرب وإجتماعه بأتباع السنوسي هناك[2].

أقام محمد عبده خمسة عشر يوماً عند خاله الشيخ في هذا الجو العلمي المفتوح، وبعدها عاد محمد عبده إلى الجامع الأحمدي وانكبّ على العلم يجد ويجتهد. ثم انتقل بعد ذلك إلى الأزهر في منتصف شوال ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م فداوم على طلب العلم على شيوخه والعودة في آخر كل سنة إلى محلة نصر ليتلقى من الشيخ درويش الذي رغّبه في إتقان كل علم من الحساب والهندسة والمنطق فكان الأستاذ الإمام يلتمسها عند عودته إلى القاهرة عند من يعرفها إلى أن جاء السيد جمال الدين الأفغاني في شهر المحرم ١٢٨٧هـ فتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية واتصل به اتصالاً وثيقاً وحرص على دروسه، وقرأ على السيد جمال الدين: الزوراء للدواني في التصوف وشرح القطب على الشمسية، والمطالع وسلم العلوم في المنطق والهداية والإشارات وحكمة العين، وحكمة الإشراق في الفلسفة، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد، والتوضيح مع التلويح في الأصوّل، والجغميني وتذكرة الطوسي في الهيئة القديمة وكتاباً آخر في الهيئة الجديدة[3].

(١) أنظر: زعماء الإصلاح، أحمد أمين، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٢) أنظر المرجع السابق، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
من أعلام التربية العربية الإسلامية، المجلد الرابع ص ٢٩٢.
(٣) أنظر: تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ٢٦/١ ـ زعماء الإصلاح، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

وقد ظهر تأثير «السيد» على «الأستاذ» سريعاً فبدأ في الكتابة والتأليف واتفق مع بعض الطلاب على أن يقرأ لهم بعض الكتب في المنطق وعلم الكلام - مما لم يكن يقرأ مثلها في الأزهر - فكثر سواد المجتمعين عليه. حتى اشتهر أمره مما أحفظ عليه قلب الشيخ محمد عليش الذي بلغه أن محمد عبده يقرأ كتب المعتزلة والمتكلمين في الأزهر ويرجح مذهبهم وكان الشيخ عليش رجلاً صالحاً عفيفاً عن المطامع الدنيوية التي كانت تستهوي طلاب المظاهر من علماء عصره وكان مخلصاً صادق النية في كراهة البدع التي يخشى منها على الدين. وكبر عليه - رحمه الله - أن يقرأ أحد مثل تلك الكتب في الأزهر(1).

مراحل تعليمه:

تقدّم محمد عبده للجنة الإمتحان في الأزهر لنيل شهادة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م فحصل عليها ولم يكن نيله لها بالمانع له من الإستمرار في طلب العلم. فكان له في طلبه ثلاث مراحل:

الأولى : الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من مناقشة في عبارات المتون والشروح والحواشي والتقارير.

الثانية : ثم تحوّل عن تلك الطريقة إلى طريقة السيد الأفغاني الذي أطلقه من التقيد بعبارات المؤلفين، وتعويده الحكم باليقين مع تطبيقه على حال المسلمين الحاضرة.

الثالثة : ثم أضاف إلى هذا النظر في علوم الإفرنج فقرأ مما ترجم من الكتب ثم تعلّم الفرنسية وصار يقرأ بها مباشرة(2).

(١) الإمام محمد عبده، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٩٧١ م، ص ١٤٠.
(٢) الإمام محمد عبده، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص ١٤٠.

المطلب الثالث

كفاحه العلمي والعملي

وبعد نيله العالمية عُيِّن مدرِّساً في الأزهر، وعُيِّن مدرِّساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم، درّس اللغة العربية في مدرسة الألسن الخديوية في أواخر سنة ١٢٩٥ هـ[١].

فقام بتدريس مقدّمة ابن خلدون في دار العلوم، وكان يهدف من تدريس المقدمة ذاتها ليتمكن من بث أفكاره الإصلاحية في السياسة والمجتمع، وفي التعليم عبر ذلك الدرس الذي يفتح أمامه المصارع في الحديث عن تلك الأمور من أوسع الأبواب.

وكان يكلّف تلاميذه بكتابة المقالات ليعوّدهم الإحساس بمشاركته في الإصلاح والنقد، فتكون آراؤه لديهم أكثر قبولاً وتأثيراً، إلا أنه لم يلبث طويلاً حتى عُزل لصلته بالسيد جمال الدين الأفغاني الذي صدر الأمر بنفيه. عُزل عن التدريس، وأُمر بالمقام في بلده لا يبرحه حتى صدر الأمر بالعفو عنه وعُيِّن رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية «الوقائع المصرية».

وفي سنة ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٢ م حكم عليه بالنفي لاشتراكه في الثورة العرابية وتوجه إلى الشام حيث مكث مدة نفيه إلا عشرة أشهر أقامها في باريس. أصدر خلالها مع الأفغاني جريدة العروة الوثقى عاد بعد توقفها إلى الشام، فبدأ درسه في منزله في بيروت في السيرة النبوية وقرأ في الجامع الكبير التفسير، لا يلتزم كتاباً وإنما يقرأ في المصحف ويفسّر[٢].

---

(١) أنظر: الإسلام في القرن العشرين، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩ م ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ٣٩١/١.

وذُعي الشيخ محمد عبده وهو في بيروت إلى التدريس في المدرسة السلطانية في سنة ١٣٠٣ هـ فلبى وكان له فيها إصلاحات متعددة فزاد في العلوم التي تدرّس فيها فدرّس التوحيد وفقه المعاملات والتاريخ والمنطق والمعاني والإنشاء، ووجد أن المختصرات في التوحيد لا تأتي على الغرض من إفادة الطلاب، والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألّفت لغير زمانهم. فأملى عليهم ما هو أمسّ بحالهم فكانت «رسالة التوحيد»[١].

ونقل إلى العربية «رسالة الرد على الدهريين» للسيد جمال الدين الأفغاني. وشرح كتاب «نهج البلاغة»، ومقامات «بديع الزمان الهمزاني»[٢]

عودته من المنفى:

توسّطت السيدة (نازلي) إحدى أميرات الأسرة المالكة لدى الحكومة لعودة محمد عبده، وتوسط أيضاً رياض باشا ـ صديقه القديم ـ فوافق اللورد كرومر على عودته، وأمر بأن يُعيَّن قاضياً في المحاكم الأهلية في مدينة (بنها)[٣]. وكان ذلك عام ١٣٠٦ هـ ـ ١٨٨٩م.

خلف عباس الثاني الخديوي توفيق أثر وفاته عام ١٨٩٢ م. اتصل به محمد عبده فعيّنه عضواً في مجلس إدارة الأزهر، ثم تولى منصب الإفتاء العام للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ ـ ١٨٩٩م. وأصبح تبعاً لهذا المنصب عضواً في مجلس شورى القوانين، وفي مجلس إدارة الأوقاف. وفي عام ١٣١٠ هـ ـ ١٩٠٠ م أسّس الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية إحياء العلوم العربية وتولى رئاستهما[٤].

ويجدر بنا أن نلمّ بطرف الأحوال السياسية والإجتماعية في مصر في الفترة التي نشأ وعاش فيها محمد عبده، حتى نعرف التأثير الحقيقي في جوانب فكره ومعطياته الإصلاحية، وسر بناء شخصيته.

---

(١) أنظر: رسالة التوحيد، محمد عبده، تصحيح محمد رشيد رضا، ص ٢ .
(٢) العروة الوثقى، ص ٣٢ .
(٣) عاصمة إقليم القليوبية بمصر وهي تقع على النيل فرع دمياط.
(٤) الأزهر في ألف عام د/محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ٣٠٦/٣ ـ ٣٠٧، ١٣/٢ ـ ١٤ .

المبحث الثاني

أثر الحالة الإجتماعية والسياسية في الحياة الفكرية عند محمد عبده

ويحتوي هذا المبحث على تقدمة وثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول : إصلاح التعليم.

المطلب الثاني : إصلاح المؤسسات الدينية.

المطلب الثالث : إصلاح المؤسسات الإجتماعية.

تقدمة تاريخية

وافقت نشأة محمد عبده سوء الأوضاع في مصر، وعاصر تفتحه تدهورها. فكاهل الدولة مثقل بالديون من ملوك أوربا ودولها، الذي أخذها اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م) ليترف نفسه بمظاهر العظمة الكاذبة، وليوهم شعبه بالعلو والتقدم، وليخدع أوربا عن حقيقة أمره وشعبه، أثقلها وعجز عن سداد الديون، ففتح بذلك ثغرة واسعة لأوربا المتربصة تحقق من خلالها أحلامها في السيطرة على مصر.

ثار الضباط المصريون على وزارة نوبار باشا في ١٨ فبراير ١٨٧٩م لأنها أحالت ٢٥٠٠ ضابط إلى الإستيداع، وأهدرت حقوق الوطنيين، ومالأت الأجانب وضرب الثائرون الرئيس نفسه والوزيرين الأجنبيين، مما دعا الوزارة إلى الإستقالة في اليوم التالي ودعا إلى تشكيل وزارة جديدة برئاسة محمد شريف باشا. ثم صدر مرسوم من الآستانة يقضي بخلع الخديوي إسماعيل، وإسناد الخديوية إلى توفيق باشا في ٢٦ يونية ١٨٧٩م.

انتهت هذه الحوادث بثورة أحمد عرابي باشا عام ١٨٨٢م على التدخل الأجنبي، ثم تلاها الإحتلال الإنجليزي لمصر أثر فشلها[1]. كان المجتمع المصري - خلال هذه الحوادث السياسية - فقيراً معدماً، ترهقه الضرائب والسخرات التي يفرضها عليه الحكام، جاهلاً بحقوقه وواجباته ساذجاً، مستعبداً أي استعباد، تسوده الخرافة، تمتطيه الأوهام، ليس له من جوهر الدين نصيب، ولا من حقيقته حظ، فهناك مظاهر للوحدانية، وحقائق جمة من الوثنية، الأزهر فيه يباسة وجمود، والصوفية ذات سلطان وصولجان، والمسلمون في خور

(١) أنظر عصر اسماعيل، الرافعي، جـ ٢ ص ٢٠٣ وما بعدها
أنظر: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي، الرافعي، ص ٣، ١٩، ٣٤، ٣٩ وما بعدها.

وفتور، وقياداتهم في استنامة وانهزام، هذه بعض خيوط الصورة في السياسة والإجتماع والإقتصاد والدين، أما في الخارج فالخلافة العثمانية عاجزة يفسخ التفكك جسمها، وتنهك الأمراض جثمانها، يحاول بعض الخلفاء ذرفها بالقوة، وشحنها بمظاهر الحيوية، ولكن أنى لهم ذلك.

وفي الطرف المقابل تنهض أوربا، وترتقي في معارج المادية، تبهر الأنظار، وتفتن الأذهان بلافتات الديمقراطية والحرية وتسحر الألباب بشعارات المساواة والعدل، وفي الوقت نفسه تحرّك المؤامرات، وتنسج الدسائس، لتمزّق جسم الخلافة العثمانية، وتوقع مصر في قبضتها.

ليس من شك أن هذه الخيوط ترسم لوحة قاتمة الألوان، تقذي العين، وتحرّك شجون النفس، وتولّد اليأس، فلا نور، ولا شعاع ضياء. وقد ازدادت هذه اللوحة دكانة، وظلاماً، بانضياف بقعة سوداء تمثّل الاحتلال الإنجليزي. إن هذا الواقع الأسود المؤلم بكل ظلامه وظلمه، بكل تفسخاته وتشوهاته، كان أرضاً لذهنية محمد عبده، وصورة خلفية لتفكيره فآمن بالإصلاح سبيلاً للخلاص، وبالتدرج أسلوباً للنجاة[1]. مع إعمال عقله لإنتاج فكره.

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر، غازي التوبة، دار القلم ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة، ١٩٧٧ م، ص ١٦ .

المطلب الأول

اصلاح التعليم

كان لما لاقاه محمد عبده في صغره من عقم وتعقيد في طريقة التعليم سبب في أن يبدأ مناهج اصلاحه بالتوجه الى التعليم ليكون طريقاً لانقاذ المجتمع المصري وبأن اصلاح البرامج التعليمية أساس لايجاد المسلم الصالح. ومن هذا المنطلق قدّم مذكرتين أولهما: كانت بعد أن صدر اعلان شيخ الإسلام بالآستانة عن ارادة سنية باصلاح المدارس والتعليم عن السلطان عبد الحميد[1].

والثانية قدّمها في القاهرة الى اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر. وسنكتفي بذكر مضمون المذكرة الثانية المقدَّمة للورد كرومر وهي التي تعنينا في هذا البحث:

اللائحة المقدمة الى اللورد كرومر بالقاهرة:

بدأ محمد عبده لائحته المقدمة الى ممثل الإحتلال البريطاني في مصر ببيان أهمية الإصلاح سواء للحاكم أو المحكوم، فليست حاجة الحاكم الى صلاح المحكومين بأقل من حاجتهم الى صلاحه. ويشبه الحاكم بالصانع والمحكوم بالآلة. وكما أن الآلة لا تعمل الا بالعامل، ولا يظهر أثرها الا في يده كذلك لا يمكن للعامل أن يعمل الا بآلته. ثم يستدرك فيصف هذه الآلة بأنها ذات وجدان وشعور وارادة[2].

---

(١) من أعلام التربية العربية الإسلامية، مجموعة مؤلفين، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ٤/٢٩٧ ـ ٣١٧.
(٢) أنظر: زعماء الإصلاح، المرجع السابق، ص ٣١٣.

ويتبع الشيخ هذا التقديم بفصل عن طبيعة مصر والمصريين فيقرر: أن أرض مصر تضيق عن حاجة سكانها، وأنهم سريعو التقليد، أذكياء الأذهان ثم ينبّه المحتلين الإنجليز الى أهمية الدين عند المصريين وأثره في تحريكهم، فيقول: ان أعظم فاعل في نفوس المصريين أن يقال لهم: ان صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم، وأنكم مأمورون ببغضه. ثم ينفي التهمة التي تصف شعب مصر بالضعف فيقول: ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وُجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم، وأثبتهم قدماً في المواطن.

ثم يوضح للمحتلين عدم معاداة الدين الإسلامي للمسيحيين ويشرح تقارب المسلمين مع أهل الكتاب فيقول إن القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم لا يختلفون إلا في بعض أحكام قليلة، ويزيّن للمحتلين سهولة وبساطة إصلاح المدارس الأميرية والأزهر. فيقول: من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة، وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك، وعلى الإنجليز أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسونها في المدارس، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالإثبات.

المدارس الأميرية:

ثم تكلّم عن المدارس الأميرية وأنه ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة، ثم بيّن رغبة الناس فيها زمن اسماعيل ليستريحوا من نفقة أبنائهم، وأن يتعلموا ما يؤهلهم للقيام بعمل من أعمال الحكومة.

أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلاً صالحاً في نفسه يحسن القيام بالأعمال التي تُسند إليه فلم يخطر ببال المسلمين، ولا من ولاّهم أمر التعليم[1].

(١) اليقظة الإسلامية، أنور الجندي، مرجع سابق، ص ١٣٨ .

المدارس الأجنبية:

ويشرح محمد عبده ضعف أثر المدارس الأجنبية في التربية العمومية، ويعزو ذلك إلى اختلاف مذاهب المعلّمين والمتعلّمين، فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها مع مداومتهم النصح لأولادهم بعدم الإلتفات إلى ما يقوله المعلمون فيها حفظاً لاعتقادهم، مما يحدث الإضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الأخلاق، وقد أحدثت هذه المدارس النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم.

الجامع الأزهر:

هو مدرسة دينية عامة يأتي الناس إليها: إما رغبة في تعليم العلوم الدينية رجاء ثواب الآخرة، وإما طمعاً في بعض الإمتيازات لطلاب العلم فيه. ومما يؤسف له أنه لا نظام في دروسه، ولا يبالي الأساتذة بحضور الطلاب أو غيابهم فلا تقييم لذلك، بل حتى الفهم أو عدمه وصلاح أخلاقهم أم فسادها، ويتعلمون طرفاً من العقائد على منهج يُبْعد عن الحقيقة أكثر مما يقرّب منها.

ثم يتكلم عن إصلاح الأزهر وذلك بإصلاح نظام الدروس والإمتحان بتعرض الأستاذ لأخلاق الطلاب، ثم يقترح إلحاق الأزهر بالمعارف أو بإدارة الأوقاف.

ويسهّل أمر إصلاح الأزهر للمحتلين، وينفي صعوبة ذلك ويعرض استعداده للقيام بهذا الإصلاح إذا أنيط به ذلك الأمر.

الكتاتيب الأهلية:

يرى الشيخ محمد عبده أن الكتاتيب الأهلية المنتشرة في القرى المختلفة هي الأساس والمغزى الرئيسي للمدارس الأميرية ولا تصلح هذه المدارس إلا بإصلاح ورعاية هذه الكتاتيب. ويصف حالة الفقهاء في تلك الكتاتيب بأنهم لا يعرفون شيئاً غير حفظ القرآن الكريم لفظاً لا معنىً، وإذا عرفوا شيئاً فإنه يكون الزائد الضار دون الأصيل النافع.

ويقترح الإصلاح المتدرج لهذه الفئة عن طريق وزارة المعارف او وزارة الأوقاف حيث أن معظمهم خطباء وأئمة مساجد.

ويقترح تزويدهم ببعض الكتب الصغيرة التي لا يستغني عنها مصري زيادة على تعليم القرآن في تلك الكتاتيب.

ويقترح أيضاً إصلاح المكاتب الإبتدائية الرسمية على أساس المفيد بإدخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد فيجب تعويد الطالب بعض الأعمال الزراعية وغيرها.

ثم تكلّم عن المدارس التجهيزية والمدارس العالية بوجوب غرس مبدأ الصلاح في نفوس التلاميذ ليحسنوا استعمال ما تعلّموا.

ثم يتحدث عن المعلّمين والمربين ومدرسة دار العلوم وشروط الإنتساب إليها، وغاية إنشائها وهي: إعداد خريج الأزهر لتدريس العلوم العربية والدينية، ويستغرب أمر نظّار دار العلوم وجهلهم بالدين والعربية، ويرى إمكانية حلول دار العلوم محل الأزهر، ولكن يلزم لذلك أمور عدة ذهب في سردها: كإصلاح البرنامج بحذف بعض العلوم، وتغير طريقة تفسير القرآن، واختيار المعلمين الصالحين وناظر للمدرسة، وتمديد الدراسة فيها سنة للتدريب على التعليم ونحو ذلك. ثم أنه يلزم كتب تؤلف جديدة، ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها، كان ذلك إيجازاً لتلك اللائحة التي نبذها من كتبت له وراء ظهره، ولم يوافق الخديوي توفيق على تعيين صاحبها بعد عودته من سوريا مدرّساً في دار العلوم بل أمر بإقصائه عن التعليم فعُيِّن قاضياً في الريف(١).

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ٥٣٣/٢ الى ٥٥٣.
وانظر: الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق ص ٢٣ ــ ٢٦.
ــ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، مرجع سابق ١٢٦/١ ــ ١٣٠.
ــ زعماء الإصلاح، ص ٣١٥ ــ ٣١٦.

المطلب الثاني

إصلاح المؤسسات الدينية

١ - إصلاح الأزهر:

لم يكن الشيخ في تحامله على الأزهر بإطلاق اسم «المخروب» و «الإسطبل» و «المارستان» عليه، وقوله رداً على السائلين له عن انتسابه للأزهر، بأنه لو كان له حظ من العلم الصحيح، فإنه لم يحصله إلا بعد أن مكث عشر سنين يكنس من دماغه ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى وقته (وقت سؤاله) لم يبلغ ما يريد له من النظافة.

لم يكن كل هذا بغضاً أو حقداً على الأزهر بقدر ما هو إشفاق ورغبة في الإصلاح، ليراه كما يريد من علو ورفعة علمية ودينية، في رجاله وطلابه ومناهجه وعلومه.

لقد كان هذا الإنطباع الشديد في التحامل على الأزهر هو نتيجة لرواسب الماضي البعيد عنده. أي منذ أن وضع قدمه على أول الدّرج في الجامع الأحمدي في طنطا وفرّ من عقم طريقة التدريس إلى قريته ليعمل في الزراعة، ولولا مشيئة اللّه تعالى بأن يلقى الشيخ درويش ليعود إلى التعليم من جديد ويكمل تعليمه بين رجال جمّدوا عقولهم واكتفوا بما وجدوه لديهم من كتب الأوّلين، فكان منهم الجمود العنيد، والتقليد الشديد[1].

ولذا لا يستغرب من الشيخ محمد عبده أن يكون أول ما يتجه إليه عندما سنحت له الفرصة هو إصلاح الأزهر، وذلك عندما اتصل بعباس حلمي الثاني عندما تولى الخديوية عام

(١) اتسم القرن التاسع عشر الميلادي بوقف الاجتهاد والاقتصار على المذهب الحنفي مع تعصب قاتل بين رجال كل مذهب.

١٨٩٢م، فاتصل به وحدّثه في شأن الأزهر، فأصدر عباس مرسوماً يقضي بإنشاء مجلس لإدارة الأزهر مؤلف من أكابر علمائه يُنتخبون انتخاباً، ما عدا اثنين هما محمد عبده وعبد الكريم سلمان، فقد عيّنتهما الحكومة في المجلس، ولا رأي لشيخ الأزهر بهما، ولا للمجلس في انتخابهما، ولا في استبدالهما بغيرهما[١].

وعندما أصبح الشيخ حسونة شيخاً للأزهر بعد استقالة الشيخ الإنبابي لمرضه، تعاون شيخ الأزهر الجديد مع الشيخ محمد عبده لتحقيق أهدافه الإصلاحية.

سعى محمد عبده لدى المستشار المالي وحصل على مبلغ ألفي جنيه من خزينة المالية وضعت في ميزانية الأزهر لعام ١٨٩٥م، مع الوعد بزيادة هذا المبلغ في فرص أخرى، وقد اشترط المستشار أن يصرف المبلغ بنظام معلوم لا برأي شيخ الأزهر وهواه.

وتوالت خطوات الإصلاح للأزهر منها:

١ ـ وضع قانون المرتبات للأزهر ليكون لكل عالم راتب محدد يأخذه دون تزلف لشيخ الجامع أو لغيره.

٢ ـ وضع قانون كساوي التشريف ومرتباتها، وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء، ويمنع عمّن يشاء.

٣ ـ وضع القانون اللازم لنظام التدريس والامتحان بناء على مذكّرات الشيخ محمد عبده لمجلس الأزهر. وعندما أعوزه المال للتنفيذ. أصدر الخديوي أمراً لديوان الأوقاف بصرف (٣٣٧٤) جنيهاً للجامع الأزهر. مع بيان وجوه مصارفها، ومنها (٤٦٤) جنيهاً لإنشاء دار الكتب الأزهرية.

٤ ـ وضع نظام جديد للجرايات صدر به قانون خاص.

٥ ـ توجه محمد عبده بعد ذلك إلى كتب التدريس، فوضع مشروعاً بذلك قدّمه إلى مجلس الإدارة، وتألفت لجنة من ثلاثين عالماً من كبار الشيوخ للبحث فيه، وإقرار النافع منه. ثم انتخبت لجنة مصغّرة للبحث في كل فرع من المشروع وابداء رأيه فيه.

---

(١) أنظر: الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، ١٩/٢، ٢٥.

وقد أتمت اللجنة المصغرة عملها، وقدمته إلى اللجنة الكبرى التي لم تنظر فيها حيث ان شيخ الأزهر الجديد الشيخ سليم البشري أوقف العمل بهذا المشروع.

٦ ـ نجح محمد عبده في إنشاء ميضأة صحية بالجامع نفسه، وفي تجديد بعض الأروقة، وأيضاً إنارته بالغاز البخاري.

٧ ـ تعيين طبيب خاص بالأزهر وصيدلية تابعة له.

٨ ـ حل عدة قضايا للمسجد منها: زاوية العميان، مرتبات أولاد العلماء الذين ينفق الأزهر عليهم. وألحق مسجد الدسوقي باسكندرية بالأزهر.

ولم تمض خطوات إصلاح الأزهر إلى نهايتها كما أراد لها محمد عبده ـ والذي نفّذ منها القليل وبقي الكثير ـ بل توقفت عندما دب الخلاف بين الخديوي وبين الشيخ، وانتهى الصدام باستقالة محمد عبده مع زميله عبد الكريم سلمان من مجلس إدارة الأزهر بعد أن عرّض الخديوي به في خطاب له في ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م[١].

(١) الأزهر في ألف عام، محمد عبد المنعم خفاجي، ١٨/٢ ـ ١٩.

المطلب الثالث

إصلاح المؤسسات الإجتماعية

لم تقتصر نواحي الإصلاح في فكر محمد عبده على الجهات الرسمية الحكومية كإصلاح التعليم، والأزهر، والمحاكم، والمساجد... وغيرها. بل تعدّاه إلى تأسيس الجمعيات الخيرية بالمجهود الشعبي لا الحكومي، وسنسوق ثلاثاً منها: الجمعية الخيرية الإسلامية، جمعية إحياء التراث، جمعية التقارب بين الأديان؛ وسيكون سرد تاريخ هذه الجمعيات بعيداً عن مناقشة خطها من الصحة والسقم والذي سنفرد له جزءاً لبيان فكر هذا الرجل.

أ ـ الجمعية الخيرية الإسلامية:

أنشأ محمد عبده مع نفر من أصدقائه «الجمعية الخيرية الإسلامية» سنة (١٣١٠ هـ ـ ١٨٩٢ م) وذلك إثر موقف خاص[١].

وقد قام برئاستها عام (١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م)وكان دخلها قد وصل حينئذ إلى (١٠،٣٩٥) جنيه، وأطيانها (٥٣٣) فداناً، وبلغت مدارسها سبعاً في أنحاء مصر. وكان محمد عبده هو الواضع لمشروع نظامها، وكان من أهدافها:

- تعويد المسلمين على الإجتماع لأجل التعاون وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء.

---

(١) الموقف الذي دعاهم لتأسيس هذه الجمعية: أن ساحراً مشعوذاً (روسيّاً) قدم إلى القاهرة لتقديم بعض ألعابه السحرية، وكان من عادته أن يتبرع بدخل آخر حفلة يقيمها لفقراء البلد، فكان هذا ما فعله أيضاً في القاهرة ولما لم يكن هناك جمعية خاصة بالمسلمين في القاهرة فقد قام محمد عبده بإنشائها. (الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص ٣٢).

- تربية أولاد الفقراء تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله، ويستعينون بها على معايشهم وتحصيل أرزاقهم[1].

وقد فسّر محمد عبده جزء عمّ لطلاب المدارس التابعة للجمعية، وكان في نيته أن يتبعه بتفسير جزء تبارك، وأدركته المنية قبل أن يقوم بذلك[2].

وقد اتسع نشاط هذه الجمعية إلى نواح كثيرة من الخير[3]، وكثرت مدارسها، وعمّ نفعها.

ب ـ جمعية إحياء الكتب العربية:

ومن النشاط الإسلامي المحمود للشيخ محمد عبده تأسيسه «جمعية إحياء الكتب العربية» في عام (١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م). وبدأ نشاطها بطبع كتاب «المخصص لابن سيده» في اللغة، وقام هو بتصحيحه ومعه الشيخ محمد محمود الشنقيطي. ثم تابعت الجمعية نشاطها في هذا المجال.

جـ ـ جمعية التقارب بين الأديان:

إن الناظر في «بروتوكولات صهيون» يجد أن من الأهداف الأساسية لليهودية العالمية «الصهيونية» هو القضاء على الأديان. وذلك بكل السبل المشروعة وغير المشروعة، الظاهرة وغير الظاهرة المعلنة والسرّية.

فأنشأت «الماسونية» فكان المحفل الإنجليزي وذاك المحفل الفرنسي وغيرها، وظاهر تلك المحافل خدمة البلاد التي هي فيها وأهلها، ولكن حقيقة نتيجتها هي خدمة الصهيونية العالمية.

ومع الاستعمار الغربي لبلاد الإسلام، كان لا بد من مردود تناله الصهيونية العالمية في تنفيذ شيء من مخططاتها، فكان منها أن سلكت طريقاً جديداً لذلك، فقد أصبحت الماسونية

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سبق ذكره، ١/٧٣١.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، مرجع سابق، ١/٧٨٨.

(٣) مستشفى «الجمعية الخيرية الإسلامية» بالعجوزة بالقاهرة والمقام على النيل، يعد من أكبر مستشفيات العاصمة المصرية ضمن إنجازات هذه الجمعية، وغيره مما لا يتسع المجال لذكره.

«ورقة» مكشوفة أمام الشعوب. فلتستخدم الدعوة إلى التقارب بين الأديان وجعل الناس أمة واحدة، دعوة جذابة، بريقها يعمي الأبصار عن الحقيقة. ويجر الجميع إلى الهوّة السحيقة التي جهّزتها الصهيونية لهم والواقع أنه لا يقصد بهذا إلا دين الإسلام، الدين السماوي الباقي كما أنزله اللّه وارتضاه لعباده، الدين الأسمى الذي يقف أمام كل باغ أو طاغ أو مستذل للجنس البشري، من اليهود الصهاينة أو الرأسمالية المستغلة أو الشيوعية الملحدة.

غابت تلك الحقائق عن كثير من المبهورين بحضارة الغرب وما يأتي به الغرب من أفكار ومبادىء، أعماهم الإعجاب بالغرب عن التأمل فيما يبثه من أفكار وسموم، فضلّوا الطريق وجانبوا الصواب. وكان من جملة المبهورين المخدوعين، والغافلين في هذا الجانب هو الأستاذ الإمام محمد عبده[1]، هو وتلاميذه رجال المدرسة العقلية الحديثة. ففي عام (١٣٠٢ هـ - ١٨٨٥ م) ألّف محمد عبده جمعية سياسية دينية سرية في بيروت، وكان هدف الجمعية التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين أهلها، وإحلال التعاون بدل الفرقة والخصام، واشترك معه في تأسيسها ميرزا باقر، وبيرزاده، عارف أبي تراب، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت، ثم انضم إليها مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية باستنبول، والقس اسحق تيلر، وجي دبليو لينتر، وشمعون مويال، وبعض الإنجليز واليهود.

وكان الإمام صاحب الرأي الأول في إنشائها ونظامها، وميرزا باقر[2] هو سكرتيرها العام، وقد كان ميرزا يتقن الإنجليزية. وهو الذي قام بالترجمة لمحمد عبده عندما زار انجلترا حيث قابل المسئولين الإنجليز.

وقد قام أعضاء الجمعية بالدعوة لفكرتهم في الصحف، ولكن كل عضو كان يدعو من وجهة نظره. ومن وجهة نظر المصلحة لوطنه وبني جنسه كما سنرى من هذه النصوص:

---

(١) كان الشيخ رشيد رضا أول من أطلق على الشيخ محمد عبده لقب «الأستاذ الإمام».
(لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ الأمير شكيب إرسلان دار البشير بالقاهرة، ص ٢٩).

(٢) كان ميرزا باقر إيرانياً مسلماً، تنصر وصار داعية للنصرانية مع جمعية المبشرين، وتسمى بميرزا يوحنا، التقى بجمال الدين الأفغاني في ثغر بدشير في الخليج الفارسي، ودعاه إلى النصرانية، فجادله جمال الدين فبدرت منه كلمة يسب بها الرسول ﷺ. فأمر جمال الدين المرافقين له أن يضربوه، فضربوه حتى خرج يزحف على إسته.
(الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٨).

النص الأول:

مما نشره المفتش الإنجليزي (جي دبليو لينترا بالديلي تلغراف اللندنية في ٢ فبراير ١٨٨٨ م تحت عنوان «الإسلام والمدارس المحمّدية» بدأ المقال بتصحيح مفاهيم بني جنسه عن المكاتب الإسلامية بأنها «مغارات للإثم» وأوضح طرفاً من حقوق المرأة في الإسلام مقارناً ذلك بحقوقها في انجلترا وقال فيها: (وإحسان المسلمين لمواليهم وإشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضاً إلى الرب، وإنفاقهم في سبل الخير، والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا إليهم من أن نصِيحَ على (النبي الكاذب) وما أحسن عمل مبشرين لو جاهدوا في التوفيق بين الإسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة)[١].

ثم قال: الحرية الدينية ينبغي أن يكون معناها عدم العصبية في الدين الذي يجعل الشرقيين أن يعطوا حصة من خراج أرضهم لأفضل المصالح عندهم، وهو الدين، وإن كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الإنجليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا، ونؤمن كما آمن أكبر شاه هندي، أن الملك والدين توأمان، كما أن دولة تخمد الأفكار الدينية بين رعاياها لا يمكن أن تدوم، هكذا دولة لا تعامل عقائد رعاياها بالكرم لا تقدر على النجاح. أما الذي أنا مصرّ على توكيده فهو الاتحاد بين الإسلام والمسيحية، ليس من جهة الدين فقط بل من جهة السياسة أيضاً. مرّ زمان كان المسلم ينظر إلى الإنجليزي كأنه الناصر الطبيعي للعالم الإسلامي من أجل مودته القديمة للعثمانيين، الذي يعد سلطانهم خليفة للمحمّديين السنيين، وأكثر أبناء وطننا من جنسهم. هذه المودة يجب توطيدها. ومن جملة المساعي التي أؤكد الشروع فيها إدخال الشبان المسلمين في مدارسنا الحربية على قصد استخدامهم مع تسوية الرتب والإرتقاء بالمأمورين الأوروباويين في عساكر الهند المستقبلة التي يجب إكثارها)[٢].

ومن هذا النص يتضح مدى حرص الإنجليزي عضو الجمعية على مصلحة دولته الإنجليزية، فهو يقدم معلومات دقيقة عن المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية وكيف يكون

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د/علي جريشة ومحمد الزيبق، ص ٢٠٣.
(٢) أنظر: ــ تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، مرجع سابق، ص ٧٩٤/١
ــ الفكر الإسلامي المعاصر، غازي التوبة، ص ١٨ ــ ١٩.

أنسب الطرق لمعاملة المسلمين تحت ظل الاستعمار، ذلك، والطريقة المثلى لإلصاق المسلمين بعجلة المستعمرين بدون تبرم أو عداء، فأين يكون التوفيق بين المسيحية والإسلام؟؟ إلا إذا كان استسلام الفريسة بين فكي الأسد ليأكلها بدون مقاومة، أو أن إخضاع المسلمين للدولة الإنجليزية وإيقاعهم في حبائلها يعني توفيقاً.

وما زالت الغفلة واللوثة (لوثة تقريب الأديان) ملازمة للأستاذ الإمام بعد عودته إلى القاهرة من منفاه.. ونسي الشيخ قول اللّه تعالى:﴿**قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾[1].

وذلك في غمرة نشدانه الوئام والتوفيق بين الأديان، بين الإسلام الصحيح دين التوحيد، ﴿**قل هو اللّه أحد، اللّه الصمد**﴾[2] وبين مسيحية اليوم التي تقول:﴿... **إن اللّه ثالث ثلاثة**﴾[3]. أو اليهودية المحرّفة والتي تقول:﴿**يد اللّه مغلولة غلت أيديهم**﴾[4]. وتقول:﴿**عزير ابن اللّه**﴾[5].

نسي الإمام ما ذكره القرآن وقاله وفعله الرسول ﷺ مع أهل الكتاب... نسي في غمرة نشدانه الوئام والتوفيق بين الأديان، بين الإسلام الصحيح دين التوحيد وبين المسيحية واليهودية اللتين طالتهما الأيدي، وعاثت بهما فساداً.

نسي الشيخ محمد عبده في غمرة هذه الغفلة سيرة الرسول ﷺ وسنته، نسي أن الرسول ﷺ حينما جاور يهود المدينة عدة سنين قبل أن يجليهم عنها، جادلوه وخاصموه خلالها، وقام الرسول ﷺ بدعوتهم إلى كلمة الإيمان والإسلام، ولم يدعهم للتوفيق بين الإسلام واليهودية أو إلى التقريب بينهما ولو علم ﷺ خيراً أو بعض خير لفعله.

---

(١) سورة الكافرون، الآية ١ ـ ٥.
(٢) سورة الإخلاص، الآية: ١ ـ ٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

الفصل الرابع

في منهج المدرسة الحديثة ورجالها

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول : في المنهج والمسار.

المبحث الثاني : رجال المدرسة وبعض المآخذ عليهم.

المبحث الأول

في المنهج والمسار

ويقع هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول : في الربط بين النقل والعقل.

المطلب الثاني : في تناول تفسير القرآن.

المطلب الأول

في الربط بين النقل والعقل

نظر الإمام محمد عبده إلى الصلة بين العقل والوحي، على ضوء رسالة التوحيد، فوصل إلى أنه يؤمن بأن الوحي يجب أن يتفق مع العقل، وأن العقل بدوره يجب أن يتفق مع الوحي، لأنهما معاً مصدرا هداية من عند اللّه الكامل المطلق، المنزّه عن التناقض والتعارض. وننقل فيما يلي أساس هذا المنهج كما أوضحه رائده في رسالة التوحيد:

«فقد أمر الكتاب النظر واستعمال العقل: فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه. ونهانا عن التقليد: بما حكى من أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم... فالتقليد مضلّة يعذر فيها الحيوان، ولا يجمل بحال الإنسان».

ويقول أيضاً:

«والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد! العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين، أو شهوات سلاطين».

فالوحي بالرسالة الإلهية أثر من آثار اللّه، والعقل الإنساني أثر أيضاً من آثار اللّه في الوجود، وآثار اللّه يجب أن ينسجم بعضها مع بعض، ولا يعارض بعضها بعضاً.

لأنها آثار للكامل كمالاً مطلقاً: والعقل البشري يحيل أن هناك تناقضاً بين آثار

الكامل المطلق، لأن التناقض في الأفعال نقص، فلو تعارضت أو تناقضت الآثار الصادرة من مصدر واحد، دل تعارضها وتناقضها على عدم الكمال المطلق لهذا التصرف.

لأن الوحي مصدر هداية، والعقل الإنساني مصدر هداية أيضاً: وكلاهما يهدف إلى تحديد الطريق المستقيم في الحياة للإنسان، وإلى تحديد الغاية الأخيرة في هذا الوجود. وأمران شأنهما هذا الشأن، لا بدّ أن يتفقا في التحديد الإجمالي - على الأقل - لطريق الإنسان في حياته، وغايته في وجوده.

فإن بدا أن هنالك اختلافاً بين تطبيق رسالة الوحي واستخدام العقل، كان منشأ هذا الاختلاف: إما تحريف رسالة الوحي، أو سوء استخدام العقل. والمحرّف للرسالة السماوية، وكذلك المسيء لاستخدام العقل الإنساني، هو: الإنسان، هنا وهناك، وليس الملك الذي نزل بالوحي، ولا الرسول المصطفى لتبليغ الرسالة.

طبيعة الوحي يجب أن توافق طبيعة العقل الإنساني إذن، لأنهما مصدرا هداية صدرا لغاية واحدة، من كامل واحد كمال مطلق.

وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجاً يبعده عن هدفه، تحت التأثر بعوامل شخصية، أو التأثر بمذهب معين ، عمل من شأنه أن يحول بين انسجام الكتاب المنزل والعقل السليم في الإنسان!

والإنسان هو الذي يخرج الكتاب تخريجاً فيه بعد أو مجافاة لهدفه الأصيل، والإنسان نفسه هو الذي يميل بالعقل الإنساني نحو عقيدة خاصة او جهة معينة، وينحرف به عن أن يكون العقل الخالص، الذي فطر اللّه الإنسان عليه!! وبذلك يكون الإنسان هو الذى حال دون أن يوافق الكتاب العقل، ودون أن يوافق العقل الكتاب، وليست طبيعة كل منهما هي التي حالت دون ذلك(١).

(١) رسالة التوحيد، ص ١٤ ـ ١٥.

المطلب الثاني

في تناول تفسير القرآن

ولتكتمل الصورة ويتضح المطلوب توجّب علينا أن نتابع هذه المدرسة في منهجها في تناول تفسير القرآن الكريم وهو الجانب الفكري الهام في مجال هذا البحث. وقد حدد رجال المدرسة التفسير المطلوب للقرآن الكريم بأنه:

«فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله»[(1)].

وفي هذا يرون أن اتجاهات المفسرين في إيضاح البلاغة أو النحو أو التفسير العلمي أو غير ذلك من اتجاهات التفسير المختلفة تبعد عن القصد الأساسي من التفسير.

فيقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره: «ولما كان القرآن كتاباً سماوياً تنزّل على قلب أكمل الأنبياء مشتملاً على معارف عالية ومطالب سامية، يجد المنقِّب عنها من الهيبة والجلال ما يكاد يحول بينه وبين الوصول إليها سهل سبحانه الأمر علينا، فلم يطلب منا إلا الفهم والتدبر في كلامه لأنه نزل نوراً وهدى للناس، وجعله حاوياً للشرائع والأحكام التي لا يمكن العمل بها إلا إذا فهمت حق الفهم، واستوضحت مغازيها وكشف أسرارها ومراميها، من حيث هي دين إلهي وهدى سماوي، ترشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في

(١) أنظر: ـ فاتحة الكتاب، الشيخ محمد عبده، ص ٥.
ـ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٧/١.

حياتهم الدنيوية والأخروية، وما سوى ذلك من وجوه النظر والبحث فتابع لذلك، ووسيلة إليه في التحصيل، ولا يعنينا العناية التي نهتم لها واهتمامنا بالمطلب الأول»[1].

ويرى الشيخ أحمد المراغي أن كثيراً من المفسّرين اشتغلوا بوسائل التحصيل عن المقصد الأعلى والمطلب الأسمى فيقول: إن كثيراً من المفسّرين جعلوا عنايتهم تكاد تكون وقفاً على الوسائل دون المقاصد[2].

وكذلك يرى السيد رشيد رضا نفس الرأي إذ يقول انه: «كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلّدين، وتأويلات المتصوّفين، وتعصّب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات، وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها»[3].

أما صاحب تفسير المراغي الشيخ أحمد مصطفى المراغي فيقول: «إن الأساليب التي كتبت بها كتب التفسير وضعت في عهود سحيقة بأساليب تناسب أهل العصور التي ألّفت فيها ويسهل عليهم فهمها، وأن جمهرتهم أوجزوا في القول وعدّوا ذلك مفخرة لهم، ولما كان لكل عصر طابع خاص يمتاز به عن غيره في آداب أهله وأخلاقهم وعاداتهم وطرائق تفكيرهم، وجب على الباحثين في هذا العصر مجاراة أهله في كل ما تقدم، فكان لزاماً علينا أن نتلمس لوناً من التفسير لكتاب اللّه بأسلوب عصرنا موافقاً لأمزجة أهله، فأساس التخاطب أن لكل مقام مقالاً. وأن الناس يخاطبون على قدر عقولهم، وقد رأينا أن نشيد فيه بجهود السابقين معترفين بفضلهم، مستندين إلى آرائهم»[4].

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤ هـ، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١/١١.
(٢) المرجع السابق، ذات الصفحة.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢/٧.
(٤) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مرجع سبق ذكره، ١/١٧.

ومن ذلك نرى مدى اهتمام هذه المدرسة ورجالها بجانب التفسير، ومن يقرأ تفاسير رجال هذه المدرسة يدرك تماماً مدى التزامهم بمنهج واضح المعالم، محدّد الاتجاهات سلكوه في تفسيرهم للقرآن الكريم.

وليس اتفاق رجال هذه المدرسة في جانب التفسير فقط ولكن يتضح أنهم متفقون في جميع الجوانب، جانب التفسير كما سبق، وكذا جانب الإصلاح وإصلاح الأزهر بنوع الخصوص مترسمين خطى إمامهم وأستاذهم الشيخ محمد عبده... وتتضح صورة التأثر والارتباط الكامل بينهم وبين إمامهم الشيخ محمد عبده، فنرى الشيخ المراغي والشيخ شلتوت والسيد رشيد رضا، وغيرهم من تلاميذ الشيخ محمد عبده ومدرسته التي كانت قوية الأثر واضحة المعالم، ويدلّنا على هذه الآثار الواضحة الجلية ما قاله أحمد أمين: «وحسبنا دليلاً على هذا أن أكثر من تصدّوا للإصلاح الديني أو الاجتماعي أو السياسي بعده (محمد عبده) كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به»[1].

ومما وجب أن نثبته أن الشيخ محمد عبده هو منشئ ومؤسس مدرسته العقلية وليس الأفغاني. فالأفغاني يختلف تماماً عن المنهج التربوي لمحمد عبده. جمال الدين الأفغاني ثائر يخاطب الجماهير، ومحمد عبده تربوي منهجي متّئد الخطوات للإصلاح وإن تعددت مناحيه.

ويفرّق ويقارن الأستاذ أحمد أمين بين الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني فيقول:

«كان الشيخ محمد عبده يقرأ النص أولاً ويتفهمه ويفهمه، ثم يفيض في التعليق عليه، وفي بسط الموضوع من عنده، وهو يختلف عن أستاذه جمال الدين الذي كان يشرح الموضوع بإفاضة ثم يقرأ النص»[2]. كذلك اختلف عن أستاذه جمال الدين في الدعوة إلى الإصلاح إذ كان يتوجه إلى الشعب لا إلى الحكومة التي كان يرى جمال الدين وجوب

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، ط بمصر ١٩٤٨ م ص ٣٣٧ .
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥ .

قيامها بالإصلاح لتفرضه على الشعب. وكان محمد عبده مؤمناً بأن الإصلاح ينبغي أن يتم عن طريق مخاطبة الشعب، وتربيته التربية السليمة التي تساعده على النهوض، وقد أراد أن يحقق هدفه حين راح يعدّ العدّة لافتتاح مدرسة إلى جوار بيته لتخريج الدعاة ورسل الإصلاح»[1].

(١) أنظر: محمد عبده، عباس محمود العقاد، الكتاب الأول في سلسلة أعلام العرب، ص ١٩٥.

المبحث الثاني

رجال المدرسة وبعض المآخذ عليهم

ويشتمل هذا المبحث على خمسة مطالب:

المطلب الأول : من تلاميذ الإمام.

المطلب الثاني : بعض شطحات المدرسة العقلية.

المطلب الثالث : من المآخذ على الشيخ محمد عبده.

المطلب الرابع : العصريون (خلفاء المدرسة العقلية).

المطلب الخامس: من رجال المدرسة العقلية.

المطلب الأول

من تلاميذ الإمام

كان جمال الدين هو البرق الذي يسبق هطول المطر، فقد أيقظ الأذهان وهزّها لتشعر بما يحيط بها، ولتحس بما يخطَّط لها، وكيف يكون الطريق للنجاة والخلاص، أما محمد عبده هو نفسه «الظاهرة» التي ظلت فترة ليست بالقليلة بين تلاميذه ومريديه فطبعهم بطابعه، وشكلهم في الطريق الذي يريد، بذات الأسلوب وذات التصور، وذلك لشدة حبهم له، وتأثرهم به.

حتى أننا لو تابعنا رجال المدرسة واحداً تلو الآخر في سيرتهم وأعمالهم، بل وفي ذوات تفكيرهم، لكأننا نتابع سيرة الشيخ محمد عبده ذاته، فلنبدأ بأكبر تلاميذه سناً[١] **الشيخ محمد مصطفى المراغي** لنراه يقوم بمحاولة إصلاح الأزهر وتطويره فيقاوم فيصرّ على الإصلاح مرة تلو المرة مترسماً خطى شيخه وإمامه محمد عبده ثم يتجه إلى وضع قانون الأحوال الشخصية وقبله نظرته في إصلاحه للقضاء في السودان وفي مصر[٢] نراه مقتدياً بإمامه في ذلك كله «حذو القذة بالقذة».

ولكنه بَعُدَ عن خط الإمام في نقطة هامة وواضحة، وهو عدم ممالأته للمستعمر والتعاون معه كما كان يفعل الشيخ محمد عبده. فنرى الشيخ المراغي حينما عرض عليه

---

(١) أنظر: الإمام المراغي، أنور الجندي، ص ١٤٤ .

(٢) أنظر: ـ المجددون في الإسلام، عبد المتعال الصعيدي، ص ٥٤٨ .

ـ الإمام المراغي، أنور الجندي، مرجع سابق، ص ١٧ .

ـ الأزهر في ألف عام، محمد عبد المنعم خفاجي ٥٠٣/٣، ٢٧٥/١ .

«سلاطين باشا» قبول منصب «قاضي القضاة» بالسودان فاشترط الشيخ لقبوله المنصب: أن يكون تعيينه فيه بأمر يصدره خديوي مصر[١]، لا رجال السلطة الإنجليزية في السودان[٢].

ثم نأتي لتلميذ نابه متميز من هذه المدرسة هو **الشيخ محمود شلتوت** الذي سار على درب الإمام محمد عبده واتخذ منهجه وترسّم خطاه، ولو أنه لم يسمع منه ولم يدرس على يديه، ولكنه درس فكره وفكر رجال تلك المدرسة واقتنع بطريقها في الإصلاح، وبمنهجها في الفكر، فنراه عندما تم تعيينه مدرِّساً بالقسم العالي في القاهرة ١٩٢٧ م، يبدأ في تكملة ذات المشوار الذي بدأه الأفغاني ومحمد عبده والمراغي لمواصلة «الإصلاح» فاتجه الشيخ شلتوت بعقله إلى المشاركة في هذا الإصلاح. فيناله ما نال سابقيه[٣] الذين قاموا بمحاولة إصلاح الأزهر. ولكنهم منوا جميعاً بالعجز عنه لاستبداد القصر يومئذ بسياسة الأزهر[٤]. وكان نصيب الشيخ شلتوت الفصل من عمله بالأزهر سنة ١٩٣١ م. حتى أعيد في سنة ١٩٣٥ م. وفي نفس مسار الشيخ محمد عبده أنشأ شلتوت جمعية للتقريب بين المذاهب الإسلامية وكذا العمل للسلام بين الأديان والأمم وأصدر مجلة «رسالة الإسلام» لخدمة هذا الغرض[٥].

وبعقلية الشيخ شلتوت المتميزة يقوم بتفسير القرآن الكريم وإن اختلف في شكله العام عن تفاسير من سبقه من تلاميذ «مدرسة المنار» ولكنه في كنهه ومضمونه يتفق تماماً مع منهج الأستاذ الإمام لمخاطبة العصر الحاضر مع مناقشة مشاكل العصر الآنيّة والرد على المذاهب المعاصرة.

ويقول عنه الأستاذ محمد عبدالله السمان في مجلة الأزهر: «إن الحق الذي لا مراء فيه أن تفسيرات القرآن القديمة على كثرتها وضخامتها لم تكن لتغني أي مفكّر في هذه

(١) ليس تحيزاً للخديوي ولكن اعتزازاً بأن يكون أمر تعيينه من حاكم بلده المسلم وليس من السلطة الاستعمارية، وهذا تغيير كبير في الفهم الذي كان يتعامل به محمد عبده عن طريق اللورد كرومر ظناً منه أنه بذلك سوف يصل الى ما كان يريد من إصلاح.

(٢) الأزهر في ألف عام، مرجع سابق ١/٢٧٥ .

(٣) سبق بذلك الشيخ محمد عبده، والشيخ المراغي، والشيخ عبد المجيد سليم.

(٤) أنظر: مجلة الأزهر جـ ٦ مجلد ٣٥ شعبان ١٣٨٣ هـ، ص ٦٤٤ .

(٥) أنظر المرجع السابق، ص ٦٤٣ .

الآونة عن تفسير كتفسير المنار إلا أن هذا التفسير الجديد لم تشأ له الظروف العديدة أن يتم. وجاء الزمان بعقليات ناضجة تصلح أن تكون امتداداً لعقلية الإمام المفكّر ومنها عقلية الإمام المراغي، ولم تشأ له الظروف أيضاً أن يفسّر القرآن أو على الأقل أن يواصل ما وقف عنده الشيخ رشيد رضا.

«وأما الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت فقد بدأ فعلاً في أن يقوم برسالة نحو كتاب اللّه، واستطاع أن يقدّم للمكتبة الثلث الأول من القرآن، والأمل في اللّه وحده أن يمده بالصحة والعافية حتى يكمل ما بدأ»[1] ولكن الأجل وافاه بعد ذلك بفترة قليلة ولم يكمل تفسيره للأجزاء الباقية.

---

(١) مجلة الأزهر، مجلد ٣٢، الجزء الأول محرم ١٣٨٠ هـ، ص ١١٢ ـ ١١٣.

المطلب الثاني

بعض شطحات المدرسة العقلية

وهكذا كان اتجاه تفكير الشيخ محمد عبده إمام وأستاذ المدرسة العقلية الحديثة والتي ضمّت جمعاً من المفكّرين والمثقفين والكتّاب المسلمين(١) الذين انبهروا بالحضارة الغربية الحديثة وافتتنوا بفلسفتها المادية وبمنهجها المادي والحسي، فرفضوا عقائد الإسلام الغيبية وأنكروا في سبيل ذلك بعض الأخبار والنصوص الصحيحة. فأوّلوها تأويلاً يبعدها عن ظاهر النص، ونعتوا بعض الغيبيات برموز وأوصاف هي إلى الإنكار أقرب منها إلى الإثبات.

ولهذه المدرسة شطحات فكرية لا يمكن إغفالها حيث أنها في الجانب الإعتقادي في ما يتعلق بقضايا الغيب والنبوات والمعجزات والذي يريدون لها أن يكون الإثبات العلمي هو الدليل الوحيد على ثبوتها أو نفيها، حتى النبوّة لا بدّ من إخضاعها للإستدلال العلمي، لأن المسلمين ـ حسب ظنهم ـ لا يمكنهم إثبات عقائدهم في هذا العصر إلاّ بتأييد العلم لها. وهذا العلم المادي الحسيّ الذي أولوه قداسة توازي تقديسهم للعقل(٢).

وهذا الذي جرّهم لتفسير «النبوة» تفسيراً مادياً يبعدها عن «حقيقة الوحي» الخارج

---

(١) نذكر منهم: محمد رشيد رضا، الشيخ محمد مصطفى المراغي، الشيخ محمود شلتوت، محمد فريد وجدي، د/ محمد حسين هيكل، د/زكي مبارك وغيرهم كثير.

(٢) وهذا ما دفع أحد المفتونين بالعلم الغربي وهو محمد إحسان المحامي الى تمجيد هذا العلم المادي، ووصفه بالنبي الجديد، وذلك في قصيدة منشورة في جريدة الأهرام منها:

قام في الناس نبي إنما	شأنه ليس كشأن المرسلين
وحّد الناس وقد فرّقهم	كافة الرسل على مرّ السنين
جاءهم من غير إنجيل ولم	يأتهم بالوحي جبريل الأمين
معجزات العلم قد أوفت على	معجزات الدين في ماضي القرون

عن حدود الإمكانات والمعارف البشرية، ويجرّدها من كل ما يخالف ويصوّرها على أنها مرتبة إنسانية عالية تنال بالتقوى ومجاهدة النفس والإجتهاد في الطاعة والإنقطاع للعبادة والبعد عن شهوات النفس ونزواتها، وليس لها أي علاقة بالغيب أو العالم الأخروي، ولذا «فالنبي» عندهم رديف تام لكلمة «مصلح».

ولقد قدمت هذه المدرسة في فترة قصيرة متتالية دراسات كثيرة عن حياة الرسول ﷺ ونبوّته ورسالته، وكل ما جاء به ﷺ مفصّلة، وكوّنت بذلك مكتبة كبيرة تضم مختلف الدراسات حول نبي الإسلام ودينه فيما عرف لديهم من وسائل المعرفة والإعلام، من كتب وبحوث ورسائل ومقالات وصحف ومجلات ومناهج دراسية.

والجانب المميز في هذه الدراسات أنها درست وناقشت حياته ﷺ من سائر جوانبها - قبل البعثة وبعدها - على أنه إنسان عبقري فذ، أو زعيم ثوري قوي، أو مصلح إجتماعي عظيم، أو قائد بطل وسياسي محنّك، أو مرشد روحيّ ملهم... إلى غير ذلك من الصفات التي تبعده عن المفاهيم الإيمانية للنبوّة والرسالة والوحي والهداية، وتحصر شخصيته ﷺ في جانب ضيّق من جوانب الحياة المادية.

وأكثر ما اهتمت به هذه الدراسات من شخصية الرسول ﷺ هو جانب «العبقرية»، وبذلك يمكنها أن تعزو كل ما صدر عنه من فعل أو قول، - ومنه الوحي - إلى ذاته وعبقريته الفذّة من دون أن يكون له صلة بعالم أخروي أو قوى غيبية خارج ذاته، خاصة جبريل عليه السلام بدعوى أن جانب الوحي والنبوة والرسالة أمور غيبية روحية لا تثبت أمام الموضوعية العلمية، وبالتالي لا قيمة لها أمام العلم المادي الحديث الذي قذف بها جملة إلى عالم الخرافات والأساطير(١).

إلى أن قال:

أمنوا بالعلم ديناً وهدى ... ليس للعلم بعد الإلهام دين

(موقف العقل، مصطفى صبري ١/٣٥٢ - ٣٥٨).

(١) كما صرح بذلك الاستاذ محمد فريد وجدي في كتاباته، راجع مقالة مذهب القرآن في المتشابهات المنشورة في جريدة «الأهرام» في عددها الصادر في ١٩٣٣/٨/٣٠ م. وأيضاً مقالاته المنشورة في مجلة الأزهر تحت عنوان «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة» المجلد العاشر، ص ٩٠ .

أما العبقرية فتزعم أنها صفة إنسانية يقرّها ذلك العلم ويحترمها ويقدّسها ويمكن للمسلمين أن يثبتوها إثباتاً علمياً. وكان طابع هذه المدرسة ما سبق في مسألة النبوّة وإخضاعها للتجربة والحسّ حيناً بالتصريح وحيناً بالتعريض والتلميح، ولنبين ما انتهجه رجال تلك المدرسة لنسوق بعضاً من الأمثلة الدالة على تهافت فكرهم في جوانب من أصول العقيدة ومن أبرز ما قالوا في مسألة النبوة. وفي ما يلي نماذج من سقطات رجال المدرسة العقلية:

١ - إن الشيخ محمد عبده إمام هذه المدرسة قال في تعليقاته على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية في تعريف النبي والرسول ما نصه: «أقول قد يعرّف النبي بإنسان فطر على الحق علماً وعملاً، أي بحيث لا يعلم إلا حقاً، ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة، وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر، ولكن التعليم الإلهي، فإن فطر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضاً، وإلاَّ فهو نبّي فقط، وليس برسول فتفكر فيه فإنه دقيق»[1].

فإذا نظرنا إلى ما عرّف به الشيخ محمد عبده الرسول والنبي لوجدنا أنه بَعدَ بالتعريف بعيداً عن كل المفاهيم الإيمانية مثل الوحي والرسالة والمعجزة والملك المرسل والكتاب المنزل.

٢ - بيّن الشيخ محمد رشيد رضا كيف قدح «منكرو الوحي» في نبوّة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام، وفيما أنزل عليهما من التوراة والإنجيل فقد ذكر في كتابه «الوحي المحمدي» بعد أن بيّن أن نبينا ﷺ لم يتعلم القراءة والكتابة، وكون قومه الذين نشأ فيهم أميين جاهلين بعقائد الملل، وتواريخ الأمم، وعلوم التشريع والفلسفة فقال: «وترى تجاه هذا أن موسى عليه الصلاة والسلام قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض، وأرقاه تشريعاً وعلماً وحكماً وفنّا وصناعة، وهو بيت فرعون مصر... ثم مكث بضع سنين عند حميّه في مدين وكان نبياً»[2]. فمن ثمّ يرى منكرو الوحي أن ما جاء به موسى من

(١) تعليقات الشيخ محمد عبده على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية، الطبعة الأولى ـ المطبعة الخيرية بمصر، ص ٣.

(٢) أو كان كاهناً كما يقول منكرو الوحي.

الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشئ في بيت الملك والتشريع والحكمة.

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي (العشرين) أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة «حمورابي»[1] العربي ملك كلدان، الذي كان قبل موسى معاصراً لإبراهيم ﷺ.

وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من العلماء الألمان في حفائر العراق أنه قد تبيّن أن شريعة موسى مستمدة منها، لا وحي من اللّه تعالى، فلا تعدّ أحق منها بأن تكون وحياً من اللّه. ولم ينقل أن «حمورابي» إدّعى أن شريعته وحي من اللّه تعالى.

ثم يرى الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وأنهم كانوا يتدارسونها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم. فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد ﷺ ذكر موازنة ومفاضلة ويرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلاهم ذكراً وأجلّهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة، بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روح أدبي لجحود اليهود المادي على ظواهر ألفاظهم. فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا: أنه لا يكثر على رجل زكي الفطرة، ذكي العقل ناشئ في حجر الشريعة اليهودية والمدنية الرومانية والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الأدبية، على أن منهم مَن يعزو جلها إلى «كنفشيوس»[2] المشترع الصيني، وإلى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام»[3].

٣ ـ إن الأستاذ محمد فريد وجدي: نشر في مجلة الأزهر سلسلة مقالات طويلة بعنوان:

---

(١) هو الملك السادس من ملوك الدولة الآشورية، يعد عصره العصر الذهبي لبابل، بسط نفوذ بابل على الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين ونجح في تكوين إمبراطورية إتخذ بابل عاصمة لها، إشتهر برسائله وبمجموعة قوانينه التي تعتبر أقدم ما وصل إلينا في صورة كاملة وتنم عن تطور الفكر القانوني، وهي منقوشة على قطعة كبيرة من حجر الديورنت الأسود المصقول وتوجد الآن بمتحف اللوفر بباريس. وقد عاش حمورابي حوالي (٢١٠٠ ق.م) وقيل حوالي (١٧٠٠ ق.م).
(الموسوعة العربية الميسرة، ص ٧٤٠).

(٢) هو حكيم أخلاق صيني، ولد في ولاية «لو» الإقطاعية بالصين سنة ٤٧٩ ق.م ــ حث على الإصلاح الاجتماعي وسعى إلى وضع نظام أخلاقي وسياسي ابتغاء السلام والعدالة، توفي سنة ٤٠٠ قبل الميلاد «الموسوعة العربية الميسرة»، ص ١٤٨٥ ــ ١٤٨٦ .

(٣) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٥٧، ٥٨ .

«السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة». ألزم نفسه فيها بعرض سيرة نبينا محمد ﷺ على المنهج الحسي التجريبي المسمى بـ «الدستور العلمي» ومال فيها إلى تصوير نبوته بما يشبه الزعامة العظمى التي يكون إعجازها في مدى ما تبلغه من الكمال المنقطع النظير لا في مخالفتها لسنن الطبيعة، ولا حاجة للنبي في مذهبه إلى تلقي الوحي من الله بل يكفيه وحي عقله الزائد إلى حد العبقرية الممتازة. فهو يقرر لنبينا نبوة غير النبوة المعروفة عند سلفنا الصالح، وذلك بإثبات عبقرية له ﷺ من طراز خاص فاق بها جميع عباقرة الدنيا، ويعتبر أن في إثبات تلك العبقرية كسباً عظيماً للقائلين بنبوته، حيث يقول: «ربما يخيل لمن يطلّع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً إن لم يغفل إغفالاً تاماً، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً، فتفقد النبوة صيغتها المميزة وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية.

نقول: لا، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها، إلى عللها القريبة فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل يقف العلم نفسه أمامه حائراً لا يستطيع تعليل صدوره من فرد واحد، وسيكون مضطراً إلى أن يعترف بأن محمداً ﷺ كان عبقرياً من طراز خاص فاق العباقرة، وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوّته، لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة، هي في العلم ما يلقى في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه فيجيء فذاً لا سابقة له تتخذ مثالاً لغيره، ولا يمكن تقليده، فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة الى العقل وتسوغها في العلم»[1].

يقول في موضع آخر: «وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص في ما نكتبه في هذه السيرة على أ نسرف في كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلفة مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت والمحافظة على الدستور العلمي»[2].

كما أوضح بأن العقلية العصرية الملتزمة بالعلم المادي الحديث يصعب عليها أن تؤمن بصحة النبوة وإمكان الوحي لكونها من الأمور الغيبية؟ ولذا لا بد ـ في مفهومه ـ عند

(١) مجلة الأزهر، الجزء الأول من المجلد العاشر، ص ١٥ .

(٢) مجلة الأزهر، مرجع سابق، الجزء السابع من المجلد الحادي عشر، عدد رجب ١٣٥٩ هـ، ص ٣٨٥ .

معالجة مسألة النبوة والوحي من عرضهما على الأدلة الحسية التجريبية «العلمية». وذلك في قوله: «الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحي كثيرة، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقتنع بها، فإن الفلسفة المادية التي أثارت شبهات جمّة على النبوات ونفت وجود العالم الروحي وادّعت أن كل ما يقال فيه ويسند إليه، من أوهام الأقدمين وأساطيرهم. وقد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدة، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوّة والوحي أن يعدل عن الإستناد من الأدلة المنطقية إلى الأدلة العلمية، بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية سرى على بحثها الأسلوب العلمي»[1].

٤ - ان الدكتور زكي مبارك: نشر في مجلة الرسالة مقالة بعنوان: «النواحي الإنسانية في الرسول»[2]. ذكر في هذه المقالة أن النبوة صفة مكتسبة تنال بالجهاد في سبيل المعاني الإنسانية السامية، وأصر فيها إصراراً شديداً على أن هناك تنافياً بين نبوّة الرسول ﷺ وبين إنسانيته ينبيء عن اعتقاده بأن إثبات نبوته ﷺ يرتفع به من صفة البشرية إلى صفة الألوهية، ولذ نراه يمجّد إنسانية الرسول وعبقريته على حساب إغفال نبوّته، ويزعم أن حياة محمد الرسول أضرت بحياة محمد الإنسان حتى طغت عليها، وأنست الناس ما كان له في حياته قبل مبعثه، فقال: «اعتقد أن شخصية النبي محمد لم تُدرَس حق الدرس إلى اليوم في البيئات الإسلامية، لأن المسلمين يجعلونه رسولاً في جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي من اللّه، ولا يأخذ ولا يدع إلاَّ بإشارة من جبريل. ومعنى ذلك أن شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا إنسانية، يضاف إلى هذا أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوّة لا تكتسب، وهم يعنون بذلك أنها لا تنال بالجهاد في سبيل المعاني السامية، وإنما هي فضل يخص اللّه به من يشاء. وإنما غلبت هذه العقيدة لأن الإسلام نشأ في بيئات وثنية أو خاضعة للعقلية الوثنية والرسول لم يشق بين قومه إلاَّ لأنه حدّثهم بأنه بشر مثلهم، ولو أنه استباح الكذب فحدّثهم بأن فيه عنصراً من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء».

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الثاني من المجلد العاشر، ص ٩٠.

(٢) العدد: ٢٩٧ الصادر في ٢٢ محرم ١٣٥٨ هـ - ١٣ مارس ١٩٣٩ م، ص ٥٠٧.

ويقول: «كان محمد إنساناً بشهادة القرآن، والقرآن كتاب سماوي نصّ على أن محمداً إنسان، وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وفي غمرة هذه الضلالة نسيت النواحي الإنسانية في حياة الرسول، وإلاَّ فمن الذي يصدق أن رجلاً مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ؟ ولأي سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول؟».

ونرى الدكتور زكي مبارك ينسى أو يتناسى أو ينسيه شيطان العقل قول اللّه تعالى:﴿**ولولا فضل اللّه عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلاَّ أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل اللّه عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل اللّه عليك عظيماً**﴾[1] وقوله تعالى:﴿**فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**﴾[2] نراه ينكر فضل اللّه على نبيه ﷺ وفضل الإسلام ورسوله على العرب، فيعزو الفضل لعبقرية الرسول ﷺ في الرسالة وليس هناك حاجة لفضل اللّه عليه بأن جعله نبيّاً وكذلك العرب غير محتاجين في نهضتهم ورقيّهم إلى أن يدينوا بالإسلام، فيقول الدكتور: «إنهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوه بتاريخ الأمة العربية لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعاً تاماً للمعجزات، فالنبي لم يكن رجلاً عبقرياً، وإنما خصّه اللّه بالرسالة فكتب له الخلود، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتفعوا بفضل الرسول.

ولا يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال: إن اللّه خصّ محمداً بالرسالة لأنه كان قد وصل إلى أسمى الغايات من الوجهة الإنسانية، ولا أن يقال: إن اللّه اختار ذلك الرسول من العرب لأنهم كانوا قد وصلوا إلى غاية عالية من قوة الروح»[3].

وزعم فيما زعم إمكانية أن يثور المسلمون في يوم من الأيام على نبوته ﷺ لأنها من الأمور الغيبية التي لا تتفق معها العقلية العصرية، ولكن العبقرية التي كانت لمحمد الإنسان

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) أخذ الدكتور زكي مبارك هذا المعنى من كلام المستشرقين بأن العرب قبل البعثة كانوا أمة ذات حضارة ورقي وأن محمداً ﷺ كان رجلاً عبقرياً وذلك ليصلوا الى بشرية القرآن.

لا يمكن إنكارها في يوم من الأيام. فقال زكي مبارك: «كان محمد إنساناً قبل أن يكون نبيّاً، وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ، فسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد».

٥ ـ ان الأستاذ العقاد: ألّف كتاباً مستقلاً تحدّث فيه عن سيرة نبينا محمد ﷺ، وجعل له إسماً مجرّداً من كل معاني النبوّة والرسالة فسماه: «عبقرية محمد» وبذل جهده فيه لإثبات عبقريته ﷺ في كل مناحي الحياة، والتي يشاركه فيها سائر العباقرة والمصلحين. وأغفل جانب النبوّة وما تتضمنه من معجزات تخالف سنن الكون، وبنى كلامه فيه بوجه عام[١] على أن: «نبوّة سيدنا محمد وليدة تهيؤ الزمان والمكان الممتد من جزيرة العرب إلى كل الدنيا، وليدة التهيؤ العام المتولد من الحاجة العامة إليها، وكانت حاجة طبيعية صادفت شخص محمد المستعد للإضطلاع بالأمانة بصفاته العالية الظاهر من كونه عبقرياً في الدعوة، عبقرياً في العسكرية، عبقرياً في السياسة، عبقرياً في الإدارة، عبقرياً في البلاغة، عبقرياً في الصداقة، عبقرياً في الرئاسة، عبقرياً في الزوجية، عبقرياً في الأبوّة، عبقرياً في السيادة، عبقرياً في العبادة، عبقرياً في الرجولة، عبقرياً في كل ما يلزم لنجاحه في الدعوة، من غير أن يخالط ذلك التهيؤ والحاجة العامة شئ من الخوارق واتصال بعالم الغيب[٢]».

مما سبق نرى أن فكر هؤلاء يدور حول محور واحد هو عبقرية الرسول، وبشريته وإنسانيته، ويبعدونه ﷺ تماماً عن نبوّته وعما أوحي اليه به.

ولذلك توجّب علينا أن نوضح: أن النبوة بينها وبين العبقرية أو النبوغ بون شاسع وسبق لا يدرك، والنبوّة لا تكتسب اكتساباً ولكنها مرتبة روحية فوق النبوغ والعبقرية، وإصطفاء من اللّه تعالى لبعض أفراد من البشر خصّهم اللّه بصفات من الإدراك الروحي لا يصل إليها غيرهم من البشر، وبقدرة على تلقي وحيه.

والوحي اتصال بين اللّه الخالق القادر العليم وبين المختارين من خلقه وعباده للنبوّة والرسالة، لا يشبه اتصال الحواس بالمحسوسات، ولا العقل بالمدركات العقلية، بل هو نوع من

(١) مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مفرح سليمان القوسي، رسالة ماجستير، ص ٣٢٥.

(٢) القول الفصل، مصطفى صبري، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٣٦١ هـ، ص ١٤.

الإدراك يختلف عن ذلك النوعين الحسّي والعقلي والذي عبّر عنه القرآن بلفظ الوحي. وهي كلمة تفيد في أصل اللغة معنى السرعة والإشارة معاً، فتفيد معنى التلقين الخفي عن طريق سريع جداً أشبه بومضات البرق وإنتشار الموجات الضوئية[1].

وقد تجلى هذا الوحي في القرآن الكريم الذي تنزّل على محمد ﷺ وألقي في روعه ونفسه ودعاه قلبه وعقله وحفظته ذاكرته وردّده لسانه... **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾**[2]. **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾**[3] **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أني ملك، إن أتّبع إلاّ ما يوحي إليّ﴾**[4].

(١) نظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد المبارك، دار الفكر ـ بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م، ص ١٠٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٣) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٤) سورة الانعام، الآية: ٥٠.

المطلب الثالث

من المآخذ على الشيخ محمد عبده

كان الشيخ هو القدوة والتكأة لمن خاضوا في هذا الإتجاه الوبيل، فقد كان قدوة لتلامذته المخلصين الذين ساروا على دربه وكان يملأهم الحماس وحسن النية والرغبة في الإصلاح، فاقتدوا بأستاذهم وإمامهم في إعمال العقل وتأويل النص، حتى وصل بهم إلى مزالق الهوى، ومهاوي الرّدى، فنجد الشيخ المراغي يطلب من اللجنة التي شكّلها لعمل قانون الأحوال الشخصية أن يضعوا من القوانين ما يرونه متمشياً مع روح العصر. وبعدها سيقوم هو بتوفيق الدليل الشرعي من أحد المذاهب الفقهية[(١)]... وهكذا!!!

وكذلك نجد أن السيد محمد رشيد رضا قد زعم: «أن حروب النبي ﷺ للكفار كلها دفاعاً»[(٢)].

وقد فتح الأستاذ الإمام للكتّاب العصريين (أو العصرانيين)[(٣)] طريقاً بعيدة يقتحمونها رغم خطرها، في كل أمن وحصانة وهي: طريق التأويل وتفسير النصوص تفسيراً يؤدي إلى الغائها»[(٤)].

---

(١) أنظر: المجددون في الإسلام، عبد المعتال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م، ص ٥٤٨.

(٢) الوحي المحمدي، السيد محمد رشيد رضا، مرجع سابق ذكره، ص ٢٧٢.

(٣) كما نعتهم بذلك الدكتور السيد الشاهد في: (نقد العصرانية، د/السيد الشاهد، مقال بمجلة التوباد بالرياض، المجلد الأول العدد الرابع ـ شوال ١٤٠٨ هـ) ص ١٥٩.

(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م، ١/٣٤٩.

وكلما سلمت منه موجة تبعتها موجة أخرى من التضليل والتأويل أشد شراً وأبعد غوراً من سابقتها. وبذلك يتسع الخرق، ويصعب معه الرّتق.

كان تعاون الشيخ محمد عبده مع الإحتلال الإنجليزي ممثلاً في اللورد كرومر وصداقته له وللمستر «بلنت» والتي تركت أثراً واضحاً في سلوك محمد عبده وفي آرائه.

وهذا يتضح تماماً فيما كتبه كرومر في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥ م في الفقرة (٧) والتي كتبها بعنوان (الشيخ محمد عبده)، بمناسبة وفاته: (كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية، ولآرائه المتحررة المستنيرة، أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى) وضرب لذلك مثلاً فتواه المشهورة في ربح صناديق التوفير. ثم يقول: (والأيام وحدها هي التي ستكشف، عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعّمها الشيخ محمد عبده، سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي، في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال[1]، يكمن في ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده. وأن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه)[2]. وفعلاً نفذ كرومر ما قاله في هذا التقرير بتعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف، وإحاطة أحمد لطفي السيد بالرعاية و «التلميع» ليكون أداة التغريب في مهاجمة اللغة العربية ودعوته إلى العامية وإحاطته بعطف الأوربي حتى صار «أستاذ الجيل».

ومثل ما قال كرومر في تقريره، نجد المستر بلنت يذكر في كتابه «التاريخ السري للإحتلال البريطاني لمصر» إعجابه بالشيخ محمد عبده الذي خلف الأفغاني (في زعامة حزب الإصلاح الحر في الأزهر) وذلك فيما يختص بتعاليم «المسلمين الأحرار» ومخاوفهم وآمالهم في المستقبل. وذكر أنه دوّن ذلك في كتابه «مستقبل الإسلام» ثم عاد للكلام عن هذا الكتاب بأنه شرح ما فيه من آراء كما تعلّمها من الشيخ محمد عبده (أستاذ المدرسة الجديدة الحرة)[3]. وواضح من هذا الوصف الذي يقوله بلنت مدى اغتباطه بتفكير هذه

(١) الآمال التي تحقق أغراض الغرب والاستعمار.
(٢) الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، مرجع سابق ص ٧٧، ٧٨.
(٣) الإسلام والحضارة الغربية، المرجع السابق، ص ٨٠، ٨١.

المدرسة الذي كان يتّسم بالنزعة العقلية والتي تقرّبهم من أحرار الغربيين، وتجعلهم صالحين للقيام بدور التقريب بين الإسلام والحضارة الغربية، وهذا مطلب عزيز كم سعى الإستعمار لتحقيقه.

فجاء مفتي الديار المصرية الأُستاذ الإمام يحققه بجمعية التقارب بين الأديان آنفة الذكر.

وإن كان الطهطاوي بذر البذرة الأولى للتغريب في أرض الإسلام فإن محمد عبده وتلاميذه المخلصين، قد قاموا برعاية هذه النبتة الخبيثة حتى أصبح لها أصول وفروع حققت ما أراده الغرب بل أكثر مما كان يخطط له الغرب. ونمت وازدهرت هذه الشجرة فأثمرت «شوك القتاد»، فهذه الوطنية الإقليمية وهذه العناية بالتاريخ القديم السابق على الإسلام، الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية، وإلى وضع دستور يحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وواجبات كل منهما، الدعوة إلى إعادة النظر في وضع المرأة من المجتمع: الحجاب، الحدّ من تعدّد الزوجات، الحد من حرية الطلاق. «وكل هذه المسائل قد واصل تلاميذ محمد عبده من بعد تطويرها حتى بلغت نهاية مداها».

فالوطنية الإقليمية والعناية بالتاريخ الفرعوني والدعوة إلى الحرية قد رعاها من بعد تلميذه لطفي السيد، وبلغت نهاية مداها على يد تلميذه سعد زغلول. وأصبح الجانب الفكري من الحرية موضع صراع.. حين ظهر كتاب طه حسين «الشعر الجاهلي» وكتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»[1] ثم يأتينا دور المرأة ووضعها من المجتمع فيقوم أحد تلاميذ المدرسة وهو قاسم أمين بدور البطولة فيما أسماه «بتحرير المرأة» وإصدار كتابيه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة».

ويقول بعض الباحثين أن كتاب «تحرير المرأة» المؤلف الحقيقي له هو الشيخ «محمد عبده» أو أنه وضع أهم أبوابه: «عن الحجاب وتعدّد الزوجات..» وذلك كما يقول الاستاذ محمد عمارة في الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده[2].

(١) الإسلام والحضارة الغربية، المرجع السابق، ص ٨٢.

(٢) أنظر: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق محمد عماره، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ط ١ سنة ١٩٧٢ م، ١٧١/١ وما بعدها).

ويقول الأستاذ محمد قطب: «ومحمد عبده ـ كما هو مشهور ـ هو كاتب مقدّمة كتاب قاسم أمين المسمّى «تحرير المرأة»!!! وقد قيل في يوم من الأيام أنه كاتب الكتاب كله، أو الموحي بأفكاره لقاسم أمين. «ولكن حسبنا منه كتابة المقدّمة، لنتعرف على نوع التأثر الذي تأثر محمد عبده من لطف «نازلي هانم»[(١)] صاحبة الصالون!»[(٢)].

خلاصة:

نستطيع الآن بعد أن استعرضنا ما سبق من هذه النماذج من سقطات رجال مدرسة «العقل والعقلاء» وخوضهم بعقلهم فيما لا مجال للعقل فيه. أن نقول عن هؤلاء الرجال محل دراستنا فيما سلف أنهم يمثلون فئة المتحمسين للإصلاح مع خلفيتهم الإسلامية الواضحة: وهذه الفئة كان لديها صدق النية للإصلاح مع كثرة المعاناة التي يواجهونها ويواجهها المجتمع الإسلامي بعامة من الإستعمار الغربي ومن التيارات المضادة للإسلام بخاصة، فانطلقوا في مسارات متعددة للإصلاح، فسلكوا كل طريق ظنوا أنه يوصلهم إلى هدفهم في خدمة الإسلام، حتى مهادنة ومحالفة المستعمر للإستعانة به في منهج الإصلاح!!! وقابلوا جمود العلماء في هذه الفترة بالإتجاه نحو العقل ليحمّلوه فوق ما يحتمل، فكان الخطأ والزلل، ويمثل هذه الفئة الشيخ محمد عبده والأستاذ محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا.

فقد انساقت هذه الفئة وراء العقل حتى كان منهم ما كان في تأويلاتهم الفاسدة لآيات من القرآن الكريم تأويلاً بعيداً عن حقيقة الآيات، وبعيداً عن عقيدة السلف الصالح. وكان فلسفة هذه الفئة والتي تحركت في إطارها هي: «أننا لسنا بقادرين على مجابهة قوة

(١) «نازلي هانم» هي «نازلي فاضل» كانت أميرة متحررة من أميرات أسرة محمد علي، تعلمت على الطريقة الغربية، وتخلقت بأخلاق الغرب، وجعلت من بيتها صالوناً تستقبل فيه الرجال وتتجاذب معهم أطراف الحديث. وقد كان أكبر روادها هو اللورد كرومر نفسه!! المعتمد البريطاني الحاكم المطلق للبلاد. ثم كان من رواده الذين يكثرون التردد على هذا الصالون «المنتدى» محمد عبده، لطفي السيد، وسعد زغلول، وقاسم أمين، ومصطفى فهمي والد صفية (زغلول فيما بعد).
(أنظر: واقعنا المعاصر، محمد قطب ص ٣١٠).

(٢) واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة الصحفية ـ جدة، الطبعة الثانية ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ص ٣١٠.

الإستعمار العسكرية، ومن ثم فنؤجل الجهاد، ولنُعمِل العقل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أي ما لا يدرك كله لا يترك كله»[1].

ومع ذلك فإني أتفق مع رأي الدكتور علي جريشة بحسن الظن برجال هذه الفئة ولا نقبل أن نسميهم «عملاء»[2].

مهما اتصلوا بالمستعمرين وتعاونوا معهم ولكنه كان منهم على أمل الوصول إلى الإصلاح.

«ذلك أن هؤلاء القوم صدورا في فلسفتهم المحركة لهم عن ضعف استشعروه، فالإستعمار قهرهم، وقهر من كان أشد منهم قوة وأعز نفراً! فكيف بهم أن يقفوا في وجهه...؟».

«لكننا وإن نفينا عنهم فلا نستطيع أن ننفي عنهم «السذاجة» إنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الإستعمار ويمكروا به فإذا به أشد مكراً»[3].

لقد ظن رجال هذه الفئة أنهم يستطيعون أن يمتطوا الإستعمار ليسخّروه لصالح الإسلام، فكان النقيض. وامتطاهم الإستعمار ليسخّرهم لصالح التغريب والتغيير الإجتماعي.

ومن منطلق حسن النية أو سذاجتها قام صاحب مدرسة العقل بتأليف جمعية التقريب بين الأديان، الإسلام والنصرانية واليهودية. ولعله لم يكن قد اطلّع على توصيات المبشّرين والمستشرقين في التقريب بين الأديان، وكان هدفهم الرئيسي في ذلك هدم الإسلام ليتساوى مع حطام النصرانية وركام اليهودية وبعدهم عن التوحيد الصحيح بما حرّفوه في كتبهم الإنجيل والتوراة.

---

(١) أساليب الغزو الفكري، د/علي جريشة، مرجع سابق ص ٢٠١.

(٢) وذلك كما سمّاهم من شنّ عليهم حملة شديدة مثل الدكتور محمد محمد حسين في كتبه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الحضارة الغربية... الخ وتابعه في ذات الخط المهاجم الشيخ محمد عبده وأستاذه الأفغاني عدد من الباحثين المحدثين... في مقالات وكتب ورسائل جامعية كاملة مثل دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير.

(٣) أساليب الغزو الفكري، المرجع السابق ص ٢٠١.

«ولعله لم يدرك أن المشركين حاولوا مع رسول اللّه ﷺ ذلك التقارب حين قالوا له نعبد إلهك يوماً، وتعبد آلهتنا يوماً. فأنزلها رب السماء والأرض قاطعة حاسمة»[1].

﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾[2]. ثم وقف الدكتور جريشة وقفة طيبة مع الحق والإنصاف للشيخ محمد عبده في موقف يغفره اللّه له بحسن نيته إن شاء اللّه. فقال: «ولسنا نحاسب الإمام بعد ذلك على انضمامه للمحفل الماسوني الفرنسي، فنحسب أنه في ذلك التاريخ لم يكن من الناس كثير يدرك حقيقة الماسونية، وحقيقة الدور الذي تلعبه، ولم تكن «برتوكلات حكماء صهيون» قد نشرت والتي فيها التصريح باستخدام الماسونية لتحقيق أهداف اليهود والصهيونية العالمية.

«لا نحاسب الرجل على هذه النقطة خاصة وأن الماسونية لا تكشف عن حقيقتها لأعضائها إلاَّ في درجة سحيقة من درجاتها الثلاثة والثلاثين»[3].

(١) أساليب الغزو الفكري، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
(٢) سورة الكافرون، الآية من: ١ ـ ٦.
(٣) أساليب الغزو الفكري، مرجع سبق ذكره ص ٢٠٣.

المطلب الرابع

العصريون (خلفاء المدرسة العقلية الحديثة)

من أهم آثار المدرسة العقلية الحديثة: أنها جعلت مدخلاً لفئة جديدة لم يكن لها غرض أو إجتهاد لإصلاح المجتمع الإسلامي. ولم تنطلق من جذور إسلامية صحيحة. ولكنها جاءت لتركب الموجة العالية في تلك الحقبة، الموجة الإسلامية والصحوة الإسلامية، حتى لا تفوتها سوق البضاعة الرائجة بين الناس. وكان هؤلاء هم تلاميذ المستشرقين، السائرين وراء فلسفة الغرب.

فنرى منهم محمد حسين هيكل باشا[1] يخرج كتابه «حياة محمد» بعدما أن أترع شرباً من ثقافة الغرب ومفاهيمه، وانبهر بتقاليده وقيمه، ثم جاء يكتب، عن الإسلام ونبي الإسلام، فماذا كنا ننتظر منه إلاَّ أن يمجّد قيم الغرب وعلماء الغرب، ويحطّ من قيم علماء الإسلام مع التشكيك في صحة ما ورد في كتب الحديث بجملته منسوباً إلى النبي ﷺ، والذي أنكرها كلية في كتابه «حياة محمد» لأنها لا تتمشى - في قوله - مع المنهج العلمي التجريبي وهكذا يسوق ما بدا له وما أخذه عن أساتذته الغربيين والمستشرقين، وكانت هي معينه الأوحد الذي استسقى منه ما قاله في مقدمة كتابه في طبعته الثانية[2].

(١) هو محمد بن حسين بن سالم هيكل، كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة بمصر، ولد في قرية كفرغنام (بالدقهلية) سنة ١٣٠٥ هـ ـ ١٨٨٨ م. حصل على الدكتوراه في الحقوق وصنف كتباً منها: حياة محمد، وفي منزل الوحي، توفي سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م بالقاهرة.
(الأعلام، الزركلي، ١٠٧/٦).

(٢) أنظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، مرجع سابق، ١٥٤/١ ـ ١٥٥.

فنرى معالي الباشا يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «حياة محمد» معتذراً ومبرّراً عن عدم ذكر شيء من معجزات الرسول ﷺ، وجواباً أيضاً على مؤاخذيه من الذين سمّاهم المشتغلين بالعلوم الدينية: «إني لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج في التعبير عن مختلف الحوادث نهجها، ولقد كان يكفيني ردّاً على هذا أنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر[1]، وما كان لي وذلك شأني، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها»[2]. وقد بلغ بالدكتور محمد حسين هيكل في التشكيك في الحديث وكتبه أن يذكر ما أجمع عليه أهل العلم في الشرق والغرب (المنصف منهم) بأنه هو الشاهد الواضح على دقة علم الحديث وما اتخذ من علوم كثيرة[3] للوصول إلى الحديث الصحيح فيقول: «ان البخاري وحده إنتقى ما كتبه في صحيحه وهو أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، وأبا داود وحده إنتقى ما كتبه في سننه، وهو خمسة آلاف حديث إلاّ مائتين من خمسمائة ألف حديث»[4]. ويعلّق على هذا القول الشيخ مصطفى صبري بقوله: فأي همة جبّارة هذه، وأعني بها تدقيق ستمائة ألف حديث لكتابة أربعة آلاف حديث، أو تدقيق خمسمائة ألف حديث لكتابة خمسة آلاف حديث، فهذا العمل العظيم المحيّر للعقول في سبيل تمحيص الأحاديث النبوية، والذي يحق أن يكون فخراً لعلم الحديث الإسلامي وعلمائه، يستخدمه هيكل باشا في زعزعة مكان الثقة بكتب الحديث في قلوب الناس[5]. وضمّن رده أن البخاري كان يحفظ ١٠٠ ألف حديث صحيح لم يثبت منها في صحيحه سوى أربعة آلاف.

ويذكر أيضاً أنه قرأ لأحد الكتّاب الترك العصريين ذات القول الذي يقوله هيكل بخصوص انتقاء البخاري أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث، مع استغلال هذا الإنتقاء لإثارة الشبهة ضد كتب الحديث.

---

(١) لم تكن الطريقة العلمية التي يتقول بها هيكل إلاّ طريق ملاحدة الغرب التي بنوا عليها إنكارهم لوجود اللّه (أنظر: القول الفصل، ص ٤٣).

(٢) حياة محمد، محمد حسين هيكل، الطبعة الثانية، ص ٤٦ .

(٣) علوم: الإسناد والجرح والتعديل، ومصطلح الحديث وعلم الرجال... الخ.

(٤) عن، القول الفصل، مصطفى صبري، ص ٤٧ (هامش).

(٥) القول الفصل، المرجع السابق، ص ٤٧ (هامش).

فيعلّق الشيخ أيضاً على ذلك بقوله أن: هذا الإتفاق بين كاتبين شرقيين يدل على اتحاد مأخذهما، وكون ذلك المأخذ هو: كتب أعداء الإسلام المستشرقين[1].

ونعتبر هذا النذر اليسير لأول فارس في هذا الفرع كفاية لما نريد تبيينه.

ونذكر أيضاً من ركب هذه الموجة الإسلامية الأستاذ عباس محمود العقاد فيكتب عبقرياته حتى يصل إلى «عبقرية محمد» الذي مال به إلى الجانب الإنساني فيه ـ كما يقول ـ ويظهر محمد ﷺ عبقرياً في جميع جوانب الحياة. مفسّراً كل أعماله وكل أقواله وآرائه بالعبقرية.

وكذلك طه حسين أسهم في اعتلاء تلك الموجة بكتابه: «على هامش السيرة» بعد أن كتب «مستقبل الثقافة في مصر» و«من الشعر الجاهلي».

وهذا الفرع ينمو ويتشعّب حتى وصل إلى العصرانيين معتزلة اليوم: الذين نادوا بحجية القرآن فقط ليصلوا إلى إنكار السنة أو ليسهل عليهم ذلك. وفيما يلي نذكر بعضاً من مصطلحاتهم المستحدثة للوصول إلى غرضهم:

١ ـ تقسيم السنة إلى سنة تشريعية وسنة غير تشريعية[2]. ومن قولهم في ذلك:

أن ما ورد عن رسول الله ﷺ ليس كله تشريعاً لازماً لأمة في كل حين. منه ما هو قضاء وحكم بني على ما قام عنده من الدلائل والبينات، وهي وقائع جزئية يشير إليها الفقهاء كثيراً في مناقشاتهم بقولهم: قضية عين لا عموم لها، ومنها ما بني على المصلحة التي قامت زمنه ﷺ، وهذا يجب أن يتبع المصلحة ويدور معها، فما حقيقته المصلحة أجزناه، وما عارضها أو ألغاها توقفنا عن إجرائه.

«يغلب الظن على أن أغلب المروى عنه في شؤون الدنيا خارج نطاق العبادات والمقدرات المحرمات، ليس من الشرع»[3].

---

(١) القول الفصل، مرجع سابق، ص ٤٨ (هامش).

(٢) العصريون معتزلة اليوم، يوسف كمال، ص ٥٣ .

(٣) السنة التشريعية والسنة الغير تشريعية، د/محمد سليم العوا، مجلة المسلم المعاصر، العدد الافتتاحي عن: العصريون، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

ومن قولهم أيضاً:

«وعلى كل فالسنة هي مصدر تشريعي إستقى ويستقي منه المسلمون أحكامهم في كل عصر من العصور، ونلاحظ أن السنة على أنها جاءت بتفصيل أكثر من القرآن، إلاّ أن مجال العقل البشري فيها واسع وذلك لما يلي:

١ ـ علم الحديث نفسه مع تدوينه يحتاج إلى تمحيص وعلم الرجال على الخصوص والأسانيد المختلف فيها كثيرة تحتاج إلى تحقيق. فإن وجود المعلومات عن كل رجل في الأسانيد لا يغني وحده، فلا بد من التحقيق في السلاسل مجتمعات.

٢ ـ أن السنة النبوية كان منها ما هو حكم شرعي عام بمقتضى أن يقول الرسول ﷺ بوصفه بشراً. وهذا وإن كان يفعل فيه الأصح والأمثل إلاّ أن حكمه على المكلف مغاير دون شك للسنة التشريعية.

ثم كانت هناك سنة يفعلها الرسول ﷺ بوصفه حاكماً خصوصاً بعد الهجرة، تمنع مراعاة البينة وعلّل الحكم فيها من إطلاق الوجوب عليها.

هذه الآراء ونقيضها الذي يرى فيما روي عن الرسول ﷺ تشريع يحتاج إلى إجتهاد وترجيح.

وفي حالة ترجيح الأول فإن التفريق بين هذه الأقسام الثلاثة يحتاج إلى ضبط.

٣ ـ إنّ السنة وإن كانت أكثر تفصيلاً من القرآن فإن تغاير الزمان وتبدّل العصر، وحدوث الجديد في الحياة، يجعل استنباط الأحكام منها أكثر صعوبة لبعد الأشباه والنظائر، وأحياناً عدم وجودها.

٤ ـ تردّد السنة بين الإستقلال بالأحكام والتبعية للقرآن يحتاج هو الآخر إلى اجتهاد.

والسنة تعدّ مصدراً ثانياً للتشريع تفتح الباب للإجتهاد من حيث توارد الأحاديث الكثيرة في المسألة الواحدة وأحياناً تعارضها، وهذا التعارض قد لا يحسمه إلاّ النسخ الذي لا يثبت إلاّ بثبوت التراخي في الزمن وتاريخ النصوص وترتيبها الزمني من أكثر مسببات الخلاف.. ثم إن الإختلاف في أخبار الآحاد وغيرها من ظنيات الدلالة من الأحاديث التي لا ترقى لمستوى الصحة والتواتر ولا تنزل لمستوى الضعف. شكّلت وما زالت تشكّل حين تعارضها للأدلة الأخرى منطقة إجتهاد واسعة.

وختم الباحث قوله في المقدّمة:

وهكذا نرى أن النص ـ القرآن والحديث ـ قد حوى في عبارته أو إشارته أو فحواه غيره من الأدلة وحدّد للتشريع أصولاً تكون أحياناً خطوطاً مرسومة كما في المقدرات، وتكون أحياناً منارات يتتبعها المجتهدون»[1].

٢ ـ النص التعبدي والنص الدنيوي:

ثم تأتي صيغة أخرى وشعار مغاير لهذا الفكر ليصل لذات النتيجة بتمييع وترك السنة في المعاملات.

فيقولون:

«فلأي شيء حمل المتأخرون جميع أوامره عليه الصلاة والسلام فيما يرجع إلى المعاملات الدنيوية على الباب الثاني «تعبّد» دون الأول الناظر إلى المصالح الدنيوية، لأي شيء لم يحملوا أوامره ونواهيه المتعلقة بالأوامر الدنيوية كالبيع والإجارة والشركة والسلف والقرض والزراعة ونحوها على أنها أوامر إرشادية سياسية من حيث إمامته العظمى الناظرة للمصالح الدنيوية، مرتبة على مصالح حربية أو مدنية أو سياسية بحسب ما يقتضيه مقام كل أمر أو نهي، وبحسب مقتضيات الأحوال فيما لم يظهر فيه نص ولا اجماع على التعبد؛ فتكون أحكاماً مصلحية صادرة من حيث ماله من الإمامة والأخلاق مربوطة بمصالح تتغير بتغيرها»[2].

٣ ـ المذهب والنظام:

وهذا ليّ لعنق الحقيقة ليبعدها عن مدلولها الصحيح، ومدخل آخر لتعريف مذهبهم. فيقول الدكتور/ محمد سليم العوا:

«الإقتصاد الإسلامي إقتصاد إلهي من حيث المذهب، وضعي من حيث النظام، فالأصول الإقتصادية الإسلامية إنما تستقى من نصوص القرآن والسنة، وقد جاءت نصوص القرآن

(١) الإتجاه الإسلامي بجامعة الخرطوم، رسالة في أصول التشريع، ص ٧. (عن: العصريون، ص ٥٤، ٥٥، ٥٦ ولم يرد اسم صاحب الرسالة).

(٢) الإقتصاد الإسلامي أصوله ومناهجه، مقال للدكتور حسن عبد القادر، مجلة البنوك الإسلامية ـ العدد التاسع، ص ٤٥.

والسنة في المجال الإقتصادي محدودة وعامة؛ ومن ثم فقد إستلزم الإسلام الإجتهاد في اعمالها وملازمة تطبيقها بإختلاف الزمان والمكان»[1].

٤ ـ السنة التبليغية وغير التبليغية:

ومن دورانهم حول محور واحد للتوصل للتعريف بمذهبهم قولهم: «أنّ الشريعة هي الجزء الثابت من أحكام الإسلام الثابت في النصوص القطعية في ورودها ودلالتها. والفقه تفسير الرجال لهذا الجزء الثابت المستمد مباشرة من النصوص القطعية وقياساتهم عليه واجتهاداتهم فيما لا نصّ فيه، وترجيحهم بين ما بدا تعاضده من الأدلة، وهو اجتهاد بشر يتفقون ويختلفون، وقلما يجتمعون عليه وهو في ذلك كله يرنو إلى الجزء المتغير من تراث الإسلام»[2].

ويقول الدكتور كمال أبو المجد[3] أيضاً:

«والنصوص في تطبيقها على الوقائع لا بد يحدد معناها لغة واصطلاحاً وأن يعرف نزولها، وظروف تطبيقها إذ هي لا تنفك عن ذلك كله أبداً.. ومهما قال الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فهذا لا يؤخذ بغير مناقشة، فكم من فعل للنبي ﷺ وأفعاله ﷺ نوع من أنواع السنة جاء مرتبطاً بإطار موضوعي معين، معالجاً لظروف قائمة ثابتة وعارضة. ومن هنا لا يستغني مجتهد عن معرفة ذلك كله والتأمل فيه.

والنبي ﷺ بشهادة القرآن وحكمه الذي لا يرده كلام فلاسفة ولا متكلمين بشر مثلنا يوحى إليه، والوحي إليه ﷺ هو جميع القرآن، وبعض ما صدر عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.. وليس كل ما صدر عنه من هذه الأحوال الثلاثة وحياً يوحى، فهذا أيضاً باطل بالعقل وباطل بالنقل، فبشريته ﷺ حاضرة في سيرته حضور ثبوته؛ وهو باطل النقل لقوله ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم، فإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر»[4]، والحديث الذي تقول فيه رواية مسلم: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

---

(١) السنة التشريعية والسنة الغير تشريعية، د/محمد سليم العوا، العدد الإفتتاحي ـ مجلة المسلم المعاصر.
(٢) الوحي المحمدي، الجزء الثاني من المجلد العاشر، ص ٩٠.
(٣) العدد: ٢٩٧ الصادر في ٢٢ محرم ١٣٥٨ هـ، ١٣ مارس ١٩٣٩ م، ص ٥٠٧.
(٤) رواه مسلم في صحيحه في باب وجوب إمتثال ما قاله النبي ﷺ شرعاً دون ما ذكره من معايش على سبيل الرأي. (أنظر: حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، دار الكتب الحديثة بالقاهرة) تحقيق السيد سابق، ١/٢٧١).

إنه إن كان الإسلام نظاماً شمولياً مع وحدة مصدره، وترابط قيمه وأحكامه، بوحدة الكيان الإنساني الذي يتعامل معه.

وإذا كانت الشمولية تجعل منه ديناً ودولة، وعبادة ونظاماً كما يقال بحق، فإن هذا لا يعني أن فصل أحكام بناء الدولة، ودقائق نظام الإقتصاد، ولن ينقص هذه الشمولية بحال أن يلتقي بتقرير المبادئ الأساسية التي تتصل اتصالاً مباشراً بالقيم العليا التي جاء لنشرها وتبنّيها بين الناس كقيم العدل والحرية والمساواة بين الناس، وتقديم الخير والإحسان وإنشاء الود والسلام وتعميق الروابط بين الإنسانية؛ وتربية العقول وتحريضها على التأمل في الكون، واستكشاف الجديد من خباياه، لكنه لا يشغل نفسه بتفاصيل يمكن أن تهتدي إليها العقول وهي تطلب مصالح وتجتهد في هذا الطلب»[1].

ويقول أيضاً في عددي مايو سنة ١٩٧٧م:

«إن إقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى اجتهاد عقلي كبير، وللعقل سبيل إلى ذلك لا يسع عاقل إنكاره.

والإجتهاد الذي نحتاج إليه اليوم، ويحتاج إليه المسلمون ليس اجتهاداً في الفروع وحدها وإنما هو اجتهاد في الأصول كذلك. والتراث تعبير غامض يشير إلى النتاج الحضاري للأمة منذ اكتملت لها مقوماتها وتراث الأمة الإسلامية في تنوعه واختلافه بإختلاف الزمان والمكان مزيج من الأمرين. من روح الإسلام ومبادئه ونصوصه وتوجيهاته. ومن أمور لا تتناهى عدداً من ظروف البيئة وخصائص الشعوب والأمكنة وملابسات الحوادث.

والإلتزام بهذا كله (بجملته تلك، وحالته تلك) التزام بما لا يلزم وتوسيع غير جائز لرقعة الإسلام بإضافة ما ليس منه. وتعبّد بما لا قدسية له، وتثبيت لا حاجة لأحد في تثبيته، ومن هنا أقول مع القائلين أننا نحتاج الى فرز التراث من ناحية وتجاوزه من ناحية أخرى، نفرزه لنعرف ما يعد منا إسلامياً، وما يعد من عامة أحوال المسلمين وظروف الزمان والمكان،

---

(١) العربي، مرجع سابق، العدد ٢٢٢ مايو سنة ١٩٧٧ م.

ونتجاوزه لأن من حق كل ـ بل من واجبه ـ أن تكون له تجربته، وأن يثري بها النصوص ونثريها بالنصوص، غير مقلد وهو قادر على الإجتهاد»[1]. ولم يجعل الدكتور أبو المجد كلامه اجمالاً عن التراث عامة بل خص الفقه الإسلامي بالهجوم أيضاً فنراه يقول:

«وحتى اذا انتقلنا من عموم لفظ التراث الى خصوص الفقه، الذي يجمل أحكام الإسلام في العبادات والمعاملات فإننا نؤكد من جديد ضرورة التميز بين الشريعة والفقه، فالشريعة هي الجزء الثابت من أحكام الإسلام، الثابت في النصوص القطعية في ورودها ودلالتها، والفقه تفسير الرجال لهذا الجزء الثابت المستمد مباشرة من النصوص القطعية، وقياساً عليه، واجتهادهم فيما لا نص فيه وترجيحهم وبين ما بدا تعارضه من الأدلة وهو اجتهاد بشر يتفقون ويختلفون وقلما يجتمعون، وخطؤهم وصوابهم ليس تشريعاً.

ولكن يعكس حظ كل واحد من المعرفة بالوقائع، ومصادر الأحكام وقواعد التفسير، وأصول الترجيح يعكس ظروف الزمان والمكان، ويعكس ذلك كله: رأيه ورؤيته للقضايا والمصالح والإعتبارات، وهو في هذا كله يرمز الى الجزء المتغير من تراث الإسلام. وباطل قول من قال أن الأول لم يترك للآخر شيئاً فقد ترك له عالماً كاملاً غير عالمه ودنياه. وتجربة جديدة لا تغني عنها تجربة قديمة فتلك قد خلت، ولا تسألون عما كانوا يفعلون[2].

واذا استقرأنا آراء هؤلاء، وتتبّعنا أقوالهم لوجدنا الشيء الكثير الذي يريدون به مناقضة السنة وهدمها، ونقض الفقه الإسلامي والتهجم عليه، وتضييع تراثنا المجيد فلا تبقى جذورنا، ونصبح هشيماً تذروه الرياح.

ونكتفي بما أوردنا من أمثلة تدل على هذا المنعطف الخطر في طريق ديننا وعقيدتنا، من أبناء جلدتنا، والناطقين بلغتنا، وهذا الفريق من الكتّاب المسلمين الذين ركّزوا جهودهم على مخالفة الأئمة الأعلام السابقين وأعطوا أنفسهم حق الإجتهاد تفسيراً وتأويلاً[3] وقد

---

(١) العصريون، ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٢) العصريون، مرجع سابق، ص ٦١.
(٣) مقدمة كتاب العصريون للأستاذ عمر التلمساني، ص ٦.

أعطوا أنفسهم حرية القول وفق أفهامهم فوصلوا إلى الخطأ في القول، والشطط في الإجتهاد في مذهبهم الذي تمذهبوه. وذلك ليصلوا إلى مرتبة النبوغ الذي من أعظم وأسهل شروطه ضعف الدين[1]. وضعف الدين أضمن للنجاح في مضمار الثقافة العصرية من قوة العلم[2].

والله المستعان على ما يصفون.

---

(١) أنظر: موقف العقل، مصطفى صبري، مرجع سابق، ص ١٥٨ (هامش).

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧ (هامش).

المطلب الخامس

الإمام المصلح الشيخ محمود شلتوت(١)

١٨٩٣ ـ ١٩٦٣ م

نشأته:

ولد في ٢٣ إبريل سنة ١٨٩٣ م ـ ببلدة منية بني منصور مركز إيتاي البارود محافظة البحيرة ـ بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد الإسكندرية الديني سنة ١٩٠٦ م وكان أول فرقته في جميع سني الدراسة.

نال شهادة العالمية النظامية عام ١٩١٨ م، بعد تخرجه عُيِّن مدرِّساً بمعهد الإسكندرية الديني عام ١٩١٩ م. وفي سنة ١٩٢٧ م نقل مدرِّساً بالقسم العالي في القاهرة. ثم نقل مدرِّساً للفقه الإسلامي بأقسام التخصص في الأزهر.

في سنة ١٩٣١ م تعارضت آراؤه الإصلاحية مع المشرفين على سياسة الأزهر في ذلك الوقت وانتهى الأمر بفصله في ١٧ سبتمبر ١٩٣١ م. إشتغل بالمحاماة والبحوث العلمية أثناء هذه الفترة إلى أن أعيد إلى الأزهر سنة ١٩٣٥ م وعُيِّن وكيلاً لكلية الشريعة الإسلامية

(١) أنظر ترجمته في:
ـ شيوخ الأزهر ولمحات عن نظامه المعاصر، ترجمة رقم ٣٧.
ـ الأزهر في ألف عام، محمد عبد المنعم خفاجي، ٣٣٩/١ ـ ٣٤١.
ـ الأعلام، الزركلي، ١٧٣/٧.
ـ مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، علي عبد العظيم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ـ ١٧٩/٢ ـ ٢٤٢.

ثم مفتشاً بالمعاهد الدينية. ثم تدرّج في عدة مناصب حتى صدر قرار تعيينه شيخاً للأزهر في عام ١٩٥٨ م، فكان خيراً وبركة للأزهر ورجاله، ولدين اللّه وشرعه.

معالم من شخصيته:

كان ـ رحمه اللّه ـ عالماً مجتهداً، ذا رأي حر، ملتزم بكتاب اللّه وسنة رسوله فيما يكتب وفيما يقول. إعتز بالأزهر كمعهد للمسلمين، فوصفه ببضع كلمات فقال: «إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين». وما كان إهتمامه باللغة العربية والوعاء الذي يحافظ عليها إلا لأنها لغة القرآن الكريم المعجزة الباقية ما بقيت السموات والأرض. والذي يقول عنها الشيخ شلتوت:

«فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التي لا نظير لها والتي تقاصرت عنها الهمم ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة اللّه.

أربعمائة مليون من بني آدم فرّقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان وجمعتهم كلمات القرآن.

وكلمات حفظت اللغة التي نزلت بها وليست هذه اللغة هي التي حفظتها، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس، ولم تعش لغة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهّان المحاريب، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام وبقيت لغة القرآن حية في عالم الديانة وفي عالم الكتابة وفي عالم الثقافة، وستحيا غداً كما حييت بالأمس، ما شاء اللّه، وصحّ فيها قول الأستاذ الفقيه: «إنها ليست في هذا المقام عربية الإقليم والجو ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكوّنة من عنصري العروبة والإسلام».

وأوضح ـ رحمه اللّه ـ مرتآه من التعليم بالأزهر والغاية منه فقال:

«نريد تخريج وتبريز الأئمة في اللغة وفروعها وأئمة في الفقه وأصوله، نريده تخريجاً أساسه النظر العميق والإجتهاد العلمي الذي يكوّن الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية، لا نريده تخريجاً نلتزم فيه مخلّفات الماضي من آراء ومذاهب بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن فضل اللّه في كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين».

ومن هذا يتبين بوضوح خطه الإجتهادي الذي بدأه مبكراً منذ أول حياته الفكرية. ففي سنة ١٩٣٧ م اختير عضواً في الوفد الذي حضر (مؤتمر لاهاي) للقانون الدولي المقارن. وألقى بحثاً قيّماً تحت عنوان: (المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية) ونال البحث إستحسان أعضاء المؤتمر، فأقروا صلاحية الشريعة الإسلامية للتطور واعتبروها مصدراً من مصادر التشريع الحديث وأنها أصيلة وليست مقتبسة من غيرها من الشرائع الوضعية ولا متأثرة بها. وقرر المؤتمر أيضاً اعتبار (اللغة العربية) لغة رسمية من لغات المؤتمر وأن يدعي في المؤتمر القادم أكبر عدد من علماء الشريعة الإسلامية.

وبهذا البحث نال (عضوية جماعة كبار العلماء).

ولقد قال عنه أحد أعضاء مجمع اللغة العربية[1] عند وفاته:

«ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزوّد لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة، تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار».

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات في مجمع اللغة العربية فتعوّدنا أن نعرفه «قرآنياً» في دراسته لأسرار اللغة، قبل أن نعرفه «لغوياً» في دراسته لأسرار القرآن، وكنا نسمعه يقول: «إن القرآن معجز بما هو به قرآن».

وقد عني ـ رحمه اللّه ـ بتفسير القرآن فقام بتفسير العشرة أجزاء الأولى. وقدْ كان تفسيره بعيداً عن التعصب المذهبي، فقد سعى بذلك إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية.

إنصرف إلى خدمة الإسلام بالتعليم والتأليف، ومصلحة المسلمين بالتوجيه والتثقيف،

(١) هو الأستاذ عباس العقاد ـ ١٩٦٣ م.

فكان حركة لا تسكن. كما كان خطيباً جهير المنطق حافل الخاطر، يضع لسانه من فنون القول حيث شاء، فلا يتلجلج ولا يتوقف. كما كان له من الإجتهاد نصيب وكل مؤتمر كان له من رأيه الناضج وفهمه الصادق حظ، وكل مشكلة وجدت في سعة أفقه ونفاذ بصيرته حلاً.

وترك الشيخ مؤلّفات عدة منها:

١ ـ فقه القرآن والسنة.

٢ ـ مقارنة المذاهب.

٣ ـ يسألونك (وهي إجابات عن أسئلة في شتى الموضوعات).

٤ ـ منهج القرآن في بناء المجتمع.

٥ ـ المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية.

٦ ـ القرآن والقتال.

٧ ـ القرآن والمرأة.

٨ ـ تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام.

٩ ـ الإسلام والوجود الدولي للمسلمين.

١٠ ـ تنظيم النسل.

١١ ـ رسالة الأزهر.

١٢ ـ إلى القرآن الكريم.

١٣ ـ الإسلام عقيدة وشريعة.

١٤ ـ من توجيهات الإسلام.

١٥ ـ الفتاوي.

١٦ ـ تفسير القرآن الكريم (العشرة أجزاء الأولى).

وتوفي رحمه الله سنة ١٣٨٣ هـ.

الباب الثالث

في الإتجاه التغريبي

ويشتمل على تمهيد وفصلين هما:

الفصل الأول : الإستشراق والتبشير.

الفصل الثاني : الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب.

تمهيد

نجد أن التاريخ يعيد نفسه، ضاحكاً مستبشراً... صور الضلالات هي... هي، لم تتغير ولم تتبدل، وإن تغيرت الأشخاص والأزمان.

فالناظر إلى القرن الرابع الهجري وما ظهر فيه من ضلالات تريد التهام الإسلام وإجتثاثه من جذوره، بهجمة شرسة على جميع محاوره الرئيسة، من عقدية، ومنهجية، وفكرية.

فكانت معركة ضخمة، في مواجهة الفلسفات اليونانية والوثنيات المجوسية والفارسية والهندية، وكلّ من هذه الخبائث يحمل أدنس أسلحته، وأدخلها خصوم الإسلام إلى عمق المعركة بحركة الترجمة الواسعة التي غمرت الجو الإسلامي كاملاً، ولكن صاحب الشرع جلّ وعلا هيّأ بفضله وقدرته من رجال الإسلام مَن يردّ على هذا كله ويدحضه بأمر اللّه ومعونته.

فكان (البخاري ومسلم) في مجال تحقيق الحديث، ومالك والشافعي وأبو حنيفة وإبن حنبل في بناء الفقه. وكان إبن حزم والغزالي وإبن تيمية في تصحيح المفاهيم.

وبذلك خرج الفكر الإسلامي من هذه المعركة منتصراً، بمفهوم أهل السنة، ناصعاً صافياً مبرءاً من كل وثنية، ومفاهيم الفلسفات الهيلينية والمجوسية.

واليوم نمر بنفس المعركة مرة أخرى، ولكن في شراسة خصوم أقوى، وعنف أعداء أشد ضراوة. وكأن ما قيل بالأمس البعيد، هو هو، نفسه، يعيد نفسه، فيأتينا الغرب مجتمعاً بحروبه الصليبية، وبكل نوعيات مجتمعه، من ملك إلى صعلوك، ثم يبوءوا بالفشل والخسران.

ثم يأتينا الإستعمار العسكري مطوّقاً العالم الإسلامي من جميع جوانبه، سواحل أفريقيا، سواحل الهند، أندونيسيا، فيحقّق بعض ما يصبو إليه، من إستعمار للبلاد، ونهب للخيرات، وفساد في الأرض، ولكنهم لم يصلوا إلى ما يريدون بالقضاء على الإسلام.

فيأتي الدور التالي، بل الدور الأشد تأثيراً على الإسلام والمسلمين، يأتينا التغريب بكل أسلحته المدمرة للشباب والعقول، والمجتمع والدين، والعقيدة والأخلاق، جاء الغرب ينفث سمومه في ثوب حضاري، جاءنا بالجاهلية العلمية: التي تعتمد على الدراسة والتخطيط ثم التنفيذ بكل عنف وقوة.

وما يقول الغرب في كل ما يأتي به: إلاّ أنه «لفائدة الإسلام والمسلمين» غير أنه في الواقع ما هو إلاّ إبعاد المسلمين عن دينهم، والتغرير بهم بمختلف أنواع المغريات، بأسماء زائفة: إخاء إنساني، تعاون علمي، وما إلى ذلك من الشعارات الزائفة التي تخلب العقول الساذجة، وتستهوي النفوس الضعيفة[1].

فكان من أخطر التحديات التي تواجه الإسلام في العصر الحديث إبتعاث الفكر الوثني والغنوصي[2] القديم الذي كان معروفاً قبل ظهور الإسلام في البيئات الشرقية والغربية على السواء، والذي تشكّل في إحياء الفكر المعتزلي باسم العصرانية والعقلانية، والفكر الصوفي الفلسفي، والفكر الفلسفي المادي، والفكر الشعوبي والباطني، تجددت هذه الأفكار مرة أخرى في عصرنا الحاضر، ووضعت في صور براقة كاذبة، وأطر لا محدودة لفتح الطرق أمام شباب الإسلام للتحلل والفساد والإباحية، ولتحطم مقوّمات الأخلاق وضوابط القيم وحدود اللّه. وقد ظهرت في ظل هذه الأفكار الوثنية الفاسدة الغابرة المتجدّدة، المؤامرات تلو

(١) الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية، أنور الجندي، دار الصحوة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م، ص ٩٠ .

(٢) الغنوصية، كلمة يونانية الأصل معناها المعرفة، ثم تطورت وأخذت معنى إصطلاحياً للدلالة على التوصل بنوع من الكشف الى المعارف العليا، أو تذوق المعارف تذوقاً مباشراً، بأن تلقى في النفس القاء، فلا تستند إلى الاستدلال أو البرهنة العقلية. ويدخل في الغنوصية كل الفرق الوثنية والمجوسية، والمذاهب الهندية، والفلسفات اليونانية كالأفلاطونية كما تسربت الغنوصية إلى اليهودية والمسيحية، وتأثرت بها طوائف إسلامية منحرفة من الفلاسفة والصوفية والباطنية.

(أنظر: الفلسفة الصوفية في الإسلام، عبد القادر محمود، ص ٤ ـ ٤٢ ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام «النشار» جـ ١ ص ١٨٦).

المؤامرات على الإسلام وشبابه، مسميات كثيرة وأسلحة فتاكة، من قاديانية وبهائية، وإحياء الدعوات المشركة الملحدة، من الزنج[1] والقرامطة[2] واخوان الصفا[3]، ودعوات وحدة الوجود والحلول، والإتحاد والإشراق، ثم العصرانية والعقلانية وما إلى ذلك من مسمّيات وأساليب.

---

(١) الزنج: أطلق هذا الاسم على العبيد المتفضين الذين أثاروا الرعب في القسم الجنوبي من العراق ١٥ سنة (٨٦٨ ـ ٨٨٣) وكانت فتنة الزنج على جانب كبير من الأهمية، نشبت بزعامة علي بن محمد بن عيسى البرقعي وبمعاونة القرامطة.
(أنظر الموسوعة العربية الميسرة، ص ٩٢٨).

(٢) القرامطة: فرقة ضالة انتشرت دعوتها في بعض البلاد الإسلامية وكان رأس هذه الطريقة هو حمدان القرميطي (و«قرميطي» بمعنى: أحمر العينين).
ونجح أحد دعاتها (علي بن الفضل) في نشر مبادئها في اليمن واستولى على ذمار وصنعاء وتغلب على جيوش الإمام الهادي واستباح أتباعه الحرمات وأسسوا دولتهم التي لم تستمر طويلاً من ٩٠١ ـ ٩١٥ م ولكن مبادئهم الباطنية ظلت إلى الآن ويطلق على هذه الطائفة طائفة الإسماعيلية والباطنية ومن عقائدهم أن للقرآن ظاهراً وباطناً وهم ينفون الصفات عن اللّه تعالى، وهم يقولون بإسقاط التكاليف الشرعية.. وغير ذلك ولمن يريد أن يتوسع أكثر أنظر:
ـ الملل والنحل، للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، ط ٢، ١٣٩٥ هـ، ص ١٩١ ـ ١٩٣
ـ العقيدة الإسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة، د/محمد أبو الغيط الفرت، د/محمد رواس قلعة جي، دار البحوث العلمية، الكويت، ط ١، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.
ـ الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص ١٣٧٣.

(٣) «اخوان الصفا»: جماعة تنتمي إلى طائفة الإسماعيلية من الشيعة الباطنة وهم من الناحية الفكرية يمتازون بثقافتهم الواسعة، وتبسيطهم لمعضلات الفلسفة بفكر إسلامي يحاول المزج بين العقيدة والفلسفة والتوفيق بينهما، وقد حاولوا خلط الدين بالفلسفة فما استقام لهم الدين، ولا استقامت لهم الفلسفة.
كان أول ظهورهم في عهد آل بويه في نهاية الدولة العباسية سنة ٣٣٤ هـ ولو أنهم كان لهم وجود سري قبل ذلك.
(إخوان الصفا، عمر الدسوقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ، ص ٤، ٥، ٦).

الفصل الأول

الاستشراق والتبشير

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول : في الاستشراق.

المبحث الثاني : في التبشير.

المبحث الأول

في الاستشراق

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : مفهوم الاستشراق.

المطلب الثاني : أطوار العمل الاستشراقي.

المطلب الثالث : الحقد على القرآن والسنة.

المطلب الرابع : محاولة تشويه التاريخ الإسلامي.

المطلب الأول

مفهوم الاستشراق

الاستشراق هو دراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية من حيث لغتها وآدابها وفنونها وعلومها ومعتقداتها، وعادات أهلها وتقاليدهم، وإذا كان له إتصال بالإسلام وعلومه فهو: محاولة فكرية (ضالّة) لفهم الإسلام، عقيدة وحضارة وتراثاً، لإنكار المقومات الثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة والتنديد والإستخفاف بها[١].

وفي هذا التعريف بيان لحقيقة الإستشراق الواقعية عندما يكون متصلاً بالإسلام ونبيّ الإسلام والقرآن الكريم ولو أن هناك مستشرقاً[٢] قام بتعريف للإستشراق على غير حقيقته فقال: «إنه جهود علمية مطلقة مع كل ما للعلم الحديث من مقتضيات وموجبات وروح طلقة، وأنه جهود نقدية محللة ناخلة، مغربلة تتحلى فيها روح النقد العلمي المقارن دون مراعاة أو محاباة لأي عامل من عوامل الأثرة والغرض»[٣].

إلا أن الواقع أن الإستشراق يتنكر عند بحثه في الإسلام لهذا المنهج فتعمل المحاباة العاطفية عملها بصورة تكاد تكون دائمة وثابتة، فيضطرب البحث ويختل، ويحيد عن الصواب[٤].

---

(١) المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، نشر الجامع الأزهر، مطبعة الأزهر، ص ١ .
(٢) هو المستشرق ميخائيل انجلو جويري.
(٣) مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر، ٢/٧٧١ .
(٤) الطريق الى مكة، محمد أسد، بيروت ١٩٥٦ م ـ ط ١، ص ٢٠٩ .

وعلى ذلك فإن الإستشراق حلقة من حلقات السلسلة الصليبية الحاقدة على الإسلام والعاملة على هدمه، فهو لون من ألوان التبشير (غزو ثقافي) ويعني الإستشراق «البحث في علوم الشرق وعقائده وآدابه، وإعداد الدراسات الأدبية والدينية فيها»(١).

ومن خلال دراساتهم وأبحاثهم في ذلك يبذلون جلّ جهودهم لتوهين القيم الإسلامية وإنكار المقومات التاريخية والثقافية والخلقية لدى المسلمين والإستخفاف بها، كل ذلك في صورة أبحاث علمية يدّعون فيها الحيدة وتجنب العصبية، مع أن أبحاثهم أبعد ما تكون عن الحق والنزاهة العلمية فنجد أن غرضهم الأساسي هو النيل من الإسلام وعقيدة المسلمين، بسلاح جديد في ثوب آخر، وغرس مفاهيم مقصودة بين شعوب الأمة الإسلامية، فيزعمون أن السبب في تأخير وانحطاط المسلمين هو تمسكهم بالإسلام وآدابه.

ثم يشنّون هجومهم على اللغة العربية لغة القرآن فيقولون: إن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم، ولا بد من استخدام العامية واللهجات المحلية، واستخدام الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية وذلك كله للنيل من القرآن بالقضاء على اللغة العربية.

وقد دأب كثير من المستشرقين في تشويه الحقائق الإسلامية وتلقف الأخبار الضعيفة والموضوعة المبعثرة في كتب التراث الإسلامي والعمل على إظهارها ونشرها، ومع أن المحققين من علماء الإسلام قد تصدوا لتلك الروايات وصنفوا الكتب والمجاميع في الأحاديث الموضوعة فقد بقيت بعض الآثار من الإسرائيليات والأخبار الضعيفة متفرقة في طيات الكتب.

وكانت رسالة الإستشراق والتبشير تفرض على المستشرقين والمبشرين محاربة الإسلام والنيل من قداسته، والحط من مكانة رسول الإسلام العظيم ﷺ عن طريق تلك الروايات الضعيفة أو المكذوبة، فلجأوا إلى تلمس الشبه وإثارة الشكوك(٢).

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

(٢) مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش، د/زاهر عواض الألمعي، دار الكتاب الجديد ـ بيروت، ط ٣، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م، ص ٢٢.
ـ أنظر: عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٣٠.

ويقول أستاذنا الدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي» عن ذلك:

«إن التبشير والإستشراق كلاهما دعامة الإستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية، والغض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية، وكذا بين الشعوب الإسلامية، والتنديد بحال الشعوب الإسلامية الحاضرة، وازدراء بها في المجالات الدولية العالمية»[1].

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٥٩.

المطلب الثاني

أطوار العمل الإستشراقي

بعد أن فشل الغرب الصليبي في حروبه المتوالية على العالم الإسلامي ـ إبّان الحروب الصليبية ـ بدأ العمل الإستشراقي بتأسيس المعاهد للدراسات العربية، وترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، إلى أن وصل القرن السادس عشر الى النهاية. فبدأ اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي إتصالاً إقتصادياً في صوره العديدة، وأخذ الغرب في استعمار العالم الإسلامي ـ «في طور التطويق» ـ[1] والاستيلاء على ممتلكاته وموارد الثروة فيه. فعملوا من أجل تخلف المسلمين بشتى الوسائل بتشكيكهم في دينهم وعقيدتهم، لينفسوا عن أحقادهم بعد أن فشلوا في حروبهم الصليبية. وأول ما استهدفوا في هجومهم الشرس هو القرآن الكريم فقالوا عنه: «إنه ليس إلاّ مجموعات ترهات محمد ﷺ وشيء قليل مما استفاده من التوراة والإنجيل».

وقد قال «غلادستون»[2] رئيس وزراء بريطانيا في كلمته المشهورة التي طرحها على مجلس العموم البريطاني في عام ١٨٨٣ م حين حمل المصحف في يده وقال: «ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا أمل لنا في إخضاع المسلمين، بل ونحن على خطر في أوطاننا»

---

(١) وهو الطور الذي قام الغرب فيه بتطويق العالم الإسلامي بدءاً بسواحل افريقيا ثم سواحل الهند حتى وصلوا الى تطويق أندونيسيا بحجة الإستكشافات الجغرافية.

(٢) غلادستون: زعيم حزب الأحرار البريطاني، ومن مشاهير الخطباء في القرن التاسع عشر، وكان من ألد أعداء الخلافة الإسلامية.

(أنظر الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ١٩٦).

فإنه لم يقصد بهذا المصحف المكتوب في السطور، أو المحفوظ في الصدور، وإنما قصد القرآن المطبق في حياة المسلمين[١].

ويقول المستشرق الألماني رودي بارت (ت ١١٤٣ م): «إن الهدف من الكتابات الإستشراقية كان إقناع المسلمين - بلغتهم - ببطلان الإسلام، واجتذابهم الى الدين المسيحي[٢].

أما «وليم جيفورد بالكراف» فيقول: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب. يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلاّ محمد وكتابه»[٣]. وقد أيد حقيقة التبشير الحاقدة على الإسلام ونبيّ الإسلام... المستشرق الإنجليزي «مونتجمري وات[٤] بقوله: «إن المفكرين الأوربيين عمدوا إلى تشويه حقائق الإسلام، فعرضوا الإسلام وتاريخ المسلمين في صورة منفرة»[٥].

ولإشباع رغبتهم الجامحة في النيل من الإسلام أنشأوا كرسيين للغة العربية في جامعتي أكسفورد وكمبردج، حتى يدربوا الأشخاص على تحقيق أغراضهم من تشويه حقائق الإسلام وتنفير الناس من منابعه.

وفي القرن التاسع عشر جاء تطور كبير في الدراسات الاستشراقية وازداد عدد المعتنين بالعلوم الشرقية، وأنشئت كراس جديدة في كثير من الجامعات الأوربية. كما أن المستشرقين أخذوا في إصدار مجلات متخصصة في شؤون الشرق ودياناته وعلومه، وبالأخص فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين[٦].

---

(١) معوقات تطبيق الشريعة، مناع القطان، مرجع سابق ص ٧ .

(٢) إهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً، ودحض مزاعم المستشرقين وأتباعهم، د/محمد لقمان السلفي ط أولى ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م ص ٤٢٢ .

(٣) الغارة على العالم الإسلامي، ص ٩٣ . واضح في كلام هذا الحاقد الكافر مدى حقده على القرآن وعقيدة الإسلام، ومدى تعاميه عن تاريخ الحضارة الإسلامية وكم نفعت البشرية وأولها بلاده أوربا التي لم يخرجها من ظلام العصور الوسطى الى عصر النهضة كما يسمونه إلاّ الحضارة والعلوم الإسلامية.

(٤) مستشرق بريطاني، عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره من آثاره: عوامل انتشار الإسلام، ومحمد في مكة، والإسلام والجماعة الموحدة. (أنظر المستشرقون ٢/٥٥٤).

(٥) من محاضرة ألقاها في جامعة الكويت عام ١٩٧١ م.

(٦) اهتمام المحدثين بنقد الحديث، مرجع سابق، ص ٤٢٣ .

والذي زاد الطين بلة أن المستشرقين تسللوا إلى الدوائر العلمية والجامعات في الدول الإسلامية، بل إلى مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد.

ومن الذين شغلوا عضوية المجامع العلمية: هاملتون جب ومرجيليوث ونيكلسون من الانجليز، وماسنيون[١] وجي سو من فرنسا، وجويري من إيطاليا، وهوت مان الهولندي، وهارت مان الألماني[٢].

وقد بذل المستشرقون معظم جهودهم لتوهين القيم الإسلامية وإنكار المقومات التاريخية والثقافية والخلقية لدى المسلمين والاستخفاف بها وهم يصوغون ذلك كله في صورة الأبحاث العلمية التي يدعون فيها الحياد وتجنب العصبية، وأين النزاهة والحيدة العلمية في مثل مزاعمهم؟ ونذكر بعضاً منها ليتضح مدى بهتانهم وزيغهم عن الحق: فقد صار المستشرقون يمارسون الاستشراق بروح العداء الكامل للإسلام وتعاليمه، ونبيه ﷺ، وأخذوا يصورون الإسلام:

١ ـ بأنه دين جامد لا يصلح لعصر التطور وأنه دين مادي لا روحية فيه، لأنه يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة[٣].

---

(١) لويس ماسينون: مستشرق فرنسي من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. ولد في باريس عام ١٨٨٣ م. تعلم العربية والفارسية والتركية والألمانية والانكليزية وعنى بالآثار القديمة. اكتشف قصر الأخيضر بالعراق، ودرّس تاريخ الاصطلاحات الفلسفية بالعربية في الجامعة المصرية القديمة. اهتم بالدراسات العربية والإسلامية وبخاصة التصوف الإسلامي. وحصل على رسالة الدكتوراه عن آلام الحلاج من السوربون عام ١٩٢٢ م. تولى تحرير مجلة العالم الإسلامي ومجلة الدراسات الإسلامية التي حلت محلها فيما بعد، وتقويم العالم الإسلامي التابع لها. آثاره كثيرة بين مصنف ومحقق ومترجم، منها: جغرافية المغرب والحلاج والشيطان في نظرية الزيدية، والطواسين للحلاج. والأمثال البغدادية للطالقاني، وديوان الحلاج وغيرها.

ـ المستشرقون/نجيب العقيقي، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٦٥ م جـ ١ ص ٢٨٧ ـ ٢٩١ .

ـ الأعلام/خير الدين الزركلي، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين ط ٥، ١٩٨٠ جـ ٥ ص ٢٤٧ .

ـ الموسوعة العربية الميسرة/إشراف محمد شفيق غربال. بيروت: دار نهضة لبنان، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م جـ ٢ ص ١٦٢٤ .

(٢) الاستشراق والتبشير، ابراهيم خليل ص ٦١ ـ ٦٢ .

وانظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، القسم الخامس، الشيخ أحمد البشير، ص ٤٧٢ .

(٣) راجع:

ـ المستشرقون لعلي حسني الخربوطلي، ص ٨٣ .

ـ التبشير والاستعمار لعمر فروخ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

٢ ـ وأن الإسلام يميل الى العدوان والاغتيال، ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين. ولم يكن هم المستشرقين إلا الطعن في الإسلام وتشويه محاسنه، وتحريف حقائقه، ليظهروا الدين الإسلامي بأنه لا يستحق الانتشار. والنعي الدائب على غزوات الإسلام وفتوحاته، وانتشاره بالقوة بين الأمم، وادعاء تناقضه بين المناداة بالجهاد وتقريره للمبدأ العام ﴿**لا إكراه في الدين..**﴾[١] وفي سبيل متابعة المستشرقين لحل عقدة الجهاد وتهوينها في نفس المسلم أيضاً، قاموا بالدعوة الى الحياة «الروحية المثالية» وتمجيد النزعة الصوفية الاعتزالية[٢].

ويوضح لنا أستاذنا الشيخ المودودي ما يقوله المستشرقون حول كلمة الجهاد فيقول:

«وقد جرت عادة الافرنج أن يعبروا عن «كلمة الجهاد» بالحرب المقدسة Holy War إذا أرادوا ترجمتها بلغتهم، وقد فسروها تفسيراً منكراً، وتفننوا فيه، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني الملفقة، حتى أصبحت كلمة «الجهاد» عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق، والهمجية وسفك الدماء، وقد كان من سحر بيانهم، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة «الجهاد» تمثلت أمام أعينهم مواكب من الهمج المحتشدة مصلتة سيوفها، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب، تتطاير من عيونها شرر الفتك والنهب، عالية أصواتها بهتاف «الله أكبر»، ما أن رأت كافراً حتى أمسكت بخناقه وخيرته بين أن يقول كلمة: «لا إله إلا الله» أو أن يضرب عنقه»[٣].

وكان رد فعل هذه الدعوة الاستشراقية بين كثير من مثقفي المسلمين ـ خاصة الذين أكملوا دراستهم في الغرب ـ مزيجاً من الخجل أو التبرير المنهزم أو التسليم بهذه الأباطيل والانخداع بها، ومتابعة الركب الغربي في القول بها، والدعوة الى فهم جديد للإسلام، يجعله ديناً مقبولاً في نظر العالم المتحضر، مع أنهم لا يرضون عنا حتى نتبع ملتهم.

﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم**﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) أنظر: الغزو الفكري، القسم الثاني، عبد الستار السعيد.

(٣) أنظر: رسالة «الجهاد في سبيل الله»، أبو الأعلى المودودي ص ٣ ـ ٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

المطلب الثالث

الحقد على القرآن والسنة

أولاً: الحقد على القرآن الكريم:

إذا نظرنا ما كتبه المستشرقون عامة، نجد منهم إجماعاً على أن قرآن الرسول صنعة بشرية، لا وحياً منزلاً من عند الله[1]. والقول بأنه من عمل محمد ﷺ، تعصباً ضد القرآن والنبي الذي أنزل عليه[2].

فالعمدة في الإستشراق إذن: محاولة التدليل على بشرية القرآن. وتعرض فكرة (بشرية القرآن) في الفكر الإستشراقي بإحدى صورتين:

الصورة الأولى:

أنه «انطباع» في نفس محمد ﷺ، نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها.

والصورة الثانية:

أنه «تعبير» عن الحياة التي عاش فيها محمد ﷺ[3].

وكل من الصورتين ملازمة للأخرى، فإذا كان الانطباع بشيء ثم التعبير عنه، وإذا قام الإنسان بالتعبير فإنما يكون عن انطباع سبق التعبير.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي ص ١٩٨ .
(٢) اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً، محمد لقمان، ص ٤٢٨ .
(٣) الفكر الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص ٢٠١ .

ويسوق الدكتور محمد البهي مثالاً لكتابة مستشرق عن القرآن وصفه بأنه عرف عنه الاعتدال والاتزان وهو المستشرق الإنجليزي جب[1] Gib أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأميريكية.

فقال في كتابه[2]: «المذهب المحمدي Mohammedanism» متجنباً الألفاظ النابية وكذا الصراحة المكشوفة، فيما يريد أن يودعه في نفس القارىء أن (محمداً) ككل شخصية مبدعة، قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية عنه المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه.

«وقليل ما هو معروف ـ على سبيل التأكيد ـ عن حياته وظروفه المبكرة... ولكن الشيء الذي يصح أن يبحث ماضيه الاجتماعي.

... وليس هناك ما يصح أن يصوره بأكثر من أنه (بدوي) شارك في الفكرة والنظرة في الحياة التي كانت للبدو والرحل من الناس».

ثم يتابع (جب) في وصف مكة بأنها كانت مدينة تجارية ذات ثروة اقتصادية أما سكانها: فقد اكتسبوا معارف واسعة بالإنسان والمدن، ومن هذا تكونت في زعماء مكة ملكات عقلية، وضروب من الفطنة وضبط النفس، لم تكن موجودة عند كثير من العرب، ثم يقول[3]:

---

(١) السير هاملتون جيب: ولد بالاسكندرية بمصر عام ١٨٨٥ م، ومن أعلام المستشرقين عضو المجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي في القاهرة، يكتب العربية كأربابها، التحق بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ونال درجة الأستاذية ببحث عن الفتوحات العربية في آسيا الوسطى. تولى منصب أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد ثم انتقل الى جامعة هارفرد في الولايات المتحدة، وله عناية خاصة بدراسة الإسلام والأدب العربي المعاصر. من كتبه: إلى أين يسير الإسلام، واتجاهات حديثة في الإسلام، والمجتمع الإسلامي والغرب مع هارولد بون. من كبار محرري وناشري دائرة المعارف الإسلامية. كتاباته فيها عمق وخطورة وهذا هو سر خطورته.
ـ المستشرقون ٢/٥٥١، الموسوعة الميسرة ١/٢٧٥
ـ أخطار الغزو الفكري على الإسلام ص ٨١.

(٢) كتاب Mohammedanism ص ٢٧ (عن كتاب الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٠٢).

(٣) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، عن كتاب «المذهب المحمدي لجب».

«وانطباع هذا الماضي الممتاز «لمكة» يمكن أن نقف على أثره واضحاً في كل أدوار محمد، وبتعبير إنشائي: إن محمداً نجح لأنه كان واحداً من المكيين.

ولكن بجانب هذا الازدهار في (مكة)، كانت هناك ناحية أخرى مظلمة، هي ناحية الإجرام الإنساني الذي تمثل في الارقاء والخدم، وفي الحواجز الاجتماعية... وواضح من دعوة محمد ﷺ الصارخة إلى مكافحة الظلم الاجتماعي، أن هذه الناحية كانت سبباً من الأسباب العميقة لثورته الداخلية (النفسية)»!!

ثم يقول (جب):

«ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر في صورة (إصلاح إجتماعي، بل بدلاً من ذلك دفعته الى (اتجاه ديني) أعلنه في اعتقاد ثابت لا يتأرجح: بأنه رسول من الله، لينذر أتباعه بانذار الرسل الساميين القديم، توبوا فجزاء الله حق!! وكل ما جد بعد ذلك كان نتيجة منتظرة للتصادم بين هذا الاعتقاد (بأنه رسول) وبين الكفر به ومعارضته من فريق بعد فريق»[1].

«ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن بسبب محافظتهم وتمسكهم بالقديم، أو بسبب عدم رغبتهم في الإيمان، بل ترجع أكثر ما ترجع إلى أسباب سياسية واقتصادية[2]...».

ويقول (جب) أيضاً[3]:

«ومعروف من القرآن نفسه، أن فكرة (الوحدانية) كانت معروفة في غربي الجزيرة العربية، لقد كان وجود (الإله الأكبر) وهو الله، مبدأ مقبولاً كأصل عام لدى محمد ولدى خصومه على السواء!! والقرآن لم يناقش هذه النقطة أبداً، وحجته التي كان يقيمها فقط على أن: «لا إله إلا الله»[4] .وليست هذه الفكرة وحدها، بل أيضاً ما يختص بالجنة والنار من تفصيلات تساوي تماماً ما في المسيحية السريانية[5]».

---

(١) من كتاب «المذهب المحمدي»، ص ٢٨، عن كتاب الفكر الإسلامي الحديث، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٨.
(٥) المصدر السابق ذات الصفحة.

ونستطيع أن نجمل ما قاله (جب) في هذا الموضوع:

- أن مكة كانت بلداً ذا حضارة وزعامة سياسية، ودينية، ولم تكن أرضاً جرداء، ولم يكن سكانها أجلافاً غلاظاً، بل كانت لديهم مدنية وثقافة وفطنة، وملكة في السياسة ومعارف واسعة بالناس والمدن على السواء.
- وأن حياة (محمد) كانت حياة (مكية) خالصة، بما فيها نشأته ودعوته وصراعه، فهي حياة محدودة بظروف الزمان والمكان. أي أنها ليست عامة للناس، وكذا أشار (جب) بأن محمداً تأثر بما كان في مكة من اتجاهات سياسية واقتصادية ودينية.
- قرر (جب) بأن (القرآن) لم يكن جديداً كله على العرب (المكيين) وأن ما فيه من المسيحية لا يتعدى المسيحية الشرقية السريانية[1].

ولم تكن معارضة المكيين للقرآن بسبب تمسكهم بالقديم، أو بسبب رفضهم للإيمان كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة، وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾[2].

وإنما جاءت معارضة (مكة) في نظر (جب) بسبب المنافسة في الزعامة والسياسة، والخوف من انهيار حياتهم الاقتصادية.

ومن هذا نرى كيف يصوّر (جب) مجتمع العرب ومجتمع مكة قبل البعثة يزخر بالحضارة والتقدم والعلم، ويتابعه مستشرقون آخرون في ذلك وفي تمجيد العقلية العربية قبل الإسلام، وذلك كله ليصلوا الى نتيجة حتمية هي بشرية القرآن، وأن محمداً ﷺ ما هو إلا طامع في الرياسة وفي الحكومة الإلهية، وأن دور النبي ﷺ نهض بهم فنهضوا «مع أن الحقيقة الواضحة أن العرب في جاهليتهم كانوا قبائل متفرقة متصارعة، وأن الإسلام هو الذي وحدهم في أمة واحدة، ودفعهم الى آفاق النهوض والتوسع»[3].

---

(١) المسيحية الشرقية السريانية: هي مسيحية الزهد، التي تأثرت بالاتجاه الإشراقي الزهدي.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٢ ـ ٢٤.
(٣) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي د/علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، ص ٢٥.

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم﴾[1]، ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[2].

ثانياً: التشويه لصورة السنة والسيرة النبوية:

تنحصر اتجاهات المستشرقين في الهجوم على السنة النبوية في المسالك التالية:

أ - طعنهم في حجية السنة مع ادعائهم تأخر كتابة السنة (الأحاديث) إلى قرن أو أكثر بعد وفاة الرسول ﷺ.

ب - ومنهم من قال إن المحدثين لم يعنوا إلا بالأسانيد فقط مع إهمال النظر الى فن الحديث.

ثم جاء منهم من يشكك في الأسانيد وقيمتها العلمية[3].

جـ - حتى معنى كلمة السنة حمّلوها غير معناها وفسّروها بغير مفهومها ومبناها في كتابة (أصول المذهب المحمدي) (The Origins of Mohammedan) أن النظرية الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرف السنة بأفعال النبي ﷺ المثالية. وفي هذا المفهوم يستعمل الشافعي كلمة السنة. وعنده أن «السنة» أو «سنة الرسول ﷺ» كلمتان مترادفتان. ولكن معنى السنة - على وجه الدقة - إنما هو النظائر السابقة Precedent ومنهج للحياة.

أما ما قاله «جولد زيهر» أنها مصطلح وثني في أصله، وإنما تبناه الإسلام واقتبسه.

كما رأى «شاخت» أن مفهوم السنة في المجتمع الإسلامي في العصر الأول كان (The customary or generally agreed practice) أي: «الأمر العرفي» أو «الأمر المجتمع عليه»[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) اهتمام المحدثين بنقد الحديث، محمد السلفي، ص ٤٢٩.

(٤) دراسات الحديث النبوي وتاريخ تدوينه د/محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، ص ٥ - ٦.

ويعتبر «جولد زيهر» رأس الحية بالنسبة لإثارة الشبه حول السنة بواسطة كتابه (دراسات إسلامية) الذي ألفه باللغة الألمانية.

ثم جاء بعده «شاخت» الذي استفاد من «جولد زيهر» وبسط قوله، وشرح أفكاره في كتاباته.

وكان منهجهما في البحث بأن تركا المصادر الأصلية للأحاديث النبوية ونحوا إلى كتاب الأغاني للأصفهاني، وكتاب الحيوان للدميري، وكتب القصص ليجعلاها مصادر لدراسة الحديث النبوي، وهل يرجى من اليهود إلا مثل هذا الافتراء والبهتان.

ثم تبعهما مستشرقون آخرون، على نفس طريق الافتراء والبهتان والتضليل.

أما تحريف السيرة النبوية:

فأساسها محاولة تشويه شخص الرسول ﷺ وهي محاولات قديمة حديثة مستمرة، يمارسها أعداء الإسلام برغبة وشوق، ويرون في التهجم على المعصوم ﷺ والنيل منه جزءاً من خطة كبيرة تستهدف تشويه الإسلام وعزله عن حياة المسلمين بخاصة والناس بعامة(١).

ولقد كانت شخصية الرسول ﷺ محوراً لأبشع المسبات والشتائم عند المستشرقين، حين تعرضوا لتعدد الزوجات كي ينفذوا منه إلى الطعن في شخصية الرسول ﷺ والتشكيك في رسالته الخالدة وتصويره بصورة الميل إلى إشباع الرغبة الجنسية، مع أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد الأربعين لغايات تتعلق بالدعوة الإسلامية(٢).

من غلاة المستشرقين:

وهؤلاء الأعداء عدد عديد نعرفهم من لحن القول ونستدل عليهم من بحوثهم ودراساتهم التي يطنطنون بها حيناً، ويطنطن لهم بها ـ من أسف ـ بعض المسلمين في أحيان كثيرة.

---

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د/علي عبد الحليم محمود، ص ٥٥.

(٢) اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً، مرجع سابق، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ نقلاً عن: «المستشرقون والسيرة النبوية، أنور الجندي ص ٩٧ وما بعدها من مجلة البعث الإسلامي، العدد الخاص عن الإستشراق» وانظر: جذور البلاء، عبد الله التل، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نسرد أسماء بعض من هؤلاء الأعداء الحاقدين وبعضاً من كتبهم وأبحاثهم التي هاجموا فيها الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، وذلك حتى لا ينخدع شباب الإسلام بهؤلاء الأعداء والهالة الضخمة حول أسمائهم وكتبهم، فلا تكون لهم تلك المكانة التي يتمتعون بها الآن وإني مع الأستاذ الدكتور علي عبد الحليم[1] في إثبات تلك المجموعة كاملة.

فمن هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام وعلى النبي ﷺ:

١ ـ **وليم موير** W. Muir في كتابه حياة محمد.

٢ ـ **هنري لامس اليسوعي** H. Lammes في كتابه: الإسلام. وقد بلغ من حقد هذا الرجل على الإسلام أن تخبط فيما يكتب الى الحد الذي أزعج بعض المستشرقين أنفسهم.

٣ ـ **ألفريد جيوم** A. Geom في كتابه: الإسلام.

٤ ـ **صموئيل زويمر** S.M. Zwimer في كتابه: الإسلام (تحد لعقيدة).

٥ ـ **ك. جراجي:** K. Gragy في كتابه: دعوة المئذنة.

٦ ـ **أ. ج. أربري** A. J. Arbrry في كتابه: الإسلام اليوم.

٧ ـ **جولد تسهير**[2] Goldziher في كتابه: تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي.

٨ ـ **هـ. أ. جب** H.A.R. Gibb في كتبه:

أ ـ طريق الإسلام.

ب ـ الإتجاهات الحديثة في الإسلام.

جـ ـ المذهب المحمدي.

---

(١) في كتابه: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٥٦ ـ ٥٨ .

(٢) جولد تسيهر، اجنتس: (١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م) مستشرق مجري درس في بوادبست وعمل أستاذاً بجامعتها، تنقل دارساً وباحثاً بين بلاد كثيرة صَحِبَ في سورية الشيخ طاهر الجزائري، أقام بالقاهرة ودرس على شيوخ الأزهر، له بحوث ومؤلفات كثيرة منها كتابه عن «الظاهرية ومذهبهم وتاريخهم» وكتابه «دراسات إسلامية» وكتابه «محاضرات في الإسلام» ويعرف باسم «العقيدة والشريعة في الإسلام» وكتابه «مذاهب المسلمين في تفسير القرآن»، وقد ترجما الى العربية، وله دراسات في الفرق الإسلامية والحركات الفكرية في الإسلام وفي التاريخ والأدب يعد من أوسع المستشرقين علماً وأعرفهم بالإسلام، وأفهمهم لعقائده الدينية واتجاهاته الفكرية. (الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٦٨).

د ـ الإسلام والمجتمع الغربي.

٩ ـ **أ. ج. فينسنك** A.J. Wensink في كتابه: المستشرقون والإسلام.

١٠ ـ **د. س. مرجليوث** D.S. Margluith في كتبه:

١ ـ محمد ومطلع الإسلام.

٢ ـ التطورات المبكرة في الإسلام.

٣ ـ الجامعة الإسلامية.

٤ ـ قنطرة الإسلام.

١١ ـ **ج. فون. جرونباوم** Gvon, Grunbaum في كتبه:

أ ـ إسلام العصور الوسطى.

ب ـ الإسلام.

جـ ـ الأعياد المحمدية.

د ـ الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية.

هـ ـ دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية.

١٢ ـ **د. ب. ماكدونالد**: D.B. Macdonald في كتابه: تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام.

١٣ ـ **ر. أ. نيكلسون**(١): R.A. Nicholson في كتابه: متصوفو الإسلام.

١٤ ـ **ر. بل**: R. Bell في كتابيه:

أ ـ أصول الإسلام في بيئته المسيحية.

ب ـ مقدمة القرآن.

١٥ ـ **آرثر جيفري**: Arthur Jeffery في كتابه: مصادر تاريخ القرآن.

---

(١) رينولد ألين نيكلسون: مستشرق انجليزي، ولد عام ١٨٦٨، وتخرج من كلية ترينتي ـ كمبردج، وبرز في الأدب القديم. درس العربية والفارسية ودرّسها فعين أستاذاً للفارسية في الكلية الجامعية بلندن وكمبردج. وشغل كرسي السير أدامز للعربية ١٩٢٦ ـ ١٩٣٣ م، كوفيء على عمله ونشاطه بكثير من الألقاب والأوسمة. وكان عضواً في مجامع كثيرة. اشترك في نشر تذكرة الأولياء للعطار، واللمع للسراج، وترجمان الأشواق مقالات في التصوف لابن عربي. وله كتب بالإنجليزية منها تاريخ الآداب العربية، ومتصوفو الإسلام، دراسات في التصوف الإسلامي ترجمه الى العربية أبو العلا عفيفي، من المنكرين على الإسلام أنه دين روحي ويصفه بالمادية وعدم السمو. (أنظر المستشرقون ٥٢٥/٢، الأعلام ٣٩/٣، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ص ٨٥).

١٦ ـ **يوسف شاخت:** J. Shacht في كتابه: أصول الفقه الإسلامي.

١٧ ـ **آرنولد توينبي:** A. Toynbee في كتابه: دراسة في التاريخ، القسم الخاص منه بالإسلام وبمحمد ﷺ.

١٨ ـ **فيليب حتي:** PH. Hitti وهو مسيحي لبناني. في كتابه: تاريخ العرب، وفيه تجن عنيف على شخص الرسول ﷺ.

١٩ ـ **مجيد خوري:** مسيحي عراقي: في كتابه: الحرب والسلام في الإسلام.

٢٠ ـ **أبراهام كاش:** في كتابه: اليهودية في الإسلام.

٢١ ـ **إدوارد فرمان:** E. Ferman في كتابه: تاريخ المسلمين وفتوحاتهم.

٢٢ ـ **ج. س. آرثر:** G.S. Arthur في كتابه: العناصر الصوفية في محمد.

٢٣ ـ **سنوك هورجرونجه:** Snouk Horgronje في كتابه: الإسلام.

٢٤ ـ **ر. بلاشير:** R. Blancher في كتابه: مقدمة القرآن.

ونكتفي بهذا القدر من رصد هذا الرهط غير المبارك الذين حاولوا تشويه الإسلام والنيل من رسولنا ﷺ، وذلك كله افتراء على الحق، وإظهار لبهتانهم وحقدهم على الإسلام وأهله، وينضاف الى هؤلاء ـ مع كل أسف ـ نفر غير قليل من المسلمين الذين ﴿**نسوا الله فأنساهم أنفسهم**[١]﴾ والذين سخروا أقلامهم وكتبهم لترديد ما قال هؤلاء الكفار، جرياً وراء سراب خادع، من شهرة أو مجد زائف ينالونه، من الغرب وأهله.

وينضاف أيضاً الى هؤلاء وأولئك ـ شرذمة أخرى من الملاحدة والمارقين، والماديين الصهيونيين، وبهذه القوى مجتمعة، نرى كم يعملون على تشويه صورة الإسلام وصورة النبي ﷺ، ولكن أنّى لهم ذلك والله غالب على أمره.

ويقول الدكتور علي عبد الحليم في كتابه[٢]: «فما أثقل على النفس من نقل تلك التهم الباطلة التي وجهت الى محمد ﷺ ولكن ضرورة البحث تتطلب بعض الإشارات الدالة. وذلك حتماً حتى يتبين للباحثين من أبناء المسلمين ماذا يراد بهم وبدينهم الذي هو عصمة أمرهم، وحتى لا تشوش عقولهم بما كتب هؤلاء الحاقدون».

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٢) الغزو الفكري، ص ٥٩.

وإذا تتبعنا أقوال أعداء الإسلام من كفار وأتباعهم، لوجدنا التركيز الكبير على تكذيبهم محمداً في نزول الوحي عليه حتى يتم لهم ترتيباً على ذلك بأن محمداً ﷺ قد ألّف القرآن من عند نفسه، ومن تخبط هؤلاء في الحديث عن الوحي، قول **نولدكه**: «إن سبب الوحي النازل على محمد ﷺ والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع[1]».

وهذا هو **كارل بركلمان**[2] ـ المستشرق المحظوظ بين الباحثين المسلمين[3] يقول عن محمد ﷺ:

«واستخدم محمد في دعوته أساليب الكاهن. كما عزا ـ على غراره ـ أحوال غيبوبته وما يصدر في هذه الأحوال من تصريحاته الى رفيق.. ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل واعتقد أنه رسول الله إليه»[4].

ثم يقول في موضع آخر من كتابه تاريخ الأدب العربي:

«كان النبي ـ ﷺ ـ في أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخلده، وهو صادق الإستغراق والغيبوبة في جمل مؤثرة، يغلب عليها التقطيع والإيجاز، وتأخذ طابع سجع الكهان، واحتفظ النبي ـ ﷺ ـ أيضاً بهذا القالب الكلامي بعد ذلك حينما أخذ ينتقل بأطراد من طبيعة الغائب المستغرق الى طبيعة الداعية الواعظ. فكان يتلو في جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعليماته التي حفلت كثيراً بالقصص من العهد القديم ومن الهجادة»[5].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي لوثروب استوارت ترجمة عجاج نويهض، تقديم وتعليق الأمير شكيب أرسلان، ١٤/١ .

(٢) بروكلمان، كارل: (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني. كان أستاذاً للغة العربية في عدد من جامعات ألمانيا. حقق عدداً من النصوص العربية، منها: «ديوان لبيد»، ورسالة في لحن العامة «للكسائي، الخ. وله معجم سرياني لاتيني» وكتاب في قواعد اللغة السريانية. وأهم أعماله: كتابه الكبير في «تاريخ الأدب العرب» (جزءان، وملاحقه في ثلاثة أجزاء، ظهر الجزء الأول من الأصل ١٨٩٨، والجزء الأخير من الملاحق ١٩٣٩)، ويعد أوفى مرجع في بابه. ثم كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» (١٩٣٩ م). (الموسوعة العربية ٣٦١).

(٣) فلا تكاد تسمع باحثاً في العلوم الشرعية أو اللغوية أو الأدبية إلا ويقول قد وجدت في بروكلمان.. كذا وكذا.. أو يسأل عن شيء فيجاب اكشف عنه في بروكلمان وهكذا.. بين رجال وشباب الإسلام.

(٤) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، ١٣٤/١ .

(٥) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار ١٣٧/١ .

وأما **مارجليوث**[1]: «وهو أخبث المستشرقين وأشدهم بغضاً لمحمد وهو الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بأن شعر الجاهلية موضوع بعد الإسلام ـ فإنه يقول:

«أن محمداً ﷺ كان يمارس الشعوذة، وكانت له مجالس سرية أشبه بالمحافل الماسونية، وعلامات يتعارف بها مع أصحابه، وكانوا يرخون عزبة العمامة فوق مناكبهم»[2].

ومما هاجم به: **هـ. ج. ويلز**: الرسول الكريم ﷺ قوله: «بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد، يقول عنها السير ماكس سايكس: (إنها تثبت أنه كان عربياً صميماً) فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله، قد داخله التردد، فأتى ساحة الكعبة، وأعلن أن أرباب وربات مكة قد تكون قبل كل شيء حقيقة، وقد تكون فصيلة من القديسين ممن لهم قوة الشفاعة، فلقي تراجعه حمية وحماسة ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم... فقال: إن الشيطان تلبس لسانه، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين، وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة على صورة أشد وأعنف ودون أي أمل آخر في الصلح»[3].

وهذا **لامنس اليسوعي**[4] ـ وهو من أكبر الحاقدين على الإسلام ـ يقول عن الرسول ﷺ:

(١) دافيد صمويل مرجليوث: من كبار المستشرقين، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع اللغوي البريطاني، وجمعية المستشرقين الألمانية. ولد بلندن عام ١٨٥٨ م وتخرج من جامعة اكسفورد، وعين أستاذاً للعربية فيها فكان من أشهر أساتذتها، رأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ونشر فيها كثيراً من بحوثه منها فهارس لديوان أبي تمام. ألف بالعربية كتاب «آثار عربية شعرية نشر كثيراً من مؤلفات العرب مثل: إرشاد الأريب، والأنساب للسمعاني وديوان ابن التعاويذي، وحماسة البحتري وغيرها. له بالإنجليزية كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن مخلصاً للعلم.
ـ المستشرقون ٥١٨/٢، الأعلام ٣٢٩/٣ .

(٢) حاضر العالم الإسلامي، مرجع سابق ٣٨/١ .

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، هـ. ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ـ ١٩٤٧ م، ٦٢٩/٣ ـ ٦٣٠ .

(٤) لامنس، هنري: (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) مستشرق بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية، لبناني الإقامة. درس في الجامعة اليسوعية ببيروت. له دراسات كثيرة في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، وخاصة في صدر الإسلام، لكنها لا تخلو من تهجم. من بين مؤلفاته: «ملاحظات عن الكلمات الفرنسية المستمدة من العربية» و «الأخطل مغني الأمويين» و «دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوي الأول» و «خلافة يزيد الأول» و «مدينة الطائف العربية عشية الهجرة» و «الإسلام: عقائد ونظم» (الموسوعة العربية الميسرة، ١٥٤٣).

«إن محمداً كان كثير الطعام والشره مسترسلاً في اللذات البدنية» وزعم أن النبي - ﷺ - مات بالبطنة.

وليس أبلغ في فضح لامنس وإظهار نواياه الخبيثة، وأحقاده الدفينة من قول المستشرق **«رينيه»**: «إن لامنس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاح متأوّهاً من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله في الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر، واستتبابه الى يوم الناس هذا، ينمو وينتشر في إفريقية وآسية، بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين فلذلك زعم «لامنس» أن يشنّها على الإسلام غارة شعواء، ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام، إلا أن حالة عقلية كهذه لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد ممحّض من الهوى، ومنزه عن البغض»[1].

هكذا نرى نماذج من كتابة هؤلاء الحاقدين في محاولتهم تشويه شخصية المعصوم محمد رسول الله - ﷺ - باتهامه بهذه التهم الحاقدة، الكاذبة، الباطلة والتي ليس فيها شيء يستطيع أن يقف على قدمين فضلاً عن أن يواجه بنقد ورد[2] وإقناع.

(١) معالم تاريخ الإنسانية، هـ. ج. ويلز، ١/٣٦.
(٢) ليس مجال هذا البحث الرد على هؤلاء الطغمة فمجالنا عرض هذه المظاهر... والكشف عن المخططات الدنيئة للنيل من الإسلام وعقيدته، وتشويه صورته المضيئة المشرقة.

المطلب الرابع

محاولة تشويه التاريخ الإسلامي

لا يُعرف حدّ لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي وتشويه لمبادىء الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن وأهله. وهم كذلك يجتهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي أداه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية[1].

وهم كذلك يقفون على أتم الاستعداد للقيام بأعمال التشويه والتزييف لكثير من حقائق التاريخ الإسلامي فمنذ عهد الرسول ﷺ والى الآن مروراً بمختلف العصور التاريخية للمسلمين. وسأكتفي بتيسير الله بإيراد نموذجين من أعمال المبشرين والمستشرقين الحاقدة على الإسلام وتاريخه، الأول من عصر النبوة والخلافة الراشدة والثاني من تاريخنا الإسلامي المعاصر.

نبدأ بسطور قليلة من كتاب معالم تاريخ الإنسانية لـ «هـ. ج. ويلز» والذي يعلق عليه الدكتور علي عبد الحليم محمود بقوله:

«ذلك الكتاب الذي لقى من القبول في العالمين العربي والإسلامي ما لم يلقه كتاب آخر، كما كان حظ مؤلفه أن أعجب به عدد غير قليل من الكتاب والأدباء»[2]..

ويقول ويلز: «ولا يقوم أقل شك في أنه إن كان محمد هو ذهن الإسلام البدائي

---

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة بمصر، طبعة ٣ سنة ١٣٨٤ هـ، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) الغزو الفكري، مرجع سابق، ص ٦٣.

وخياله، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته، ففي حياتهما معاً كان محمد هو الذي يقول الشيء، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان وأمتنه، فإذا تردد محمد أيده أبو بكر»[1].

وبذلك يحاول هـ. ج. ويلز تشويه تاريخ الرسول ﷺ وتاريخ الصديق أبي بكر رضي الله عنه.

ثم أخذ ويلز بعد ذلك بتناول تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأنه حقد على القائد خالد بن الوليد[2] ثم أردف بالهجوم بعد ذلك على خالد أيضاً بأنه ارتكب الفسق وكل هذا في صفحة واحدة من كتابه السابق. ثم يتابع هجومه على الخلفاء الراشدين مجتمعين، وكل كتابته واضحة التضليل كغيره.

ولقد كان للإستعمار الحديث براعة منكرة في تزوير التاريخ وإخفاء بعض معالمه، وإبراز البعض الآخر، بعد تشويه المفاهيم، وتحريف الكلم عن مواضعه.

وقد تضافر المستعمرون على تمزيق التاريخ الإسلامي وتحريفه خلال القرنين الأخيرين ليكون في سياقه الجديد المختلف عوناً على الغزو الثقافي الواسع المنظم[3]. وعسى أن ينتزع من المسلمين ثقتهم في ماضيهم الفاخر ومن أنفسهم كمسلمين، ويسلخهم من تراثهم

(١) معالم تاريخ الإنسانية، هـ. ج. ويلز، مرجع سابق، ٦٤٣/٣ .

(٢) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي: (ت../٢١ هـ)، من أشهر قادة العرب، وأحسنهم بلاء في حروب الإسلام الأولى. حارب المسلمين في معركة أحد. وفد مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بعد الحديبية على الرسول ﷺ في المدينة وأسلموا، ومن ثم أخذ الرسول يوليه أعنة الخيل. تولى قيادة المسلمين في معركة مؤتة ٩ هـ بعد استشهاد زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، فتمكن من إنقاذ الجيش والعودة به الى المدينة، فلقبه الرسول ﷺ سيف الله. قام بهدم صنم العزي ببطن نخلة، بعث به الرسول ﷺ إلى أكيدر بن عبد الملك في دومة الجندل فأسره خالد، وأتى به الرسول فأسلم. كان خالد أثيراً لدى أبي بكر الذي وجهه لقتال طليحة بن حويلد، فهزمه في بزاخة، ثم قاتل بني تميم وأسر مالك بن نويرة وقتله. حارب مسيلمة الكذاب فهزم هذا وقتل في عقرباء ١٣ هـ. وجهه أبو بكر للقتال في العراق فصالح أهل الحيرة وفتح السواد. سار بناء عى أمر الخليفة الى الشام فاخترق بادية السماوة في أقل من ثلاثة أسابيع فاتصل بالجيوش العربية التي كانت قد دخلت الشام وأخذت تحارب الروم واحتل بصرى وفحل ١٥ هـ، كما استولى على دمشق بعد حصار دام ستة أشهر. انتصر على البيزنطيين في معركة اليرموك ١٦ هـ وكان أبو بكر قد توفي في هذه الأثناء وخلفه عمر بن الخطاب الذي ولي أبا عبيدة بن الجراح القيادة مكان خالد لأسباب تتصل بإدارة البلاد المفتوحة. توفي خالد في حمص.
(أنظر: الإصابة ٤١٣/١ ـ والاستيعاب: ٩٢/٥ ـ ١١٤، والموسوعة العربية، ٧٤٩).

(٣) حصاد الغرور، محمد الغزالي، ص ١٨٦ .

الفكري، وتاريخهم الإسلامي فيصبحون بلا ماض، فتضعف معنوياتهم، وبهذا تسهل السيطرة عليهم فكرياً وثقافياً[1].

وفعلاً تم لهم ما يرمون إليه في أجيالنا المعاصرة بوجود جماعات غفيرة تعتقد أن الدين لم يكن وراء حركات المقاومة للحملات الأجنبية على البلاد. أي أن الإسلام والمسلمين لم يكونوا وراء مقاومة الحملة الفرنسية ثم مقاومة الاحتلال الإنجليزي الطويل. أي أن المقاومة كانت نابعة من بواعث أخرى: مادي، أو محلية، أو عنصرية، أو من أي شيء آخر سوى الدين.

ويتبع ذلك الفهم عزل الدين مستقبلاً عن حركات التحرر، وميادين المقاومة.

ويقول الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي في ذلك: «ونرى لزاماً علينا أن نكشف الحقائق التي يراد طمسها، وأن نقطع هذه السلسلة من التراهات والأباطيل التي راجت بين القاصرين والأغرار»[2].

عندما احتل الفرنسيون مصر كان الإسلام وحده، ولا شيء غيره، هو الذي أشعل نار المقاومة المسلحة والمقاومة السلبية. لقد استماتت المسلمون في مناضلة الغزاة وتعويق تقدمهم، وأرخصوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ولم يجبنوا أمام تفوق الفرنسيين العسكري، ورجحان كفتهم في كل شيء.. ولا أمام الخيانات المفاجئة من بعض المواطنين. وقاد الأزهر حرب الدفاع المقدس، فحكم الفرنسيون على عشرات من علمائه الشباب بالقتل، ونفذ فيهم حكم الإعدام فرادي وجماعات، كما نفذ حكم الإعدام بطريقة بشعة قذرة[3] في «سليمان الحلبي» قاتل الجنرال «كليبر» ودخل الغزاة بخيلهم ورجلهم صحن الأزهر الشريف.

ويقدّر عدد المسلمين القتلى في مقاومة الغزو الفرنسي بنحو نصف مليون قتيل في

---

(١) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، مرجع سابق ص ٣١٠.
(٢) حصاد الغرور، الشيخ محمد الغزالي، ص ١٨٧ وما بعدها.
(٣) أن سليمان الحلبي... هو يكون مدحوضاً بتحريق يده اليمنى وخوزقته ثم تحريقه حتى يموت ثم تبقى جثته لمأكولات الطيور.
(تاريخ الجبرتي، ٢/٣٨٥ ـ ٣٨٧).

مدن الوجهين القبلي والبحري[1] والقاهرة. ولكن الغريب المخزي أنّ صور هذه المقاومة الباسلة طويت طياً، بل محيت محواً من صحائف التاريخ المدروس بين جماهير الطلاب والمثقفين... وسطر فصول المأساة نفس بارد ميت!! وقام جهد مزوري التاريخ على أمرين:

١ ـ سحب ذيول النسيان على دور الإسلام في المعركة، وإغفال تضحيات المسلمين الجسيمة وخسائرهم الفادحة في الأرواح والأموال.

٢ ـ وهو ما يطيش له اللب.. إبراز الحملة الفرنسية على أنها خير وبركة لمصر والمصريين!!

فأي زور هذا الزور؟؟ وأي هوان هذا الهوان؟![2] ومن هذا المنطلق في تشويه مفاهيم التاريخ الإسلامي الحديث لنرى ماذا يقول المستشرق: كارل بروكلمان ـ وهو من هو في نظر الباحثين والدارسين المسلمين وغير مسلمين ـ بعد نجاح المؤامرة التي حيكت لتقضي على دولة الخلافة قضاءً كاملاً على يد مصطفى كمال[3] وإعلان الجمهورية سنة ١٩٢٣ م... وقد غمرت الفرحة الأوربيين عموماً، وأعداء الإسلام على وجه الخصوص. وفي ذلك يقول بروكلمان:

«ووطن مصطفى كمال نفسه على أن يسير بالدولة التي أنشأها في طريق الحضارة الأوربية... وهي طريق تقتضي السائر فيها ألاّ يقف ليلقى أيما نظرة الى الماضي الإسلامي لأن مثل هذا النظر خليق أن يعيق صاحبه عن بلوغ الغاية...»[4].

---

(١) غلبت تسمية القسم الجنوبي من مصر بالوجه القبلي حيث أن اتجاه القبلة في مصر يتجه جنوباً في الأغلب (يميل للشرق قليلاً) والقسم الشمالي بالوجه البحري لأنه باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

(٢) رغم كل البيانات والمنشورات والتحليلات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية (الى يومنا هذا) فإن نابليون كان صريحاً وواضحاً في تحديد مهمته في مصر ــ رغم ما أحاطوه من أراجيف وأكاذيب ــ عندما قال: «سأستعمر مصر»!! وقد نفذ مهمته من أول وقت بعد استيلائه على الاسكندرية. فكان «محمد كريم» أول مسؤول مصري يعدمه الفرنسيون بعد انتصارهم. أعدموه بعد التعذيب والحبس والتشهير. فكان دحضاً لفرية من قال إن نابليون هو أول من فكر في إمكانية ممارسة المصريين لشئون الحكم!! (ودخلت الخيل الأزهر، مرجع سابق ص ١٢٥، ١٣٣).

(٣) مصطفى كمال أتاتورك ــ مؤسس تركيا العلمانية، ومعنى أتاتورك أبو الأتراك. ولد بسالونيك سنة (١٨٨٠ م) ألغى الخلافة الإسلامية سنة (١٩٢٤ م)، فصل بين الدين والدولة وألغى استعمال الطربوش، والعمامة، والحجاب، استبدل بالحروف العربية، الحروف اللاتينية، وجعل القانون يقوم على أصول التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة الإسلامية، فكان نكبة على الإسلام والمسلمين، وكان مدمناً على شرب الخمر، مات سنة (١٩٣٨ م). أنظر: محمد شفيق غربال وآخرين، الموسوعة العربية الميسرة، جـ ١/ ص ٤٤.

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة منير بعلبكي وآخر ص ٦٩٥.

ونجد في مصر أيضاً عندما انهزمت الثورة العرابية والذي يقول عنها الشيخ الغزالي:

أما الثورة العرابية فقامت بدوافع إسلامية ضد طغيان حاكم مستبد، وعصبيات جاهلية.. ولذلك قادها علماء الأزهر. ودعوا لها، ودافعوا عنها وحوكموا من أجلها. بل إنّ أحمد عرابي[1] كان أزهرياً يستمد ثقافته العامة وحكمه على الأمور من تعليمه الديني.

وقد دعم الثورة العرابية الفريقان المتباينان من علماء الأزهر من رجال الفكر الحر[2]، ورجال التربية والتصوف[3].. ومعنى هذا أن رجالات الإسلام على اختلاف مشاربهم كانوا ظهيراً للثورة العسكرية، وأن الإسلام كان موقد هذه المقاومة العامة وباسط أدلتها، ومضرم مشاعرها.

وكان قدر الله تعالى أن تنهزم هذه الثورة، وأن يحتل الإنجليز مصر. وبدأت مأساة تزوير التاريخ...».

ولنستمع لما يقول مستشرق في موجة حقد على الإسلام تنسيه وتعميه فيقول عن احتلال الإنجليز لمصر:

«لم تعد أقدارها بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢ م مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصة بسائر الدول الإسلامية، والحق أن مصر على ما اعترف به بعض الوطنيين المصريين الحصفاء مدينة للإدارة البريطانية الى حد بعيد جداً، ولكن ثمة مجالاً كبيراً للشك فيما إذا

(١) أحمد عرابي: (١٨٤١ ـ ١٩١١) زعيم مصري، ولد بمحافظة الشرقية، وحفظ القرآن، وتعلم بالقرية، ثم التحق بالأزهر أربع سنوات. في ١٨٥٤ خدم بالجيش جندياً، فضابطاً، حتى وصل الى رتبة القائمقام ١٨٦٠ . اعتزل الخدمة العسكرية، ثم عاد إليها بعد عامين، وواصل عمله، حتى وقعت خصومة بينه وبين أحد رؤسائه من الجراكسة، فقدم الى مجلس عسكري، فحكم عليه بالسجن، لكنه طعن في أعضاء المجلس فأبعد من الجيش، ثم أعيد للخدمة المدنية. عفا عنه الخديوي توفيق، ورجع الى الجيش، وترقى إلى رتبة أميرالاي ثم لواء. عين ناظراً للحربية في وزارة اللواء محمود سامي البارودي. تزعم ثورة الجيش المصري سنة ١٨٨٢، للقضاء على النفوذ الأجنبي في البلاد ثم قاد الجيش ضد قوات بريطانيا التي اعتدت على مصر. بالرغم من نجاح الجيش في بعض المعارك، إلا أن الخيانة تسربت الى صفوفه، ومن ثم كانت هزيمته. قدم إلى مجلس عسكري فحكم عليه بالإعدام، ثم أبدل الحكم بالنفي الى سيلان. وفي ١٩٠١ عاد الى مصر بعد ١٩ عاماً وتوفي ١٩١١ بالقاهرة. كتب «كشف الستار عن سر الأسرار» (الموسوعة العربية ٦١)

(٢) الشيخ محمد عبده ومدرسته.

(٣) الشيخ عليش والشيخ أبو عليان وسائر شيوخ الطرق.

كان من الميسور أن يتحقق ازدهار البلاد وارتفاع مستوى سكانها الفكري والمعنوي بمثل هذه السرعة التي تحققت بها فعلاً.. لولا هذه الوصاية»[1].

وبلا حياء ولا استحياء يقرر هذا المستشرق الحاقد أن مصر مدينة للإحتلال البريطاني الغاشم بتحقق ازدهار البلاد، وارتفاع مستوى سكانها الفكري والمعنوي، ونسي أو تناسى قائمة الجلادين وما قام به أولئك المتوحشون الذين حكموا مصرفي تلك الفترة المظلمة الظالمة، وعلى رأس هذه القائمة الجلاد المتوحش المتبربر «كرومر» وسلفه الظالم «سير افلين يارنج» وغيرهم أمثال «اللورد لويد» والسير «غورست» واللورد «كتشنر»[2]، وكيف أنهم عذبوا الأجساد وخربوا العقول وأضاعوا القيم، وفرقوا الجماعات، وضربوا فئات الشعب بعضهم ببعض، نسي كل هذا لينفث حقده على الإسلام ومصر الإسلامية.

وهكذا كان دائماً تشويه تاريخ المسلمين. لإقصاء المسلمين عن دينهم، ولتقريبهم من الحضارة الغربية حيث يذوب كيان المسلم وينماع ويصبح تابعاً ذليلاً حائراً لا يدري من أمر يومه ولا غده، ولا من أمر دينه ودنياه شيئاً[3].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧١٢.

(٢) كتشنر: هوراشيو هربرت كتشنر، ايرل (١٨٥٠ ــ ١٩١٧)، قائد سياسي بريطاني. خدم لمدة قصيرة بالجيش الفرنسي، وفي فلسطين وقبرص. دخل خدمة الجيش المصري ١٨٨٣ حين شرع الإنجليز يعيدون تنظيمه بعد احتلالهم مصر. عين حاكم السودان الشرقي (١٨٨٦ ــ ٨٨) ورد المهديين حينما حاولوا غزو مصر (١٨٨٩). عين سرداراً للجيش المصري ١٨٩٢، وقاد الجيش المصري الإنجليزي لاسترجاع السودان (٨٩٦ ــ ٩٨). وبعد انتصاره في معركة أم درمان الفاصلة عين حاكماً عاماً للسودان، ولكنه لم يلبث أن عين رئيس هيئة أركان الجيش البريطاني الذي كان يقاتل البوير في جنوب أفريقيا (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) ونتيجة الى طرقه التعسفية في الحرب ضد البوير، كوفيء بتعيينه القائد العام للقوات البريطانية بالهند (١٩٠٤ ــ ٩)، ورقي الى رتبة فيلدمارشال. عين قنصلاً عاماً بمصر (١٩١١ ــ ١٤) فصار الحاكم الفعلي لهذه البلاد. وعند نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) عين وزيراً للحربية البريطانية فعمل على تكبير الجيش البريطاني، لم يكن محبوباً من أكثر زملائه الوزراء. وأرسل في أواخر ١٩١٦ الى روسيا لإعادة تنظيم أداتها الحربية الهائلة، ولكن أغرقت الطرادة البريطانية التي كانت تقله في ظروف غامضة، ومات غريقاً. كان محبوباً من الجمهور الإنجليزي. (الموسوعة العربية الميسرة ١٤٤٣).

(٣) الغزو الفكري، د/ علي عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص ٧٥.

المبحث الثاني

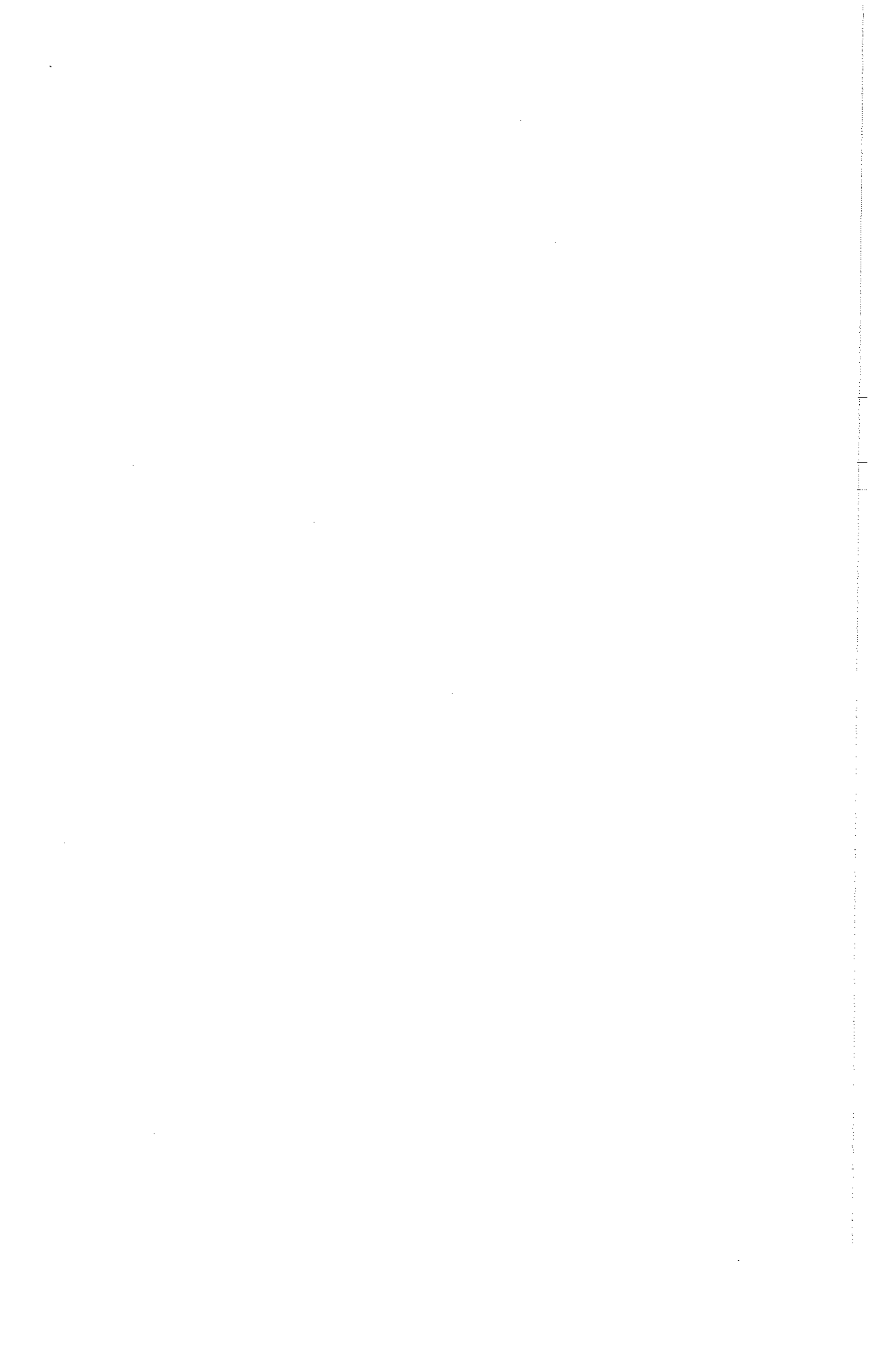
في التبشير

ويتكون هذا المبحث من ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : مفهوم التبشير.

المطلب الثاني : التعليم والبعثات.

المطلب الثالث : الإعلام والمؤتمرات.



المطلب الأول

مفهوم التبشير

كلمة التبشير تعني ـ كما يفهم من معاجم اللغة ـ الخبر الذي يفيد السرور إلاّ أنه بحسب أصل اللغة: «عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشرة تغيراً، وهذا يكون للحزن أيضاً، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة في القسمين»[١]. وقال الجرجاني: «التبشير: إخبار فيه سرور»[٢].

ويرى بعض علماء اللغة: «أن الكلمة إذا أطلقت كانت للخير وربما حمل عليه غيره من الشر، ويكون ذلك جنساً من التبكيت»[٣].

وقد أطلق هذا الاسم في الكتب الحديثة على المنظمات الدينية (الإرساليات التبشيرية) التي تستهدف تعليم الدين المسيحي ونشره في دولة ما[٤].

وفي القرون الأخيرة (التاسع عشر والعشرين) إهتمت الكنيسة بتوجيه جهودها الى التبشير بالنصرانية في العالم الإسلامي بالذات ليُقتَلَع الإسلام من نفوس الناس وتحل النصرانية محله. مما يسميه البعض «حملات التنصير» وفي الواقع ليس المقصود التنصير ولكنه الحقد الكامل على الإسلام، ويتضح ذلك في قول المبشر «رامير»: «إنني أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح، ومع ذلك يظن المسلم أن لي في ذلك غاية خاصة، أنا لا

(١) تاج العروس، للزبيدي، ٣/٤٥، ط الخيرية ـ مصر ـ ١٣٠٦ هـ .
(٢) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م ، ص ٤٤ .
(٣) معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس، ط الحلبي ـ مصر ـ ١٣٨٩هـ .
(٤) الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ص ١١٦ .

أحب المسلم لذاته، ولا لأنه أخ لي في الإنسانية، ولولا أني أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده»[1].

ويقول «زويمر»[2] المبشر الحاقد ـ الظاهر الحقد على الإسلام ـ في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس عام ١٩٢٨ م: «... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية فإن هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الإستعماري في الممالك الإسلامية»[3].

---

(١) التبشير والإستعمار في البلاد العربية، مصطفى الخالدي، عمر فروخ ط بيروت، ص ١٩٢ .

(٢) صمويل زويمر «مستشرق أمريكي» رئيس المبشرين في الشرق الأوسط ولد عام ١٨٦٧م، تولى تحرير مجلة عالم الإسلام التي أنشأها مع ماكدونالد . وله مصنفات في العلاقات بين المسيحية وبين الاسلام، أفقدها بتعصبه واعتسافه وتضليله قيمتها العلمية، منها : يسوع في إحياء الغزالي وبلاد العرب منذ الاسلام، والغواص واللآلىء، وداخل عالم الإسلام وغيرها. وله مقالات متعددة في مجلة «عالم الإسلام » الأمريكية التبشيرية. عرف بعدائه الشديد للإسلام وتقديرا لجهوده التبشيرية أنشأ الامريكيون وقفا باسمه على دراسة اللاهوت واعداد المبشرين.

انظر: ـ المستشرقون، ٣/ ١٠٠٥ .

ـ أخطار الغزو الفكري على العالم الاسلامي، صابر طعيمة بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٤ هـ ص ٨٢ .

(٣) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبه، القاهرة، ط ١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

المطلب الثاني

التعليم والبعثات

أ ـ التعليم الإرسالي:

يعتبر التعليم الإرسالي هو أقوى وسائل التبشير في البلاد الإسلامية. بمدارسه المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم الإسلامي، ولم تنج منها حتى عاصمة الخلافة نفسها[1].

وكانت أولى هذه المدارس إنشاءً هي الكلية السورية الإنجيلية ببيروت سنة ١٨٦٥ . ثم كلية الآستانة سنة ١٨٦٣ م، ثم الجامعة الأميريكية بالقاهرة سنة ١٩١٩ م.

وباشرت تلك المدارس التأثير على الطفولة البريئة والشبيبة الغضة من أبناء المسلمين وكانت لها إيجابية محدودة عن طريق المناهج وهيئة التدريس، لكنها إن لم تمح في المجموع عقائد التلاميذ، فيكفي أنها بذرت بذور الشك أو الانحراف[2].

ولم يكن القصد من إنشاء هذه المدارس الإرسالية هو التعليم لهذه الشعوب ولكنه التبشير بكل صوره وكامل معتقده ويفسر لنا ذلك قول المبشر هـ. أ. جب[3]: إن التعليم في مدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية.

---

(١) كان يوجد بها: كلية الآستانة والتي أنشأت بعد انشاء الكلية السورية الانجيلية بيروت (الجامعة الامريكية فيما بعد)، ثم كلية المبشرين في كدك باشا بالاستانة أيضا (انظر اساليب الغزو: الفكري، ص ٣٠).

(٢) انظر: ـ معوقات تطبيق الشريعة، مناع القطان، ص ٤٩ .
ـ أساليب الغزو الفكري، ص ٣٠ .
ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام، محمد محمود الصواف، مكة المكرمة، ص ١١٠ .

(٣) أنظر: ترجمته، ص ٤٥٥ .

ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه، وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخيرة الجراحين والأطباء. فإننا لا نتردد حينئذ في أن نقول إن رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي إلى مدى علماني محض، إلى مدى علماني دنيوي. مثل هذا يمكن أن تقوم به جامعات هايدلبرج وكامبردج وهارفارد وشيفلد، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى إلى أهداف روحية[1].

وعندما إحتج الطلاب المسلمون لإجبارهم على الدخول يومياً إلى الكنيسة. كان رد الجامعة الأميركية ببيروت في ١٩٠٩ بالمنشور التالي: «إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأراضي، وهم أقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء، وكل هذا فعله هؤلاء، ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده. فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه»[2].

وقال بتروز رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩٤٨ ـ ١٩٥٤ م) لقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان[3].

ويهتم المبشرون بالمدارس ذات القسم الداخلي وخاصة للبنات، كما يهتمون بإنشاء دور لإيواء الطالبات المغتربات، حيث يؤدي ذلك إلى انتزاعهن من بيئتهن المسلمة، ووقوعهن تحت سيطرة التبشير مباشرة.

وفي ذلك تقول المبشرة آنا ميلجان: «يوجد في صفوف كلية البنات بالقاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق الى دحض الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة»[4].

---

(١) التبشير والاستعمار، عمر فروخ والخالدي، مرجع سابق، ص ٦٦ .
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٩ .
(٣) نفس المرجع، ص ٤٦ .
(٤) المرجع السابق، ص ٨٧ .

ب ـ البعثات إلى الدول المسيحية الغربية:

إن إرسال شباب الإسلام في بعثات تعليمية إلى بلاد الغرب المسيحي من أخطر الأمور على شبابنا لانفرادهم مع التبشير النصراني الصليبي بكل صوره وأسلحته، مع وجود الوقت الكافي لإيقاع الضحية. فهو تحت أيديهم في المدرسة، في الكلية، في الشارع، في الملهى، والمنزل، والمنتدى، والمجتمع كله. ووسائل التأثير بكل طاقاتها: تعليماً وحديثاً وسلوكاً، واقتداء.

ويركز المبشرون على الطلبة المبعوثين في البلاد المسيحية الغربية فهم يرون أن أولئك المبعوثين «يمثلون طائفة منغلقة ومعزولة، ولكنها في النهاية سوف تتشتت، وتؤثر تقريباً في كل المهن، فإذا أمكن الوصول إليهم فإنهم يستطيعون حمل الإنجيل إلى أعمق أعماق حياة بلادهم».

إن الإجتماعات الطلابية التي ينظمها الطلبة ذاتياً في مباني الجامعة، والتي ينصح لها أو يساعدها، بطرق مختلفة، هيئة متخصصة طول الوقت لتبدو أكثر فاعلية من إرسال القسس إليهم، أو تهيئة أماكن لضيافتهم بعيداً عن مباني الجامعة[1].

«إن مباني الجامعة هي موطن الاقتراب الطبيعي للتجمعات البشرية، حيث يتبنى الاتحاد العالمي للطلبة المسيحيين (S.C.M.)، والزمالة الدولية للطلبة الانجليكانيين (I.V.F.)[2] هذه الفكرة».

«إن واحداً من أهم القطاعات الاستراتيجية للطلاب هم أولئك الذين يقفون على عتباتنا، ذلك أن أعداداً كبيرة من كل بلاد العالم تدرس الآن في أوربا وأمريكا الشمالية واستراليا وأن الانطباع الذي يأخذه معهم هؤلاء الرجال والنساء الى أوطانهم ـ وكثيرون منهم سوف يتولون وظائف هامة ـ ليتوقف الى حد كبير على الترحيب والحب والصداقة التي يظهرها المسيحيون الذين يقابلونهم، ويجب أن نتذكر جيداً أن الطالب الذي يعود

---

(١) تخطيط دقيق ماكر على أسس علمية وتربوية نفسية... رهيبة... وصدق من قال أننا نواجه الجاهلية العلمية.

(٢) ليحذر أبناؤنا الطلاب من هذه الهيئات التبشيرية المموهة تحت ستار الاتحادات الطلابية.

ليعمل كمبشر بين شعبه، من المحتمل أن يكون أفضل بكثير من أي أجنبي آخر»[1].

وأوضح مثل، وأوّل مثل، بل أولى مثل، لذلك هو الذي ذكره الدكتور علي جريشة في كتابه فيقول:

«وأول مثل لأثر البعثات ما حدث لرفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس من سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) الى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م).

فقد عاد الشيخ.. بغير العقل الذي ذهب به.

اختلت موازين الشيخ[2]، فعاد يتحدث عن الرقص الذي رآه في باريس بأنه نوع من العياقة والشلبنة[3]. لا الفسق، الرقص وتلاصق الأجساد ليس فسقاً.

ورسول الله ﷺ يقول: «لكل بني آدم حظ من الزنا: فالعينان تزنيان، وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبل، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[4]، صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذب الشيخ الطهطاوي.

وتحدث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر الدينية وراح يثير الجاهلية القديمة، فيتحدث عن مصر الفرعونية، وينسى مصر الإسلامية وأعجب الطهطاوي بالحرية، لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامي الذي تتحقق به عبودية المسلم لله وحده، ويتحقق تحرره من كل عبودية لسوى الله. لكن فهمها الفهم الغربي الذي قد يؤدي إلى التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه»[5].

---

(١) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٦٧، نقلاً عن: Leslie Lyall: Missionary Opportunity Today Intervaristy Fellowship, London, 1963 p. 159, 160.

(٢) وهو الذي كان معيناً إماماً للبعثة ليحافظ على إقامة الشعائر الدينية بين أفراد البعثة كلها كما أوضحنا في الباب التمهيدي.

(٣) أي الأناقة والفتوة.

(٤) مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٤٣ . (صحيح إرواء الغليل ٣٧/٨).

(٥) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي. د. علي جريشة، ومحمد الزيبق مرجع سابق، ص ٣١ ــ ٣٢ .

وأسوق بعض الأمثلة المعاصرة التي ذكرها الدكتور عبد الغفار عزيز في كتابه[1] لنتبين مدى نجاح أعداء الإسلام في التأثير على «خاصة» رجال الإسلام ولم يقتصر التأثير على الأطفال والشباب في سن الحداثة فكتب يقول في رسالته الثامنة: «سيادة الرئيس: قلت في رسالة سابقة، إن المتطرفين الحقيقيين في مصر تتركهم الدولة، ولا تتعرض لهم ويسمح لهم بمهاجمة الإسلام وتعاليمه وأحكامه الصريحة الثابتة علناً في الصحف والمجلات الحكومية، وفي مؤلفات يروّج لها، وتدعمها دول وحكومات عرف أنها تحارب الإسلام بكل الوسائل العلمية والفنية المتقدمة. وقلت أيضاً إن سفارات معروفة في القاهرة تتدخل في شؤون العقيدة وتحرّض بعض أبناء مصر على تشويه عقيدة المسلمين، وقد وعدت سيادتكم بأن أذكر لكم بعض هذه التفاصيل...».

ثم يسوق الدكتور بعض النماذج ليؤكد مقولته فيقول[2]: منذ حوالي عامين أرسلت السفارة الأمريكية بالقاهرة الى مسؤول كبير بصحيفة كبرى خطاباً موقعاً عليه باسم ل. ك ومرفق بهذا الخطاب كتيب من حوالي تسع صفحات عنوانه: (الإسلام المزيف) وفيه تطلب السفارة نشر ما في هذا الكتيب بالصفحة الدينية بهذه الصحيفة، أما الكتيب يا سيادة الرئيس المسلم فهو ينكر كثيراً من قواعد الإسلام وأركانه ويحاول إثبات زيف الأذان الشرعي الموجود الآن وإثبات أنه مدسوس على الإسلام كما أنه ينكر السرية في أية ركعة بالإضافة الى إنكاره لكثير من العقائد المتفق عليها عند المسلمين.

وهذا الكتاب من تأليف البهائي الماسوني المصري[3] الشهير المدعو «محمد رشاد خليفة» الذي نصب من نفسه إماماً لمسجد ضخم كبير هو (مسجد توسان) بالولايات المتحدة الأمريكية وله نشاط كبير ضد الإسلام يمارسه باسم الإسلام من خلال المسجد المذكور، ومن خلال مجلة عالمية أطلق عليها اسم: (الإسلام الحقيقي) توزع أعداداً هائلة في معظم أنحاء العالم وتنشر بلغات متعددة[4].

---

(١) من شيخ معمم إلى حاكم مسلم، رسائل الى رئيس الجمهورية، د/ عبد الغفار عزيز، دار الحقيقة للإعلام الدولي. القاهرة، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥ .

(٣) وليس من تأليف مستشرق أو مبشر غربي أو أمريكي ولكنه محمد رشاد خليفة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٤) وهذا يبين مدى دعم المؤسسات والحكومات الغربية لأي محارب للإسلام وخاصة من أبنائه.

ويذكر الدكتور عبد الغفار أن المدعو الدكتور محمد رشاد خليفة هو بنفسه صاحب نظرية: الإعجاز العددي للقرآن والتي ثبت زيفها، وأنه كان المقصود من إطلاقها هو محاولة إقناع الناس بقداسة العدد ١٩ الذي يقدسه البهائيون.

ويذكر الدكتور عبد الغفار عزيز قصة انحراف آخر فيقول[١]: «سيادة الرئيس: الدكتور أحمد صبحي منصور كان مدرّساً بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر ثم ظهرت عليه أعراض الفكر المنحرف، وبدأ يلقن طلابه هذا الفكر، الذي كان يتضمن الهجوم على الأنبياء والصحابة، ثم انتهى به الأمر الى صدور قرار الجامعة بفصله منها، فتلقفته سفارة غربية كبرى، وبسرعة كبيرة استطاع الدكتور أحمد صبحي منصور[٢] أن ينشيء مؤسسة ضخمة في أحد الأحياء الراقية في القاهرة، وكانت هذه المؤسسة تضم مسجداً جامعاً يؤمه عدد كبير من أبناء هذا الحي الراقي، ويقوم الشيخ الأزهري المفصول بإلقاء الدروس وخطبة الجمعة في هذا المسجد الكبير، واستطاع الشيخ المنحرف أن يستقطب عدداً من الأتباع معظمهم من المثقفين، وبدأت الكتب والمطبوعات والأشرطة المسجلة توزع في جميع أنحاء البلاد وفيها إنكار صريح للسنة، ومغالطات دينية وعلمية لا يكشفها إلا المتخصصون».

وكانت مكافأة الدكتور منصور من صحافة الغرب الكتابة عنه، والإفاضة في مدحه وتلقيبه بالعالم المستنير. ثم الإستقرار في الولايات المتحدة الأمريكية ليلحق بسابقه والحلقة المجاورة له في سلسلة الضياع الضالّ الدكتور محمد رشاد خليفة وكان الأساس الأول في التصريح له بالدخول الى أمريكا الهجوم الذي لقيه من عميد كلية اللغة العربية بالأزهر بمجلة اللواء الإسلامي. ويوضح ذلك الخطاب الذي أرسله الأمريكي المصري محمد رشاد خليفة إلى فضيلة عميد كلية اللغة العربية وهذا نص الخطاب[٣]:

(هذه رسالة شكر على مساعداتك القيمة لأخي الدكتور أحمد صبحي منصور، وهي مساعدات لم آت بها والشكر الحقيقي لله وحده سبحانه وتعالى).

---

(١) من شيخ معمم إلى حاكم مسلم، رسائل الى رئيس الجمهورية، مرجع سابق، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٢) عمدت ذكر أسماء هؤلاء كاملة وأعمالهم حتي يحذرهم الناس خاصة شبابنا وليمحصوا، ويرون ويقرأون ولمن يقرأون ومن الذي يكتب لهم ولا تخدعهم الأسماء ولا الألقاب.

(٣) من شيخ معمم إلى حاكم مسلم، مرجع سابق، ص ٥٠، ٥١ .

ثم يقول: «ولكنني رأيت المقالة التي نشرتها جريدة اللواء الشيطاني - يقصد الإسلامي - في عددها بتاريخ ١٠ ديسمبر، والتي كنت أنت مصدرها الرئيسي، فقد خدمتنا هذه المقالة الرائعة(١) في الحصول على موافقة الحكومة الأمريكية على اعتبار الأخ الدكتور بطلاً مجاهداً برأيه وقلبه، وضحية واضحة لبلد القهر الفكري أزهر الشيطان. وبذلك سعدت الجماهير الإسلامية النقية لأن الدكتور أحمد صبحي منصور قد أتاح الله له خيراً أن ينشر حقائق الإسلام، وأن يفضح البدع والخرافات بالأزهر. وأن يكشف عداوة الأزهر ـ قلعة الشيطان لله ولرسوله والمؤمنين».

يتضح لنا بعد هذا أن أسلحة التغريب في هجومه على الإسلام أصبحت في طور جديد، فلم يصبح اعتمادها على معاقل التبشير في الوطن العربي من إرساليات ومدارس(٢)، بل استطاع الاستعمار أن يحمل شبابنا الساذج على كراهية الإسلام وأهله بدعوة أنه دين تعصب، ودين تأخر، وانطلى هذا الكلام على شبابنا لجهلهم حقيقته، فضلوا(٣).

وكانت هذه الحرب الشرسة ضد الإسلام ولغته مهما تفاعل مخطوطها والقائمون بها لم يصل بهم الخيال أو الحلم أن يقوم في قاعات الأزهر الشريف شيخ أزهري ودكتور(٤) ليلقن طلبته هذه الأفكار العنيفة في مهاجمة الإسلام ورسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام. وعندما يطرده الأزهر؛ تكون الإمكانات كل الإمكانات مجهزة له، لينفث سمومه بين الشباب المثقف، مسجد كبير في حي راق، مطبوعات، تسجيلات، تسليط أضواء عليه إعلامياً في صحف الغرب، على أنه بطل الفكر الحر، ثم الارتحال إلى أمريكا ليستكمل إعداده لجولة أخرى أشد في حرب الإسلام.

ونرى في ذلك أيضاً صورة تشجع ضعاف النفوس من المغتربين فكرياً، كيف أن

---

(١) يقصد مقالة الدكتور عميد كلية اللغة العربية والتي يهاجم فيها الدكتور أحمد صبحي منصور ليكشف للناس الحاده وكفره والتي نشرت في منبر الإسلام بتاريخ ١٣٩٩/١٠/١ هـ.

(٢) جذور البلاء، عبد الله التل، المكتب الإسلامي، بيروت ط ٣، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م، ص ٢٢٢.

(٣) أضواء على طريق الدعوة الى الإسلام، د/محمد أمان بن علي الجاني، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والدعوة والافتاء ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٤) هو د/أحمد صبحي منصور المدرّس السابق بكلية اللغة العربية بالأزهر.

الدولة العظمى أمريكا تحمي وتعضد المارقين على الدين؟ المتهجمين على العقيدة؟ وتوفر لهم كل ما يأملون من جاه ومال، وليس الأمس القريب بغائب عن ذي عقل، فهذا «أستاذ الجيل» وهذا «عميد الأدب العربي»، وهذا وهذا... وهذا...، حتى وصل بذلك القزم[1]، أنه بطل الفكر الحرّ ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿**فيمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾[2]. هذه هي خطة أعداء الإسلام دائماً، سابقاً ولاحقاً، في القديم والحديث، أمس، واليوم.

---

(١) هو الدكتور أحمد صبحي منصور... وأمثاله.. محمود أبو ريه (كتابه قصة الحديث المحمدي) وكذلك الدكتور فرج فوده والثمن المدفوع له من بعض السفارات الأجنبية نظير طبع كتابيه المثيرين (قبل السقوط) و (الحقيقة الغائبة) والذي يهاجم فيهما الإسلام وكبار الصحابة.. هجوماً يخرجه ـ عند بعض الفقهاء ـ عن ملة الإسلام وكذا المستشار محمد سعيد العشماوي بتوريطه مع الأمريكان بما نشر من كتب باللغة الإنجليزية تهاجم الإسلام صراحة... وغيرهم.
(أنظر: من شيخ معمم، ص ٥٦ ـ ٥٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠ .

المطلب الثالث

الإعلام والمؤتمرات

أ ـ الصحافة ودور النشر والطباعة:

يدرك المبشرون خطورة الكلمة المقروءة وآثارها القوية في محاربة الأفكار والمعتقدات، فإن الحرف المطبوع له ثمره وله تأثيره، وعندما يتم الهدم يعملون لنشر ما يريدون، ولذلك ركزوا على الصحافة. واهتموا بأعمال الطبع والنشر، وقد اعترفوا بأنهم «قد استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية، أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر.

لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة، في أكثر الأحيان، أو بلا أجر في أحوال نادرة على أن المبشرين أنشأوا في العالم صحفاً يومية وأسبوعية خاصة بهم، فهنالك «بشائر الإسلام» و «الشرق والغرب» في مصر. ولقد اعتمد المبشرون مدينتين كبيرتين لنشر كتبهم وصحفهم: القاهرة وبيروت.

أما القاهرة، فاتخذها البروتستانت مركزاً لتوزيع المنشورات في القطر المصري وفي جميع العالم الإسلامي، كما أنهم أقاموا المطبعة الأمريكية في بيروت، تلك المطبعة التي أصبحت أهم وسائل التبشير في الشرق كله. أما اليسوعيون فقد ركزوا جميع جهودهم، في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٨٧١[١].

ولم تقف أهمية الإعلام بالنسبة للمبشرين على الصحف فقط. بل كانت هناك

---

(١) التبشير والاستعمار، عمر فروخ ومصطفى الخالدي، مرجع سابق ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
ـ وانظر: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، ص ١٦٨.

الندوة، والمحاضرة، والكتاب، ذو الطباعة الفاخرة والثمن الزهيد وأيضاً الرياضة، والنوادي الرياضية والاجتماعية ليتسنى جذب الشباب المسلم إليها[1].

ب ـ مؤتمرات التبشير:

والمبشرون يسيرون في تحقيق هدفهم وفق خطط معينة مدروسة، يجلسون من أجلها بين الحين والحين، يتدارسون ما تم من خططهم الهدامة، وما يجب أن يتم، مع تبادل الخبرات وكيفية التغلب على المعوقات. ولذلك نرى أن مؤتمرات التبشير قد تعددت في سنوات متقاربة. وكانت معظم هذه المؤتمرات في عقر دار الإسلام، بكل صفاقة وتحد وأسف شديد، ونذكر منها[2]:

١ ـ مؤتمر القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) المنعقد في منزل زعيم الثورة العرابية المسلم في باب اللوق تحت سمع الحكومة وبصرها.

٢ ـ مؤتمر إدنبرج سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) في انجلترا.

٣ ـ مؤتمر لكنؤ سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) بالهند.

٤ ـ مؤتمر بيروت سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م).

٥ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).

٦ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).

٧ ـ مؤتمر القدس سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م).

ومجلات التبشير (الانجليزية والأمريكية والفرنسية) نشرت عن هذه المؤتمرات ما سمح بنشره طبعاً وهو قليل، ولا نعتقد أن ما نشر هو كل ما قيل وحدث، ومع ذلك يجدر

---

(١) نوادي الشبان المسيحيين وهي التي حدت بطلعت حرب وإخوانه للتفكير بإنشاء جمعية الشبان المسلمين.. حتى لا يقع الشباب في براثن التبشير والتشكيك في الدين الإسلامي.

(٢) أنظر:
ـ أساليب الغزو الفكري، د. علي جريشة ومحمد الزيبق، ص ٣٢ وما بعدها.
ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

الإشارة الى نماذج من تلك المؤتمرات لنقف على بعض ما نريد، حسب ما تيسر من معلومات عنها:

في مؤتمر القاهرة المنعقد في منزل الزعيم المصري المسلم أحمد عرابي[1] الذي استولى عليه المستعمرون.

ونبدأ بنقل جدول أعمال هذا المؤتمر التبشيري لنلم بالمحتوى العام لهذا المؤتمر وما يصبو إليه التبشير للإسلام والمسلمين.

وهذا الجدول لمسائل المؤتمر:

١ ـ ملخص إحصائي لعدد المسلمين في العالم.
٢ ـ الإسلام في افريقيا.
٣ ـ الإسلام في السلطنة العثمانية.
٤ ـ الإسلام في الهند.
٥ ـ الإسلام في فارس.
٦ ـ الإسلام في الملايو.
٧ ـ الإسلام في الصين.
٨ ـ النشرات التي ينبغي إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام.
٩ ـ التنصير.
١٠ ـ الارتداد.
١١ ـ وسائل إسعاف المتنصرين المضطهدين.
١٢ ـ شؤون نسائية إسلامية.
١٣ ـ موضوعات تتعلق بتربية المبشرين والعلاقات بينهم.
١٤ ـ كيفية التعليم في الإسلام[2].

ونشير الى بعض النقاط الخاصة التي بحثت بالتفصيل وذلك لأهميتها والتصاقها بالبحث الذي نحن بصدده:

---

(١) أنظر ترجمته ص ٣٣٤ .
(٢) الفكر الإسلامي الحديث، محمد البهي ص ١٦٤ ـ ١٦٥ نقلاً عن الغارة على العالم الإسلامي أ. ل شاتلييه، تعريب محمد الخطيب ومساعد اليافي ص ٥١ .

تعرض المؤتمر للأزهر: فنعي أن باب التعليم مفتوح للجميع، خصوصاً وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً[1].

وطلب سكرتير المؤتمر في مواجهة ذلك بإنشاء معهد مسيحي في القاهرة لتنصير الممالك الإسلامية[2].

وقدم القسيس زويمر «رئيس المؤتمر» بمعاونة بعض زملائه كتاباً تحت عنوان «العالم الإسلامي اليوم»، أشار إلى صلابة عقيدة المسلمين مما يتوجب معه الاشتداد في حربها، فقال: «لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية».

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح من بينها:

أ ـ وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداءهم.

ب ـ وأخطرها: يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها[3].

وأخيراً بشّر المبشرين ألا يقنطوا إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وإلى تحرير النساء[4].

وفي مؤتمر لكنؤ المنعقد في الهند سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م):

---

(١) صادرت الحكومة الثورية في مصر في عهد الرئيس السابق جمال عبد الناصر جميع أوقاف الأزهر وأدخلته في الميزانية العامة، ليكون الأزهر بعلمائه تابعاً حكومياً.

(٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٣ هـ نقلاً عن مجلة المجتمع جمادي الآخرة سنة ١٣٩٧ هـ «أن البابا شنودة قد اتفق مع الرئيس الأمريكي كارتر على إنشاء جامعة نصرانية في مصر، وأن الرئيس كارتر في اجتماعه مع الرئيس السادات طلب منه ذلك فوافق الأخير بشرط أن يكون تمويلها من الخارج».

(٣) وهذا ما حدث فعلاً بواسطة مصطفى كمال أتاتورك بالقضاء على الخلافة الإسلامية.

(٤) الغارة على العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٤، ٣٢ . وعنه: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

فقد كان مواده كثيرة وأخطرها:

ـ النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

ـ الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات (يقصد بهذا الكلام إقبالهن وتقبلهن أنماط الحياة الغربية من اختلاط وسفور.. وغيرها برضاً وارتياح).

وكان أخطر حديث هو حديث زويمر الذي أشار إلى أن عبد الحميد (خليفة المسلمين) سجين في سلانيك، وأشار إلى أنه لم يبق غير ٢٧،١٢٨،٨٠٠ مسلم تحت سلطة الحكومات الإسلامية وانتقلت السلطة على الباقين من الخلافة الإسلامية إلى أيدي إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا. أشار إلى أن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب إنقلابات قريبة الحصول[١].

وكان من بين قرارات المؤتمر:

«من الضروري العاجل تأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتبشير».

«دخول النساء في أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن».

ولما لم يتمكنوا من إنشاء هذه المدرسة حتى الآن لمواجهة الأزهر قاموا بعملية تفريغ الأزهر من محتواه الفكري والديني بقوانين التطوير المعروفة.

أما النقطة الثانية (تنصير النساء المسلمات وأولادهن) فقد وصلوا بالمرأة المسلمة أكثر من ذلك بالسفور والاختلاط، وجميع المفاهيم الغربية.

ولعل فيما قدمناه عن التبشير أن يكون في ذلك وضع لأيدينا على الداء لا لنتحسسه ونتركه، بل لنلمسه ونستأصله، بكل ما لدينا من قوة وبالرجوع إلى أصول الدين القويم، وأن يكون في ذلك تنبيه لهذا الخطر الداهم بل الخطر القائم. الذي يتهدد الإسلام والمسلمين من هؤلاء المبشرين، في بلاد المسلمين، والله المستعان على ما تصفون[٢].

---

(١) يظهر لنا هذا الأصابع الخفية التي تعمل في الدول الإسلامية والتصرف في سياساتها.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي، ص ٦١ ـ ٨٣، وعنه: أساليب الغزو الفكري، ص ٣٤ .

الفصل الثاني

الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول : التغريب في مجال التعليم والثقافة والمجتمع.

المبحث الثاني : اللغة العربية والأزهر في مواجهة التغريب.

المبحث الثالث : مدارس التغريب ونماذج من رجاله.

تمهيد

عندما انتكست الحروب الصليبية ولم تستطع تحقيق مأربها في ديار الإسلام بالقضاء عليه وعلى أهله، عاد الصليبيون إلى بلادهم مقهورين عسكرياً ومادياً، ولكنهم غنموا علماً وحضارة إسلامية كانوا أبعد أن يقربوها لو لم يتم هذا الإحتكاك القريب بالمسلمين وهم في عهدهم الزاهر؛ ثم جاءت حقبة الإنحلال في المجتمع الإسلامي. وفي هذه المرحلة كان المسلمون قد جمدوا على مكانتهم، ولم يعودوا صورة مشرقة لدينهم العظيم، في الوقت الذي أخذت أوروبا إرثهم العلمي لتبني به حضارة مادية باذخة.

ولما تطلعت دولها الكبرى إلى إعادة الغارة على العالم الإسلامي: لم تكن بالهمجية الأولى التي تناولوا بها الحروب الصليبية، بل كانت جاهلية جديدة، جاهلية علمية تبني كل خطواتها وخططها على الدراسة، وعلى منهج علمي متكامل، فعمدت إلى دراسات موسعة عن الحروب الصليبية، وفحص وثائقها ومعرفة تجاربها، وأخطائها، واسباب انتكاسها.. الخ..

كذلك توسعت في دراسة أحوال المسلمين من حيث اللغات واللهجات والمذاهب، والطوائف والفرق، وفي دراسة الإسلام نفسه من حيث هو دين ومصادر، وتاريخ. ولضخامة هذا العمل وهذا المنهج: كان العمل جماعياً، ضم طرفي النقيض - في هذا العصر - الكنيسة الأوربية بكل مذاهبها، والحكومات الطامعة بكافة أشكالها وقومياتها.

وكان اجتماع الكنيسة والدولة متعاونين - بعدما كان بينهما من معارك تاريخية طاحنة منذ بداية عصر النهضة[1] - فكان كل منهما لخدمة هدف خاص به، أو لخدمة

(١) النهضة الأوربية مثل أي تطور إنساني على مر التاريخ، يخضع لعدة تطورات وتيارات فكرية متغيرة يصعب معها تحديد تاريخ معين لظهور هذه التغيرات في مجرى التاريخ. أو الإنتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة،

أهداف مشتركة وهي: ضرب الإسلام، والسيطرة المادية، وكان التعاون والعمل يقومان على تبادل النفع.. ومن ثم كان كثير من القساوسة والمبشرين يعملون مباشرة لخدمة دولهم تحت ثياب الإستشراق والتبشير. وبنفس القدر كانت الدول تدعم حركات التبشير وتحميها، وتمهد لها السبل!! رغم نبذها الدين في بلادها(١).

وعلى هذا كان مسار الغرب في عدائه للإسلام، وخططه لهدم معتقده، متوالياً في حلقات مترابطة، إذا بدأت بأولها، إنجذب معها بقيتها، فبعضها يكمل بعض، بداية وإستمرارا حيث أنها باقية لم تنته، فبداية من الحروب الصليبية، إلى الإستشراق الموجه، إلى التبشير الحاقد، إلى الإحتلال العسكري، إلى غزو فكري، وثقافي، واجتماعي، واقتصادي، وإلى كل ما يستجد من ميادين الحرب المعلنة وغير المعلنة بيننا وبين هؤلاء.

وذلك كله بتخطيط بعيد، تم منذ مطلع النهضة الأوربية التي فتحت لها عالم الصناعة والقوة والثراء والمدنية الحديثة، وتم لأوربا ما خططته وحبكته فضربت المسلمين في عقر دارهم، ولكنها لم تقبل هذه المرة أن تضرب وتكتفي بالنصر العسكري وتقسيم الأسلاب بينها، بل إنها فكرت في إجتثاث الأصول الفكرية وتشويه القيم الأخلاقية والروحية، وتحويل المسلمين شيئاً فشيئاً عن طريق وسائلها المبتدعة، وخططها المحدثة عن الإنتماء لهذه الأمة إلى إنتماءات جديدة وولاءات مبتكرة(٢).

وفي حقيقة الإستعمار الكامل لمصر كان هدف بريطانيا احتواء مصر في دائرة الفكر الغربي وصهرها وإخراجها من مفاهيم الإسلام، وكان من أهم هذه المفاهيم هي فصل الدين

فلكل عصر جذور تمتد في العصر الذي سبقه، وبذلك لابد من وجود فترة إنتقال؛ وهذه الفترة الإنتقالية من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة هي ما أطلق عليها عصر النهضة Renaissance وقد إمتدت هذه الحقبة من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي في إيطاليا ثم توالت إلى دول أوربا حتى القرن السادس عشر، وقد أخذت أشكالاً مختلفة حسب البلد التي ظهرت بها: منها إصلاح ديني، أو احياء للتراث القديم، وغير ذلك.

(أنظر: تاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، الدكتور عبد الحميد البطريق، مطبوعات جامعة الرياض، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ص ١٩، ٢٠).

(١) أنظر، المسلمون في مواجهة التيارات الفكرية المعادية، د/ عبد الستار فتح الله السعيد، محاضرة ألقيت على طلاب الدراسات العليا عام ١٣٩٩هـ.

(٢) المعادلة الحرجة، مرجع سابق ص ١٩.

عن السياسة، وتحويل العاطفة الدينية إلى عاطفة إقليمية مرتبطة بالعنصر والدم والجنس، وذلك حتى يغرق العالم الإسلامي في صراع القوميات والتغريب والغزو الفكري وغيرها من المفاهيم التي يجدر بنا أن نوضحها:

١ - مفهوم الإستعمار

الإستعمار: في معناه العام سيطرة شعب أو نفوذه على شعب آخر..

وهو ليس بالحديث، فكما حدث الاستعمار في القرن التاسع عشر والعشرين فقد حدث قديماً في الإمبراطوريات القديمة.

ومبادىء الغرب في الحرية والديمقراطية يتعارضان أساساً مع الإستعمار إلاَّ أن الغرب طرحهما جانباً في النضال على امتلاك أسواق لبيع المنتجات الصناعية للدول الإستعمارية الكبرى، وأيضاً ايجاد حقول ومصادر للخامات الأولية من البلاد المستعمرة.

واتجهت الدول المستعمرة لتحرير المستعمرات لتدخل في شيء آخر هو التغريب[١].

٢ - مفهوم التغريب

يقول الكاتب الإسلامي الأستاذ أنور الجندي[٢] «ما تزال مؤامرة التغريب من أخطر المؤامرات التي واجهت الدعوة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري وما تزال آثارها ممتدة إلى اليوم، ولذلك فنحن في حاجة إلى وعي كبير يمكننا من دفع خطر هذه المؤامرة».

ولذلك يجدر بنا أن نتلمس التعريف من مصادر متعددة، حتى نتبين كنهه، في جميع صوره وجوانبه المختلفة ونلم بمدى ضرره وخطره على الإسلام والمسلمين، فيقول الأستاذ أنور الجندي:

«تغريب الشرق أو «تغريب الإسلام»: هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها

(١) الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٤٣.
(٢) الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، أنور الجندي، دار الإعتصام، بدون تاريخ، ص ٣٧٧.

ولها قادتها، الذين يقومون بالإشراف عليها، وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الإستعمار ودعمه قوامها «غزو فكري» يستهدف القضاء على معالم شخصية الأمة وتحويلها إلى صورة غربية الملامح لعزل المسلمين عن القيم والمثل الإسلامية، والتراث الذي يتصل بها والذي كان عاملاً على تكوينها خلال الأجيال الطويلة»[(١)].

ثم يقول: «إذن فالتغريب أساساً: هو محاولة لتغيير المفاهيم في العالم الإسلامي والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها، وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ، ومعالم الفكر، ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعاً»[(٢)].

أما الدكتور علي جريشة فيقول: «إن التغريب هو التغيير الاجتماعي، وهو البديل عن التبشير»[(٣)] وهو يعني في الحقيقة: إبعاد الأمة عن دينها في شتى نواحي الدين التي تشمل نواحي الدنيا[(٤)]..

٣ - الغزو الفكري

كلمة الغزو الفكري مصطلح عصري حديث، وهو نوع خاص من أنواع الغزو الكثيرة عرفناها بعد الغزو العسكري. فهناك الغزو الإقتصادي، والغزو الإجتماعي، وإلى آخر السلسلة وما يستجد.

ومدلول الكلمة لغوياً مجازياً معروفاً، والذي يعنينا الآن مدلولها الإصطلاحي توضيحاً واستقصاء.

إذن فما هو الغزو الفكري ومفهومه المكمل أو البديل لمختلف صنوف الغزو؟:

---

(١) الصحوة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧٨.

(٣) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د/ علي جريشة، القسم الثالث، من إصدارات المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٢٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٠٢.

«الغزو الفكري: هو انبهار حضاري من أمة ضعيفة لأمة أقوى منها، أو هو قهر إستعماري من أمة قوية لأمة أضعف منها، وتكون النتيجة في كلا الحالين واحدة بسيادة أخلاق ومعتقدات الأمة الغازية وعاداتها وتقاليدها وأفكارها مع سيادة لغة العدو على اللغة القومية. وإذا تم ذلك ظلت الشعوب الضعيفة خاضعة لنفوذ القوى المعادية وتابعة لها»[1].

(١) أنظر: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د/ علي عبد الحليم محمود، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٨ - ١١.

المبحث الأول

التغريب في مجال التعليم والثقافة والمجتمع

ويتكوّن هذا المبحث من مطلبين:

المطلب الأول : في مجال التعليم والثقافة.

المطلب الثاني : التغريب والمجتمع.

المطلب الأول

التغريب في مجال التعليم والثقافة

ويعتبر هذا المجال هو أخطر المجالات التي اتجه إليها المستعمرون في البلاد التي استعمروها، فهو الطريق الأقوى للسيطرة على مستقبل الأمة في التحكم في كافة ألوان النشاط البشري.

لذلك كان هذا هو السهم الرائش الذي وجه لقلب الأمة الإسلامية في مصر ثم في العالم الإسلامي كله. فكانت أولى الخطط وأولاها بالتنفيذ هي: خطة إفساد التعليم في مناهجه، ثم إفساد المتعلمين في مفاهيمهم، وتشكيك في معتقدهم وقيمهم، وعندئذ يبدأ الهجوم الرئيسي بإدخال المفاهيم الغربية، والقيم الغربية الغربية علينا وعلى ديننا ومجتمعنا - ثم لغة الغرب واحلالها محل العربية لغة القرآن، وهذا هو الإستعمار الجديد[1]، وبذلك يتسنى للمستعمرين استبدال القيم الإسلامية بأخرى غربية بالإتجاه نحو أهم الأسس في تكوين الأمة وهي التعليم، وذلك بوسائل ثلاث:

١ - جلب النظم والتقاليد الغربية مع الجاليات الأجنبية التي استقرت في بلاد المسلمين، فأصبحت الحضارة الغربية الغازية تحيا بين ظهرانيهم وتعيش في قلب بلاد المسلمين، وتقدم النموذج المتحرك لأنماط الفكر والحياة الاجتماعية، «وقد فرضت الدول الغربية لغاتها وثقافتها في البلاد التي احتلتها تيسيراً للغربي المستعمر للتعامل من ناحية، وتمهيداً لاستساغة طابع المستعمر وامتصاص تقاليده من ناحية أخرى[2].

(١) وذلك كما سماه الدكتور علي جريشة في كتابه حاضر العالم الإسلامي ص ٧٣ .
(٢) انظر: المعادلة الحرجة، ص ٢٣ مرجع سابق.

٢ ـ الاعتماد على مصادر الدراسات الاستشراقية في المجالات الإسلامية والوقوف عندها، وإعتبار المراجع الإسلامية تراثاً قديماً خدم عصراً غير العصر الذي نعيشه.

٣ ـ إفساد مناهج التعليم بتغيير وتبديل نظمها في البلاد الإسلامية بما يخدم أهداف المستعمر في تغريب الأمة الإسلامية: ففي خلال فترة الاحتلال الاستعماري الانجليزي لمصر جاء زبانية الصليبية الحاقدة، أمثال: «دنلوب»[١] – والذي تخرج من كلية اللاهوت بإنجلترا – والذي قام برسم سياسة التعليم في مصر، ووضع برامج دراسية كان الجهل أفضل منها، فقد خطط لازدواجية التعليم في مصر ولإيجاد فئتين من المثقفين، هناك فئة ثقافتها دينية، وفئة ثقافتها عصرية، وبعد فلتصطرع الفئتان، ولتنفقا طاقتيهما في مقاومة بعضهما في الداخل، بدل أن يوجهوها لبناء الأمة، ودحر الأعداء[٢].

وبذلك نجح المخطط لإبعاد الأزهر عن مكان القيادة، ليس في مصر وحدها ولكن في العالم الإسلامي كله. ففتحت المدارس الحكومية تدرِّس العلوم المدنية وتعلّم اللغات ويعين خريجوها برواتب مرتفعة، مما دعا الناس للانصراف اليها طمعاً في الوظائف، ولم يبق للأزهر في ذلك الوقت سوى الفقراء وأبناء الأسر الضعيفة[٣].

فقد لقي الأزهر من حرب المستعمرين وأذنابهم وأبواقهم والساخرين منه – تقرباً لأعداء الإسلام – بنكاتهم[٤] ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم حرباً لا هوادة فيها، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلى المتخرجين فيه تضييقاً لا يزال بعضه باقياً حتى الآن، وسخر الأتباع منه ومن العلوم التي يقوم على تدريسها ومن اللغة العربية – لغة القرآن –، ومن عقليات علمائه وما هم عليه من غفلة وسذاجة كما يدّعي الأذناب والأتباع، ومن الزّي الذي يلبسون[٤] والكلمات التي ينطقون.

---

(١) دنلوب: مستشرق إنجليزي، من آثاره المخطوطات الإسلامية في مكتبة سانت أندرور، وفي مجلة الجمعيّة الملكية الآسيوية: النبي، وابن حشيش، وذو النون في طليطلة، والخوارزمي، وتدبير المتوحد لابن ماجة، وحفص ابن البار. وفي نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية: المغول. وفي الفصول الإسلامية: الفارابي، ومتقدمو ابن ماجه ومعاصروه.
المستشرقون ٢/٥٤٥ .

(٢) المعادلة الحرجة، مرجع سابق، ص ٢٣ .

(٣) كان مرتب المتخرج من الأزهر ٣ جنيهات وراتب المتخرج من الجامعة المصرية ١٢ جنيهاً.

(٤) مثل: (شد العمّة شد تحت العمّة قرد، شد العمة يا أستاذ تحت العمّة وابور جاز).

ويقول الدكتور علي عبد الحليم محمود في تلك الحملة:

«وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هو أن ينعزل الأزهر برجاله وعلومه عن الحياة، وعن التأثير والإيجابية في المجتمع، ينعزل الأزهر بهذا الأسلوب الخبيث عن المجتمع انعزالاً يوهم الناس بأن العيب كامن في الدين الذي يدعو إليه الواعظ. وفي العلوم التي يدرسها المتخرج في الأزهر، وليس في المجتمع الذي أفسده المستعمر، والثقافات الشائهة المعادية التي صبّها في أذهان الناس»[1].

وفي ذات المسلسل الممتد الحلقات نرى ما سطره بعض هؤلاء التغريبيين الدعاة لحضارة الغرب، الموالون لها في حرب الأزهر وفي حرب لغة القرآن، ففي كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين[2] جاء حول هذه القضية قوله: «فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلّمها لأنها لغة الدين فحسب، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية، إنما يخدعون الناس، وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع، فإن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين، يؤمنون وحدهم بها، ويقومون وحدهم من دونها، ويتصرفون فيها. لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف، وإذن فمن السخف أن يظن أن تعلم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف، والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً، وفيهم المسلم وغير المسلم»[3].

وتكتمل لدينا صورة طه حسين في تحقيق جميع أهداف التغريب واعتناق كل مبادىء الغرب في هدم اللغة والعقيدة معاً عندما نادى كذلك بإنشاء معهد للدراسات الإسلامية يُلحق بكلية الآداب مهمته أن يعني بالدراسات الإسلامية «على نحو علمي صحيح» – على حد قوله – وقد جاء فيما قاله تبرير الإنشاء هذا المعهد:

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د/ علي عبد الحليم محمود، دار البحوث العلمية ـ الكويت، طبعة أولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م ص ١٢٩.

(٢) انظر ترجمته في نهاية الفصل.

(٣) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، دار المعارف ١٩٤٤م، ص ٢٣٠.

«.. كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوربية وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية، ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها في هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوربية». والنص التالي يوضح لنا ماهية شخصية تغريبية أخرى، وولاءها الكامل لثقافة الغرب وما يجيء من الغرب.

فنرى الدكتور محمد خلف الله[1] يقدم بحثاً بعنوان: «القيم الإسلامية والحياة الأدبية في مصر الحديثة» في عام ١٩٥٣ م لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية، والمنعقد بجامعة برنستون الأمريكية. جاء فيه قوله:

«... فقد بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزة في الأزهر في فروع الدراسة الإسلامية التي كانت تدرس على مناهج القرون الوسطى، والأدب مقصور على الآفاق الضيقة... ثم اتجه النشاط حيناً في أواسط هذا القرن إلى حركة الطباعة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب في مختلف العلوم. وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد بهذه التراجم، وبدأت عقول المصريين تتنسّم أرواحاً جديدة من أدب الغرب وثقافته..»[2].

وقام دنلوب من خلال برنامجه الصليبي بالتوسع في إنشاء المدارس الثانوية الخاصة لدفع الموجة الصليبية خطوات إلى الأمام.. فأنشأ مدارس تسير على المنهج الهدام وتستبعد الإسلام وقضاياه..

ويقول الدكتور محمد عبده يماني[3] في كتابه «المعادلة الحرجة» موضحاً وشارحاً لهذا المخطط فيقول[4]:

---

(١) هو تلميذ طه حسين في كلية الآداب ومن الذين اقتنعوا بمنهج أستاذه في مهاجمة القرآن ونقده فكانت رسالته للماجستير عن قصص القرآن وأنها غير صحيحة فبئس التابع والمتبوع.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، د/ محمد خلف الله، مؤسسة فرانكلين ـ القاهرة ١٩٦٢م، ص٥٤٠.
وعنه: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، مرجع سابق ص ١٣١.

(٣) د/ محمد عبده يماني: من مواليد مكة المكرمة سنة ١٣٥٩هـ، حصل على بكالوريوس جيولوجيا من جامعة الرياض، والدكتوراه من جامعة كورنيل بأمريكا عمل معيداً فمحاضراً ثم وكيلاً لكلية العلوم بجامعة الرياض، عمل وكيلاً لوزارة المعارف ثم وكيلاً لجامعة الملك عبد العزيز ثم مديراً لها، عين وزيراً للإعلام ١٣٩٥هـ وظل بها حوالي ١٠ سنوات، من مؤلفاته: الجيولوجيا الاقتصادية، المعادلة الحرجة وكتب أخرى، وله مساهمات في الصحافة والأدب. (مجلة الفيصل، العدد ٦١ رجب ١٤٠٢هـ ـ مايو ١٩٨٢م).

(٤) المعادلة الحرجة، مرجع سابق، ص ٢٣، ٢٤.

«وتعمدت البرامج والمناهج في هذه المدارس طي كثير من الصفحات الناصعة في التاريخ الإسلامي، وإهمال الأحداث ذات العبر التي تمثل واقع الإسلام وحقيقته، وعلى سبيل المثال اقتصرت مؤلفات السيرة النبوية التقليدية على سرد أحداثها وتعدادها بأسلوب جاف من غير تحليل أو تعليق لمدركات القوة التي كانت تسيّر هذه الأحداث والغاية منها، ولم تتعرض بحال إلى أسلوب الدعوة الإسلامية والإتجاهات والميادين التي كان يتحرك فيها رسول الله ﷺ ومقدار ثباته وتصميمه، وكيف كان يقضي يومه في الحركة والعمل الإسلامي. وكيف كان أتباعه رضوان الله عليهم، ينفقون حياتهم، وكيف صمدوا هذا الصمود ومعانيه، ووسائل البطش التي تحملوها، وبيان مستوى الفهم الجديد في فهم الإنسان وغاياته، والمعاني البناءة والخلق المتسامي والمفاهيم الرفيعة، وسعة حدودها أمام ضيق الجاهلية ودنسها، لم يعد الطالب في ظل هذه المناهج الغربيةَ ليعرف شيئاً عن أمجاده وعظمائه في التاريخ الإسلامي».

ومن خلال مناهج الاستعمار في التعليم تغلغل التغريب في كل الميادين فشمل السلوك الفردي والآداب الاجتماعية والفنون والآداب.

وتعاونت كل العوامل في إبعاد المسلم عن دينه وقيمه ومعتقده: البرامج الدراسية، الصحافة، المؤتمرات الدولية التي يكون للمستشرقين فيها الجانب الأوفى. وذلك لتوجيه فكر المسلمين في الاتجاه الذي يريدون بعيداً عن الإسلام، وقيم الإسلام، بمناهج نائية الصلة بالله لا تدري موضع الله سبحانه وتعالى فيها، وما صلة الإنسان بالكون والحياة، وخالق الحياة، حتى غرست الأفكار الإلحادية في نفوس الدارسين وأفكارهم، حيث تصوروا أن هناك تعارضاً بين الدين والعلم[١]، وذلك لثقافتهم على المنهج الغربي «فهم لا يعرفون عن الشريعة الإسلامية إلا ما يعرفه المسلم العادي بحكم البيئة والوسط، وأغلبهم يعرف عن عبادات اليونان والرومان وعن القوانين والأنظمة الأوربية، أكثر مما يعرف عن الإسلام والشريعة الإسلامية»[٢].

«.. وهؤلاء المثقفون ثقافة أوربية، والذين يجهلون الإسلام والشريعة الإسلامية إلى

(١) وذلك هو مفهوم الحضارة الغربية المادية.

(٢) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، عبد القادر عودة، المختار الإسلامي ـ القاهرة، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، ص ٣٩.

هذا الحد، هم الذين يسيطرون على الأمة الإسلامية، ويوجهونها في مشارق الأرض ومغاربها، وهم الذين يمثلون الإسلام والأمم الإسلامية في المجامع الدولية».

ثم يقول الأستاذ / عبد القادر عودة[(١)] - رحمه الله تعالى -:

«ولطائفة المثقفين ثقافة أوربية ادعاءات غريبة عن الشريعة، بل هي ادعاءات مضحكة، فبعضهم يدّعون أن الإسلام لا علاقة له بالحكم والدولة، وبعضهم يرى الإسلام ديناً ودولة، ولكنهم يدّعون أن الشريعة لا تصلح للعصر الحاضر في ما يتعلق بأحكام الدنيا..

وبعضهم يرى أن الشريعة تصلح للعصر الحاضر، ولكنهم يدّعون أن بعض أحكامها مؤقت فلا يطبق اليوم وبعضهم يرى أن الشريعة تصلح للعصر الحاضر، وأن أحكامها دائمة ولكنهم يدّعون أن بعض أحكامها لا تستطيع تطبيقه، خشية إغضاب الدول الأجنبية وبعضهم يدّعي أن الفقه الإسلامي يرجع إلى آراء الفقهاء أكثر مما يرجع إلى القرآن والسنة».

وقد أجمل الأستاذ عبد القادر عودة - رحمه الله - ادعاءاتهم وشبههم فيما سبق وقال أنها ادعاءات لا قيمة لها لأنها صادرة عن أناس يجهلون الشريعة، ومن جهل شيئاً لا يصلح للحكم عليه، فإذا حكم فحكمه ادعاء لا يقين، ودعوى مجردة من الدليل[(٢)].

ثم يسوق هذه القصة التي توضح مدى تجهيل المناهج التغريبية لأبناء المسلمين فيقول[(٣)]:

«جمعني مجلس منذ سنوات مع بعض الشبان الذين أتموا دراستهم القانونية في مصر، وتناول الحديث الإسلام والشريعة والإسلام والحكم، فوجدتهم يعتقدون أن الإسلام لا علاقة له بشؤون الحكم والدولة فأخذت أبيّن لهم وجه الخطأ في هذا الاعتقاد. وأخذت عليهم أنهم

(١) عبد القادر عودة: تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٣٠م، وكان من أوائل الناجحين، التحق بوظائف النيابة ثم القضاء. كان له نشاط واسع في حقل دعوة الإخوان المسلمين، وفي عام ١٩٥١م تفرغ لمشاطرة المرشد العام أعباء الدعوة، فاستقال من منصبه، وفتح مكتباً للمحاماة عين عضواً في لجنة وضع الدستور المصري في عهد اللواء محمد نجيب، وفي عام ١٩٥٣م انتدبته الحكومة الليبية لوضع الدستور الليبي. كانت له مواقف ناصحة مع جمال عبد الناصر أغضبته عليه، وقدمه للمحاكمة، وحكم عليه بالإعدام.
ـ الموسوعة الحركية بإشراف فتحي يكن، عمان ـ الأردن، دار البشير ط ٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ١٦٦.
(٢) انظر: الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، مرجع سابق، ص ٤٠ ـ ٤١.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٢، ٤٣.

وهم رجال قانون يحكمون على الإسلام بأنه لا يجمع بين الدين والدولة بغير دليل من الإسلام ولكن أحدهم قاطعني وقال: إئتنا أنت بنص من القرآن. ومن القرآن وحده. يدل على أن الإسلام يجمع بين الدين والدولة وفهمت ما يريد فقلت: أما يرضيك نص من السنة؟ قال: لا، إن القرآن هو دستور الإسلام. ونظرت زملاءه فرأيتهم مقرين. فعجبت لهؤلاء الفتيان. الذين يؤمنون أشد الإيمان بالقرآن وهم أجهل الناس بالقرآن وحزنت على هؤلاء المسلمين الذين دفعهم جهلهم بالقرآن إلى إنكار حكمين من أظهر أحكام القرآن (أولهما): أن الإسلام يمزج بين الدين والدولة (وثانيهما) أن السنة المطهرة حجة على كل مسلم ومسلمة كما أن القرآن حجة على كل مسلم ومسلمة.

إن هؤلاء الشبان المسلمين المؤمنين بالقرآن يجهلون أن القرآن نص على عقاب القاتل والحارب والسارق والزاني والقاذف وذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنو كتب عليكم القصاص في القتلى﴾[1] وقوله:

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾[2].. الآية وقوله: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾**[3].

وقوله:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[4].

وقوله:

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٨ .
(٢) سورة النساء: الآية ٩٢ .
(٣) سورة المائدة: الآية ٣٣ .
(٤) سورة المائدة: الآية ٣٨ .
(٥) سورة النور: الآية ٢ .

وقوله:

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾[1].

فهذه جرائم حرمها القرآن وتلك عقوبات أوجبها، وتحريم الجرائم وفرض العقوبات، مسألة من مسائل الحكم، لا من مسائل الدين كما يظنون. فلو أن الإسلام لا يمزج بين الدين والدولة لما جاء بهذه النصوص وتنفيذها فقد أوجب عليهم أن يقيموا حكومة ودولة تسهر على تنفيذ هذه النصوص وتعتبر إقامتها بعض ما يجب عليها.

وقد أوجب القرآن أن يكون الحكم شورى فقال جل شأنه **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**[2] وقال: **﴿وشاورهم في الأمر﴾**[3] وإقامة حكم الشورى يقتضي إقامة حكومة إسلامية ودولة إسلامية ولو كان الإسلام يفصل بين الدين والدولة لما تعرض لشكل الحكومة وبيّن نوعها.

والقرآن يوجب أن يكون الحكم بين الناس بالعدل. وطبقاً لما أنزل الله فيقول جل شأنه:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[4].

وقوله:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾[5]،

ويقول:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[6].

---

(١) سورة النور: الآية ٤ .
(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .
(٤) سورة النساء: الآية ٥٨،
(٥) سورة المائدة: الآية ٤٩ .
(٦) سورة المائدة: الآية ٤٤ .

والحكم بين الناس من أهم ما تختص به الدولة ولكن القرآن مزج بين الحكم والدين، وأمر أن تحكم الدولة على أساس ما جاء به الإسلام.

ثم يتابع - رحمه الله - سوق الأدلة من القرآن فيقول:

«والقرآن يوجب على الدولة أن تقيم أمر الدين والدنيا على أساس من القرآن». وذلك في قوله تعالى:

﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾(١).

فهذا النص قاطع في أن الدولة المثالية هي التي تأخذ رعاياها بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهي التي تقيم ما أمر الله بإقامته وتمنع ما نهى عنه، وموجب هذا النص أن تكون الدولة دينية إسلامية، وأن تعالج شؤون الحكم والسياسة على أساس الإسلام.

ولقد جاء القرآن بنصوص كثيرة، يضيق عن ذكرها المقام وهي خاصة بالفتن الداخلية، والمنازعات الدولية، والسلم والحرب والمعاهدات والمعاملات والأحوال الشخصية، وأوجب القرآن في أموال الأغنياء حقاً للفقراء: وفي بيت المال حقوقاً لليتامى والمساكين وابن السبيل. ولم يدع القرآن شيئاً من شؤون الدنيا إلا أتى بحكمه ولا شأناً من شؤون العبادات والاعتقادات إلا أتى لحكمه. وأقام شؤون الدنيا على أساس من الدين والأخلاق. واتخذ من الدين والأخلاق وسيلة لضبط شؤون الدولة وتوجيه المحكومين والحكام وليس بعد هذا مزج بين الدين والدولة. حتى لقد أصبحت الدولة في الإسلام هي الدين وأصبح الدين هو الدولة.

وهؤلاء الشبان المسلمون المؤمنون بالقرآن يجهلون أن القرآن جعل الرسول ﷺ وأفعاله تشريعاً ملزماً للمسلمين. إذا كان المقصود منها التشريع. وأوجب عليهم طاعته والعمل بما يأمرهم به. ولو لم يكن ورد به نص في القرآن لأن الرسول لا ينطق عن الهوى. ولا يقول إلا بما يوحى به إليه من ربه:

﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾(٢).

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١ .

(٢) سورة النجم: الآية ٣ و ٤ .

والنصوص الواردة في طاعة الرسول. والاستجابة كثيرة منها قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾[١].

وقوله:

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[٢].

وقوله:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[٣].

وقوله:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[٤].

وقوله:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾[٥].

وقوله:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[٦].

وبذلك يتضح لنا مدى أثر المناهج التغريبية في عقلية شباب المسلمين الذين أتموا دراستهم بعيداً عن المنهج الإسلامي.. ومدى جهلهم بقرآنهم وسنة نبيهم.

فهي مناهج مبتورة الصلة بالله لا مكان منها لمعرفة الله تعالى ومعرفة شريعته التي تستوعب ألوان النشاط البشري في مجالات الحياة كلها، وهذا ولا شك قد ترك أكبر الأثر

(١) سورة النساء: الآية ٥٩ .
(٢) سورة النساء: الآية ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١ .
(٤) سورة الحشر: الآية ٧ .
(٥) سورة النساء: الآية ٦٥ .
(٦) سورة الأحزاب: الآية ٢١ .

في عقول الدارسين، حيث تصوروا وهماً كاملاً تمثل في سلوكهم العملي بأن هناك تعارضاً بين الدين والعلم، فإذا ناقشت أحدهم في الدين أو ما يجيبك: ما لنا وللدين، نحن في عصر العلم، نحن في عصر الصواريخ، مع أن الدين والعلم من مصدر واحد وهو – الله –:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

وأوضح ما يميز هذه المناهج أنها تتسم بما يأتي:

١ ـ أنها أكسبت المسلمين «أمية التفكير» فأصبح المسلم إنساناً جامداً يأخذ ما يلقى إليه دون تفكير فيه أو زيادة عليه، فكان لذلك أبعد الأثر في نفوس الدارسين.. فقتلت فيهم روح البحث والابتكار.

٢ ـ وكانت هذه المناهج نظرية بعيدة عن التجربة العملية فكان الأساس في العلم والشهادة: هو الوظيفة والمال والمركز الاجتماعي.

٣ ـ وفوق كل هذا وقبل كل هذا، فإن الهدف من هذه المناهج تغريب الأجيال المسلمة بطريقة محكمة تنفر الناشئة من الإسلام حتى تخجل من الإنتساب إليه، بتحقير التراث الإسلامي عامة في أعين الناشئة، وإدخال النظم الغربية في جميع مجالات الحياة، وإحياء العصبيات القديمة لتفتيت وحدة العالم الإسلامي[2].

وبكل هذا استطاعوا أن يبعدوا الشباب عن منابع الفكر الإسلامي الأصيل، وغرسوا في نفوسهم الشبهات وألوان الشك حتى تمكنوا من إخراج جيل من المثقفين في كل بلد إسلامي ينفر من الدين الإسلامي، ويرى فيه الجمود والرجعية.

ونكتفي بهذا القدر اليسير عن مناهج التعليم الغربية التي اكتسحت المجتمع الإسلامي، والذي ملأته بالصراع العقلي ثم الردة الفكرية وأخيراً إلى الردة الدينية.

---

(١) سورة العلق، الآية: ١ ـ ٥ .

(٢) انظر: المعادلة الحرجة، مرجع سابق، ص ٢٥ .

ونختم ذلك بقول الأستاذ محمد أسد[1] في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق».. عن نتائج نظام التعليم الغربي في الشرق الإسلامي:

«لقد بسطنا القول في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الإسلام والمدنية الغربية - وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً - لا يمكن أن يتفقا، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوربية وعلى مقتضياتها، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام»[2].

ثم يتابع الأستاذ محمد أسد بيقين المؤمن وصراحة المسلم فيقول:

«وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا إصلاح هذا الخطأ عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، إن كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة، إذا أردنا أن تحفظ حقيقة الإسلام على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيّه في الحياة يصبح المسلمون تدريجاً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية، أن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً إلى تقبل الميل العقلي المصاحب لذلك»[3].

---

(١) ولد محمد أسد (ليوبولدفاس) في مدينة ليفو بالنمسا والتي أصبحت فيما بعد بولندا، عام ١٩٠٠م، وزار الشرق الأوسط وهو في سن ٢٢ من عمره. عمل مراسلاً خارجياً لمجلة فرانكفورتر زايتونغ. اعتنق الإسلام عام ١٩٢٦م بعد عدة سنوات قضاها في التجوال بين أقطار الشرق الأوسط. وبعد دخوله في الإسلام تجول واشتغل في سائر أنحاء العالم الإسلامي وأصبح واحداً من أبرز دعاة المسلمين وعاش ست سنوات في جزيرة العرب ثم ذهب إلى الهند والتقى بالشاعر إقبال الذي أقنعه بالبقاء في الهند. ولما تم إنشاء باكستان عين مديراً لقسم التعمير الإسلامي في البنجاب الغربية، ثم أصبح ممثل باكستان لدى الأمم المتحدة وله مؤلفات بالألمانية والإنجليزية والعربية من أبرزها: الطريق إلى مكة، الإسلام على مفترق الطرق، رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العش. الكويت: دار القلم ٢/ ٥٤، الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ترجمة عفيف البعلبكي ط ٣، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨م، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين ط ٨، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٨.

المطلب الثاني

التغريب والمجتمع

واجه المجتمع الاسلامي في جميع البلاد الاسلامية الحضارة التي حملها الينا الغرب في العصر الحديث بما ينطوي عليه من مخالفة لديننا وقيمنا ومعتقداتنا وبما يكمن فيها من بذور الفساد، فساد الشعور الخلقي، وبالخطط الماكرة الذكية وبالأعمال التنفيذية الدائبة استطاع الأعداء الغزاة أن يجنوا ثمرات إفسادهم الاجتماعي للأمة الإسلامية الواحدة، ما حققوا به قدراً كبيراً من أهدافهم الظالمة الآثمة.

ويبرز من مظاهر الغزو الفكري والثقافي الذي تقوم به جيوش الغزاة: الإفساد الاجتماعي، ويتضمن هذا الإفساد كل خطة ترمي إلى حل التماسك. وفك الترابط الجماعي بين أفراد الأمة الواحدة، حتى لا يكون لهم شخصية موحدة قوية.

وقد اكتشف الغزاة من الصهيونية العالمية والمستشرقين والمبشرين طريقين للوصول إلى إفساد أخلاق الشعوب والهبوط بها من قمة الكمال الإنساني إلى حضيض النقص والرذيلة:

الطريق الأول: العبث بالمفاهيم والحقائق الخلقية.

الطريق الثاني: الغمس بالمجتمعات ذات الأخلاق الفاسدة المنحرفة.

ويوضح الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة[٢] تفصيل هذين الطريقين فيقول:

---

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، القسم السادس، عبد الرحمن حسن حبنكة، ص ٥٠٤.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة: ابن المجاهد الشيخ حسن حبنكة الميداني ولد في دمشق سنة ١٩٢٧م، تلقى تعليمه في معهد التوجيه الإسلامي ثم عمل به مدرّساً وأكمل تعليمه في القاهرة بكلية الشريعة إلى أن حصل على العالمية وتخصص التدريس، واشتغل بالتدريس في دمشق ثم في وزارة الأوقاف، وله نشاط فكري في الاتجاه الإسلامي

١ ـ «وقد ظهر العبث بالمفاهيم والحقائق الخلقية في حشد النظريات الفلسفية الأخلاقية المنحرفة عن الشرائع الربانية المستندة إلى مبادئ الخير والشر، والنفع والضر، والمصالح والمفاسد».

وذلك مثل الأخلاق التي دعا اليها نيتشه[1] «أخلاقية السادة» ويهاجم فيها الأخلاق العادية المتعارفة ويقول عنها أنها أخلاق العبيد الذين يساقون وراء الأقوى، فهي أخلاق تعادي الممتازين لحساب الضعفاء وقال بأنه ليس الهدف مجرد الحياة، بل الحياة القوية ولذلك نادى «بالانسان الأعلى» الذي يكون فوق الخير والشر، ليمحو هذه الديمقراطية المنهارة[2].

«ومن نظرياتهم ما يعتمد على تمجيد اللذة الفردية وإباحة كل ما يحققها، مهما أضر ذلك بجسم الفرد أو عقله، أو أضر بالجماعة، أو خالف أوامر الله لعباده، ومنها النظريات التي تعتمد على تمجيد قوة الجماعة التي تمثلها دولة سياسية... فكل ما يفضي إلى دعم هذه القوة أو إنمائها فإنه لا ينافي الأخلاق الكريمة لدى هذه النظريات المنحرفة».

فنجد أن ميكافيللي[3] لا يعترف بأقوال المفكرين السياسيين والفلاسفة الذين سبقوه، في أن أهداف الدولة يجب أن تبنى على أساس أخلاقي وديني. ولكنه يرى أن السلطة في الدولة في حد ذاتها هي الغاية، وأن الفضيلة تكون في تحقيق الكفاءة في استحواذ هذه السلطة وإدارتها. وأن السلطة تتسامى عن بقية القيم الاجتماعية الأخرى وبذلك تكون

واضح المعالم. من مؤلفاته: العقيدة الإسلامية وأسسها، سورة الرعد، دراسة أدبية وفكرية، مبادىء في الأدب والدعوة، الأمة الربانية، وأجنحة المكر الثلاثة التبشير، الاستشراق، الاستعمار وغيرها كثير. وما زال يناضل بفكره في المجال الإسلامي وانتهى به المطاف مدرّساً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(١) هو فردريك فلهلم نيتشه: (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م): فيلسوف ألماني تربى يتيماً كان أستاذاً لأصول اللغة في بان ١٨٦٩م تأثر بفلسفة شوبنهور وصادق فاجنر ثم خرج عليهما وعلى سائر أصدقائه. وقال بأن الإنسان سيحقق بإرادته إنساناً أعلى (انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٨٦٤).

(٢) انظر: أثر نيتشه في العصر الحاضر، ابراهيم اليوسف، مقال بجريدة المقتطف الصادرة في ٥ صفر ١٣٥٦هـ، مايو سنة ١٩٣٧م، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٩ . وانظر الموسوعة العربية، ص ١٨٦٤).

(٣) هو نيقولا ملكياڤيللي: (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م) ولد في مدينة فلورنسا الإيطالية، نال حظاً وافراً من التعليم العالي في الأدب والقانون والتاريخ والفلسفة لعراقة أسرته. تقلب في عدة وظائف في العهدين الملكي والجمهوري واضطهد وسجن ثم اعتزل الحياة العامة وألف أربعة كتب في الفكر السياسي: الأمير، والمطارحات وفن الحرب، وآخرها عن تاريخ فلورنسا.

(انظر: مقدمة الفكر السياسي، د/ نظام محمود بركات، ص ١٣٤، ١٣٥).

القيم الأخرى ـ عنده ـ كالخير والشر تعتبر في نظره عملية نسبية تقاس بمدى ما تحققه لرجال السلطة من أهداف؛ وأن مصلحة الدولة فوق كل هذه القيم الإنسانية[1]. «ومنها التضليلات التي تُدس بين الشعوب إذ تمليها عليها مصالح أو دوافع نفسية، أو أحوال خاصة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها».

٢ ـ أما الغمس في المجتمعات ذات الأخلاق الفاسدة المنحرفة فقد جند الغزاة له أعمالاً وطاقات كثيرة، هدفها إفساد الشعوب والأجيال المسلمة إفساداً سلوكياً ليكون ذلك وسيلة للتحويل الفكري، ومن المعروف المجرب ان الاستغراق الطويل في الإنحراف السلوكي من الوسائل الممهدة لتقبل الكفر والانتقال إليه، ولو بعد التدرج في مراحل[2].

فالهدف إذن هو إبعاد المسلمين عن الإسلام كما أسلفنا سابقاً باعتباره الخطر الكامن كما يتصور الغرب أو يتوهم، وقد كانت الإشارة إلى هذا الهدف تحت اصطلاحات أكثر تهذيباً ـ حتى لا تنكأ شعورهم فتثير حفيظتهم وتنبههم إلى حقيقة الهدف الجديد ـ مثل التغريب أو التغيير الاجتماعي[3].

والتغيير الاجتماعي يعني تغيير قيم الأمة ومثلها: تغيير ثقافتها، وأخلاقها، وعقيدتها، وبعبارة أخرى إبعاد المسلمين عن دينهم.

والتغيير الاجتماعي، قد يسمى التغريب، وقد يسمونه المدنية أو التطور أو التقدم، وأياً ما كانت الحال فلن يكون هناك سبيل إلى التراجع، أن العمل يسير بجد ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى مصر.

وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح حسب خطة مرسومة، وضعت خطوطها بعد دراسة الموقف تقوم على التطور والتدرج[4].

---

(١) انظر: مقدمة في الفكر السياسي، المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧، وانظر: أعمال ندوة ابن خلدون وماكيافلّي د/ عبدالله العروي، ص ١٨٤ وما بعدها.

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، عبد الرحمن حبنكة، ص ٥٠٦ .

(٣) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي جريشة وآخرين ص ٥٥ . كم من مسميات أطلقوها لوضع السم في العسل ولتغطية مضمونها.. مثل تسميتهم للزنا بالاتصال الجنسي والربا بالفائدة وتبريراً للاختلاط والتبرج بالكبت والجنس.

(٤) من تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٦م ص ٨ من النسخة الإنجليزية نقلاً عن أساليب الغزو الفكري ص ٥٦ .

ويتضح مما سبق جلياً في تقرير الاستعماري «كرومر»: أن تدمير المجتمع الإسلامي كان هدفاً أساسياً للنفوذ الأجنبي منذ أن سيطرت القوى الاستعمارية على بلاد المسلمين وعلى مصر، وقد تنامى هذا العمل حتى وصل إلى مراحل خطيرة، وقد تعددت روافد إفساد المجتمع في جميع الاتجاهات في اتجاه هدم القيم والأخلاق في اتجاه زلزلة العقيدة والالحاد، في اتجاه افساد التعليم وافراغه من القيم الإسلامية، وسأركز في هذه النقطة على أخطر هذه الاتجاهات في إفساد المجتمع وتحطيم الأسرة وهو الاتجاه الذي ركز عليه الغرب وركزت عليه الصهيونية التلمودية: وهو الاتجاه الذي يتجه إلى إفساد المرأة المسلمة بخطوات محسوبة مدروسة، خطوات معاكسة في الاتجاه تماماً لما جاء به محمد ﷺ، سواء لما جاء به القرآن الكريم، أو كان في سنة خير الرسل ﷺ، فقد أمر الله تعالى المرأة المسلمة المؤمنة بما يحفظ لها عفافها ويرعى أنوثتها وطهرها فيقول الله تعالى: ﴿**يا أيها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً**﴾[1]. هذا أمر الله تبارك وتعالى للنساء المؤمنات بستر أجسادهن حتى لا يتعرضن للايذاء في حياتهن، وفي أعراضهن، بالأقوال والأفعال، وهذا أمر مع تبيان الحكمة من أتباعه.

فأتى الغرب، فماذا فعل بالمرأة وماذا أراد لها؟

بدأ البلاء بالسفور (كشف الوجه)، ثم بالدعوة إلى التوجه لتقليد واتباع حضارة الغرب، في الملبس والمظهر والسلوك، فلا مانع من خروج المرأة من بيتها إلى العمل، والعمل المشترك مع الرجال، فلا بد لها أن تتجمل وتتزين حتى تكون حريّة بهذه الحرية، وحريّة بأن تخرج من «الحريم» إلى ... الى المجتمع، إلى التقدم والحضارة الغربية[2]، فتقوم المرأة المسلمة بتتبع المرأة الغربية والجري وراءها في «الموضة» في الملبس، في السلوك، في تناول جميع أمور الحياة، كل هذه الشئون جرياً وراء الغرب، وبعداً عن دين الله، والذي يقول سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩ .

(٢) قام بترسيخ تلك المفاهيم في مجتمعاتنا المسلمة قوي التغريب والغزو الثقافي التي لا تتوقف عن بث سمومها عن طريق من يتسمون بأسمائنا ويتكلمون لغتنا أمثال طه حسين، قاسم أمين، وغيرهما.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن. ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن. ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن، أو ما ملكت أيمانهن. أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن، ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[1]. ومع كل هذه الأوامر الواضحة الموضحة عن العرض والتشريع، والحكمة من هذا التشريع، ورغم النور الذي بين أيدينا نجد من بيننا من أضلهم الشيطان ينعقون بما أتاهم من الغرب أو أتى لهم به من نظريات فاسدة، وكلام لا يندرج تحت أي مفهوم علمي سليم.

وقد حشد الأستاذ يوسف كمال في كتابه: «العصريون معتزلة اليوم» مجموعة غنية عن التعليق من أقوال هؤلاء في نسق واضح جميل، يبين الحق، في هدوء متزن.

وقد جاء في تقديم فضيلة الأستاذ عمر التلمساني[2] ـ يرحمه الله تعالى ـ للكتاب وصف دقيق لهذه الفئة وما يقومون به من أعمال، فيقول:

«حفلت السنوات الأخيرة بفريق من الكتّاب المسلمين، لهم علمهم، ولهم ذكاؤهم، ركزوا جهودهم على مخالفة الأئمة الأعلام السابقين، وأعطوا أنفسهم حق الاجتهاد، تفسيراً وتأويلاً وتمحيصاً، وقالوا إن السابقين رجال وهم رجال كذلك.

ونظراً لأن هؤلاء المتأخرين قد أعطوا أنفسهم حرية القول وفق أفهامهم، فمن الواجب عليهم ألا يضيعوا تجربة رأي معارضيهم، فيما أخذوا أنفسهم.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) فضيلة الأستاذ عمر التلمساني: هو المرشد العام الثالث للإخوان المسلمين ولد بالقاهرة عام ١٩٠٤م كانت أسرته ظاهرة الثراء تخرج من كلية الحقوق واشتغل بالمحاماة، تعرف بالإمام البنا في وقت مبكر وانضوى تحت راية الإخوان المسلمين. اعتقل وسجن ولاقى الكثير بسبب جهره بكلمة الحق. وقال للرئيس السادات: «ها أنذا أتلقى الظلم منك فلا أملك أن أشكوك إلا إلى الله» رحمه الله رحمة واسعة. (علماء ومفكرون عرفتهم ٢/٢٢٧، وما بعدها، مجلة الأمة، العدد ٧١ ـ القعدة ١٤٠٦هـ، ص ٥٠، ذكريات لا مذكرات، عمر التلمساني).

ورغبة منا في إحقاق حق نرى أنهم ليسوا أصحاب المكانة فيه، فقد أعان الله الأستاذ يوسف كمال[1] على هذا الرد المبسط مبيناً الخطأ فيما ذهبوا إليه، ولم يأتهم بدليل من عنده منقول أو معقول بل أخذ من كلامهم ومؤلفاتهم، ما لا يؤيد هذا المذهب الجديد الذي تمذهبوا به..»

نسأل الله أن يعين المحق، ويبصر غير المحق[2].

ومن أقوالهم[3] في الاختلاط والحجاب:

«الباحث المدقق يجد أن ما يتمسك به هؤلاء الشباب ويدعو إليه بعض أعضاء مجلس الشعب ليس جوهر الإسلام وإنما فقط مجرد مظهره وشكله، فبعض الشباب الذين ينادون بالإسلام إنما يرونه في لباس المرأة ممتداً من منبت شعرها إلى أخمص قدميها، وكذلك في عدم اختلاطها بالرجال، وبالنسبة للحجاب واختلاط المرأة بالرجل في الحياة العامة فهذه مسألة يقدرها المجتمع بحسب ظروفه، فلكل مجتمع لباسه، وقواعد تسيّر أفراده.

وأن ما جاء في القرآن بشأن الحجاب إنما كان بخصوص نسوة الرسول ﷺ، وأن هذه الأحكام ليست بالضرورة متعلقة بسائر النسوة»[4].

والآية الكريمة: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين...**﴾[5] تذكر الأمر لأزواج الرسول ﷺ وبناته وكذلك نساء المؤمنين... ولو لم تذكر الآية غير نساء النبي ﷺ فهذا لا يكون تخصيصاً لهن دون سائر المسلمات، وحكماً لا يتعداهن إلى غيرهن، وكما يقول الدكتور محمد حسين[6]: «وهو خطأ ظاهر فرسول الله ﷺ هو قدوة المسلمين

---

(١) الأستاذ يوسف كمال: من مواليد الشهداء منوفية حاصل على بكالوريوس تجارة ـ قسم الاقتصاد.
من مؤلفاته:
١ ـ العصريون معتزلة اليوم.
٢ ـ منهج المعرفة من القرآن الكريم.
٣ ـ أضواء على الفكر الاقتصادي الإسلامي.

(٢) العصريون معتزلة اليوم، يوسف كمال، ص ٥، ٦.

(٣) فئة العصريين.

(٤) العصريون، مرجع سابق، ص ٣٤ (عن مقال بجريدة الأخبار للدكتور عماد عبد الحميد النجار).

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٦) حصوننا مهددة من داخلها، ص ٦٥.

ومثلهم الأعلى، ونساؤه قدوة المسلمات ومثلهن الأعلى». فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾(١).

ثم نأتي إلى قولٍ آخر: قاله قائد انفلات المرأة من قيمها وعقيدتها قاسم أمين(٢) في كتابه تحرير المرأة حيث يقول: «إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة. وإنما هي ـ في زعمه ـ عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها، وألبسوها لباس الدين، كسائر العادات الضارة التي تمكنت من الناس باسم الدين والدين منها براء»(٣).

ويعلق على آية: ﴿**... ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها...**﴾(٤). فيقول: «إن الآية أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها، غير انها لم تسم تلك المواضع».

وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب، واتفق الأئمة على أن الوجه والكفّين مما شمله الاستثناء في الآية، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين، ولماذا لم يؤمر الرجال بالتبرقع خوفاً على النساء من الفتنة؟ وهل المرأة أقوى عزيمة من الرجل؟ أو أقدر على ضبط النفس؟(٥).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١ .

(٢) قاسم أمين: (١٨٦٥ ــ ١٩٠٨). قاضي وكاتب عربي. ولد بطره في مصر من أصل كردي، ونشأ بالاسكندرية وبها تعلم. وعاش بالقاهرة وبها توفي. تعلم في الأزهر، وكان وثيق الصلة بالإمام محمد عبده وسعد زغلول. درس القانون بجامعة مونبيلييه بفرنسا، وعمل في النيابة والقضاء. اشتهر بدفاعه عن قضية المرأة العربية، ودعا إلى سفورها وتعليمها ومشاركتها الرجل في الحياة العامة، وأثار كتابه «تحرير المرأة» ١٨٩٩ م جدلاً عنيفاً فتولى الرد على معارضيه في كتابه الثاني «المرأة الجديدة» ١٩٠٦م . له مجموعة كلمات نشرت. أثارت آراؤه التقدمية كثيراً من المقالات والمساجلات والمناقشات ين كتّاب عصره. يعتمد أسلوبه على الحجة والإقناع الهادىء، لا على الأسلوب الخطابي، والصنعة، والمبالغة.

(٣) تحرير المرأة، قاسم أمين، ص ١٦٩ .
ـ انظر: مقومات تطبيق الشريعة، مناع القطان، ص ٨٢ .

(٤) سورة النور، الآية: ٣١ .

(٥) تحرير المرأة، قاسم أمين، ص ١٧٠ .

ونكتفي في هذا المقام بهذين المثلين اللذين يوضحان اتجاه صبيان الاستشراق والتغريب ومحركي الماء الآسن الفاسد، فتفوح رائحته ويزداد الطين بلة.

وبذلك كانت الضربة الأولى للمرأة، فنادوا بأن تخلع حجابها ففعلت وشجعها على ذلك الغافلون من أبناء دينها، ثم نادوا بأن تتجرد من ملابسها شيئاً فشيئاً.

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنات والبنين شيئاً مسلّماً به في معاهد التعليم، أكثر، وفي الحياة الاجتماعية، أغلبها ثم زجوا بالمرأة في ميادين العمل ومصارعة الحياة ومزاحمة الرجال، تقوم بما لم تهيئه لها طبيعتها، وما لا تستطيعه في كثير من الأحيان، ـ كل ذلك باسم الحرية والمساواة بالرجل ـ فعملت صاغرة ذليلة مخلدة في المزارع والمصانع وخدمت الرجال في الفنادق، وغنت لهم ورقصت، حتى غدت سلعة رخيصة تباع وتشترى[(١)].

وعسانا بهذا أن نكون قد وقفنا على بعض ما ألم بالمرأة المسلمة من وراء تغريبها بشيء من التفصيل: ونستطيع الآن أن نذكر شيئاً من هذه الآثار المستوردة بالنسبة للأسرة والمجتمع، وقد نجمل ما كان الإجمال جامعاً لأطراف الموضوع، وقد نفصل بعض ما نرى ضرورة توضيحه لأهميته في تشخيص البلاء، أو رجاء إيجاد ما يكون له علاجاً وشفاء. فأما الأسرة فقد بليت بالكثير فكل البلاء منبعه ومصبه عندها، فبعد إبعاد المرأة عن بيتها كان طبيعيّاً أن يترك أفراد الأسرة بعيداً عن رعايتها وحدبها خاصة الأطفال، أمل المستقبل، والذين تركوا للخدم للقيام على تربيتهم، وبذلك حرم الطفل من تربية الأم المشبعة بروح الأمومة وفطرتها الصافية. ثم يأتي بعد ذلك دعوة الغرب الخبيثة في مجال حرب المجتمع المسلم كله والحيلولة بينه وبين النمو والتزايد، وذلك بالدعوة إلى تحديد النسل. هذه الدعوة التي تحمل الدمار الجسمي والخلقي للمرأة، فعلاوة على ضرر الهرمونات لجسم المرأة. فهي تفتح الباب ـ والعياذ بالله ـ لتسهيل جرائم الزنا بإخفاء آثارها بهذه الوسائل.

ثم يأتي بعد ذلك السهم الرائش الموجه إلى قلب المجتمع المسلم لتغريب عاداته

---

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د/ علي عبد الحليم محمود، ص ١٤١ .

وتقاليده وآدابه العامة ليذوب المجتمع وينساح. فيصبح في أحضان الحضارة الغربية فريسة سائغة يسهل ازدرادها.

فقد غرّبوا طريقتنا في الطعام والشراب، وغربوا طريقتنا في اللباس والزي، كل ذلك في طريق معاكس لأوامر الإسلام وتعاليم الدين تماماً كما أوضحت في أول المبحث[١] فقد أمرنا الرسول ﷺ بالأكل باليمين، فجاءت حضارة الغرب الوافدة لتعلمنا كيف نمسك أدوات الطعام حسب نظام الرقي والحضارة الغربية، لنصل لتناول اللقمة باليسرى. أمرنا الإسلام بإطالة ثوب المرأة وتقصير ملابس الرجل، فجاءنا الغرب بتطويل ملابس الرجال بل المبالغة في ذلك وتقصير ملابس المرأة والمبالغة في ذلك. فمقياس التحضر بالنسبة لها بمقدار ما تعريه من جسدها، حتى تصل إلى قمة الحضارة والرقي.

وأختم هذه الهجمة الشرسة بمصيبة الاختلاط، الذي بذره التغريب في التعليم في السنوات الأولى منه، ثم إلى الجامعة فجميع مراحل التعليم، بل الدعوة الصريحة في كتب التربية وعلم النفس. التي تنشرها المؤسسات الكافرة[٢] في بلاد الإسلام إلى الاختلاط طريقاً للتخلص من «الكبت الجنسي». وغير ذلك من ترهاتهم في علم النفس وغيره. والاختلاط كما يريدونه ويعبرون عنه، فإنه ليس له نتيجة إلا أحد أمرين:

أولهما : «البرود الجنسي» عند الرجل والمرأة.

وثانيهما : الإباحية التي تصل إلى البهيمية الكاملة[٣]...

وما داهية اختلاط النساء بالرجال إلا واحدة من حلقات هذا المخطط الرهيب المعادي للإسلام، يحاول بها العدو أن يقضي على رجولة الرجال وأنوثة النساء وعفافهن.

ويصل بها من وراء ذلك إلى إشاعة التخنث والميوعة والتفاهة في الرجال، والترجل

---

(١) انظر صفحة ٣٣٥

(٢) مؤسسة فرانكلين الأمريكية، ومؤسسة التعليم الأساسي بسرس الليان التابعة لليونسكو: وهي أمريكية في لباس دولي.

(٣) وضح الأستاذ الدكتور محمد حسين كل ما يتعلق بالاختلاط ونتائجه في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها من ص ٦٨ وما بعدها.

والتهتك والعري في النساء، فتنسلخ شخصية المسلم من دينها، وتندفع على غير وعي ولا هدى إلى تقليد الأوربيين في هذه الدواهي التي يحرمها الإسلام وتخالف روحه ونصوصه[1].

هذه بعض آثار ومظاهر الحضارة الغربية الغازية في المجتمع المصري خاصة والإسلامي عامة ذكرنا طرقاً منها[2].

ولعل من الملائم قبل أن نترك اتجاه التغريب أن نشير إلى ما فعله في مجال نظم الحكم والسياسة والاقتصاد في مجتمعنا الإسلامي وهي من أهم الجوانب إيجابية وتأثيراً.

وقد خطط العدو ونجح في تخطيطه لتصبح أنظمة الحكم في أغلب بلدان العالم الإسلامي أنظمة غربية وفي مصر بنوع الخصوص باعتبارها المثل والقدوة، ولتصبح القوانين والآداب الاجتماعية نظماً غربية مستوردة وبعيدة عن الإسلام ومعادية له ولنظمه مستهدفة أن تحل محل الإسلام ونظمه.

ففي الاقتصاد جاءت البنوك الربوية، وسموها بالفائدة تعمية وتبريراً، وفي القضاء جاءوا بالأنظمة الغربية وأبعدوا الشريعة الإسلامية عن التطبيق.

ولقد كان الهدف من تغريب هذه النظم، نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والقضاء وما إلى ذلك، هو عزل الإسلام عن قيادته الراشدة للحياة والأحياء وتعطيل الشريعة الإسلامية التي اختارها الله تعالى نظاماً متكاملاً تقوم عليه حياة الأمن والطمأنينة لكل الناس[3].

---

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د/ علي عبد الحليم محمود، ص ١٤٥ .

(٢) لم نقصد الاستيعاب والتوسع حتى لا تميل بهذا الاتجاه فيغطي على الاتجاهات الفكرية الأخرى، وكل نقطة مما سبق فيها مجال واسع للباحثين لتكفي وحدها لرسالة كاملة.

(٣) انظر: الغزو الفكري، المرجع السابق، ص ١٤٦، ١٤٧ .

المبحث الثاني

اللغة العربية والأزهر في مواجهة التغريب

ويشتمل هذا المبحث على مطلبين:

المطلب الأول : اللغة العربية في مواجهة التغريب.

المطلب الثاني : تغريب الأزهر.

المطلب الأول

اللغة العربية في مواجهة التغريب

لقد عمد الاستعمار الغربي على أن يشن على اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، حرباً شرسة، وهجوماً ضارياً، مستخدماً كل ما يمكنه من الإجهاز عليها. وذلك بطرق عدّة، أولها: الدعوة لاستخدام العامية واللهجات الإقليمية المحلية، ثم الدعوة إلى استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة العربية. ثم الدعوة إلى التحلل من قواعد اللغة العربية (النحو والصرف) بما هو مخرب لها وقاضٍ عليها في حاضرها ومستقبلها. ويجدر بنا قبل أن نبحث تلك الدعوات التغريبية للرد على دعاواها أن نوضح ما يلي:

ما هو تعريف العامية أو العاميّ من الكلام؟

ولنعرف معنى العاميّة لا بد لنا من تحديد مدلول كلمتي العامة والخاصة، وقد تبين من المعجمات اللغوية تفسير كلمة «العامة» بأنها خلاف «الخاصة» وتفسر «الخاصة» بأنها «خلاف العامة».

لكن المعجم الوسيط الذي أخرجه مجمع اللغة العربية ألقى ضوءاً أكثر على كلمة «العامة» حين قال: «إن العامي من الكلام: ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي. والعامية: لغة العامة، وهي خلاف الفصحى[(١)].

وقد ناقش هذا التعريف الدكتور عبد العزيز مطر في كتابه، فقال[(٢)]:

---

(١) المعجم الوسيط، ابراهيم مصطفى وآخرين، المكتبة العلمية ـ طهران، ٦٣٥/٢.

(٢) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة . د/ عبد العزيز مطر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م ص ٣٥.

«فالعامة في هذا المعجم: من يتكلمون بلغة مختلفة عن الفصحى، ولكن هذا التعريف غير مانع، إذ أن أكثر الخاصة عندنا يتكلمون بخلاف الفصحى في خطابهم العادي ولم يبين على وجه الدقة طوائف الشعب الذين ينطبق عليهم لفظ «العامة» والذي ينطبق عليهم لفظ «الخاصة»».

وأخذ يناقش عدة آراء علمية لبعض العلماء القدامى والمعاصرين[1]، ثم قال:

«والرأي الذي نرتضيه بعد هذا كله هو:

الخاصة الذين يرد ذكرهم في كتب اللحن هم علماء اللغة والشعراء والكتاب والخطباء، والفقهاء والقراء والمحدثون ومن في مستواهم.

والعامة هم من عدا هؤلاء من طوائف الشعب، وهم طبقات كما أن الخاصة طبقات[2].

إن المستعمر يدرك تماماً أن اللغة العربية هي فكر الأمة ووجدانها، ورباطها المتين بعقيدتها وإسلامها، فالحرب الحقيقية لأمة تبدأ بحرب لغتها للقضاء على تاريخها وحضارتها، ومسخ حاضرها، ومستقبلها».

وقد نجح عدونا في أن يغزو فكر الأمة الإسلامية بلغاته التي أشاعها بل فرضها على أبناء البلدان الإسلامية، التي احتلها لغة تعليم، ولغة وظائف، بل لغة يستكثر بها من المال والجاه والسلطان، فكانت حملة ضارية لتغريب اللسان العربي بقتل فصحاه أولاً ثم إحلال لغات أجنبية أو لهجات عامية محل الفصحى. فنجح عدونا في أن يفقد كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية ثقتهم بلغة القرآن الكريم، فسماها أحياناً باللغة الدينية، وأحياناً اللغة الجامدة الفظة الغليظة، وأحياناً وصفها بالعجز والتخلف، وأحياناً ادعى أنها أصعب اللغات فهماً وتعلماً ونحواً وتصريفاً»[3].

وقد بذل الاستعمار الإنجليزي في مصر بدءاً من احتلالها عام ١٨٨٢ م، ما في وسعه لصبغ الحياة العامة بصبغته، وطبع التعليم العام بطابعه مادة ولغة، وتاريخاً.

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول تلك الآراء يرجع إلى كتاب «لحن العامة» المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.
(٣) انظر: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، د/ علي عبد الحليم محمود، ص ١٣٣.

فلغة المكاتبات الرسمية، ولغة التعليم العام هي لغة المستعمر، أما اللغة القومية فلغة أجنبية ثانوية، وأرغم الإنجليز ناظر المعارف آنذاك(١) على إصدار قرار عام ١٨٨٩ م ينص على:

«أن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الإنجليزية» ولم يكتفوا بذلك في محاربة الفصحى. بل روّجوا لتكون العامية لغة تعليم وكتابة وتأليف(٢). وذلك لتحقيق أهداف استعمارية قاتلة منها:

١ - قصر التعليم على طائفة خاصة وطبقة معينة، تدين لهم بالولاء وتتولى الوظائف الحكومية.

٢ - ومنها إضعاف الروح القومية بين المتعلمين، لأن اللغة الأجنبية التي يتعلم بها المرء تؤثر في عقليته وتفكيره، وتوجه ولاءه توجيهاً بعيداً عن أهداف أمته، مما يمكّن للاستعمار في النفوس والقلوب.

لذلك قاوم المصريون المخلصون هذا القرار الاستعماري الغاشم، واستطاع رجال القانون أن يمنعوا تنفيذه في مدرسة الحقوق، فظل القانون بلغتنا لم يمسسه سوء.

ولما تولى سعد زغلول نظارة المعارف ١٩٠٦ م أصدر قراراً قومياً يلغي القرار الاستعماري السابق، ويقضي بتعريب التعليم في جميع المراحل التعليمية.

ولكن الإنجليز حاربوا تعريب التعليم العالي بكل قواهم، حتى أنهم أخرجوا سعداً من نظارة المعارف، إذ رأوه مصرّاً على التعريب(٣).

وكذلك كان المستشرقون يشجعون طلبتهم في جامعات أوربا وأمريكا على تقديم أبحاثهم عن اللهجات العامية في البلاد العربية. ولم تعد مساعي المبشرين والمستشرقين اليهود لتفتيت اللغة العربية خافية على أحد فقد دأبوا على إذاعة الأراجيف الباطلة حول اللغة

(١) كان ناظر المعارف هو محمد زكي باشا وزير الأشغال العمومية والمعارف في وزارة مصطفى فهمي باشا عام ١٨٩١م. (النظارات والوزارات المصرية جمع وترتيب فؤاد كرم، اصدار مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ مطبعة دار الكتب ١٩٦٩م، ص ١٥٠).

(٢) الغزو الفكري في العالم العربي، عبدالله عبد الجبار، المكتبة الصغيرة ط ٣، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، ص ١٢.
ـ حصاد الغرور، محمد الغزالي، دار القلم دمشق ـ ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص ١٤٨.

(٣) حصاد الغرور، المرجع السابق، ص ١٤٨.

الفصحى وقدرتها على الحياة لأداء متطلبات العصر الحديث في العلوم والفنون ومسايرة التطور العلمي فهي لغة فقيرة مجدبة، لا تستوعب المصطلحات العلمية، ولا تتسع لصياغة العلوم، والعربية هي أغنى لغات الدنيا بأبنيتها الاشتقاقية، وأساليب بيانها، ووجوه دلالتها، وقد وسعت العلوم كلها يوم أن كان الغرب لا يعرف شيئاً منها[1]، وهم يهوّلون دائماً في صعوبة النحو وعسره وصعوبة الحرف العربي الجميل محاولين استبداله بالحرف اللاتيني، وشهدت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر معركة عنيفة قادها عملاء اليهودية العالمية من أمثال ولكوكس وباول ويعقوب بن صنوع (يهودي) لمحاربة الفصحى والترويج للعامية[2].

وساعدهم في الحرب ضد العربية الفصحى نفر من أقطاب الفكر في مصر وسورية منهم: اسكندر المغلوف، سلامة موسى، عبد العزيز فهمي[3]، ولطفي السيد، سعيد عقل، أنيس فريحة، الخوري فاروق غصن[4].

وكان أخطرهم جميعاً عبد العزيز فهمي باشا الذي لم يكتف بالدعوة إلى العامية بل طالب بتغيير الحرف العربي واستعمال الحرف اللاتيني أسوة بما فعله أتاتورك في تركيا[5]. ولكن دعوته دحضت في مهدها بفضل الله.

ودعاة العامية من الغرب يهدفون بالدرجة الأولى إلى هدم المقوّم الأول للأمة العربية، وللقومية العربية، وللوحدة العربية، وهو اللغة العربية الفصحى التي يفهمها العربي من المحيط إلى الخليج في حين أن العامية تقتصر على قطر دون قطر، بل أن أبناء القطر الواحد لا

---

(١) معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية (بحث مقدم إلى ندوة تطبيق الشريعة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مناع خليل القطان، ص ٥٣ .

(٢) دراسات في المجتمع العربي، د/ صلاح الدين عبد الوهاب، دار النشر والإعلان، ١٩٦٢م، ص ٣٧ .

(٣) عبد العزيز فهمي: (١٨٧٠ ـ ١٩٤٨) سياسي مصري ورئيس حزب الأحرار الدستوريين، ورئيس مجمع اللغة العربية اشتغل بالمحاماة وانتخب عضواً بالجمعية التشريعية ١٩١٤م . ثم نقيباً للمحامين. كان أحد الثلاثة الذين ذهبوا لدار الحماية ١٩١٨ م للمطالبة باستقلال البلاد. اشترك في الوفد المصري برئاسة سعد زغلول، منذ تأسيسه إلى ١٩٢١، ثم انفصل عنه. عين رئيساً لمحكمة الاستئناف ومحكمة النقض، ووزيراً للعدل، ووزيراً للدولة ١٩٣٧، رأس حزب الأحرار الدستوريين ١٩٤١ . له بحوث لغوية.
(الموسوعة العربية الميسرة ١١٨٣).

(٤) تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر، د/ نفوسة زكريا سعيد، دار المعارف ـ ١٩٦٤م، ص ٥٥، ٧٨ .

(٥) المرجع السابق، ص ١٢٤، ١٤٥ .

يفهمون اللهجات المحلية لكل منطقة من مناطقه، ويهدفون كذلك إلى القضاء على لغة القرآن الكريم وجعل كتاب الله أثراً تاريخياً قديماً مثل الكتب اللاتينية المحفوظة في المتاحف. وهم يعلمون بأن القضاء على الحرف العربي يؤدي الى هدم التراث العربي الإسلامي الخالد. وفصله عن حاضر الأمة العربية ومستقبلها، وفي ذلك ضياع رهيب لمقومات الأمة حين يبتر ماضيها عن حاضرها ومستقبلها. لمثل هذا يعمل المبشرون والمستشرقون من اليهود ولا لوم عليهم في ذلك. واللوم كل اللوم على أولئك العرب الذين انساقوا في التيار الذي كان وما زال يسعى الى اجتياح الأصول العربية التي تشكل عناصر البقاء والخلود لهذه الأمة[1].

فالعربية الفصحى ـ في رأي خصومها من أبنائها ـ «لغة لا ترضي المثقفين في العصر الحاضر لأنها لا تخدم الأمة ولا ترقّيها، بل هي سبب من أسباب التأخر الاجتماعي، شاذة تحتاج إلى إجراء شاذ، خرساء جامدة لا تتغير، وفي العالم مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا هذه العربية، ونطقنا بلغة أخرى، واستبدلنا بالحرف العربي الحروف اللاتينية.

ويتساءل الأستاذ عبد الله عبد الجبار بعد أن أورد هذه الآراء. هل هي أصيلة أو مستوردة؟. فيقول: لو رجعنا الى القرن التاسع عشر في بواكير الاستعمار الإنجليزي لمصر، لعرفنا أنها صدى لأبواق المستعمرين أمثال: المهندس «وليم ولكوكس» والقاضي «سلدون ولمور» اللذين قاما بنشاط خطير للترويج للعامية، ففي عام ١٨٩٣ م نشر «ولكوكس» محاضرة بعنوان: «لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟» زعم فيها أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى، وأنهم لو ألفوا وكتبوا بالعامية لأعان ذلك على ملكة الابتكار وتنميتها»[2].

ثم جاء بعده «ولمور» عام ١٩٠١ م لينشر كتاباً بالإنجليزية بعنوان: «العربية المحكيّة في مصر» مقترحاً فيه:

١ ـ ضبط العامية مع كتابتها بأحرف لاتينية لأن الحروف العربية لا تصلح للكتابة العامية.

٢ ـ جمع الأدب العامي ونشره.

---

(١) انظر: القومية والفصحى، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦١، ص ١٧٩.

(٢) الغزو الفكري في العالم العربي، عبدالله عبد الجبار ص ٤٤ ـ ٤٥.

٣ ـ أن يكون التعليم بالعامية إجبارياً. ورأى أنه في ذلك إنهاء الأميّة ونشر القراءة في فترة وجيزة حددها بعامين. وقال بأن معارضة رأيه هذا سيكون سبباً في انقراض العامية والفصحى معاً، واحتلال لغة أجنبية محلهما.

ثم توالت هذه الدعوة الخبيثة من هذين الرجلين بإصرار وبتكرار لما يدعون إليه حتى قام «ولكوكس» بتدعيم قوله بالعمل في سبيل تحقيق هدفه الاستعماري التغريبي الصليبي الحاقد على الإسلام، فترجم «الإنجيل» الى العامية، ثم ألّف كتاباً بالعامية بعنوان: «الأكل والإيمان» ضمّنه إرشادات صحية مصطبغة بالتعاليم المسيحية، وبذلك ضرب كل «العصافير» الذي يريد بحجر واحد.

وبذلك دخلت هذه الدعوة الى مرحلة أشد خطراً، فقد خرجت من طور التنظير الى مرحلة التطبيق العملي وبدأ هذا التطبيق أولاً على أيدي أساطين التغريب ثم تبعهم بعد ذلك تلاميذهم وعملاؤهم من العرب.

فنجد «سعيد عقل» الأديب اللبناني المعروف لم يكتف بالترجمة أو الكتابة بالعامية، بل تجاوز هذه المرحلة أيضاً إلى مرحلة أشد وأقسى، فقد اخترع أبجدية جديدة للغة العربية العامية تكتب بحروف لاتينية قوامها ٣٦ حرفاً مقابل الحروف العربية الثمانية والعشرين، وأسس لمشروعه الخطير مطبعة خاصة كبيرة، تطبع كتباً مؤلفة ومترجمة وكلها بالعامية اللبنانية.

«ولنتساءل مع من تساءل عن هذا المشروع التخريبي... مَن الذي يمول مطبعة سعيد عقل؟ ومَن الذي يقف مادياً وراء هذا المشروع الكبير؟ لا بد أن تكون هناك هيئة... ما طبيعتها؟ ما مصلحتها في ذلك؟»[(١)].

ولنجيب على ذلك بأن كل ما نراه من دعوات تغريبية تخريبية مدروسة ومخطط لها تخطيطاً دقيقاً محكماً، أنها جاهلية القرن العشرين. الجاهلية العلمية والتي تحسب المبادىء والنهايات، ولا مكان فيها للدعاوي والمغالطات ولا للإرتجال والمجازفات، (والله المستعان على ما يصفون).

---

(١) الغزو الفكري في العالم العربي، مرجع سابق، ص ٤٧ .

المطلب الثاني

تغريب الأزهر

الأزهر بمفهومه ومعناه الذي استمر في تاريخه الطويل المديد، بين القوة في الأغلب، والضعف في أحايين قليلة، متقلباً مع حقب التاريخ قوة وضعفاً.

فكان دائماً مصدر المفاهيم السليمة للأمة، فإن فسد فسدت، وإن صلح صلحت الأمة في مفاهيمها، إن فسد فسيحترف رجاله الدين عن غير فهم صحيح للإسلام، فيطغى الانحراف في توجيه الأمة، وتنتشر المذاهب الانفرادية والاباحية[١] وتزيد الأمة ضعفاً بذلك على ضعف!! وبهذا يخف وزن الإسلام وتخف قيمه في نفوس الناس، وبالتالي يقوى النفوذ الاستعماري الغربي، ولا يستطيع المسلمون أن يواجهوه في صف واحد كتلة قوية.

وإن صلح هذا الأزهر فسيشع منه نور الهداية، وسيكون علماؤه قدوة للمواطن المسلم الصالح، قدوة في العمل والتفكير معاً[٢].

ولذلك منذ جاء النفوذ الاستعماري الغربي، كان حريصاً على احتواء الأزهر لما رآه من المواقف المتعددة للأزهر وعلمائه وطلابه في ترشيد الشعب، ومقاومة الاستبداد من الحكام، وموقفه من الأمراء المماليك، وكيف تصرف الشيخ الدردير، وأمر بدق الطبول على

---

(١) مثل: الفرويدية وهي التي تفسر السلوك الإنساني تفسيراً جنسياً، وتجعل الجنس هو الدافع وراء كل شيء، كما أنها تعتبر القيم والعقائد حواجز وعوائق تقف أمام الإشباع الجنسي.
(الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩، وكذلك الوجودية وغيرها).

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، البهي، ص ١٥٩.

المنارات إيذاناً بالاستعداد لمهاجمة بيوت الأمراء ونهبها نظير ظلاماتهم للناس، فاعتذر أميرهم (ابراهيم بك) ووعد بأن يكف أيدي الأمراء عن الشعب.

ثم كان موقف الأزهر من الحملة الفرنسية، ومن محمد علي، حين دخل مرحلة الاستبداد وبهذا الاستقراء عرف الاستعمار البريطاني مدى خطورة الأزهر على وجوده منذ احتل مصر سنة ١٨٨٢ م ولذلك نجد أن كرومر[١] (المعتمد البريطاني في مصر) يقول في تقريره:

«إن التعليم الوطني في قبضة الأزهر الشديد التمسك بالدين والذي يقف في طريق أي إصلاح تعليمي، وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون قدراً عظيماً من غرور التعصب الديني.. فلو أمكن (تطويره) لكان خطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن يتصور أي تقدم لنا طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه... وإذا بدا أن مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها، فحينئذٍ يصبح الأمل محصوراً في التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح»[٢].

ومنذ ذلك اليوم الذي وطئت قدم الاستعمار الإنجليزي أرض مصر ١٨٨٢ م، أصبح الأزهر مستهدفاً، بل هدفاً رئيسياً للعمل على تقليص دوره، تمهيداً للقضاء عليه نهائياً إذا أمكن، فجاءت للأزهر السهام من كل جانب:

---

(١) هو: افلن بيرنج ايرل، ولد سنة (١٨٤١م)، إداري ودبلوماسي بريطاني خدم بمصر، عين ضابطاً (١٨٥٨م)، وأميناً خاصاً لحاكم الهند (١٨٧٢ ـ ١٨٧٦م) وهو المندوب البريطاني لصندوق الدين الذي ألفه الخديوي اسماعيل، اختير وزيراً للمالية بالهند (١٨٨٠م) (١٨٨٣م) ثم اختارته الحكومة البريطانية (١٨٨٣م) عقب الاحتلال البريطاني لمصر، ليكون الوكيل البريطاني والقنصل العام بمصر، ومنذ ذلك الحين حتى استقالته (١٩٠٧م) وهو الحاكم الحقيقي لمصر، وكان تاريخ البلاد إبان هذه الحقبة هو تاريخ السياسة التي انتهجها، عين مستشارين من الإنجليز للوزارات المصرية يكونون مسئولين أمامه، ومفتشين في المديريات من الإنجليز، ولم يكن يعين رئيسٌ للوزارة المصرية إلا بموافقته، سلب من عباس خديوي مصر كل سلطة فعلية، كما قصر التعليم في المدارس على تخريج صغار الموظفين في الحكومة المصرية ليستأثر بالوظائف الكبيرة للإنجليز، وافق على الأحكام الصارمة على المتهمين في قضية «دنشواي» (١٩٠٦م) . مات سنة (٩١٧م).
(انظر: محمد شفيق غربال وآخرين، الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٥٦)، (١٤٥٧).

(٢) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ١٥٦ .
ـ معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثمانمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري، أنور الجندي، دار الاصلاح للطبع والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨١م، ص ٢٩ .

أولاً : التوسع في التعليم اللاديني (العلماني) لتقليص دور الأزهر.

ثانياً : إنشاء الجامعة الأمريكية التي أريد بها تحويل الأنظار عن الأزهر.

ثالثاً : إنشاء الجامعة المصرية التي سرعان ما اتجهت الى مخطط التعليم العلماني بفضل تلاميذ الاستعمار والاستشراق أمثال طه حسين[١] وأحمد لطفي السيد[٢]... (أستاذ الجيل كما نعتوه).

رابعاً : إنشاء مدرسة دار العلوم لتخريج مدرّسي لغة عربية ومواد دينية وبذلك تضيق السبل أمام خريجي الأزهر لتفضيل خريج دار العلوم للتعيين في هذه الوظائف.

خامساً : التضييق على ميزانية الأزهر مالياً... وذلك بالاستيلاء على دخل الأوقاف. ثم عمل مخصص للأزهر من الميزانية العامة، وذلك كما جاء في خطاب «دنلوب» ـ المستشار الإنجليزي ـ إلى شيخ الأزهر في عام ١٩١٥ م معتذراً عن قلة الميزانية المخصصة للأزهر ووعد بتخصيص ٨ آلاف جنيه من وزارة الخزانة على أن تنقل أوقاف الأزهر الى وزارة الخزانة[٣].

وقضية الاحتيال لتجريد الأزهر من جميع أوقافه ونهبها. فقد عملت القوى المختلفة منذ عهد محمد علي وهم يحتالون للأمر. حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أولاً، ثم بالسلطة الجائرة ثانياً. أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالاً من الخزينة[٤] للقضاء على قوته ولإضعافه وتدمير استقلاله.

---

(١) انظر ترجمته في نهاية الفصل.

(٢) انظر ترجمته في نهاية الفصل.

(٣) انشئت وزارة الأوقاف في ذلك الحين بميزانية مستقلة واستمرت حتى ١٩٥٦م إلى أن جاءت حركة الجيش سنة ١٩٥٢م حيث صدر قرار بضم الأوقاف إلى الحكومة. فأصبح رجال الأزهر والدعوة الإسلامية موظفين لدى السلطة وأصبح رجال الأزهر يتحدثون عن الاشتراكية. وعما يرضي السلطان.. وهلم جراً.
(انظر: عقبات في طريق النهضة ص ١٥٧).

(٤) وقد استولى الإنجليز إبان ثورة ١٩١٩م على حجج أوقاف الأزهر بعد أن اقتحموا مكتبة الأزهر واستولوا على تلك الحجج.
(راجع المرجع السابق ذات الصفحة).

ويجمل لنا الأستاذ أنور الجندي الخطوات المرحلية التي تمت لتنفيذ خطة احتواء الأزهر والسيطرة عليه فيقول[1]»

١ ـ مصادرة أوقافه.

٢ ـ القضاء على الروح الوطنية التي قادت ثورة القاهرة على الفرنسيين وثورة ١٩١٩ م.

٣ ـ القضاء على زعامته الشعبية التي فرضت على أمراء المماليك اتفاقية حقوق الإنسان.

٤ ـ تسلط الفرنسيين ومحمد علي والاحتلال البريطاني على الأزهر لتفريغه من قوته الذاتية بعد أن أشارت توصيات مؤسستي التبشير والاستشراق إلى خطر الأزهر.

٥ ـ تفريغ الأزهر من قواه . وعدم تمكينه من القيام بأي دور في مواجهة النفوذ الأجنبي، وذلك بالسيطرة على رجاله: (بالوظيفة، والدرجة، والعلاوة...) وليكون علماء الأزهر أداة طيعة في يد السلطة، أما الدكتورة بنت الشاطىء[2] فتصور ما حدث للأزهر بعد أن كان في أوج عزه، ينفرد بالتعليم الأصيل فتقول:

«حين كانت المدرسة الإسلامية في أوج عزتها تنفرد بالتعليم الأصيل، وتنشئة أبناء الأمة في المرحلة الأساسية على منهج موحد لعلوم الإسلام والعربية أو علوم الرياضيات والطبيعيات نظرية وتجريبية.

وفي العصر الحديث عزلت المدرسة الإسلامية عن مكانها المرموق، وعطلت رسالتها الكبرى في التعليم الأساسي الأصيل الموجه، وصرف عنها أكثر التلاميذ إلى المدارس الحديثة (محلية وتابعة للبعثات التبشيرية)، والإرساليات العلمانية، وأنشئت الجامعات الحديثة، فما لبثت أن خطفت الأضواء بجاذبية عصريتها، وفخامة مؤسساتها ودرجاتها وألقابها المؤهلة للوظائف الراقية والمناصب العالية والمهن المريحة»[3].

ثم أخذت تصف كيف تغيرت الأوضاع والمنازل والقيم بعد أن جاء المد الثوري،

---

(١) عقبات في طريق النهضة، أنور الجندي، ص ١٦٠ .

(٢) بنت الشاطىء هي الدكتورة عائشة عبد الرحمن أستاذة ورئيسة قسم القرآن بجامعة الملك محمد الخامس بالمغرب العربي.

(٣) انظر عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
وانظر: الأزهر في ألف عام، خفاجي، ٢١١/١، ١٩٣/٢، ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

فاشتدت الحملة على السلفية المناوئة، أو المعوقة للتغيير، وكيف أن رجالات المؤسسات الدينية هم الذين أعانوا للنيل منها، وبدأت تلك المظاهر بما يلي:

أولاً : إلغاء المحاكم الشرعية وتذويبها في المحاكم المدنية، ففرح أهلها بما أوتوا، وغيّروا ما بأنفسهم، وذابوا في مجتمعهم الجديد (العصري).

ثانياً : وألغت الثورة «هيئة كبار العلماء» واستبدلت بها «مجمع البحوث الإسلامية» فأصبح تشكيلة خليطة من العلماء والشيوخ ودكاترة في الجغرافيا والطب وغيرها تخرجوا من جامعات غربية.

ثالثاً : ثم جاء تطوير جامعة الأزهر فاستحدثت (كليات علمية) لتضفي عليها العلمية وصفة العصر.. فما كان أسرع من كثرة من المشايخ بخلع زيهم التقليدي ولبس أزياء عصرية ليجاروا زملاءهم في كليات الطب والهندسة بالجامعة الأزهرية وأردفوا بطلب الدكتوراه من أي مكان بالغرب أو الشرق، فاختلط الحابل بالنابل، وسنحت الفرصة للدخلاء من اقتحام الموقع الديني يقدّمون بضاعتهم من العلمانيات الفجة الشائهة.

رابعاً : وتبع ذلك إيفاد نخبة من شباب الجامعات في بعثات للدراسة العليا الى دول حلف وارسو (الشيوعية) أو حلف الأطلنطي لتشغل مراكز القيادة لتوجيه الرأي العام بدعاة من الماركسيين، أو المتآمرين[(١)].

وهكذا تم لها ما أرادوا من احتواء للأزهر وتفريغه من محتواه العلمي والديني، وتشويه هذه الصورة التي أشرقت على دنيا الناس أكثر من عشرة قرون؛ ولكن الله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونختم هذا المبحث بصرخة الدكتور/محمد البهي لإصلاح الأزهر فيقول:

«الأزهر في رأيي هو قمة المؤسسات الإسلامية في العالم الإسلامي، التي كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الإلحادية وكانت تستطيع أيضاً أن تقدم للحياة

(١) انظر: عقبات في طريق النهضة، ص ١٦٦ ــ ١٦٧.
انظر: الأزهر في ألف عام، مرجع سابق، ٢١٩/١ ــ ٢٢١، ١٨٨/٢ ــ ١٩٠.

الإسلامية في مصر ووراء مصر، أكبر العون في حل المشكلات التي تدور في حياة الأسر الإسلامية، والاقتصاد الإسلامي، والتوجيه الإسلامي.

إصلاح الأزهر ليس رفع مرتبات، ولا إعادة طبع الكتب المتأخرة(١) ولا اقتباس نظام وترك آخر.

إصلاح الأزهر فكرة، وتنفيذ رسالة. هي فهم الإسلام وحسن عرضه، والملاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل، وهي رسالة فريدة، لا يمكن لمؤسسة تعليمية أخرى أن تنهض بها.

ومشيخة الأزهر ليست وظيفة يذلّ أو يستخدم القائم بأمرها لهدف سياسي، وليست إدارة الجامعة على نحو أية جامعة أخرى في الشرق. هي إيمان وإدراك للقيم، وفهم صادق للحياة والإيمان، هو الإيمان بالله أولاً والإدراك للقيم، هو الإدراك أولاً للكرامة الإنسانية، والفهم الصادق للحياة: هو الفهم أولاً لوضعية الشعوب الإسلامية في خضم المجال الدولي المعاصر، وفي التنافس الغربي والشرقي على جعلها تابعة تسير في فلك هذا أو ذاك.

إن الإسلام في غده يتأثر قوة وضعفاً، بقوة الأزهر وضعفه.. اليوم وبعد اليوم!!»(٢).

---

(١) يقصد كتب التراث.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، محمد البهي، مرجع سابق، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

المبحث الثالث

مدارس التغريب ونماذج من رجاله

ويشتمل هذا المبحث على:

المطلب الأول : مدارس التغريب.

المطلب الثاني : من رجال التغريب.

المطلب الأول

مدارس التغريب

وجد الاستعمار أن سلاح القوة أضعف من مواجهة قوة العقيدة، ففكّر في تنشئة زعماء قريبين من فكره بعيدين عن الإسلام وتكوّنت المدرسة الأولى «**مدرسة الاستعمار**» حتى يتسنى له التفاهم مع هؤلاء.

أما الوسيلة الأخرى التي اتخذها الاستعمار لإيجاد هذا التفاهم المفقود وعمل على تنفيذها. فهي أبطأ ثماراً من الوسيلة الأولى، ولكنها أبقى آثاراً ـ كما لاحظ اللورد لويد ـ وهي تتلخّص في تطوير الإسلام نفسه وإعادة تفسيره، بحيث يبدو متفقاً مع الحضارة الغربية، أو قريباً منها وغير متعارض معها على الأقل، بدل أن يبدو عدواً لها أو معارضاً لقيمها وأساليبها. وبذلك كانت المدرسة الثانية من مدارس التغريب المعروفة وهي «**مدرسة العصرانية**».

وإلى جانب هذين المنهجين، وجد منهج ثالث يقوم أساساً على فصل الدين عن الدولة وكان شياطينه هم نصارى العرب ونصارى الشام فكانت ثالثة الأثافيّ: «**مدرسة العلمانية**».

ولنحاول الآن تتبّع هذه التيارات الثلاثة التي كانت تجري في أرض المسلمين المستعمرة، والتي كان يغذيها وينمّيها الاستعمار بكل ما أوتي من تدبير وتفكير. وذلك في نقاط تكفي لكشفها والتحرز منها.

١ ـ «مدرسة الاستعمار»[١]:

منذ أن وطئت قدم الاستعمار الإنجليزي أرض مصر المسلمة فقد وجد نفسه أنه مهما أوتي من قوة وبطش، فلن يستطيع أن يقف بمفرده وسط هذا الشعب المسلم الذي يفرض عليه دينه عقيدة الجهاد ضد المحتل لبلاده المخالف لدينه الغريب عن قيمه ومبادئه.

ففكر كرومر عندما وجد من أمره عسراً أمام قادة يتحركون في جهادهم من داخل إطار المفهوم الإسلامي الجامع، وجد أحمد عرابي ومصطفى كامل[٢] ومحمد فريد.

ولمّا كان النفوذ الاستعماري يريد تثبيت إقامته وتركيز دعائمه فقد عجز عن التفاهم مع هؤلاء المؤمنين الصادقين بربهم ودينهم وأوطانهم وقاومهم شر مقاومة وعمل على تحطيمهم وتدميرهم، إما بالسجن أو النفي أو...، وأخذ في نفس الوقت في بناء زعامات جديدة داخل نطاق دائرة نفوذه، زعامات تؤمن به، وتستجيب له، وتلتقي به في منتصف الطريق وتتحرك في اطار مفاهيمه أساساً، ولا بأس أن تختلف معه خلافاً ظاهراً ما دامت هذه الزعامات تؤمن بوجوده وتتعامل معه، وتقبل سلطانه، وتقر بتنفيذ قانونه الوضعي ونظامه السياسي، وتخضع لمندوبيه، وتنفيذ نصائحه باعتبارها أوامر[٣].

ويتابع الأستاذ الجندي وصف المنضوين تحت هذا التيار بأنهم نبتة مسمومة، بل إنها سامة صنعها النفوذ الاستعماري في أرض الإسلام.

وكان الاستعمار يعد منسوبي هذا التيار الحارق لتحكم هذه البلاد بجلود مصرية وأفكار استعمارية وكان من «أوائل الطلبة» في هذه المدرسة والذين اجتازوا ما وضعه كرومر

(١) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين ص ٤٤، ٤٥، عقبات في طريق النهضة ص ٦١، معالم التاريخ الإسلامي، الجندي ص ٦٨، ٦٩.

(٢) مصطفى كامل: (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨)، سياسي وقائد مصري، ولد بالقاهرة، وتخرج في مدرسة الحقوق، ثم انصرف للدعوة للحركة الوطنية بالخطابة وتنظيم المؤتمرات والصحافة، سافر إلى أوربا وفرنسا خاصة للدعوة والمطالبة بجلاء قوات الاحتلال البريطانية عن مصر. أنشأ صحيفة «اللواء» الفرنسية والإنجليزية. كوّن الحزب الوطني ١٩٠٧ م، واختير رئيساً له. فبذل في سبيل الدفاع عن قضية مصر من الجهد ما أثر في صحته تأثيراً شديداً، فتوفي شاباً. (الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٧٠٩).

(٣) عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٠.

من معايير وحواجز، فتخطّوها بتفوّق واضح وألمعية أعجبت المستعمر، فنالوا منه العناية والرعاية، و«التلميع» والقاء الضوء عليهم بطرقه المختلفة[1]، حتى ينالوا إعجاب الجماهير. كان أوّلهم سعد زغلول وأحمد لطفي السيد، وعبد العزيز فهمي.

ثم كان أول عمل للاستعمار إيذاناً بنجاح خطته في تربية «البديل» للاتجاه الوطني الإسلامي، هو تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان مكافأة له على ولائه، وأيضاً حافزاً لغيره للانضواء تحت مفاهيم التغريب الجديدة لينال ما نال الابن البكر للاستعمار ومفاهيمه، والذي صار حرباً على الحركة الوطنية منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الوزارة فقام بما يثبت أقدامه في التيار الاستعماري وليثبت لكرومر أنه جدير بقيادة الحركة الفكرية والتعليمية في البلاد كما يريدها المستعمر. ولنذكر بعضاً مما بادر بالقيام به من أعمال:

- قدّم الزعيم «محمد فريد» إلى المحاكمة بقانون النشر والمطبوعات القديم بعقوباته الشديدة على كتاب الوطنية.

- انسحب من مشروع الجامعة.

- أول من حوّل مفهوم الوطنية في العالم الإسلامي من صيغته الإسلامية «متمثّلاً في الجهاد» الذي دعا إليه الإسلام إلى المفهوم الغربي الوافد القائم على المفاوضات والتفاهم، وقبول الأمر الواقع، والصداقة الإنجليزية، ومبدأ الخصوم الشرفاء المعقولين.

- أنه كان ولياً لخصوم الإسلام ولأعداء الدين، وأنه آزر النفوذ الأجنبي ولاء وصداقة وإعجاباً.

---

(١) كان من أهم هذه الطرق:
أ - العمل على التخلص من الجماعة المؤمنة من القادة الوطنية الإسلامية الحقة.
ب - إخراج جيل من المتفرنجين الذين يدينون بالولاء للنفوذ الاستعماري والوجود البريطاني والخاضعين للعيش الغربي بكل ما فيه من سياسة واقتصاد وعادات وأخلاق.
جـ - عمل خلافات فرعية بينه وبين هؤلاء حتى ينالوا إعجاب الجماهير.
د - توفير الإمكانيات الضخمة لهم لتمكنهم من السيطرة على الشعب (تكوين حزب الأمة واصدار الجريدة لبث الأفكار المراد تثبيتها عند الناس).

ولم يكن سعد زغلول[1] هو فارس التغريب الأوحد ولكن هناك رديفه وصنوّه في البلاء والتلبيس كان هناك «أستاذ الجيل»!!.. كان هناك «لطفي السيد» الذي صار النسخة الشائهة، لأعداء لغة القرآن من المستعمرين، والذين حاولوا توجيه الحرب على اللغة العربية بواسطة نفر منهم[2] فباءوا بغضب من الله، وفشلت دعواهم: فانتبه الاستعمار إلى منطقه بأنه «لا بد أن تقطع الشجرة بأحد أفرعها من الداخل». وبدأت المعركة ضد اللغة العربية تحت ستار مصري، كان هذا هو لطفي السيد أستاذ الجيل، الذي بدأ بدعوته لتمصير اللغة العربية ـ بمعنى اللهجة العامية المصرية ـ وهي هي: دعوة ويلكوكس، وولمور السابقين. وركب المسكين هذه الموجة وبذل كل ما وسعه ليحقق ما أراده الاستعمار.. وعاضده الغرب بكل ما أوتي من تربية وإظهار، حتى اختصه بالجانب الفكري.. كما اختص رفيقه (سعد زغلول) بالجانب السياسي.

فقاد لطفي السيد ترويج الأفكار الغربية.. وتأصيل عقدة النقص لكل ما هو شرقي وتمجيد كل ما هو غربي، وبأن الشرقية سمة التخلف والانحطاط وأن الاتصال بالقديم[3]

---

(١) سعد زغلول: زعيم وطني وسياسي مصري. ولد ي قرية إبيانة بمحافظة الغربية عام ١٨٥٧ درس بالجامع الأزهر، ثم بمدرسة الحقوق. اتصل بزعماء الحركة الفكرية في أواخر القرن الماضي كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. بدأ حياته محرراً بالوقائع المصرية. اشترك في ثورة عرابي ١٨٨٢ وسجن بضعة شهور. مارس المحاماة ١٨٨٤، اشترك في تأسيس الجامعة المصرية ١٩٠٧ مع لطفي السيد وطه حسين عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف. ثم عين وزيراً للمعارف فالحقانية.

ألف الوفد المصري برئاسته عام ١٩١٨ للسعي لاستقلال مصر. اعتقل في مارس ١٩١٩ مع ثلاثة من أعضاء الوفد ونفوا إلى مالطة، فانفجرت ثورة ١٩١٩ واضطر الإنجليز أن يطلقوا سراحه. اعتقل ثانياً ونفي إلى جزيرة سيشل ثم جبل طارق، شكل أول وزارة برلمانية بعد دستور ١٩٢٣، وتولى رئاسة مجلس النواب ٢٦ ـ ١٩٢٧ إلى حين وفاته في ٢٧ أغسطس ١٩٢٧.

ـ القاموس السياسي ص ٧٧٢ (أحمد عطيه الله).

ـ الموسوعة السياسية إشراف عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤ ص ٣١٠.

ـ الموسوعة الثقافية إشراف د/ حسين سعيد، القاهرة: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٤ ص ٥٤٣.

(٢) القاضي ولمور والمهندس ويلكوكس اللذين كانا أول داعيين للعامية وترك الفصحى ثم أردفا بتغيير الحروف العربية إلى اللاتينية حتى يلحق المصريون بركب التقدم العلمي والمدنية وباءت دعوتهما ودعواهما بالفشل أمام الإرادة الوطنية الإسلامية... (انظر ص ٥٠٧ وقارن).

(٣) يقصد به الإسلام والعلوم الإسلامية التي كانت هي العامل الرئيسي في نهضة أوربا ووصولها إلى ما وصلت إليه من علم وحضارة..

ظاهرة جمود وتحجّر، وأن الاتجاه نحو الغرب هو طريق التحضّر.

غير مفاهيم أخرى كثيرة علّمها لهم «كرومر» (رأس الأفعى) في تقاريره التي كانت معالم الطريق لهذه الدّمى والخيوط التي تحركهم بسياسة الاستعمار.

وكان كرومر يتخذ في تقاريره خطّاً ومنهاجاً يشد بعضه بعضاً، ليسير عليه هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنياهم، وجعلوا أوطانهم وبني بلدتهم لقمة سائغة للمستعمر..

ويرى الأستاذ الجندي أن تقارير كرومر: «كانت قد أوجدت نوعاً من الأدب الاستعماري، لم يكن معروفاً من قبل. وغاية هذا الأدب: تبرير الاغتصاب بحجة الاصلاح، وعمل الغاصب على خير المغصوب ولو رغم أنفه. وقد نسب الى نفسه أنه صديق الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء، ميال إلى العدل بين الدهماء.

ثم يوضح الأستاذ الجندي كيف كان كرومر يدسّ نبذاً قصيرة، بعيدة المرمى، عن ضرورة الاحتلال ووجوب التسليم لبريطانيا في سائر نواحي الحياة، وتخلّي المصريين عن الحكم لصعوبته وتعقيده، وعجزهم عن تناوله. وأن مصر لم تمر عليها فترة من التاريخ وهي حرة، بل قضت أجيالاً في العبودية، وأن انجلترا أرحم المستعمرين، أي أنها أعدل الظالمين، وأقلهم إجراماً. فإنها لم تحتل مصر لاستعمارها، بل لخير مصر ونفعها[١]. وقيامها بما انتدبتها لها العناية الإلهية من واجب القيام على شئون الإنسانية الضالة في بيداء الجهل، والفقر، والظلم»[٢].

من هذا النبع الآسن، ارتوى سعد زغلول وأحمد لطفي السيد وطه حسين. وأرادوا ترويج هذا الفكر، وتلك المفاهيم هم وجماعتهم مثل علي عبد الرازق ومحمود عزمي، ومعهم سلامة موسى، ونستطيع أن نجمل دعائم هذه المدرسة التغريبية في الفكر على الأسس التالية:

(١) النفع الذي عناه كرومر.. بإخراج المصريين من دينهم وإبعادهم عن عقيدتهم.. وقيمهم وأخلاقهم.. ليتبعوا الضلال في قيم الغرب بمفاهيمه وأخلاقه.. «Lend your wife but do'nt lend your pipe» (سلّف زوجتك لصديقك ولا تسلفه غليونك).

(٢) معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال (القرن الرابع عشر الهجري)، أنور الجندي، ص ٦٨ ـ ٦٩.

أولاً : الدعوى الباطلة بأن الإسلام دين روحي لا صلة له بالمناهج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأنه قاصر على العبادة والمسجد والصلاة والصيام أما أنظمة المجتمع فإنها تؤخذ من الغرب ومن الفكر الغربي، بدعوى أن الإسلام ليس له علوم سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية[1].

ثانياً : إنكار دور الإسلام في بناء الحضارة العالمية[2].

ثالثاً : الفصل بين الأدب العربي والفكر الإسلامي وإعطاء الأدب حرية في الانطلاق في التعبير عن الجنس والشبق والإباحيات والكشف، واعلاء هذا الجانب من شعر أبي نواس، وإعلاء روح الشعوبية بإحياء ابن المقفع.. وإحياء الفكر الوثني الصوفي المتمثل في ابن عربي والحلاج.

رابعاً : الدعوى العريضة الكاذبة بأن المسلمين أقاموا الفكر الإسلامي على مناهج اليونان (أرسطو وأفلاطون) في الماضي، ولذلك فلا يمنع أن يقوم الفكر الإسلامي الحديث على مناهج الغرب: دوركايم وأوجست كونت وغيرهما.

خامساً : اعلاء مفهوم الغرب في الجبرية التاريخية، وهي التي تلغي الإرادة الفردية، وأخلاقية الحياة، ومحاولة الادعاء بأن الأخطاء تنسب إلى المجتمعات وليس إلى الأفراد.

سادساً : تصور أن الإنسان مجموعة من القوى المادية تحكمه رغبة الجنس والعيش في إطار مذهبي فرويد وماركس.

سابعاً : إثارة روح الشك المؤدية إلى الإلحاد وروح الإباحية المؤدية إلى الإنحراف الخلقي[3]..

---

(١) ونسوا أو تناسوا أن الدين الإسلامي دين شامل كامل للروح وللجسد.. دين ودولة.. وعقيدة ونظام.. لأمور الدنيا وأمور الآخرة.

(٢) وهذه دعوة كاذبة وقد كشف زيفها علماء منصفون من الغرب نفسه... فالمنهج العلمي التجريبي الذي أخذ بيد أوربا والغرب من غياهب الظلام إلى نور الحضارة والعلم هو منهج إسلامي.

(٣) انظر: عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦.

ويتبين من ذلك أن النظرية المادية مسيطرة على كلا الفكرين: الفكر الليبرالي الغربي والفكر الماركسي الاشتراكي.

ورغم هذا الأسلوب التغريبي الاستعماري الذي بدأه سعد زغلول وعمّقه طه حسين ومدرسته، غير أن عمق الإيمان بالإسلام كان مانعاً وحاجزاً دون تقبل العقل المسلم والنفس المسلمة لهذه المفاهيم الذي بثها أولئك النفر.

﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾[1].

٢ ـ مدرسة الصحافة:

إن هذا التيار الذي يتمثّل في جماعة من نصارى العرب، الذين كانوا يشجعون الإتجاهات العلمانية التحررية، والذي أثر تأثيراً غير مباشر في الفكر الإسلامي. فلم يكن هذا الفريق من نصارى العرب، ومن نصارى الشاميين على وجه الخصوص وحده في هذا الميدان. فقد كان يشاركه في الدعوة إلى الفكر الحر الذي لا يتقيّد بالدين طائفة من الكتّاب المسلمين. وقد أشار إليهم «كرومر» في كتابه (Modern Egypt) بأنه استخدمهم في تنفيذ سياسته التي تقوم على إدخال الحضارة الغربية في مصر[2].

وقد كان أسبق الناس إلى تأسيس الصحف في مصر هم جماعة نصارى العرب الشاميين للوضع الذي كانوا يحظون به من حماية أجنبية من المستعمر. وهم أيضاً كانوا أسبق الناس من أبناء العرب للاتصال بالثقافة الغربية، وذلك لنشاط البعثات التبشيرية وانتشار مدارسها وأديرتها بالشام.

وفي المنطقة الساحلية بوجه خاص منذ بداية القرن الثامن عشر. ومع أن الثقافات التي كانت تحملها المدارس التبشيرية لم تكن تتجاوز الدائرة الدينية فإن معرفة اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية قد فتحت آفاقاً جديدة للقراءة أمام المسيحيين، فبدأوا يقرأون كتباً تصور الثقافة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٢ .

(٢) أنظر:

ـ الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

ـ الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ص ٥٥ .

الفرنسية الجديدة والتي تمثّل علمانية الثورة الفرنسية[1]. فكانوا البذور الأولى للعلمانية بين المسلمين، وفي ذات الوقت ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ للمرة الأولى في العصر الحديث عالم لغوي مسيحي هو ناصيف اليازجي، ثم أخذ عدد المهتمين بعلوم اللغة العربية من المسيحيين العرب يتزايد، وظهر بينهم عدد من الكتاب والشعراء[2]. وبهذه الصلات الثقافية بين مسيحيي العرب وبين الثقافة الفرنسية والإنجليزية من ناحية، وبهذا الكلف الجديد بالدراسات العربية من ناحية أخرى، فتحت عيونهم على عالمين جديدين خارج الكنيسة وخارج المدارس التبشيرية، وهيأهم ذلك لظهور الفكر العلماني المعادي للكنيسة، في الوقت الذي لم يكن فيه لهذا الفكر أثر بين معاصريهم من كتّاب المسلمين ومفكريهم[3].

وبذلك قامت مدرسة الصحافة على أساس قادة علمانيين، وهم خصوم ألدّاء للفكرة الإسلامية ومحاربون لها وعاملون على حجبها بقدر المستطاع عن قرائهم. ولمّا فرضت الأحداث وجود الصفحات الدينية أو الملاحق الدينية أو الصحف الإسلامية فقد وضعت كتابات كل هذه الأعمال في إطار مفهوم ضيق وافد هو الإسلام بوصفه الدين اللاهوتي المتصل بشئون الصلاة والصوم والحج، أو عمل الخير، وإصلاح الأخلاق مع حجب مهمته الأساسية، ودوره الحقيقي في بناء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية[4].

وقد أوضح المستشرق هاملتون جب عن تبعية الصحافة للنفوذ الغربي في مجال السياسة، ودورها العلماني في مجال الاجتماع على النحو الذي يؤيد وجهة القوى المسيطرة التي تريد دائماً أن تفسد ذوق الأمة عن طريق الكتابات الإباحية من القصص والجنس والجريمة والكرة والمسرح والسينما. واعلاء شخصيات الفنانات وجعلهم مثلاً أعلى، وإفساد الأسر والبيوت بما يدخل عليها من صور عارية وكلمات ماجنة ومن وجهة خطيرة تعارض تمام المعارضة مفاهيم الإسلام وأخلاقياته، وتناقض معاني الخلق والعرض والعفاف[5].

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، ص ٥٦.
(٢) منهم جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة.. وغيرهما كثير.
(٣) الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق، ص ٥٧. نقلاً عن Arabic Thought.
(٤) عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٥٧.
(٥) المرجع السابق، ص ١٧٦.

وقد كان رائد الجيل الأول من الصحفيين العلمانيين هو بطرس البستاني الذي كان من أوائل الذين دعوا إلى الوطنية والعروبة، وأن الولاء الديني لا يصلح أساساً للحياة السياسية، وهو الذي نادى بشعار «حب الوطن من الإيمان» وأخذ يرسّخ هذا المصطلح في أذهان الناس بنشراته الكثيرة، التي أصدرها بتوقيع «محب للوطن» ثم أسّس في عام ١٨٦٣م أول مدرسة على أساس وطني، لا على أساس ديني. وأخذ يدعو إلى اقتباس فكرة القومية الوطنية من أوربا، وينادي بأن كل الذين يتكلمون العربية، مسلمين كانوا أو مسيحيين، عرب أولاً وقبل كل شيء، وبذلك كان أول مسيحي يدعو إلى العروبة، ويتكلم باعتزاز عن الدم العربي الذي يجري في عروقه، وكان هذا الرجل من أنشط العرب في نقل الحضارة الغربية وتطويع اللغة العربية للتعبير عما تضمنته من مفاهيم وآراء، وكان أهم عمل قام به في هذا الاتجاه هو اصدار دائرة معارف أكملها ابنه سليم بعد أن بلغت ١١ مجلداً[١].

وفي سنة ١٨٧٠م أصدر بطرس البستاني صحيفة «الجنان» لتكون نافذة على فكره، ولتكون أداة لنشره وإذاعته، وظل ابنه سليم في إصدارها من بعده حتى توقفت بعد ١٦ سنة. والذي تربى فيها المدرسة الصحفية التي نقلت نشاطها إلى القاهرة قلب العروبة والإسلام، سواء بالهجرة الجسدية فقط وإنشاء صحف جديدة في القاهرة، أو الهجرة الشخصية ومعهم صحفهم «بشمائلهم» ليبثوا ما فيها من سموم وأفكار حيث العدد الأكبر من القراء، والحرية الأكثر في التعبير، ناهيك عن الحماية القوية المنتظرة من الاستعمار الإنجليزي في مصر.

فانتقل إلى مصر: يعقوب صروف[٢]، وفارس نمر بصحبة «المقتطف»، وأيضاً جورجي زيدان يصحبه «الهلال»، ثم تتابعت أمواج الصحافة النصرانية العلمانية المهاجرة من لبنان إلى

(١) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) يعقوب صروف هو: يعقوب بن رفائيل صنوع، المعروف بأبي نظارة، كاتب مصري، يهودي، ولد بالقاهرة ١٨٣٩، تعلم بها وبإيطاليا. أنشأ مسرحاً للتمثيل سنة ١٨٧٠ في القاهرة. وأصدر جريدة أبو نظارة سنة ١٨٧٧ . كان قوى الصلة بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. مات بباريس سنة ١٩١٢ .(الأعلام ٨/ ١٩٨ . ـ معجم المطبوعات ٣٤٩).
(تاريخ الصحافة ٢/٢٨٢).

القاهرة[1] فشاركوا في تحرير ما أسس صروف ونمر وزيدان من صحف. أو أنشأوا هم بأنفسهم صحفاً تخدم ذات الاتجاه لتساند المستعمر، وتبرر وجوده بأرض الإسلام، وليس كما ذكر مؤلف كتاب: (Arabic Thought in the Liberal Age) - والذي نشره عام ١٩٦٢م - بأنهم جاءوا إلى مصر طلباً لحماية المستعمر لهم[2].

والواقع غير ذلك تماماً فهم جاءوا لتنفيذ مخطط دقيق مدروس، وهدف ذي ثلاث شعب كل منها أخبث من الأخرى.

وأول هذه الشعب - غير الظليلة المظلمة -

أولاً : إشراب الفكر الإسلامي الروح العلمانية التحررية والتي تعتبر العلم (بمفهومه الغربي) يقوم مقام الدين في التمييز بين الخير والشر.

ثانياً : العلوم أساس الحضارة الصحيحة وهي السر في قوة الغرب، وأن أساس النظام الأخلاقي (الغربي) هو الوطنية وأن هذه الرابطة يجب أن تتقدم على جميع الروابط حتى الدينية، وأن التصورات الأخلاقية والاجتماعية القديمة، التي تقوم على الإيمان وعلى الدين أو ما يسمونه (الميتافيزيقا)[3] ليست إلاّ طوراً من أطوار البشرية في طفولتها الأولى يستغنى عنها بالعقل.

ثالثاً : تقديم صور بطولات وأبطال من مختلف الأجناس والنحل، تزاحم على مضي الزمن صور البطولة الإسلامية وأبطال المسلمين، وتصبح قدوة تحتذى ومثالاً ينسج على منواله[4] (بعيداً عن الإسلام وقممه الشامخة).

وكانت كل هذه الصحف المهاجرة تركز على هذه الشعب الثلاث. لتثبيتها في الأذهان وتغيير المفاهيم، ولكن أنى لهم ذلك. فإن الله دائماً يقيض لهؤلاء من يكشف

---

(١) وذلك في ظل الخلافة الإسلامية والدولة الإسلامية التي كانت تحمي الجميع تحت مظلتها مسلمين وذميين.. فيتنقلون ويروحون ويجيئون بنشاطهم وبأموالهم.. وبأعمالهم ولا معترض ولا عقبات.. وليس حقيقة ما قاله صاحب كتاب Arabic Thought من أنهم ذهبوا إلى القاهرة طلباً لحماية المستعمر لهم بل جاءوا مصر ليساندوا المستعمر بنشر أفكاره والدفاع عن وجوده في دار الإسلام.. وتبريراً لاستمراره.

(٢) راجع: الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق، صفحات ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠.

(٣) العقلية الغيبية (يعني بها عقيدة التوحيد في الإسلام).

(٤) راجع: الإسلام والحضارة الغربية، مرجع سابق، ص ٦٠ - ٦١.

مخططاتهم، وزيفهم وكفرهم في كل عصر وحين. فالصراع بين الحق والباطل سنة أزلية قائمة ما قامت الحياة. ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾(١).

ويعلق الدكتور محمد حسين تعليقاً طيباً على هذا الصراع فيقول: «ليس هذا الصراع إذن مصدر الخطر بل انه ـ في تقديري(٢) ـ يدعو إلى التفاؤل والاطمئنان، ولكن مصدر الخطر وعلامته هي أن يزول هذا الصراع، وأن فقدان الناس الإحساس بالفرق بين ما هو إسلامي وما هو غربي، وأن فقدان هذا الإحساس هو النذير بالخطر، لأنه يعني فقدان الإحساس بالذات. «نريد أن يظل هذا التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو طارئ مستجلب ـ شرقياً كان أو غربياً ـ حياً في نفوس الأجيال الصاعدة والتالية، وهي أمانة تلقّاها جيلنا عمن قبله ولا بد أن يحملها إلى من يجي بعده والله سبحانه وتعالى هو المستعان»(٣).

٣ ـ مدرسة الترفيه والتسلية:

وثالثة الأثافيّ: هي مدرسة الترفيه والتسلية وهي المدرسة الموازية للصحافة في توجيهها وإفسادها وقد كانت مدرسة الترفيه والتسلية القائمة على المسرح والسينما والمراقص والأغاني، وأدواتها الإذاعة والتلفزيون(٤) من أخطر التحديات التي تواجه بناء الأمة على الإسلام.

وكما رأينا في الصحافة المهجرة التي جاءت من الشام أو الغزو الذي أتانا من الشام، بصحف وصحافيين نصارى علمانيين تغريبيين، وبالمثل أو أشد ضراوة على الأخلاق والقيم جاءنا الغزو الفني، جاء بالفسق والفجور، وبالرقص الذي شرّقوه وغرّبوه، وبالمغنيات اللاتي حطمن كل القيم في الشباب والأسر داخل البيوت عن طريق الإذاعة التي قامت على هذه الأصوات الوافدة من لبنان ومن الشام عامة. كل ذلك وأكثر منه باسم الفن والمسرح،

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧ .
(٢) د/ محمد محمد حسين.
(٣) الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٤) دخل التليفزيون في مصر حلبة الصراع متأخراً فبدأ عام ١٩٦٢م.

وجاءوا أفواجاً[١] تلو أخرى كسيل العرم، فقاموا بالتمثيل والإفساد والرقص والدعوة للفجور بالفيلم والأغنية والرقصة، والتحقيق الصحفي عن حياة الفنان، أو الفنانة، باعتبارهم قدوة أمام الشباب للحضارة والتقدم والمدنية.

وكانت الإذاعة في ذلك الوقت هي نافذتهم الأولى التي يطلّون منها على الناس في الشارع أو في البيت ليجري الإفساد كما أرادوه، أو كما خطط لهم. فهي:

١ ـ مسلسلات تثير الفزع وتقلق نفوس الناشئة وتميل بطبائعهم وسلوكهم إلى الانحراف الجزئي أو الكلي، لما يسمعونه من قصص تظهر عتاة الأشقياء في مصاف الأبطال، وتزويق للضلال على أنه السلوك السوي، وهو رمز التقدم والحضارة. وأما من جنح ناحية الدين فهو الصابيء الرجعي.

٢ ـ إذاعة رسائل الغرام وتأوهات المغرمين والمغرمات وتماوت المتهالكين والمتهالكات من الممثلين والممثلات في أغان أو في مسلسلات.

وكل ذلك تم لتعميق وتوسيع الهوة بين الأمة ودينها، وجرفاً للشباب إلى ضلال العلمانية بالبعد عن القيم والدين، وفي هذا يقول الدكتور علي جريشة[٢]: العلمانية في التعليم أقدم وأخطر.

والعلمانية في الإعلام أعم وأشمل، ومن هنا تكمن خطورتها. ان التعليم قد يخاطب الآلاف بمناهجه.

---

(١) كان من أوائلهم: جورج أبيض ودولت أبيض وبديعة مصابني، ونجيب الريحاني وروزا اليوسف، وآسيا... وماري كويني وغيرهم.. وغيرهم.. وكان كلهم من النصارى وقد أسلم بعضهم مثل فاطمة اليوسف وجورج أبيض ودولت أبيض.

(٢) علي محمد جريشة: ولد في مدينة دكرنس من أعمال محافظة الدقلية بمصر في ١٩٣٥/٤/١١ درس المرحلة الابتدائية في السنبلاوين ثم أكمل دراسته الثانوية والجامعية بالقاهرة وتخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة حصل على الدكتوراه في الشريعة والقانون. عين بعد تخرجه في النيابة العامة في السويس ثم نقل قاضياً في مجلس الدولة. اعتقل بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥م وحوكم وقضي عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ١٢ عاماً. وبعد الإفراج عنه التحق بكلية الشريعة والقانون التابعة للأزهر ثم انتقل إلى جامعة الملك سعود بالرياض، وتركها إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة، ثم المركز الإسلامي بأوربا ـ ص ١٤٥ ـ ١٥٩. (علماء ومفكرون عرفتهم/ محمد المجذوب).

لكن الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه، وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة: مقروءة، أو مسموعة، أو مرئية.

فإن كانت طيبة، كانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وإن كانت خبيثة، كانت كشجرة خبيثة، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. من هنا كان اهتمام الإسلام بالكلمة وأمانتها.

فأما أن ترتفع بالمؤمن الى معية سيد الشهداء.

وأما أن تهوي بقائلها في النار سبعين خريفاً[١].

وكان ضمن أدوات هذه المدرسة السينما والمسرح ثم أتى بعد ذلك «التلفاز» وكل هذه الأدوات زادت بلّة عن سابقتها الإذاعية، فبدلاً من السماع أصبح السمع والبصر، كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ومجمل القول: إن المسرح والسينما والإذاعة في سباق حاد لقتل روح الأمة، وتشويه شخصيتها بما تنتجه من فن رخيص مهرج داعر يسوق البقية الباقية من أخلاق الشرف والقوة في الأمة، ويفسد ذوقها، ويحطم رجولة أبنائها، ويزيل عفاف نسائها ويضع الأغلال والقيود على عقولها وعواطفها لتكون تابعة للنفوذ الغربي بكل قيمه ومفاهيمه[٢].

ونختم القول بما أورده الدكتور جريشة في كتابه: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، فيقول: «وللأسف فإننا نستطيع باطمئنان أن نقرر: أن وسائل الإعلام المختلفة من صحافة، وإذاعة، وتلفزيون، وسينما مسخرة اليوم لإشاعة الفاحشة، والاغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض، بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة، وتحطيم للأخلاق والمثل، وهما (العقيدة والأخلاق) أساس لبناء الإسلام فاذا انهدم الأساس فكيف يقوم البناء؟!»[٣].

---

(١) أساليب الغزو الفكري، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) انظر: عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) أساليب الغزو الفكري، ص ٧١.

ولقد ازدادت مخططات الأفلام الهابطة انحرافاً، حيث أصبحت تقدم سير الراقصات في حلقات متصلة، تكشف عن حياة الكابريهات، والأسرار التي تتصل بحياتهن الخاصة. ثم جاءت قصص أحياء البغاء التي كانت قائمة في الماضي وأفلام الجنس والمخدرات والأفيون، وكذلك وضعت أفلام عن تجار المخدرات (الباطنية) ومن الأسف أن تدور الأفلام في بيوت الدعارة (والكابريهات)[1].

وذلك كله تنفيذاً لمخططات الصهيونية العالمية وتعضيداً للاستعمار وخططه التغريبية.

وقبل أن نترك هذا الأخطبوط المتشعب، لنذكر بعضاً من رجاله من المسلمين لتكتمل الصورة وتزيد وضوحاً. والله من وراء القصد.

(١) انظر: عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٧٣.

المطلب الثاني

من رجال التغريب

١ ـ طه حسين(*)

نشأته وتعلمه:

كاتب وأديب مصري، لقب بعميد الأدب العربي. ولد بإحدى قرى مركز مغاغة بمحافظة المنيا بصعيد مصر في عام ١٣٠٧هـ ـ ١٨٨٩م. فقد البصر طفلاً. التحق بكتاب القرية وحفظ جانباً من القرآن، ثم انتقل إلى القاهرة مجاوراً بالأزهر سمع من محمد عبده وأبو خطوة والشنقيطي والمرصفي وعبد الحكيم عطا. كانت ميوله الأدبية أوضح من التزامه بالدراسات العقائدية. اتصل بلطفي السيد، وانتظم بالجامعة الأهلية عندما افتتحت بالقاهرة عام ١٩٠٨م وحصل منها على إجازة الدكتوراه عام ١٩١٤م برسالة تقدم بها بعنوان «ذكرى أبي العلاء» وأوفدته الجامعة في بعثة إلى فرنسا فحصل على الدكتوراه من السوربون

(*) انظر ترجمته في:
- اليقظة الإسلامية، أنور الجندي، ص ١٦٥ ـ ١٧٠.
- طه حسين، حياته وفكره في ميزان الإسلام، أنور الجندي، دار الاعتصام بالقاهرة ط ٢، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م.
- الفكر الإسلامي المعاصر، غازي التوبة، ص ١٢٧ ـ ١٩٨.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مرجع سابق ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢، ص ٢٩٦ ـ ٣٠١.
- طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، محمود الاستانبولي، بيروت ـ المكتب الإسلامي.
- نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، سيد قطب.
- الوجه الآخر لطه حسين من مذكرات السيدة سوزان معك، أنور الجندي، دار الاعتصام بالقاهرة.
- الأدب العربي المعاصر في مصر، شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة ط ٧.

عام ١٩١٨م برسالة موضوعها «فلسفة ابن خلدون» واتجه إلى الأخذ بمناهج المستشرقين في دراسة الأدب العربي واطلع على الأدب الفرنسي المعاصر. وبعد عودته حاضر في الجامعة الأهلية ولما أنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥م عيّن أستاذاً بها وحاضر في كلية الآداب التي أصبح عميداً لها. ثم تولى منصب مدير جامعة الإسكندرية ثم عيّن وزيراً للمعارف، فرئيساً للجنة الثقافة للجامعة العربية.

اكتسب طه حسين شهرة واسعة، وأنتج إنتاجاً غزيراً، وكان له نشاطه الواسع في مجال الجامعة ووزارة المعارف بالإضافة إلى مجاله في الصحافة والتأليف. برز طه حسين إلى الناس في ثوب من الضجيج الشديد عندما نشر كتابه «في الشعر الجاهلي» وحاول فيه تكذيب القرآن وإنكار نبوة ابراهيم واسماعيل. ثم ادعاؤه بعد ذلك أن لليهود أثراً في الأدب العربي ليدلل على إنكاره ابراهيم واسماعيل. وسار طه حسين على هذا المنوال فاستقدم كازانوفا ليحدث شباب مصر المسلم عن القرآن ويثير الشبهات حول المكي والمدني وأثر النصرانية في مكة وأثر اليهودية في المدينة إلىّ آخر هذه الشبهات. وبعد سنوات قليلة أثار شبهة تحريق العرب لمكتبة الاسكندرية ونشر بحث المستشرقين في اتهام المسلمين بإحراقها. وهكذا باسم التجديد امتد الطريق بالدكتور طه حسين دون أن يجد حرجاً في معارضة الفكر الإسلامي وكان هذا اتجاهاً شديد الخطر ليس على الأدب وحده ولكن على الفكر الإسلامي كله لأنه يعيد غرس الأساطير والوثنيات والإسرائيليات. ولم يلبث طه حسين أن دعا إلى الفرعونية ودعا إلى الأخذ بالحضارة الغربية حلوها ومرها.

عاش طه حسين في أحضان الاستشراق حياته كلها فقد ألقى بنفسه في أحضانهم عندما سافر إلى فرنسا للدراسة بها ما بين ١٩١٤ ـ ١٩١٩م، حيث تتلمذ عليهم في جامعتي. مونبيله والسوربون، وقد أعجب طه حسين بطريقة المستشرقين وتأثر بها وخضع لها. وقد تلقى في معهد الدراسات الشرقية والكوليج دي فرانس مفاهيم الفكر الإسلامي من خلال منهج المستشرقين وخاصة في ما يتعلق بالقرآن ودراساته والشريعة والتاريخ، وقبل بالسموم التي احتوتها تلك المناهج. فتابع دور كايم ورأيه في ابن خلدون، وتابع كازانوفا عن مفهومه للقرآن وتفسيره له حتى أنه يقول أنه لم يفهم القرآن في الأزهر وفهمه في فرنسا على

كازانوفا. وتابع طه حسين المستشرقين في آرائهم عن إنكار الشعر الجاهلي وإنكار وحدة اللغة العربية قبل الإسلام حتى أن المستشرق ماسينون يقول: «إنني حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردّت إلينا» (طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام ص ٣٦). وقد سعى المستشرقون إلى الحاق طه حسين بكّل مؤتمراتهم وكانوا فرحين به لأنه كان يأخذ خططهم فينفذها ويقدم لهم من التقارير ما يرضيهم ولم يترك طه حسين فرصة تمر دون أن يشيد بهم.

عاد طه حسين من أوربا وقد تغير عقله تغيراً شديداً. وبدأ يشق طريقاً جديداً يريد به أن يبعد عن طريق يقظة الفكر الإسلامي إلى طريق آخر كما يروي ذلك بنفسه فيقول: «ثم أعود من أوربا وقد تغير عقلي تغيراً شديداً ويشتد الخلاف في الرأي بيني وبين أحمد زكي باشا ويمضي كل واحد منا في طريقه نلتقي على مودة ولكننا لا نتفق على مذهب من مذاهب العلم أو منهج من مناهج البحث» (اليقظة الإسلامية نقلاً عن الوادي ٨ يوليو ١٩٣٤م).

ويتحدث في مناسبة أخرى عن الشيخ محمد عبده فيقول: «وإذا بي أعود إلى مصر رجلاً آخر يكبر الأستاذ الإمام ويعجب به ويحبه، ولكنه لا يتابعه ولا يحب أن تبقى طريقته في التفكير أساساً للحياة العقلية لهذا الشباب المصري الناهض».

وقد أنتجت الرحلة إلى أوربا آثاراً متعددة أهمها:

١ - الاتصال ببيئات الاستشراق وتبني مفاهيمها ومعطياتها وقد بلغ الدكتور طه في هذا الاتجاه مبلغاً جعل بعض الناس يظن أنه واحد من المستشرقين. وكان يقول أنه يرث عقلاً يونانياً من أجداده القدامى.

٢ - الإعجاب بفرنسا والولاء لها، وهو إعجاب وولاء كان يصل به إلى أن يرجح كفتها على حقوق أمته ويقف مع فرنسا مدافعاً بينما تضرب بقنابلها دمشق، ويهاجم المجاهدين في المغرب ويصفهم بالبداوة.

٣ - التأثر الشديد بثقافة الثورة الفرنسية ومطامعها، بينما الثورة الفرنسية هي عمل اليهودية

العالمية للسيطرة على المجتمع الأوربي والفكر الغربي ويبدو واضحاً في إعجابه بفولتير وديدرو وروسو وغيرهم.

٤ ـ اتساع الخصومة مع الفكر الإسلامي والأزهر. وذلك من طبيعة الأمور حيث لم يدع ميداناً للإسلام فيه رأي إلاّ قال فيه رأي الاستشراق وأثار شبهاته ودفع الناس دفعاً إلى الدخول في بوتقة التغريب وقد بلغ ذلك أقصى مدى حين دعا إلى الأخذ بالحضارة الأوربية خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب.

٥ ـ بعث الأدب الشعوبي والفكر الباطني والوثني والمجوسي القديم وذلك تمشياً مع الهدف الذي حمل لواءه وتنفيذاً للخطة التي أعدها للتغريب والغزو الثقافي.

كانت مجموع آراء طه حسين التي قدمها بعد عودته من أوربا هي بمثابة محاولة لتغيير منطلق الفكر الإسلامي وضرب حركة اليقظة الإسلامية وتغريب هذا الفكر. وكانت أداته إلى ذلك الصحافة والتأليف والمحاضرة والعمل في الجامعة ووزارة المعارف وفي الأحزاب السياسية.

وتبرز آراء طه حسين في التغريب في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الذي نشره عام ١٩٣٨م، حين كان الناس يكثرون من التحدث عن مستقبل مصر بعد المعاهدة التي عقدتها مع إنجلترا سنة ١٩٣٦م. فأراد طه حسين أن يرسم للناس سبيل النهضة التعليمية في نهضة مصر واستقلالها. وهذا الكتاب من أخطر الكتب التي ألفت في هذه الفترة، وتكمن خطورته في دعوته إلى تناول الحضارة الغربية بقضها وقضيضها، حلوها ومرها. علاوة على أن صاحبه قد شغل مناصب كبيرة في الدولة، مكنته من تنفيذ برامجه أو إرساء أسس تنفيذها على الأقل. ويمكن إجمال ما حواه الكتاب في أمور ثلاثة هي:

١ ـ الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها، وقطع ما يربطها بقديمها وبإسلامها.

٢ ـ الدعوة إلى إقامة الوطنية وشئون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين، ودفع مصر إلى طريق ينتهي بها إلى أن تصبح حكومتها لا دينية.

٣ - الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور والسير بها في طريق نهايته أن تصبح اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم لغة دينية فقط كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٢٨).

وقد أوضح كتاب مستقبل الثقافة في مصر شخصية طه حسين فأظهره عبداً من عبيد الحضارة الغربية المفتونين بها مهما حاول أن يغالط أو يتخفى وراء مسوح العلم والفكر. وبوقاً داعياً إليها، يطلب من المصريين أن ينقلوها نقل الحمير، ثم ينهلوا بعد ذلك من أوحالها وليعيشوا في رذائلها، فليست كلها شراً.

ظل طه حسين على نهجه حتى نهاية عمره ولم يتغير حتى حين كتب عن الإسلام فبقي هو نفسه طه حسين، معادياً للدين، محارباً له، مفتوناً بالحضارة الغربية. فقد كتب في السيرة هادفاً الفن القصصي فقط، باغياً إرضاء ميول السذاجة والخيال عند الناس. مسوياً بينها وبين الأساطير. وكتب الفتنة الكبرى شككها في حكم الخلافة الإسلامية الأول وفي إمكانية استمراره، ناعياً على الإسلام إفتقاره للنظام المكتوب معلناً أن مذهبه يقوم على الجبر والقهر؛ يريد بذلك أن يقنع المسلمين بأن الحكومة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول وإن طبقت فلأمد محدود لا يتجاوز حياة عمر ويعود نجاح التطبيق إلى إمكانات عمر الفردية فقط. وكان هدفه من كل هذا أن يشوه صورة الخلافة كي يصرف أنظار المسلمين عنها وأن يثبط عزائمهم بتهويل الصعاب. ويمكن السبب الذي دفعه إلى الكتابة عن الإسلام أن المد الإسلامي كان قد بلغ ذروته في نهاية الأربعينات في مصر يريد إعادة تطبيق الإسلام وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى الوجود، فكتب طه حسين في نفس الوقت ليوقف هذا المد مشككاً بعدم جدواه استناداً إلى تاريخ المسلمين.

٢ ـ أحمد لطفي السيد (باشا)(*) ١٢٨٨ ـ ١٣٨٢هـ/ ١٨٧٠ ـ ١٩٦٣م

مفكر وفيلسوف عربي مصري، ورائد من رواد الحركة الوطنية، وينعت بـ «أستاذ الجيل» ولد بمصر في قرية «برقين» بالدقهلية مركز السنبلاوين. حصل على ليسانس مدرسة الحقوق في القاهرة (١٨٩٤م) وعمل في القضاء ثم اشتغل بالسياسة فتولى تحرير جريدة (الجريدة) اليومية (١٩٠٦ ـ ١٩١٤م)، وشارك في تأسيس حزب الأمة (١٩٠٨م). وكان من أعضاء الحزب الوطني القدماء، ومن أعضاء (الوفد المصري) وتحوّل إلى الأحرار الدستوريين. عيّن مديراً لدار الكتب المصرية (١٩١٥ ـ ١٩١٨م) فمديراً للجامعة المصرية عدة مرات (١٩٢٥، ١٩٣٠، ١٩٣٨)، ثم وزيراً للمعارف (١٩٢٨م) فوزيراً للخارجية (١٩٤٦م)، فعضواً بمجلس الشيوخ (١٩٤٩م) فعضواً بمجمع اللغة العربية (١٩٤٠م) فرئيساً له (١٩٤٥م) واستمر فيه إلى أن توفي عام (١٩٦٣م). نال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٥٨م.

وقد تأثر (لطفي السيد) بملازمة جمال الدين الأفغاني مدة في استانبول، كما تأثر بقراءة كتب أرسطو فنراه قد ترجم له: علم الطبيعة، والسياسة، والكون والفساد، والأخلاق. وقد قام اسماعيل مظهر بجمع خطبه، وأحاديثه، ومقالاته وأصدرها في كتب بعناوين: صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية، والمنتخبات، وتأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع.

(*) انظر ترجمته في:
ـ المجمعيون في خمسين عاماً، مهدي علام ـ القاهرة، مجمع اللغة العربية ١٤٠٦/ ١٩٨٦ م ص ٦٠ ـ ٦٥.
ـ الأعلام: قاموس تراجم د/ خير الدين الزركلي ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٨٤م جـ ١ ص ٢٠٠.
ـ وحدة ثقافية: أحمد لطفي السيد ـ المنهل ت ٤٤٥ (شعبان ـ رمضان ١٤٠٦هـ / مايو ١٩٨٦ م ص ٢٠٣.
ـ أحمد لطفي السيد لم يكن أستاذ الجيل ـ المجلة العربية ع ١٣٧ (جمادي الثانية ١٤٠٩هـ يناير ١٩٨٩م) ص ٩٢ ـ ٩٣.
ـ أساطير المعاصرين/ أحمد عبد الرحمن ـ القاهرة ـ بيت الحكمة ١٤٠٩ص ٢٩ ـ ٣٠.
ـ مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية عبد الرحمن واصل ـ القاهرة: مكتبة وهبة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ص ٩٨.

لطفي السيد والتغريب:

يعتبر (أحمد لطفي السيد) من أوائل من دعوا إلى التغريب في النصف الأول من هذا القرن، والمناداة بالنقل عن أوربا، والاغتراف من بحار الغربيين دون تمييز بين النافع والضار، والخير والشر، والصالح والطالح.. وهذا يعني نبذ التشريعات الإسلامية، ومحاكاة الأوربيين بحجة التطوّر والتجديد.

ولكون (التغريب) أمر مرفوض من المسلم العادي، ومن المثقفين بصفة عامة، فقد لجأ أصحاب تلك النزعة ـ ومن بينهم صاحبنا حتى لا ينكشف أمرهم فيعرض عنهم هؤلاء وهؤلاء ـ إلى الطنطنة بشعارات المزج بين الحضارتين، والتركيب بين الثقافتين، والتوفيق بين القديم والجديد لكي نعيش عصرنا، وفي الوقت نفسه نحافظ على هويتنا الثقافية، واستقلالنا الفكري.

ولكي تتم الخديعة الفكرية، ويقنعوا المستمع لهم أنه لا خيار أمامه إلاّ (التوفيق) الذي يجمع بين الحسنيين، ويحقق السعادتين، ويرضي العالمين فقد شنوا حملة ظالمة على السلفيين، واتهموهم بالتخلف والجمود، ورفض التقدم وحياة (العصر) وكل ما فيها من جديد طالما أنه اختراع غربي، بل وقد شطوا في اتهامهم بأنهم يرفضون ركوب السيارة والطائرة ليقسروا الناس قسراً على استخدام الجمال والحمير... طبعاً مثل هؤلاء السلفيين لا وجود لهم مطلقاً إلاّ في خيال (التوفيقيين).

ومن الأمور التي تؤكد دعوة صاحبنا إلى التغريب ما يلي:

أ ـ الدعوة إلى العامية:

وقد تمثّلت هذه الدعوة في كتابات له بعنوان «عقد الصلح بين العامية والفصحى»، فقد صوّر له خياله المريض أن هناك صراعاً ضارياً بين العامية والفصحى، تزهق فيه الأرواح والنفوس، وتنفق فيه الأموال الكثيرة، فأراد أن يعقد صلحاً بينهما حيث أنه رجل سلم يكره الحرب.

وقد رد على هذه الدعوة كثير من علماء وأدباء العصر، وألفت في ذلك الكتب الكثيرة، وليس في بحثنا هذا مجال للرد، ولكن لا بأس من إيراد بعض الأبيات لشاعر النيل حافظ ابراهيم يشتكي فيها على لسان العربية ما أصابها من كيد ومكر يقول:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
واسمع للكتّاب في مصر ضجة ... فاعلم أن الصائحين نعاتي

ب ـ الدعوة إلى الفرعونية:

وقد تناول هذه الدعوة بالتحليل محمود محمد شاكر بقوله: «... فبعد فترة بدأت دعوة «مصر للمصريين» معارضة لمبدأ مصطفى كامل (١٢٩١ ـ ١٣٢٦هـ/ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م)، وأحيطت هذه الدعوة بكل الوسائل المثيرة، التي يكون ظاهرها إنقاذ الوطن من براثن الاستعمار الأجنبي بما فيها تركيا ـ هكذا يقولون ـ وباطنها تثبيت القواعد الفكرية التي تحمل الشاب المصري على أن يرى شيئاً يربطه بشيء من البلاد التي تحيط به، سوى ظل باهت من الروابط الدينية واللغوية التي فرضت عليه فرضاً كما قال ذلك بعضهم فيما بعد.

وقد تولى هذه الدعوة الخبيثة من بعده (التالف سلامة موسى) ـ كما يقول محمود شاكر ـ ثم النسخة المنقحة عنه (لويس عوض) ثم ذيله وحامل حقيبته (غالي شكري).

ومن أجل ما قيل شعراً في الرد على هؤلاء وأمثالهم قول الشاعر القروي رشيد الخوري:

من يبك عهد الموامي والدمى فأنا ... والحمد لله قد حطمت أصنامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت ... عروبتي مثلي الأعلى وإسلامي

جـ ـ الدعوة إلى الاختلاط:

فلطفي السيد يعتبر أول من سهل للفتيات دخول الجامعة منذ بدء إنشائها. بحجة تعليم المرأة حتى إذا ما تم ذلك بدأت الدعوة إلى السفور، ثم إلى اختلاط الجنسين بحجة أن الاختلاط ضرورة نفسية واجتماعية فبه تختفي العقد، ويتلاشى الشعور بالخجل في وجود الجنس الآخر، كما أنه يؤدي إلى الإشباع العاطفي، ويعلّم الذوق في حضور الجنس الآخر. إلى غير تلك الأوهام التي تعشش في عقول النوابغ من عباقرة أمتنا.

ومجمل القول أن عبيد الغرب عندنا في ديار المسلمين ـ ومن بينهم صاحبنا ـ قد نجحوا في هذا المضمار نجاحاً باهراً لا نظير له فاختفت العمامة البيضاء أو كادت وهي من أخص خصائص الزي الإسلامي المتميّز الأصيل، وتوارت العمارة الإسلامية وراء ناطحات السحاب الأمريكية، واختفى الهلال والنجوم من أعلام مصر والعراق وسوريا واليمن، وقد واكب هذا واتسق معه نبذ التقويم الهجري. وقدم عليه التقويم الميلادي، بل وتجرأ البعض فطالب بكتابة العربية من الشمال إلى اليمين، وتدافع العامة والخاصة من أبناء المسلمين إلى محاكاة الأوربيين في عاداتهم وتقاليدهم، ومأكلهم ومشربهم، وأعيادهم وأغانيهم وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الباب الرابع

الاتجاه الأصيل

وسوف يشمل هذا الباب ـ بتيسير الله ـ مدخلاً وفصلين:

الفصل الأول : الجمعية الشرعية.

الفصل الثاني : الإخوان المسلمون.

مدخل

أولاً: في الفكرة والأساس

كانت الصحوة الإسلامية بمثابة ارتقاء إلى مرحلة الأصالة والرشد الفكري للأمة الإسلامية، وتطور من خلال حركة اليقظة الإسلامية التي بدأت منذ وقت طويل خلال القرن الرابع عشر وما قبله. وأن هذه علامة أساسية وصحيحة لفهم محرّر من الولاء أو التبعية أو الخضوع لفكر يختلف ويتعارض مع قيم الإسلام، وأنه عودة إلى المنابع والأصالة(١).

إن من أصالة الفكر الإسلامي ومبادئه السامية التي لا تتحوّل ولا تتغير: قدرته على تصحيح مساره عندما ينحرف، وإنبعاث حركة اليقظة من داخله دون عامل خارجي، وتوهج ضوء الأصالة فيه فيقضي على كل محاولات التزييف، ففي حالة الأزمة التي تفرض فيها القوى الغازية «التبعية» لها، تمكّن الفكر الإسلامي من كسر هذا القيد والانطلاق بقوته الذاتية نحو المنابع، خارجاً من دائرة الأممية والاحتواء التي تفرض عليه(٢).

ولنتمكن من تحقيق ذلك علينا نحن المسلمين أن نكون على يقظة دائمة وذلك بالتماس مفهوم القرآن والتمسك به والكشف عن صفاء التعاليم الإسلامية في بساطتها ويسرها وقرآنيتها الأصيلة.

فعلى الجماعة الإسلامية أن تعود إلى وحدة الفكر التي يحققها لها القرآن الكريم، ولا

---

(١) انظر: الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، أنور الجندي، دار الاعتصام، ص ٦٠.
(٢) المؤامرة على الإسلام، أنور الجندي، ص ٢١٥.

ريب أن فكرة التماس المنابع الأصيلة هي الأهداف التي تعمل حركة التغريب والغزو الثقافي لصرف المسلمين عنها إلى تلك الخلافات والمتشابهات، وقد دعانا القرآن الكريم إلى التمسك بالآيات المحكمات.

وقبل أن نتكلم عن هذا الاتجاه الأصيل يحسن بنا توضيح بعض المفاهيم الخاصة بمصطلح الأصالة والأصيل. حيث أن تحديد المصطلح الذي يستعمله الباحث أمر في غاية الأهمية، إذ من دونه سيدور الكلام في حلقة مفرغة، وبالتالي لا يستطيع أن ينطلق من تصورات واضحة يتفق عليها للوصول إلى حل أية مشكلة.

ومما يدعو للأسف الشديد أن الأمة الإسلامية خلال القرنين الأخيرين انجرفت في تيار مصطلحات خاطئة جنت على الإسلام جناية كبرى. بحيث أصبح جلّ مثقفينا أسرى هذه المصطلحات الغربية بشكل عام، منها ينطلقون ومن خلالها يفكرون، وأصبحت صورة من صور احتوائهم الثقافي والفكري، فوقعوا في مغالطات فكرية ساهمت في تكريس التخلف والضياع.

لذا يتوجّب علينا المحافظة على المصطلحات الإسلامية بمدلولها الإسلامي الصحيح؛ لأن هذه المصطلحات هي نقاط الارتكاز الحضارية، والمعالم الفكرية التي توحّد «هويّة» الأمة وشخصيتها. وذلك لأن لكل أمة من الأمم مفهوماتها ومصطلحاتها، التي هي وليدة نزعاتها وميولها، والتي تعبّر عن جوها الخاص، وطابعها المميّز ومزاجها النفسي، وذاتيتها الخاصة القائمة على أساس من عقائدها ومفاهيمها التي عاشت عليها آلاف السنين[1]. ولذا سيكون أول ما نتكلم عنه في هذا الموضوع تمهيداً نحدد فيه المفاهيم المطروحة.

(١) انظر: الإسلام الممتحن، محمد الحسني، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٧هـ، ص ١٤٦.

ثانياً: في مفهوم الأصالة:

١ ـ المفهوم اللغوي:

الأصل: كرم النسب، وأصل الشيء: أسفله وأساسه الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبت منه، وما يبني عليه غيره، وما يستند وجود ذلك الشيء إليه، فالأب أصل للولد، والنهر أصل للجدول. وجمعه أصول.

- والأصالة في الرأي: جودته، وفي الأسلوب: ابتكاره، وفي النسب عراقته.
- وأصّلت الشيء تأصيلاً: جعلت له أصلاً ثابتاً يبنى عليه[١].

٢ ـ في المفهوم الاصطلاحي:

الأصل والأصالة من المصطلحات الحديثة في الفكر الإسلامي فلم يكن لهما مدلول قبل ذلك غير المعنى اللغوي السابق توضيحه قبل قليل.

وفي العصر الحديث: نجد أن هذا المدلول مؤتلف ومختلف في التعريفات الحديثة ولكنه يعود في النهاية إلى مدلوله اللغوي في أغلب الأحيان. ولنذكر نماذج من هذه التعريفات عند بعض الباحثين لنوضح مدى الإئتلاف، ومقدار الاختلاف.

فقد عبّر عنه الأستاذ أنور الجندي[٢] بأنه: «ارتباط الأمة بمنابعها الصافية وجذورها

---

(١) انظر مادة أصل في كل من:
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور.
- المجمع الوسيط، مجمع اللغة العربية ـ القاهرة.
- المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي.

(٢) الأستاذ أنور الجندي: هو أحمد أنور سيد أحمد الجندي. ولد في ١٣٣٥/٣/٥هـ (عام ١٩١٧م) في مدينة ديروط بصعيد مصر. نشأ في بيت علم ودين وبدأ حياته العلمية في مكتبة والده العامرة بكتب التراث فبدأ يقرأ ما يتيسر من هذه الكتب دون الإحاطة الكاملة بما تحتويه وكان ما زال في مراحل تعليمه الأولى. وعاش حياته الأولى في جو ديني كامل ما بين المنزل ومرافقة الوالد والحرص على التعلق بالمساجد حتى مرافقة المؤذن لصلاة الفجر. ثم اتصل بالفكر الحديث من خلال الصحف والمجلات وقد تجمعت كل هذه الخيوط ليتجه فكره إلى المفهوم الإسلامي الجامع عن طريق الكتاب وسنة الرسول ﷺ. ورغم تعليمه المدني (تجارة واقتصاد) ووظيفته في بنك مصر إلا أنه كرس حياته وفكره في كشف الغطاء عن خطة التغريب والاستشراق ومقاومتهم وتتبع آثارهم حتى آخر يوم من

الصحيحة في تقويم الفكر الإسلامي، وتقدير عناصر الإبداع فيه، في إطار التأثير والتأثر الثقافي»[1]. وقال الشيخ القرضاوي[2] متناولاً هذا المصطلح: «الأصالة هي: ضرورة العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وقيماً وأخلاقاً، وثقافة وحضارة، لنسعد في دنيانا، ونفوز في أخرانا»[3]. وعبّر عن المصطلح باحث ثالث فقال بأنه: «تقدير قيمة التراث الإسلامي في إطار الصراع بين القديم وبين الجديد لمواجهة مخاطر الحضارة الغربية»[4].

وعبّر عن ذلك باحث آخر بأنه: «موافقة الفكر الإسلامي ونتائج الجهد العقلي عند المسلمين لما جاء به الإسلام في إطار الانسجام مع روحه وقواعده»[5].

حياته فأصدر مجموعة كبيرة من الكتب تتناول هذا الموضوع منها على سبيل الذكر لا الحصر: إطار إسلامي للفكر المعاصر، من منابع الفكر الإسلامي، اليقظة الإسلامية، سموم الاستشراق في العلوم الإسلامية، شبهات التغريب.. وعلى هذا المنوال فوق المائة كتاب. رحمه الله رحمة واسعة.
(انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، المجدوب، ٢/٤٥ وما بعدها).

(١) انظر: قضايا العصر ومشكلات الفكر، أنور الجندي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، ص ٢٠٠.

(٢) الشيخ يوسف القرضاوي: من مواليد مصر سنة ١٩٢٦م، حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره، أكمل تعليمه في معاهد الأزهر الشريف وحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ١٩٧٣م، نيفت كتبه التي ألفها على العشرين. وقد لقيت قبولاً عاماً في العالم الإسلامي، من المفكرين الإسلاميين الذين يمتازون بالاعتدال. ويجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر. «الصحوة الإسلامية» القرضاوي.

(٣) انظر: من أجل صحوة راشدة ـ تجدد الدين، وتنهض بالدنيا، ص ٧٥.

(٤) انظر: التراث والمعاصرة، د/ أكرم ضياء العمري، طبعة أولى، رئاسة المحاكم الشرعية بقطر، ١٤٠٥هـ، ص ٢٣.

(٥) انظر: الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي د/ محمد رأفت سعيد، دار العلم ـ جده، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ، ص ٨.

الفصل الأول

الجمعية الشرعية

ويحتوي هذا الفصل على تمهيد ومبحثين هما:

المبحث الأول : مؤسس الجمعية الإمام الشيخ محمود خطاب السبكي.

المبحث الثاني : الغايات والوسائل والنتيجة.

تمهيد

١ ـ النشأة والتكوين:

كان مؤسس الجمعية الشرعية الأول هو الإمام الشيخ محمود خطاب السبكي[(١)]. حيث دعا إلى الله على بصيرة. وكان أساس دعوته التمسك بسنة رسول الله ﷺ على ألا يدخل في جدل، لأن الجدل شهوة والشهوة رذيلة ممقوتة، وكانت دعوتهم للتمسك بسنة رسول الله ﷺ سببها الأول هو الحب لرسول الله، «وعلى قدر حبك تطيع. وعلى قدر حبك تكون قريباً من الله، وعلى قدر حبك تكون قريباً من الرسول ﷺ، وعلى قدر حبك تكون قريباً من حوضه يوم القيامة»[(٢)].

٢ ـ اسم الجمعية:

اسم الجمعية يصف الوصف الكامل لما تدعو إليه الجمعية للتمسك بأصول الإسلام كتاب الله وسنة رسوله. فاسمها: «الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية»[(٣)].

وقبل أن نتكلم عن منهج الجمعية نلمح إلماحة يسيرة عن مؤسس هذه الجمعية لتتضح لنا الصورة بجلاء، فيتحقق لنا الهدف من تلك الدراسة.

---

(١) قام الشيخ محمود خطاب السبكي بتأسيس الجمعية الشرعية منذ ٨٠ عاماً تقريباً (انظر الجمعية الشرعية، محمد علي مسعود، ص ٢٥) وكان ذلك في عام ١٣٣١هـ (١٩١٢م). انظر: تجربة الجمعية الشرعية بالقاهرة، محمد أحمد بدوي، المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر ـ العدد التاسع والأربعون، محرم ١٤٠٨هـ (يناير سنة ١٩٨٧م) ص ١٣٤.

(٢) الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية عقيدة ومنهجاً وسلوكاً، الشيخ محمد علي مسعود، من منشورات الجمعية الشرعية فرع الهداية بغمرة سنة ١٩٨٢م، ص ١٧.

(٣) انظر عنوان المرجع السابق وهو تأريخ للجمعية من أحد أعضائها المؤسسين والمسئولين فيها هو الشيخ محمد علي مسعود رئيس الجمعيات الشرعية بقسمي شبرا والشرابية ورئيس مجلس إدارة جريدة «الجمعة».

مؤسس الجمعية
الإمام الشيخ محمود محمد خطاب
١٢٧٤ . ١٣٥٢ هـ

ويحتوي هذا المبحث على مطالب ثلاثة هي:

المطلب الأول : حياته.

المطلب الثاني : البدايات.

المطلب الثالث : وفاته.

المطلب الأول

حياته

لم يكن في النشأة الأولى للشيخ محمود خطاب ما ينبئ عما تم من هذه المسيرة.

١ ـ المولد والنشأة:

ولد الشيخ محمود في قرية سبك الأحد من قرى مديرية المنوفية عام ١٢٧٤هـ[(١)] في عهد والي مصر سعيد باشا الذي أصدر اللائحة السعيدية في العام نفسه بتمليك الفلاحين أراضي مصر، وكانت مملوكة للحكومة، فكان من حظ والده «العمدة» أن يكون من متوسطي أغنياء الريف.

كانت الزراعة من نصيب الشاب عندما أُجري تقسيم الأبناء بين الأزهر والزراعة الذي رسمه أبوه لأبنائه.

هيأ هذا الاتجاه لهمة الشاب العالية وذكائه إجادة الحرف المتعلقة بالزراعة من بناء ونجارة، وتمرس الشاب الفتوة في سياسة الخيل والرماية بالبندقية والتي كانت من ضروراته بعد في حراسة مزارع والده والمرور عليها. وشب على ذلك وصارت هواية له حتى آخر حياته.

(١) انظر: مذكرات سائح في الشرق العربي، أبو الحسن علي الحسني الندوي، مؤسسة الرسالة، ط ٣ سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ٢٧.
ـ تجربة الجمعية الشرعية، محمد أحمد بدوي، مجلة المسلم المعاصر العدد التاسع والأربعون من السنة الثالثة عشرة (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م) ص ١٣٢.

ولاستقامة الشاب وبعده عن انحرافات الشباب، اتجه إلى الانخراط في الطرق الصوفية والتي كانت هي الطريق الوحيد أمامه للإيغال[1] في التدين، حتى لقد قيل في ذلك أن من ليس له عم[2] فعمه الشيطان، وسلك الشاب أغلب الطرق الصوفية. وكانت الطريقة الخلوتية هي أقرب الطرق إلى قلبه فاستقر عليها، وذلك لتعفف شيخها[3] عن تلقي العوائد[4].

٢ ـ نقطة التحول:

أراد الله تعالى أن يتحوّل مسار الشاب إلى اتجاه آخر غير الزراعة وحدث أن جاءه في الحديقة ابن أخت له معه لوح يتعلم فيه القراءة والكتابة، فتناول منه اللوح، وسأل وتعلم ما فيه في نفس الجلسة، وشهد ذلك كله الشيخ المعلم للصبي الصغير، وصار الاتفاق مع المعلم ليحضر لمحمود يومياً في الحديقة ليعلمه القراءة والكتابة وحفظ كتاب الله، وكان عمره إذ ذاك تسعة عشر ربيعاً.

ثم تهيأ للخطوة التالية عندما قررت الحكومة تجنيد أبناء العمد بعد أن كانوا من المعفيين من التجنيد وكان قد أتم حفظ القرآن، فتحتم على محمود أن يذهب إلى الأزهر لا ليكون ضمن طلاب العلم فيه. ولكن كان الغرض الرئيسي أن يعفى من التجنيد بدون دفع البدل النقدي.

سافر الشاب مع أخ له إلى الأزهر سنة ١٢٩٧هـ وسنه ٢٣ سنة، ولم تتيسر الشهادة، فطال مكثه، وذاق للعلم لذة، فقرر البقاء في رحاب العلم، وكان من حظه ان يتلقى على الشيخ محمد أحمد عليش[5] الذي كان شيخاً للمالكية، والذي كان يحارب البدع ويطبق السنة ويدعو الناس ويدعو طلابه إلى ذلك.

---

(١) الإيغال: (وغل) الرجل من باب وعد: أي دخل على القوم في شرابهم من غير أن يدعى إليه، و (الإيغال) السير والإمعان فيه. وانظر مادة و غ ل في مختار الصحاح ص ٧٢٨، المعجم الوسيط ـ لسان العرب.

(٢) أي شيخ طريقة.

(٣) هو الشيخ أحمد بن محمد جبل الخلوتي شيخ الطريقة الخلوتية... (مذكرات سائح، أبو الحسن الندوي، ص ٢٧).

(٤) العوائد: وهي هبات عينية أو نقدية يتلقاها شيخ الطريقة الصوفية من أتباعه سنوياً.

(٥) الشيخ محمد عليش: (ت ١٢٩٩هـ): هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عليش. ولد بالقاهرة سنة ١٢١٧هـ،

وغرق الشاب في بحور العلم الذي أشبع نفسه وروى ظمأها، فلم يعد يفكر في شيء، أو يسعى إلى هدف، سوى المزيد والمزيد من العلم. فلم يعد يشغل باله بالتجنيد أو الإعفاء منه أو غير ذلك. فغفل حتى أن يسجل اسمه في سجلات الأزهر ليحظى بما يوفره له هذا التسجيل[١].

وبعد مضي قليل من الزمن وكثير من الاجتهاد في التحصيل ظهرت للشيخ محمود لياقة علمية مميزة، استخدمها الشاب في التدريس[٢] للطلبة حتى يحضر الأستاذ[٣]. وكان إذا ما رجع إلى بلدته أرشد أبناء الريف، فكان أزهرياً بين الأزهريين واعظاً ومرشداً بين الريفيين[٤].

حفظ القرآن ودرس بالأزهر سنة ١٢٣٢هـ على المذهب المالكي. اشتغل بالتدريس بالجامع الأزهر سنة ١٢٤٥هـ. شغل منصب شيخ السادة المالكية حتى وفاته سنة ١٢٩٩هـ ألّف التآليف العديدة، ومنها: فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، تذكرة المنتهي في علم الفرائض، حاشية التيسير والتحرير على مواهب التقدير. (انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد عرفة الدسوقي جـ ١ ترجمة المحقق، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة).

(١) مثل: الإعفاء من التجنيد، وصرف الجراية له، وأيضاً التقدم للامتحان كما سيتضح فيما بعد.

(٢) كان نظام الأزهر حينذاك يسمح بذلك.

(٣) انظر: تجربة الجمعية الشرعية بالقاهرة، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٤) انظر: مذكرات سائح في الشرق العربي، مرجع سابق ص ٢٨.

المطلب الثاني

البدايات

١ ـ بداية العمل:

بقي الشيخ محمود طيلة وجوده بالأزهر فترة خمس عشرة سنة يتعلم ويعلّم في الأزهر وفي بلدته خلال الإجازات الصيفية كل سنة، مع التطبيق الكامل لما يتعلمه، فأخذ في محاربة البدع، بادئاً بنفسه بالتخلص من البدع واحدة إثر أخرى. فكان تطبيقاً عملياً على نفسه[١]، ثم دعوة جهر بها بين الناس.

وكان الشيخ في خلال تلك الفترة ـ كما أسلفنا ـ يدرّس للطلاب حتى حضور الأستاذ[٢]. وقام بشرح كتاب في الفقه المالكي وكان مؤلفه الشيخ الأمير. وكان يتوخى في شرحه إظهار مبادئ الأصالة الإسلامية البعيدة عن انحرافات الصوفية وبدعهم. مع إظهار الحق وإبطال الباطل كلما سنحت سانحة، وساعده على ذلك أن الكتاب كتاب فقه، كان أساسه القضايا الفقهية المحددة والحكم فيها بعيداً عن البدع والخرافات.

وكان يستشهد لآرائه بكلام علماء المذاهب الأخرى. الأمر الذي كان إلى ذلك

---

(١) ومن التطبيق العملي على نفسه عندما توفي والده بعد مضي عشر سنوات من مكثه في الأزهر. فقد جاء أرباب الطرق ببيارقهم وعمائمهم الخضراء والحمراء والسوداء يودعون عمدتهم، ولكن الجنازة خرجت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث بلا تراتيل ولا أعلام. وعندما توافد المعزون في المساء إلى دوار العمدة، وجدوا الشيخ يعظ ويحذر من البدع ولم يجدوا مشاهير القراء كما هي عادة الناس في تلك الفترة.
(انظر: تجربة الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ١٣٣ ـ مذكرات صائح، ص ٢٨).

(٢) مثل عمل المعيد في الكليات الآن.

الحين لا يرتضيه الأزهريون. وقد عارض الشيخ الأمير فيما ذهب إليه بخصوص إباحة القليل غير المغيّب من الحشيش والأفيون مع كتمان ذلك عن العامة، وعارضه أيضاً في قياسه الدخان على الشاي والقهوة، وفند آراءه بالأدلة العلمية والطبية[1].

٢ ـ بدء الصراع:

وكان من كياسة الشيخ المبكرة أن طرح استفتاء بين العلماء المشهود لهم عن بدع المتصوفة ومحبي الخرافات. وبدأ هذا الاستفتاء بشيخ الأزهر الشيخ سليم البشري عن الذكر المحرّف وما يصاحبه من غناء ورقص وتحريف لأسماء الله. وجاءت الفتوى مؤيدة لآراء الشيخ، فكانت بداية لسلسلة من الانتصارات النظرية استكملها بفتاوي باقي العلماء، ثم جمعها وأصدرها في كتابه: «فتاوي أئمة المسلمين بقطع لسان البدع والمبتدعين»[2]. ورفع هذا الكتاب في وجه أهل البدع والخرافات وما أثاروه حوله من شبهات. فكان جواب أولئك العلماء عوناً على تعليم الجاهل، وانقطاع شبه العوام الذين يقولون: لو كانت هذه البدَع مذمومة لأفتى بمنعها العلماء الأعلام[3].

حصوله على الشهادة العالمية:

كان لا بد له من الحصول على الشهادة ليمارس التعليم والوعظ رسمياً، فتقدم للامتحان برغم العقبات التي صادفته في ذلك ـ وأجازته سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) وكان عمر الشيخ حينذاك ٣٩ سنة. وبعدها زاول الشيخ محمود التدريس الرسمي في الأزهر والوعظ والإرشاد[4]، ولكن المخالفين من علماء ومشايخ طرق ـ لم يتركوه يمضي في ما يدعو إليه. واتهموه زوراً وبهتاناً بأنه أتى بدين جديد يخالف المذاهب ويخالف السلف

(١) انظر: تجربة الجمعية الشرعية، محمد أحمد بدوي ص ١٣٣، الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) كان عدد الفتاوي التي حواها الكتاب خمساً وأربعين من تسعة وسبعين عالماً من أفاضل العلماء من مشايخ الأزهر، والمفتين العامين ومن كبار علماء المذاهب الأربعة المعتمدين في الأزهر.
(انظر: تجربة الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ١٣٦).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ١٣٣، ص ١٣٦.

(٤) مذكرات سائح، مرجع سابق، ص ٢٨.

والخلف في العقائد، ورفعت الشكايات ضده للخديوي والحكومات المتوالية. واستمرت الشكاوى ضد الشيخ حتى أن الشيخ سليم البشري[1] شيخ الأزهر شكل مجلساً علمياً من كبار العلماء ليناظروا الشيخ محمود خطاب السبكي، فخرج من المناظرة منتصراً فكانت خطوة على الطريق أيضاً.

٣ ـ بدء التنظيم:

وعندما تبلور فكر الشيخ للإصلاح، وظهرت معالمه الواضحة، قام الشيخ بتشكيل الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، وجعل لها نظاماً خاصاً واعتبر فيه الوعظ أهم وسائل تنفيذ أغراض الجمعية ولذلك كانت أول دار تبنى للجمعية عبارة عن المسجد الذي بناه الشيخ في الخيمية ونقلت إليه إدارة الجمعية سنة ١٣٣٥هـ. وأصبح هذا المسجد هو المقر الرئيسي للجمعية.

وتحتم على الأعضاء إطلاق اللحية وإطلاق «العذبة» من خلف العمامة. وأصبح هذا السمت مميزاً ولازماً لأعضاء الجمعية[2].

---

(١) الشيخ سليم بن أبي فراج البشري: (١٢٤٨هـ ـ ١٣٣٥هـ). ولد (بمحلة بشر) من قرى شبراخيت بالبحيرة، درس بالأزهر تتلمذ على يد «الشيخ الباجوري والشيخ عليش ودرس عليهم فقه الإمام مالك، نبغ في علوم كثيرة، عين شيخاً لمسجد السيدة زينب، ثم عين شيخاً للمالكية بالأزهر. شارك في إصلاح الأزهر وعين شيخاً للأزهر ١٣١٧هـ واستقال وعين ثانية في ١٣٢٥هـ وظل إلى أن مات سنة ١٣٣٥هـ ـ طبق في عهده نظام امتحان الراغبين في التدريس بالأزهر ـ له مصنفات كثيرة منها: عقود الجمان في عقائد أهل الإيمان وغيرها.

(٢) حتى أن وزارة الداخلية عندما سمعت لشكاوي المناوئين للجمعية فرضت على الشيخ وعلى أعضاء الجمعية رفع العذبة وأن يضع الطربوش عمامته زراً حريرياً وأن يصلي مع السلطان حيث يصلي، وألزموا أتباعه حتى من طلبة الأزهر بكل ذلك. ولم يقاوم الشيخ السلطات ورضخ لذلك.
(تجربة الجمعية الشرعية بالقاهرة، ص ١٣٤).

المطلب الثالث

وفاته

وبعد ظهر الجمعة ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) لبى الشيخ نداء ربه، ودفن في نفس اليوم في مشهد رهيب حافل بالآلاف من جموع المسلمين الزاخرة. ولم تشهد القاهرة في تاريخها الحديث بهذا الحجم مثل هذه الجنازة.

وكان ذلك بعد حياة حافلة بالجهاد العملي والعلمي، وبعد أن أمضى ٣٧ عاماً في التدريس بالأزهر، والوعظ والتدريس في مساجد الجمعية والافتاء والتأليف.

وقد كان لإخلاصه وجهاده أثر ظاهر ملموس في القطر المصري، يشاهد في صحة الاعتقاد والرجوع إلى التوحيد، والتطهر من الشرك والبدع، والمحافظة على آداب الشريعة وشعائرها.

ومن آثاره: الدين الخالص، تسعة مجلدات وخلف الإمام في رياسة الجمعية ابنه الشيخ أمين محمود محمد خطاب السبكي وكان من علماء الأزهر أيضاً، وكان من أوائل الطلاب الذين درسوا العلوم الحديثة في الأزهر بتشجيع من والده وقام بتدريسها في المعاهد الأزهرية ثم خلف الشيخ يوسف أمين خطاب والده في رياسة الجمعية سنة ١٣٨٧هـ (١٩٧٧م). وخلف الشيخ يوسف على رياسة الجمعية الشيخ عبد اللطيف مشتهري، وفي عهده تزايد عدد المؤسسات الكبيرة المتعددة الخدمات الدينية والاجتماعية ولا يزال قائماً عليها إلى الآن[1].

(١) انظر: تجربة الجمعية الشرعية ص ١٣٥، الجمعية الشرعية ص ٥٩، ٦٠، الإسلام، صحيفة إسلامية أسبوعية جامعة العدد ١٣، السنة الثانية، ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ، يوليو سنة ١٩٣٣م، افتتاحية العدد.

المبحث الثاني

الغايات والوسائل والنتيجة

سنتناول في هذا المبحث ـ بعون الله ـ ما هي غايات الجمعية الشرعية؟ وكيف كانت وسائلها لتحقيق تلك الغايات؟ ثم نرى ما هي حصيلة ذلك العمل. على أن تكون كل من هذه النقاط في مطلب خاص فيكون هذا المبحث في ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول : أهداف الجمعية.

المطلب الثاني : المنهج في الدعوة.

المطلب الثالث : الجمعية الشرعية في الميزان.

المطلب الأول

أهداف الجمعية

نستطيع أن نجمل غايات الجمعية الشرعية التي قامت دعوتها عليه في الأهداف التالية:

١ ـ الجمعية الشرعية تنادي بالدين ككل:

فقد دعا إمام الجماعة إلى: الغرض، والواجب، والسنة بأخلاقها الأصيلة، وعباداتها الخالصة لله، فإحياء سنة النبي ﷺ والقضاء على البدع والخرافات تقويم للمنهج الإسلامي[1].

٢ ـ محاربة البدع:

دعا الإمام أيضاً إلى محاربة البدع التي ليست من الدين في شيء. فالرسول ﷺ قال: «... وكل بدعة ضلالة»[2] إذ الغرض متفق عليه، والواجب لا يختلف فيه اثنان، والسنة حب ووفاء للرسول ﷺ[3].

(١) انظر: ـ تجربة الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ١٣٨ .
ـ والجمعية الشرعية، محمد علي مسعود، ص ١٨ .

(٢) جزء من حديث العرباض بن سارية.

(٣) إن السنة ليست كذا فقط، فالسنة مفسرة للقرآن، وهي وحي من الله تعالى واجب الطاعة (انظر منزلة السنة في الباب الثاني).

٣ ـ أي شيء تهدف إليه الجمعية الشرعية؟

والجمعية الشرعية لا تتعدد أهدافها لأنها تجمع الناس على دين الله عز وجل وهو يعتمد على أصلين لا ثالث لهما كتاب الله، وسنة نبيه.

فقد روى الترمذي عن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي. وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١].

٤ ـ لا اجتهاد مع النص:

والجمعية ـ من على منبر جريدتها ـ تنادي وتؤكد أنه لا اجتهاد في هذا العصر الموبوء المشبوه، الذي انتشرت فيه الرذيلة وعم فيه الفساد[٢] مستدلين:

أ ـ بالآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[٣]. وحيث انه ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة، بالفطانة التي اختص بها وبالصدق الذي عرف عنه.

ب ـ وقال: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله إلاّ وقد أمرتكم به، ولا شيئاً يبعدكم عن الله إلا وقد نهيتكم عنه. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[٤].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) انظر: الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) رواه البخاري ومسلم بلفظ «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم» انظر: مختار الحسن والصحيح من الحديث الشريف عبد البديع صقر، المكتب الإسلامي، ص ٧٠.

جـ ـ وحيث أنه قال في حجة وداعه: «خذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، وقد بلّغت[1] ـ الحديث».

وحيث أن الخلفاء الراشدين اتبعوا الله ورسوله ولم يبتدعوا: أقول: إن التابعين إذا أجمعوا أو قاسوا فإنما في إطار الكتاب والسنة، وإذن فلا اجتهاد[2] مع النص. وإلاّ فماذا نريد بعد قول الله ورسوله؟[3].

(١) أخرجه مسلم (٢/٩٤٣)، والنسائي (٥/٢٧٠) وإسناد رواية النسائي صحيح.
انظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في منهاج البيضاوي، زين الدين عبد الرحيم العراقي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية ص ٦٥.

(٢) وقد جانب الجمعية الصواب في هذه النقطة حيث أن: الاجتهاد فرض على الأمة بلا خلاف (انظر رسالة الإنصاف في أسباب الاختلاف في الأحكام الفقهية) لشاه ولي الله الدهلوي، لكنه من فروض الكفاية التي تسقط وجود من هو قائم بها وتتعين عند عدم ذلك. والاجتهاد فرض أي من الدين.
(انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، لأبي عبدالله السيد محمد بن ابراهيم الوزير، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ، جـ ١ ص ١٣).

(٣) انظر: الجمعية الشرعية، ص ١٩.

المطلب الثاني

في منهج الدعوة

سنتناول فيما يلي منهج الجمعية الشرعية في الدعوة فيتضح لنا أهم الوسائل التي اتخذتها الجمعية في هذا الطريق وهي:

١ ـ بناء الفرد بناء كاملاً عقيدة وعبادة ومعاملة وخلقاً.

٢ ـ تماسك الجماعة تماسكاً لا تضيع معه الحقوق والواجبات.

٣ ـ الوطنية القائمة على الإخلاص للوطن والدفاع عنه . (ومن قتل دون وطنه فهو شهيد)[١].

٤ ـ الدعوة إلى الوفاء مع الدولة وعدم الخروج عليها.

٥ ـ الدعوة دون ملل أو كلل إلى مطالبة الحاكم بتطبيق الشريعة الإسلامية.

٦ ـ الدعوة إلى الاشتراكية التي تسير في ظلال الإسلام حباً وروحاً ونصاً[٢].

٧ ـ الدعوة إلى نظام إسلامي في الاقتصاد والاجتماع[٣].

٨ ـ محاربة الجشع والغصب والظلم.

٩ ـ الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية والمناداة بعودة الصف العربي.

١٠ ـ محاسبة أنفسنا إذا هدأت وأخذت جنوبنا مضاجعها.

١١ ـ إن الجمعية الشرعية لا تسعى إلى حكم، ولكن تطالب الحكام بحكم الإسلام. ولا

---

(١) انظر ص ٤٣ (ظهور فكرة الوطنية).

(٢) ممالأة واضحة للحاكم باتباع المنهج التوفيقي في السياسة وكان الأولى العودة إلى الأصول الإسلامية في ذلك.

(٣) تضاد في هذا البند مع سابقه الذي يدعو للاشتراكية.

تسعى إلى الارتماء في أحضان أية دولة عربية مماثلة ومنافقة، ولكن تأمر الحكام العرب بالوحدة والتضافر والتعاون والخوف من الله[1].

١٢ ـ البعد عن السياسة الخرقاء والتعصب الممقوت، فهذا شرط لاكتساب صفة العضوية بالجمعية فعلى العضو التحلي بسنة رسول الله ﷺ. والبعد عن السياسة[2]. كما اشترط التكسب عن طريق عمل شريف حلال والتعاون على البر والتقوى[3].

١٣ ـ وقد قامت الجمعية بإقامة مصنع للنسيج لمحاولة التكامل الاقتصادي.

---

(١) انظر: الجمعية الشرعية، مرجع سابق، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) في هذه الدعوى بالبعد عن السياسة تحقيق لما يعنيه أعداء الإسلام من إبعاد الدين عن الحياة ليتقوقع في المسجد ليس إلا. وهذا ما عبّر عنه مفكرو الغرب ودعونا إليه وتبعهم بعض المسلمين بفصل «الدين عن الدولة» وعبّر عنه الرئيس السابق أنور السادات: «بألا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة» (علماء ومفكرون عرفتهم، مرجع سابق، جـ ٢ ص ١٥٤).

(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥.

المطلب الثالث

الجمعية الشرعية في الميزان

إن الجمعية الشرعية لسمة من سمات اليقظة الإسلامية في العصر الحديث، وصرخة من صرخات الإصلاح الديني، ودرب ـ بلا شك ـ من الدروب الموصلة إلى أصالة هذا الدين.

١ ـ ركزت الجمعية على تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من شوائب وعلى مقاومة البدع وإحياء السنن. حيث أنها حصرت أسباب التخلف عند المسلمين في إطار البدع والانحراف عن المنهج الإسلامي الصحيح[1]. وكانت الأفكار الأساسية في منهج الجمعية الإصلاحي كما أسلفنا أفكاراً طيبة لا شك فيها، ولكن تصورها في أدمغة من يحملونها إلى الناس، ثم تصور المنقولة إليهم لها بعد ذلك، أنشأ ما أدى إلى التطرف والتحريف ـ والبعد عن الواقع المعاش ومشاكله وما يشغله[2] ـ في كثير من الأحيان «وما آفة الأخبار إلاّ رواتها»[3].

---

(١) انظر: تجربة الجمعية الشرعية، محمد أحمد بدوي، ص ١٤٠.

(٢) في عام ١٩٣٩م في أحد مساجد الجمعية الشرعية صعد المنبر شيخ معمم ذو لحية طويلة وخطب الناس، وكان موضوع الخطبة قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة وقرر الخطيب في خطبته شيئاً عجيباً هو أن قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة كفر، ولا يقبل الله من فاعلها حرفاً ولا نصراً .. فسادت موجة استياء بين المصلين وكادت تحدث فتنة... وهذا كان موضوع الخطبة في تلك الأيام التي كانت فيها فلسطين شعلة من النيران، وكان الانجليز يقتحمون بيوت المسلمين ويمزقون المصاحف ويطأونها بأقدامهم وأكثر من ذلك.. (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، ص ١٤١).

(٣) انظر: الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم، دار الدعوة ـ الاسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٧٩م، ص ١٤٠.

٢ ـ اهتمت الجمعية بالشكليات (العمامة وارخاء العذبة) أكثر من المطلوب. فمن الأساسيات التي نراها قضية ضياع وطن إسلامي شعر وشارك فيه جميع المهتمين بالقضايا الإسلامية ولم نسمع صوتاً واضحاً للجمعية الشرعية فيه، وهو «قضية فلسطين» التي ظهرت للعيان على مسرح السياسة العالمية بعد الحرب العالمية الأولى.

٣ ـ ورغم تركيز الجمعية على جانب واحد من جوانب الإسلام وحصر نشاطها في محاربة البدع في مجتمع المسلمين، فإننا نجد أنها لم تبلغ حتى في هذا الجانب مبلغاً واضحاً. ونسوق تقويم أحد رجالها لهذا الجانب فيقول:

«لا يدعى المنظرون لتجربة الجمعية الشرعية والمقومون لها أنها قد قضت على التخلف تماماً وعوامله ونتائجه حتى عند أتباعها، ولكنها استطاعت وبكفاءة أن تحدده وتحصره في إطار لا يتسع لكل جوانبه وهو إطار البدع الذي يشمل في تجربتها كل أنواع الانحراف عن المنهج الإسلامي»[(١)].

٤ ـ رباط الجماعة لا يربط أفراد تلك الجمعية حيث أن كل فرع من فروع الجمعية وحدة مستقلة حتى في تسجيله في وزارة الشئون الاجتماعية[(٢)] وهذا يعطي كل فرع استقلالية ـ أو شبه استقلالية ـ في التفكير وتنفيذ ما تصبوا إليه الجمعية بفهم أعضائه الخاص. ويوضح هذا الإتجاه عضو مجلس إدارة الجمعية الشرعية بما ذكره عن نشاط كل فرع مستقلاً عن الآخرين فيقول:

«وهكذا تولدت قوة ذاتية للدعوة إلى الإصلاح ومزاولته وتطبيقه، وساعد على نماء هذه القوة الذاتية لدى كل فرع، بل ولدى كل مكتب أن العلاقة بين المكتب والفرع، وبين الفرع والجمعية الرئيسية ليست علاقة تنظيمية بالمعنى المفهوم في الجمعيات ذات الفروع، ولكنها علاقة ولاء وانتماء وتوازن في مسئولية الدعوة والنهوض بها، «فاللامركزية» هي السائدة حتى في التخطيط والتنفيذ»[(٣)].

---

(١) تجربة الجمعية الشرعية، محمد أحمد بدوي، ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق في ذات الصفحة: أن للجمعية ١٦٠ فرعاً مشهوراً بوزارة الشئون الاجتماعية.

(٣) انظر: تجربة الجمعية الشرعية، ص ٤١.

ثم يوضح ماهية الصلة والعلاقة بين الفروع والجمعية الرئيسية ويحصرها في انتخاب مجلس الإدارة السنوي بتصويت أعضاء من الفروع كل سنة.

ونستطيع أن نجمل القول بأن الجمعية الشرعية لم تكن لديها الحركة الإيجابية الشاملة التي تعمل على ايجاد تيار إسلامي عام، وتكوين جيل يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ويؤمن به، ويجاهد في سبيله.

جماعة الإخوان المسلمين

ويتكون هذا الفصل من توطئة وخمسة مباحث هي:

المبحث الأول : حسن البنا المؤسس والمرشد.

المبحث الثاني : الشمول أساس دعوة الإخوان المسلمين.

المبحث الثالث : الغايات والوسائل عند الإخوان المسلمين.

المبحث الرابع : التنظيم الإداري للجماعة.

المبحث الخامس : في تقويم الجماعة.

توطئة

لقد كان لتاريخ تلك الحقبة وما احتواه من أحداث جسام، وتغيرات في المفاهيم والمضامين، في الخلق وفي السياسة، في البلاد والأوطان، في العنصر وفي الجنسية، تقهقر للباب العالي وتطويق للعالم الإسلامي، ثم احتلال لمعظم البلاد الإسلامية، ثم إجهاز على الخلافة الإسلامية، ثم تقسيمها إلى دويلات يتبعها ما يتبعها من قوميات وجنسيات: كما رسم وأراد الغرب. بُعد عن العقيدة سلك طرقاً كثيرة وكلها لا تؤدي إلى الإيمان، بل تجرنا إلى تيه وركام وضلال، كل ذلك من بداية القرن الرابع عشر الهجري (نهاية وبدايات التاسع عشر والعشرين الميلادي) وكما عرفنا على مر التاريخ بظهور الصحوة الإسلامية مع هذه الانتكاسات الشديدة التي شملت العالم الإسلامي. ظهرت دعوات إصلاحية كثيرة في تلك الفترة بمجهودات فردية، وجمعيات دينية مخصوصة، فجاءت كل واحدة منها وقطفت زهرة، أو غصناً، أو ثمرة. من شجرة الإسلام الوارفة ظلالها، الثابت أصلها وفروعها في السماء واعتقدت بأن هذا الجزء هو الإسلام، فكافحت ونافحت من أجله، وشملته بالرعاية والعناية والإبراز ليكون هو الإسلام فكراً وعملاً، تاركة الأصل بشتى فروعه ومحتواه من أمثلة ما ذكرنا: جمعية مكارم الأخلاق، الجمعية الشرعية، وجمعية أنصار السنة.

وقد أحدثت هزات لا بأس بها ولكنها لم تنتج آثاراً إيجابية ثابتة، حتى جاءت الجماعة ذات الغايات الشاملة لكل غايات الدين الإسلامي، والمتخذة كل الوسائل التي حددها الشارع إلى تلك الغايات، ضمن خطة مرحلية مدروسة، وبحسب ما سار عليه رسول الله ﷺ بدعوته عندما قرر أن يعيد هذه البشرية إلى ربها.

ولا شكّ أنّ «جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا يمثلون مرحلة لدعوة

الإسلام، لم تتجاوز حركتهم أن تكون تعبيراً عن رغبة في الإصلاح، أو محاولة لم تستطع أن تنظم جهوداً عملية ترمي إلى سيادة مبادئ الإسلام في الحكم والسياسة والاجتماع[١] حتى كانت جماعة الإخوان المسلمين ـ التي أسسها الإمام الداعية حسن البنا ـ «مرحلة التصحيح لحركة الفكر الإسلامي، ولمسار الجهاد وردّه إلى الغايات التي صرف عنها.. إنها مرحلة الاتجاه بالأمة، وبقيادة العمل الإصلاحي بأنواعه إلى صراط العزيز الحميد بعد أن غرر بالأمة الإسلامية وقياداتها، فتركوا الطريق المستقيم إلى حارات مسدودة، إنها مرحلة الإعداد الجاد، لعمل عظيم محدد المراحل والخطوات، ومرحلة التقويم والتثقيف لما اعوج من حركة محمد عبده والأفغاني ورشيد رضا، مما لا يكاد يرى إلاّ بمجهر دقيق»[٢].

فالدعوة التي دعا إليها الإمام حسن البنا هي دعوة الله ورسوله، لم تكن من فراغ، بل تاريخها يبدأ منذ بدأ الإسلام، وعبر التاريخ الطويل كانت تتجدد حركات وتقوم دعوات إلى تصحيح مفاهيم الإسلام لدى المسلمين وتصحيح مسارهم، كي تدفع عن الأمة الإسلامية عوامل النقص والانحطاط والاضمحلال، يدفع عن كيانها أذى الاعتداء الذي يأتيها من الخارج أو يقع من الداخل، والإسلام لا يلحقه نقص، إنما النقص يلحق بالمسلمين عندما يتخلفون عن الأخذ بدينهم عقيدة وسلوكاً وشريعة، فعلى قدر استيعاب المسلمين للإسلام بقدر الحضور الإسلامي في المجتمع، وبالتالي استكمال مقومات الأمة والدولة، وازدهار حضارة المسلمين.

والمسلمون هم ورثة هذا الدين، وهم مسئولون أمام الله عز وجل عن نشر الإسلام في صورته الحقيقية والمتكاملة، دين ودولة وحضارة، وبصرف النظر عن المراجعات التاريخية التي تضعنا أمام صور الازدهار وصور التخلف، وقراءة لماذا وقع الأزدهار ولماذا وقع التخلف، فإنه من السهل على أي مؤرخ أو مفكر عند أي قراءة لهذا التاريخ، قراءة واعية أن يعرف أن هناك عامل ارتباط قوياً جداً، بل ارتباط عضوي بين ما يحصله المسلمون من وعي بدينهم وعمل به والتزام له في أنفسهم كما يلتزمون به مع غيرهم، في خاصة أمورهم وفي عامة هذه

(١) عبد المتعال الجبري، لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ٢٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٢٣.

الأمور، بقدر هذا التمثل لهذا الدين في كل مواقع الحياة، بقدر ما يحصل الازدهار والعكس صحيح، وهذه حقيقة أو مقولة تاريخية لا غبار عليها.

وبهذا الفهم كانت دعوة الإخوان المسلمين، وإذا كان هذا شأن جماعة الإخوان المسلمين، فإنه يجدر بنا قبل أن نتكلم عن فحوى هذه الجماعة، أن نعرض في إيجاز لمؤسسها الإمام حسن البنا ومنابت هذا الفكر عنده، وأسباب تكونه لديه، لنلتمس الدواعي والأسباب التي أدت إلى ظهور الإخوان المسلمين بفهمها الشامل للإسلام فجددت أهدافها، واتخذت الوسائل المناسبة للوصول لتلك الأهداف فكان تنظيمها الدقيق في بناء متماسك يشد بعضه بعضاً.

في ضوء ما سلف وجب علينا أن ننظر فيما يلي:

أولاً : في الأحداث التي توالت على مصر من مطلع القرن العشرين الميلادي إلى سنة ١٩٢٨م.

ثانياً : أن نستعرض حياة البنا نفسه.

ففي هذين المصدرين تكمن البواعث والأسباب التي أدّت إلى نشأة الإخوان[١].

فأما المصدر الأول فقد سبق بحثه في الباب التمهيدي، أما استعراض حياة البنا نفسه فهي مناط قولنا في هذا المبحث. ومن حسن الحظ أن البنا دوّن مذكراته[٢]، متضمنة تاريخ حياته، وفي الكثير منها أيضاً تاريخ دعوته.

وقد كتب الكثيرون من أنحاء العالم أجمع، العربي والإسلامي والغربي وكتبوا كثيراً أيضاً عن حياة الرجل تفصيلاً وإجمالاً، توضيحاً واستنتاجاً. ولن نزيد شيئاً عما كتبوه، ولن نحيل إلى ما كتبوه، ولكن سنأخذ منه بالقدر الذي يوضح الهدف مما نريد وحتى لا نجهد المتتبع لهذا البحث لتكون أمامه الصورة كاملة مشرقة ميسرة بإذن الله. ثم نأتي بعد ذلك لأساس الدعوة وغاياتها وما هي الوسائل التي اتبعتها مع بيان البناء الإداري للجماعة ثم نختم هذا الفصل بنتيجة هذا العمل الضخم.

---

(١) اسحق الحسيني، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية، ص ٦ .

(٢) مذكرات الدعوة والداعية.



المبحث الأول

حسن البنا المؤسس والمرشد

ويشتمل هذا المبحث على مطلبين هما:

المطلب الأول : المولد والنشأة.

المطلب الثاني : عوامل بناء هذه الشخصية.

المطلب الأول

المولد والنشأة

ولد «حسن البنا» في اكتوبر عام ١٩٠٦م[١] بمحافظة البحيرة ببلدة المحمودية التي تبعد حوالي تسعين ميلاً شمال غربي القاهرة.

ونشأ البنا في جو إسلامي خالص، وربته البيئة الإسلامية واحتضنته حتى ليقول بحق: «أبي الإسلام لا أب لي سواه»[٢].

وكان والده[٣] ـ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا المعروف بالساعاتي ـ معروفاً بالوقار واليسار، ومن بيئة علم واستمساك بالدين والقرآن، ومن مواليد ناحية شمشيرة مركز فوة غربية.

درس الوالد الفقه والتوحيد والنحو، وحفظ القرآن وجوّده. واشتغل بصناعة إصلاح الساعات. وكان لهذه الصناعة أثر كبير فيه وفي ابنه من بعده لما تقتضيه من دقة ومهارة وضبط. وكان والد حسن البنا معروفاً بسعة العلم، وسمو الخلق، وكان محدثاً جليلاً عكف على أمهات كتب السنة، ورتب مسند الإمام أحمد بن حنبل، وهو أجمع كتب الحديث على أبواب الفقه، في عشرة مجلدات وأسماه: (الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن

---

(١) د/ ريتشارد. ن . ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة الدكتور محمود أبو السعود، طبعة أولى، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، ص ٦٧ .

(٢) روح وريحان، أنس الحجاجي، ص ٢٦٤ .

(٣) الإخوان كبرى الحركات الإسلامية، اسحق موسى الحسيني، ص ٤٢ .

حنبل الشيباني)، وألّف كتباً كثيرة منها: «بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن» وعلق عليه شرحاً ورتب جزءاً من مسانيد الأئمة الأربعة[١].

وفي هذه البيئة الإسلامية الخالصة كان منبت هذه الشجرة الطيبة، كان مولد حسن البنا، فوقعت عيناه أول ما وقعت على مكتبة أبيه، التي جمعت العديد من الكتب الدينية، وشجعه والده على ارتياد هذه العلوم منذ الصغر، وحفّظه القرآن كاملاً قبل أن يلتحق بالتعليم الابتدائي، وتنقّل في مدارس التعليم حتى التحق بدار العلوم وتخرج فيها عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م)[٢].. ويبدو أن فكرة الاخوان قد تبلورت في رأسه وهو طالب بدار العلوم. فقد كتب في موضوع انشائي كان عنوانه: ما هي آمالك في الحياة بعد أن تتخرج؟ فقال: «ان أعظم آمالي بعد اتمام حياتي الدراسية أملان:

(خاص) ـ وهو إسعاد أسرتي وقرابتي، والوفاء لذلك الصديق المحبوب، ما استطعت الى ذلك سبيلاً، والى أكبر حد تسمح به حالتي ويقدّرني الله عليه.

(وعام) ـ وهو أن أكون مرشداً معلماً، اذا قضيت في تعليم الأبناء سحابة النهار، ومعظم العام قضيت ليلي في تعليم الآباء هدف دينهم، ومنابع سعادتهم، ومسرات حياتهم، تارة بالخطابة والمحاورة، وأخرى بالتأليف والكتابة، وثالثة بالتجول والسياحة»[٣].

وكانت دار العلوم يومئذ أشبه بأزهر صغير تعني بالعلوم الدينية واللغوية عناية الأزهر ولكن بأسلوب حديث[٤] وكان حسن البنا في هذه الفترة دائم التلاوة للقرآن في الفصل والمدرسة والشارع[٥].

وكان لدراسته العلوم الحديثة في دار العلوم ـ من تربية وعلم نفس وفلسفة ومنطق ـ

(١) انظر: روح وريحان، أحمد أنس الحجاجي، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ـ ط (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م)، ص ١٠٣ ـ ١١٣.

(٢) الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية د/ زكريا سليمان، ص ٧٣، ٧٤.

(٣) مذكرات الدعوة والداعية، حسن البنا، ص ٥٦ ط ٣ (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م) المكتب الإسلامي ـ بيروت،

(٤) الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية، د/ إسحق الحسيني، ص ٤٣.

(٥) د/ اسحق الحسيني، مرجع سابق ص ٤٣.

أثر واضح في توسيع أفقه فكرياً في نواحي غير الدين، فرأى السياسة والإجتماع والرياضة مما لا يكاد يدخل في نطاق تفكير رجال الدين الأقحاح[1] (في هذه الفترة).

(١) نفس المرجع ص ٤٤ .
أقحاح: جمع قح: و (القح) بالضم والتشديد الخالص في اللؤم أو الكرم يقال عربي قح: أي محض خالص.
انظر: ق ح ح.
مختار الصحاح، للرازي ص ٥٢٢ .
لسان العرب، لإبن منظور، المعجم الوسيط، مجمع اللغة.

المطلب الثاني

عوامل بناء هذه الشخصية

وبالنظر إلى هذه النشأة الصالحة نجد أن هناك عدة عوامل تشابكت وتضافرت لتكوين هذه الشخصية الفذة، ونلخصها فيما يلي:

١ ـ الوالد كان من العلماء المشهورين ومن أهل التقوى والصلاح، فغرس البذور الأولى للتدين الصحيح في قلب ولده منذ حداثة سنه فحفظ حسن البنا القرآن الكريم وهو دون الثامنة. «كما أورثه علمه المأثور التقليدي الواسع وتقواه»[١].

٢ ـ تفتحت عيناه وأمامه مكتبة والده الذي شجعه على استخدامها لينهل منها ما يريد: فنشأ في جو اسلامي خالص، وربته البيئة الاسلامية واحتضنته حتى ليقول بحق: «أبي الاسلام لا أب لي سواه»[٢] كما أسلفنا القول.

٣ ـ كان معلّمه بالمدرسة الشيخ محمد زهران من أوائل من أثروا تأثيراً عميقاً في تطور التلميذ الصغير بعد أثر والده[٣].

٤ ـ انضمامه لأول جمعية وهو في المدرسة الأولية «جمعية الأخلاق الأدبية» وكان مؤسسها والمشرف عليها أحد معلميه وهو الشيخ محمد عبد الخالق، الذي يعتبره «البنا» ذا أثر في تكوينه، وكانت أول عمل جماعي يقوم به[٤].

---

(١) انظر: دكتور/ ريتشارد ميتشيل، الإخوان المسلمون ص ٦٨ .

(٢) الإخوان المسلمون، مرجع سابق ص ٤٢ .

(٣) د/ ريتشارد ميتشيل، الإخوان المسلمون، ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق، ص ٦٨ .

٥ ـ كان البنا وهو صغير يقرأ القصص الشعبية كقصة الأميرة ذات الهمة وقصة عنترة ويتأثر بما يقرأ ويمثّل دور القتال. وكان مولعاً باقتناء قصص البطولة والجهاد والغزوات والتاريخ، وسير أبطال المغرب وأبي محمد البطّال وسيرة بني هلال[١].

٦ ـ إنتسابه للطريقة الحصافية وهو في سن الرابعة عشرة فنمّت فيه النزعة الروحية بعد أن شهد أول حلقة ذكر معها في فترة مبكرة من حياته[٢].

٧ ـ شهد حسن البنا حوادث ثورة سنة ١٩١٩م وهو في حداثة سنه (١٣ سنة) وشارك فيها بالمظاهرات والخطابة والشعر وشاهد إحتلال الإنجليز الأحياء في المحمودية. فتركت هذه الحوادث أثراً بالغاً في نفسه حتى أنه اعتقد أن الخدمة الوطنية جهاد مفروض لا مناص منه[٣].

٨ ـ وافق وصول البنا الى القاهرة فترة الغليان السياسي والفكري الشديد الذي غيّر العشرينات في مصر، فنظر الى ذلك المشهد بعين القروي المتدين واستخلص ما اعتبره مشاكل جدية، وهي التنازع على حكم مصر بين حزبي الوفد والأحرار الدستوريين، والجدل السياسي الصاخب وما نتج عنه من الفرقة التي أعقبت ثورة ١٩١٩م، والدعوة الى الإلحاد والإباحية التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي، ومهاجمة الأعراف المستقرة والمعتقدات التي ساندتها «الثورة الكمالية» بنبذها الخلافة والخط العربي ـ وانتظامها في حركة «التحرر الفكري والاجتماعي» لمصر ـ ثم التيارات غير الإسلامية بالجامعة المصرية التي أعيد تنظيمها آنذاك، والتي بدا أنها تستمد إلهامها من الفكرة القائلة بأن «الجامعة لا يمكن أن تكون جامعة علمانية ما لم تثر ضد الدين وما لم تحارب الأعراف الإجتماعية المستمدة منه»[٤]، يضاف الى ذلك الدهريون والتحرريون من رواد الندوات الأدبية والاجتماعية، ثم الجمعيات

---

(١) إسحق الحسيني، الإخوان المسلمون، ص ٧.
(٢) أنظر ريتشارد ميتشيل، الإخوان المسلمون، ص٦٩.
إسحق الحسيني، الإخوان المسلمون، ص ٧.
(٣) إسحق الحسيني، الإخوان المسلمون، ص ٩.
(٤) الإخوان المسلمون، ريتشارد ميتشيل، ص ٧١.

والحفلات والكتب والصحف والمجلات التي روّجت الأفكار التي كان هدفها الوحيد هو إضعاف أثر الدين[١].

وكان أثر هذه الصورة بالغاً عند حسن البنا ـ فكرياً وعاطفياً وعملياً ـ هو وأقرانه الذين جمعهم واياه عهد الطلب وصدق الود والشعور بالواجب بقوله: «ليس يعلم أحد إلاّ الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة وما وصلت اليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلّل العلل والأدواء ونفكر في العلاج وحسم الداء. ويفيض بنا التأثر لما وصلنا اليه الى حد البكاء».

وكم لنا أن نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة، والخليّون هاجعون يتسكعون بين المقاهي ويترددون على أندية الفساد والاتلاف[٢].

٩ ـ وآخر شعاع شارك في تكوين هذا الضوء الساطع والفجر المنير، بل الشعاع المسئول عن تفجير تلك الحزمة الضوئية لتنتشر في جميع الاتجاهات وتشمل دعوة الإسلام بشموليتها لكل مناحي الحياة وكل إتجاه للإصلاح والدين الصحيح.

فكان هذا هو قرار تعيين الرجل مدرّساً في مركز الإحتلال العسكري البريطاني ـ ليس فقط.. ولكن في «بؤرة الإحتلال الإقتصادي» الأجنبي[٣]. فكانت الإسماعيلية التي لم تقتصر على احتوائها المعسكرات الحربية البريطانية ولكنها أيضاً كانت مركز شركة قناة السويس، وهذا وضع لا يقل ازعاجاً عن الاحتلال لما يتضمنه من سيادة أجنبية مطلقة على المرافق العامة، ولما ترتب عليه من إقامة المساكن البادية الأناقة والرفاهة، يقطنها الأجانب ويشرفون منها على بيوت العمال «البائسين»؛ بل إن البنا لاحظ أن أسماء الشوارع ولافتات

---

(١) أنظر: قائد الدعوة ـ حياة رجل وتاريخ مدرسة، أنور الجندي، ط ١ ، ١٩٤٦م، القاهرة، ص ١٣٧، ١٣٩.
ـ الإخوان المسلمون، إسحق الحسيني، ص ١٠ ـ ١١.

(٢) رسالة المؤتمر الخامس، حسن البنا، (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا)، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ص ١١٧.

(٣) نعني شركة قناة السويس.

الطرقات في الأحياء الشعبية المصرية كانت مكتوبة «بلغة الإحتلال الإقتصادي»[1].

وبذلك نستطيع أن نقول أن عوامل تاريخية وسياسية وفكرية تجمعت روافدها، والتقت بكل مؤثراتها في الفترة التي أراد الله تبارك وتعالى أن يتصدى لنشر وتجديد الحركة الإسلامية الإمام الشهيد حسن البنا في أواخر العشرينات من هذا القرن، والرصد التاريخي أو الإجتماعي أو السياسي أو الفكري لهذه الفترة ليس صعباً، وهو معروف من إستعمار وتبشير وإتجاه علماني مستورد، ثم قعود المؤسسة الدينية ممثلة في الأزهر الشريف والعلماء عن الاضطلاع بالدور الحيوي الذي يوقف زحف عوامل الهدم التي تنال من كيان هذه الأمة، سواء المستعمر أو أنظمة الحكم التي لا تلتزم بالإسلام، أو الفساد الإجتماعي الذي سببته عوامل الضعف، والغزو الحضاري الفكري لحضارة الغرب.

كل هذه العوامل جاءت فكانت على موعد، فكانت إرادة الله عز وجل ما يقول الحديث النبوي فيما معناه: «ان الله يبعث على رأس كل «مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» فكان على رأس القرن هذا الرجل»[2]. ثم كان أن تبعه ستة نفر الى منزله ممن كان يعظهم في المقهى وقالوا: «مسئوليتنا في رقبتك، فقد أيقظت فينا شعوراً لن يخمد من بعد، ولسنا كما ترى في مثل علمك...» «لقد سئمنا حياة الذلة والقيود، ونحن لا نملك الاّ هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا. وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفاسنا، وهذه الدراهم القليلة من قوت أبنائنا، ونحن لا نستطيع أن ندرك الطريق الى العمل كما تدرك».. «جئنا نبايعك» «وإن جماعة تعاهد الله مخلصة على أن تحيا لدينه، وتموت في سبيله لا تبغي بذلك إلاّ وجهه، لجديرة بأن تنتصر وإن قل عددها وضعفت عدتها»[3].

---

(١) انظر: ـ الإخوان المسلمون، ريتشارد ميتشيل، ص ٧٦.
ـ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم، دار الدعوة للطبع والنشر بالإسكندرية، جـ ١ ص ٦٥، ٦٦.

(٢) تأسيس جماعة الإخوان، محمد فريد عبد الخالق، مجلة المجتمع ص ٣٠.

(٣) انظر: ـ مذكرات الدعوة والداعية، حسن البنا، ص ٧٢.
ـ لماذا اغتيل الإمام الشهيد حسن البنا، عبد المتعال الجبري، دار الإعتصام، ط ٢، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ، ص ٣٦، ٣٧.

فما كان الاّ أن ولدت جماعة «الإخوان المسلمين» من هؤلاء الستة مع مرشدهم الذي بايعوه وكان ذلك في مارس ١٩٢٨م[1] بمدينة الإسماعيلية وبذلك بدأ التنظيم العملي لدعوة حسن البنا وسنرى فيما يلي بتيسير الله كيف سار هذا التنظيم وكيف كان وما هي نتائجه الفكرية والعملية؟

---

(١) انظر (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية)، د/ إسحق الحسيني ص ٤، ١٧ .
ـ قابلت هذا التاريخ بالتاريخ الهجري في الحاسب الآلي فتبين أن شهر مارس سنة ١٩٢٨م يقابل النصف الأخير من شهر رمضان والنصف الأول من شهر شوال سنة ١٣٤٦هـ وأرجح أن تأسيس الجماعة كان في شهر شوال ١٣٤٦هـ حيث أن الإمام ذكر التاريخ في مذكراته (ذو القعدة سنة ١٣٤٧هـ/ مارس سنة ١٩٢٨م) وعلق عليه الشيخ بقوله «فيما أذكر».

الشمول أساس دعوة الإخوان المسلمين

تميّزت دعوة الإخوان المسلمين من أول يوم بالعودة إلى الأصالة الإسلامية بمصدريها: الكتاب والسنة، متجاوزة الخلافات الجزئية والمذهبية مع التركيز على صب الجهود من أجل بناء جيل مؤمن يفهم الإسلام فهماً صحيحاً على أنه دين ودولة، وعبادة وجهاد، وشريعة محكمة تنتظم حياة الناس جميعاً في جوانبها كلها، التربوية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية[1].

وقد أوضح الإمام حسن البنا خصائص هذه الدعوة الشمولية بقوله:

«إن منهاج الإخوان المسلمين محدود المراحل واضح الخطوات فنحن نعلم تماماً ماذا نريد ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة».

«نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته، وفي خلقه وعاطفته، وفي عمله وتصرفه. فهذا هو تكويننا الفردي.

ونريد بعد ذلك البيت المسلم في ذلك كله ونحن لهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل، ونعني بالطفولة عنايتنا بالشباب وهذا هو تكويننا الأسري.

ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله أيضاً ونحن لهذا نعمل على أن تصل

(١) مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا، ص ٥ .

دعوتنا إلى كل بيت، وأن يسمع صوتنا في كل مكان، وأن تتيسر فكرتنا وتتغلغل في القرى والنجوع والمدن والمراكز والحواضر والأمصار، لا نألو في ذلك جهداً ولا نترك وسيلة.

ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر من قبل، ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.

ونريد بعد ذلك أن نضمَ الينا كل جزء من وطننا الإسلامي الذي فرقته السياسة الغربية وأضاعت وحدته المطامع الأوربية. ونحن لهذا لا نعترف بهذه التقسيمات السياسية ولا نسلم بهذه الإتفاقات الدولية التي تجعل من الوطن الإسلامي دويلات ضعيفة ممزقة يسهل ابتلاعها على الغاصبين، ولا نسكت على هضم حرية هذه الشعوب واستبداد غيرها بها.

فمصر وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وكل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله كل ذلك وطننا الكبير الذي نسعى لتحريره وإنقاذه وخلاصه وضم أجزائه بعضها إلى بعض.

ولئن كان الرايخ الألماني يفرض نفسه حامياً لكل من يجري في عروقه دم الألمان، فإن العقيدة الإسلامية توجب على كل مسلم قوي أن يعتبر نفسه حامياً لكل من تشربت نفسه بتعاليم القرآن فلا يجوز في عرف الإسلام أن يكون العامل العنصري أقوى في الرابطة من العامل الإيماني»[١].

هذا، ومن أبرز ما التزمت به جماعة الإخوان عن غيرها من الجماعات الإسلامية المعاصرة ما يلي[٢] (وهي خصائص الإسلام الأصيلة).

(١) رسالة إلى «الشباب» خطاب البنا إلى إخوان في الجامعة في عام ١٩٤١م، طبعة ١٩٥١م صفحة ٨ ــ ١٠.
(٢) رسالة دعوتنا في طور جديد، حسن البنا ص ٢٦٦ (مجموعة الرسائل).

أ ـ أنها ربانية لأن الأساس الذي تقوم عليه أهدافها جميعاً أن يتقرب الناس إلى ربهم عز وجل.

ب ـ وأنها عالمية، لأنها موجهة للناس كافة، لأن الناس في حكمها إخوة من أصل واحد.

جـ ـ وأنها إسلامية لأنها تنتسب إلى الإسلام، بل أجمع ما توصف به أنها إسلامية.

د ـ شمولها لكل الإتجاهات والمعاني الإصلاحية.

وفي ذلك يقول الإمام حسن البنا[1]:

«وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك، إن الإخوان المسلمين:

١ ـ دعوة سلفية: لأنهم يدعون الى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

٢ ـ وطريقة سنية: لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

٣ ـ وحقيقة صوفية: لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والإرتباط على الخير.

٤ ـ وهيئة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل، وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

٥ ـ وجماعة رياضية: لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن النبي ﷺ يقول: «إن لبدنك عليك حقاً». وان تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة، إلاّ بالجسم القوي، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعاً لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع وربما فاقت كثيراً من الأندية المتخصصة.

(١) رسالة المؤتمر الخامس، حسن البنا، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

٦ ـ ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

٧ ـ وشركة إقتصادية: لأن الإسلام يعني بتدبير المال وكسبه من وجهه وهو الذي يقول نبيه ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

٨ ـ وفكرة إجتماعية: لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

ويختم الإمام قوله(١): «بأن شمول معنى الإسلام قد اكسب فكرتنا شمولاً لكل مناحي الإصلاح، ووجه نشاط الإخوان إلى كل هذه النواحي.

وذكر هذا المعنى الدكتور إسحق الحسيني في كتابه «الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية» بقوله: «إنا (أي جماعة الإخوان المسلمين) ظاهرة لها أصولها في التاريخ الإسلامي، فهي تشبه إلى حد كبير الحركة الوهابية والحركة السنوسية، وهي متأثرة بالمدرسة السلفية التي تزعمها رشيد رضا في مصر، وبمدرسة إبن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ. وأخيراً بمدرسة أهل الحديث التي حمل لواءها إسحق بن راهويه في خراسان، وأحمد بن حنبل في العراق في القرن الثالث الهجري»(٢).

وعلى ضوء ما سلف نجد أن فكر الجماعة شمل جوانب الإسلام كافة متضمناً شئون الحياة جميعاً، ذلك أننا نجد أن الإخوان المسلمين أحاطوا الدعوة بأطر هامة كان من أهمها الشمول، فكانت دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد، وهي أركان الدعوة الإسلامية.

فقد فهم الإخوان المسلمون تعاليم الدعوة إلى الإسلام أنها شاملة شئون الناس في الدنيا والآخرة، وليست روحية فقط. ففي المراحل الأولى للدعوة اقتصرت الجماعة بالإهتمام بالنواحي الإجتماعية وتناولت ذلك مقالات في مجلة الإخوان كما عرضوا لفهمهم للإسلام

(١) رسالة المؤتمر الخامس، حسن البنا، ص ١٢٣.

(٢) الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية، إسحق الحسيني، ص ٦٥، ٦٦.

بأنه ينتظم شئون الحياة جميعاً، ووصفت الدعوة بأنها إسلامية بمفهومها العام منذ عام ١٩٣٥م[١].

ثم عرضوا لمفهوم الإسلام فيما بعد بقولهم: «ان الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة. وروحانية وعمل، ومصحف وسيف[٢]، وخلق ومادة، وثقافة وقانون، وسماحة وقوة»[٣].

وبذلك وضح فكر الإخوان حسب مفهوم الإسلام.. شاملاً جميع نواحي الحياة العملية والروحية فشمل الحياة السياسية والثقافية والإقتصادية والإجتماعية منذ المؤتمر الخامس بمناسبة مرور عشر سنوات على نشأة الإخوان. فذكر الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ أنه: «كان نتيجة هذا الفهم العام الشامل للإسلام عند الإخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحي الإصلاح في الأمة وتمثّلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإصلاحية، وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته، والتقت عندها آمال محبي الإصلاح الذين عرفوها، وفهموا مراميها»[٤].

ثم أردف قائلاً قولته الجامعة لفكر الجماعة:

«وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك، ان الإخوان المسلمين: دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة إقتصادية، وفكرة إجتماعية»[٥].

ومن هذه العلامات المميزة، والأطر الواضحة، والمعاني الكاملة التي أطلقها الشيخ البنا موضحاً فكر الجماعة ومفهوم الإخوان للإسلام، نستطيع أن نقول بانفرادهم بهذا المفهوم الواسع كما جاء به الإسلام عن غيرهم من الجماعات التي سبقت في تاريخ الإسلام، فقد

(١) انظر: رسالة دعوتنا ص ١٣.
(٢) رسالة المؤتمر الخامس ص ١٠.
(٣) رسالة إلى الشباب ص ١٣.
(٤) مجموعة الرسائل، المؤتمر الخامس، ص ١٢٣.
(٥) انظر بتفصيل أكثر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١٢٢، ١٢٣.

ظهرت حركات روحية إصلاحية وسياسية في أعقاب عصر الخلفاء الراشدين، وحتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري، وكان كل منها تذهب مذهباً يغاير الآخر، أما الحركة الشاملة لهذه الحركات جميعاً فهي جماعة الإخوان المسلمين بفكرها الشامل الأصيل.

ويعرض الإمام حسن البنا لخصيصة الشمول في دعوة الإخوان المسلمين قائلاً:

«هل نحن طريقة صوفية، جمعية خيرية، مؤسسة إجتماعية، حزب سياسي؟ نحن دعوة القرآن الحق الشاملة الجامعة، للذين يقولون أننا جماعة زاهدة تمتاز بالرهبة والتبتل. نقول ان غيركم يقول عنا إننا نجمع بين الدين والسياسة، فلا رضي هذا الفريق عنا كرهبان وزهّاد، ولا رضي عنا ذاك الفريق كعاملين في ميدان الكفاح الوطني، ولكننا نحن نجمع بين كل خير في هذه الصور جميعاً، وفكرة الإخوان فكرة جامعة لأنها تستمد من الإسلام الحنيف، نستغني بها عن غيرها، أخذت من كل شيء أحسنه وابتعدت عن مزالقه وأخطائه. أخذت من فكرة الأحزاب السياسية الغيرة الوطنية والحماسة الإصلاحية وطرحت تنابذها وأحقادها وأخذت من فكرة الصوفية روحانيتها واخاءها وتركت فرديتها وإعتزالها وأخذت من فكرة الجماعات والأندية بأنواعها دقة نظامها ونشاطها وطرحت غفلتها ولهوها»[(١)].

ذلك التعريف الذي كرّسه حسن البنا قد أكده خليفته حسن الهضيبي في حديثه الصحفي الى جريدة الرأي العام السورية أثناء تجواله في البلاد العربية يقول:

«الإخوان المسلمون يأخذون الإسلام كلاً غير قابل للتجزئة، وهو يوجب عليهم أن يشتغلوا في جميع شئون الحياة، لا فرق في ذلك في المسائل السياسية وغير السياسية. فالكلام في التعليم سياسة وفي الزراعة سياسة وفي واجبات الحاكم والمحكوم سياسة، وكل ذلك يرجع إلى تدبير أمور الناس التي نظمها الإسلام جميعاً»[(٢)].

---

(١) مقال لحسن البنا بعنوان «تعريف» نقلاً عن كتاب «الإخوان المسلمون في ميزان الحق» لأنور الجندي، طبعة ١٩٤٦م صفحة ١١و ١٢.

(٢) منشور بجريدة «الإخوان المسلمون» الأسبوعية في ٢٢ يوليو ١٩٥٤م ص ٧.

وحقيقة أنهم لم ينفردوا في فهم الإسلام أنه دين ودولة.. فقد سبقهم الى ذلك في العصر الحديث الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دعوته السلفية[1]، والأتراك أثناء الخلافة العثمانية.

(١) كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حركة دينية اصلاحية شاملة تدعو إلى تنقية معنى التوحيد من كل الشوائب الشركية ظاهرة وباطنة ومحاربة كل أنواع البدع والمنكرات التي رانت على قلوب المسلمين في العصور المتأخرة. بل أيضاً قامت لها دولة وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وأقامت مجتمعها على السنة في جزيرة العرب.

المبحث الثالث

الغايات والوسائل عند الإخوان المسلمين

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : غايات الجماعة.

المطلب الثاني : وسائل الجماعة إلى أهدافها.

المطلب الثالث : أركان البيعة.

المطلب الأول

غايات الجماعة

لخّص الإمام حسن البنا غايات جماعة الإخوان المسلمين في عدة مواضع من رسائله نذكرها من أكثر المواضع شمولاً، يقول في شرحه ركن العمل وهو الركن الثالث من أركان البيعة في الجماعة[1] (وأريد بالعمل ما يلي):

١ ـ إصلاح الفرد نفسه.
٢ ـ تكوين البيت المسلم.
٣ ـ إرشاد المجتمع.
٤ ـ تحرير الوطن من كل سلطان أجنبي.
٥ ـ إصلاح الحكومة.
٦ ـ إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية.
٧ ـ أستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه.

فهدف الجماعة الأول بناء الفرد المسلم، ثم تطلب من كل فرد من هؤلاء الأفراد أن يبني كل واحد منهم البيت المسلم، وبتوافر الأسر الإسلامية تكون الجماعة قد سارت في هدفها الثالث، وهو بناء المجتمع المسلم وعندما يصبح المجتمع مسلماً يدرك واجبه نحو وطنه، وواجبه نحو أمته، وواجبه نحو البشرية كافة، فبقدر هذا الادراك لهذه الواجبات تكون الجماعة سائرة في أهدافها السبعة، في تدرج سليم يوصل الأول منها إلى الثاني وهكذا ولو طالت طريقها.

(١) مجموعة رسائل حسن البنا ص ١٢ ـ ١٢٦ ـ ١٢٨ ـ ٢٢٥ ـ ٢٦٨.

المطلب الثاني

وسائل الجماعة إلى أهدافها

الدعوة الإسلامية الخالدة في أصولها، ولكنها قد تتطور في وسائلها.. ولقد كانت ميزة حسن البنا الفهم الدقيق لهذه الحقيقة لذلك وضع أسس البناء للجماعة على أحدث ما وصل إليه التفكير في إقامة المنظمات والجماعات. فهو يربط القرية بالمدينة بالمحافظة بالعاصمة بالوطن الإسلامي كله في ترتيب دقيق وهو تنظيم يجعل للجميع نصيباً معلوماً في نشاط الجماعة، وحظاً مقسوماً تفتح أبوابها للطلاب والعمال والزرّاع والمهنيين وغيرهم ليمارسوا ما يرضي طاقاتهم ويوافق ميولهم من ألوان النشاط. فهناك رياضة وثقافة وعبادة، وهناك رحلات ومعسكرات، وهناك مدارس ومستوصفات وشركات... الخ.

ولقد كان الإخوان يؤمنون بحقيقة تطوّر الوسائل مع بقاء الدعوة في أصولها خالدة لا تتغير فوضعوا القانون الأساسي للجماعة أول الأمر في ٢٢ مادة[1].

ويحكم هذا التنظيم الإداري كل من القانون الأساسي في آخر تعديلاته حيث وافقت عليه الهيئة التأسيسية في ١٢ رجب ١٣٦٧هـ الموافق ٢١ مايو ١٩٤٨، واللائحة الداخلية العامة التي أقرها مكتب الإرشاد العام في ٢ صفر سنة ١٣٧١هـ الموافق ٢ نوفمبر سنة ١٩٥١م.

عرّفت المادة(٢) من القانون الأساسي الجماعة بقولها «الإخوان المسلمون هيئة

---

(١) «الإخوان المسلمون» الأسبوعية، العدد ٤٢ الخميس ٢٣ ذي الحجة ١٣٥٣هـ - ٢٨ مارس ١٩٣٥م، صفحة ١٣.

إسلامية جامعة تعمل لتحقيق الأغراض التي جاء من أجلها الإسلام الحنيف» ونصت المادة (٣) يعتمد الإخوان المسلمون في تحقيق هذه الأغراض على الوسائل الآتية وعلى كل وسيلة مشروعة:

أ ـ الدعوة:

بطريق النشر ووسائل الاعلام المختلفة من الرسائل والنشرات والصحف والمجلات والكتب والمطبوعات وتجهيز الوفود والبعثات في الداخل والخارج.

ب ـ التربية:

بطبع أعضاء الهيئة على هذه المبادئ وتمكين معنى التدين العملي لا القولي في أنفسهم أفراداً وبيوتاً، وتكوينهم تكويناً صالحاً ـ بدنياً بالرياضة وروحياً بالعبادة وعقلياً بالعلم ـ وتثبيت معنى الأخوة الصادقة والتكافل التام والتعاون الحقيقي بينهم حتى يتكوّن رأي عام اسلامي موحد، وينشأ جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويعمل بأحكامه ويوجه النهضة إليه.

جـ ـ التوجيه:

بوضع المناهج الصالحة في كل شئون المجتمع من التربية والتعليم والتشريع والقضاء والإدارة والجندية والإقتصاد والصحة العامة والحكم.. إلخ والإسترشاد بالتوجيه الإسلامي في ذلك كله والتقدم بهذه المناهج إلى الجهات المختصة والوصول بها إلى الهيئات النيابية والتشريعية والتنفيذية والدولية لتخرج من دور التفكير النظري الى دور التطبيق العملي.

د ـ العمل:

بإنشاء المؤسسات الإقتصادية والإجتماعية والدينية والعلمية كالمساجد والمدارس والمستوصفات والملاجىء.. إلخ وتأليف اللجان لتنظيم الزكاة والصدقات وأعمال البر والإصلاح بين الأفراد والأسر ومقاومة الآفات الإجتماعية والعادات الضارة كالمخدرات والمسكرات والمقامرة والبغاء وإرشاد الشباب إلى طريق الإستقامة وشغل وقت الفراغ بما ينفع

ويفيد وتنشأ لذلك أقسام مستقلة طبقاً للوائح خاصة تتفق مع القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥م الخاص بتنظيم الجماعات الخيرية وأعمال البر وتسجل بوزارة الشئون الاجتماعية.

هذا وقد لخص الإمام حسن البنا وسائل جماعة الإخوان المسلمين للوصول الى غايتها في نقاط ثلاث هي[1]:

أ - الإيمان العميق.

ب - التكوين الدقيق.

جـ - العمل المتواصل.

ثم بيّن أنه عندما يؤمن الفرد والأسرة والمجتمع بأحقية الدعوة الإسلامية ويتكوّن الجميع بتعاليمها، ثم يواصل الجميع العمل بهذه التعاليم، والدعوة إليها ونشرها بين الناس، وتكوينهم عليها تكون الجماعة في خط صحيح، وعلى أساس سليم، وفي حركة مستمرة متواصلة نحو أهدافها كلها.

وأول خطوة في هذا الطريق هو البيعة.

---

(١) رسالة بين الأمس واليوم، للإمام حسن البنا، ص ١٣٥ .

المطلب الثالث

أركان البيعة في الجماعة

من بين مراتب الجماعة في تصنيف أعضائها «العضو المجاهد» وأركان البيعة تخص هذه المرتبة من الأعضاء.

يقول الإمام حسن البنا المرشد العام[1]: أيها الإخوان الصادقون أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها:

١ ـ الفهم
٢ ـ الإخلاص
٣ ـ العمل
٤ ـ الجهاد
٥ ـ التضحية
٦ ـ الطاعة
٧ ـ الثبات
٨ ـ التجرد
٩ ـ الإخوة
١٠ ـ الثقة.

وقد شرح المرشد هذه الأركان العشرة في رسالة كاملة، هي: «رسالة التعاليم» ونلخصها فيما يلي:

---

(١) رسالة التعاليم، حسن البنا ص ٧.

١ ـ الفهم:

وقصد الإمام من ركن الفهم:

أ ـ أن يفهم هؤلاء الإخوان أن فكرتهم إسلامية صحيحة.

ب ـ أن يفهموا الإسلام على أنه نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً.

جـ ـ وأن الكتاب والسنة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام.

د ـ وأن يفهموا أن الطريق إلى فهم القرآن لغة العرب، وأن الطريق إلى السنّة رجال الحديث الثقات.

هـ ـ وأن الإيمان الصادق والعبادة الصحيحة نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، وأن الإلهام والخواطر والرؤى ليست من أدلة الأحكام. والتمائم والكهانة والورع، وإدعاء معرفة الغيب منكر يجب أن يزول. وأن رأي الإمام ونائبه معمول به ما لم يصدم بنص.

وأن كل واحد يؤخذ من كلامه ويرد، إلاّ المعصوم ﷺ، وأن لا يعرضوا للأشخاص فيما إختلف فيه بطعن وأن يكلوهم إلى نياتهم.

وإن على كل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، وأن يستكمل نقصه ليصبح من أهل النظر.

وان الخلاف الفقهي لا يكون سبباً للتفرقة في الدين، بل يجب التفاهم فيه في ظل الحب والإخاء.

وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف المنهي عنه. وآيات الصفات وأحاديثها نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل.

وإن كل بدعة في الدين بالزيادة فيه أو بالنقص منه ضلالة تجب محاربتها.

وإن الأولياء هم: ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[1] وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن يهبوا أشياء من ذلك لغيرهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٣ .

وزيارة القبور سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن تشييدها أو الإستعانة بأصحابها كبائر تجب محاربتها.

والعرف الخاطىء لا يغيّر من حقائق الألفاظ الشرعية شيئاً.

والعقيدة أساس العمل وعمل القلب أهم من عمل الجارحة.

والإسلام يحرر العقل ويحث على العلم والنظر في الكون، ويجعل الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها فهو أحق بها.

وأن النظر الشرعي مقدم على النظر العقلي، وأنه لا يمكن أن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة.

وأن لا يكفّر مسلم أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما برأي أو معصية.

٢ ـ الإخلاص:

ويقصد بالإخلاص: إخلاص العضو عمله لله تعالى.

٣ ـ العمل:

ويقصد بالعمل: أن يعمل العمل ضمن مراتب العمل المقررة في الجماعة وهي:

١ ـ بناء الفرد.
٢ ـ بناء الأسرة.
٣ ـ إرشاد المجتمع.
٤ ـ إصلاح الدول.
٥ ـ تحرير الوطن.
٦ ـ إعادة كيان الأمة الإسلامية.
٧ ـ سيادة العالم بنشر تعاليم الإسلام في ربوعه.

٤ ـ الجهاد:

ويقصد بالجهاد: الفريضة الماضية إلى يوم القيامة بمراتبه الثلاث بالقلب واللسان واليد.

٥ ـ التضحية:

ويقصد بالتضحية: بذل العضو ماله ونفسه وكل شيء في سبيل الغاية.

٦ ـ الطاعة:

ويريد بالطاعة امتثال العضو الأمر وإنفاذه توّاً في العسر والمنشط والمكره. وهي لازمة في مرحلتي الدعوة (التكوين والتنفيذ).

٧ ـ الثبات:

ويقصد بالثبات أن يظل العضو عاملاً في سبيل غايته مهما طالت المدة، ويعتبر الوقت جزءاً من العلاج.

٨ ـ التجرد:

ويريد بالتجرد أن يتجرد العضو لدعوته وجماعته عمن سواها.

٩ ـ الإخوة:

ويريد بالإخوة أن ترتبط القلوب في الجماعة برباط العقيدة (أن يرى كل واحد أخاه أولى من نفسه).

١٠ ـ الثقة:

ويقصد بالثقة: اطمئنان العضو إلى قيادة الجماعة وكفاءتها.

المبحث الرابع

التنظيم الاداري للجماعة

اتخذت الجماعة تنظيماً ادارياً فريداً يتسق مع تكوينها الذاتي، ويستهدف توزيع الاختصاصات بدقة بين أفراده حتى يتسنى تحقيق أهداف الجماعة وغاياتها. وسنورد فيما يلي هيكل هذا التنظيم، ثم نتبعه ببيان مفرداته في ثلاثة مطالب هي:

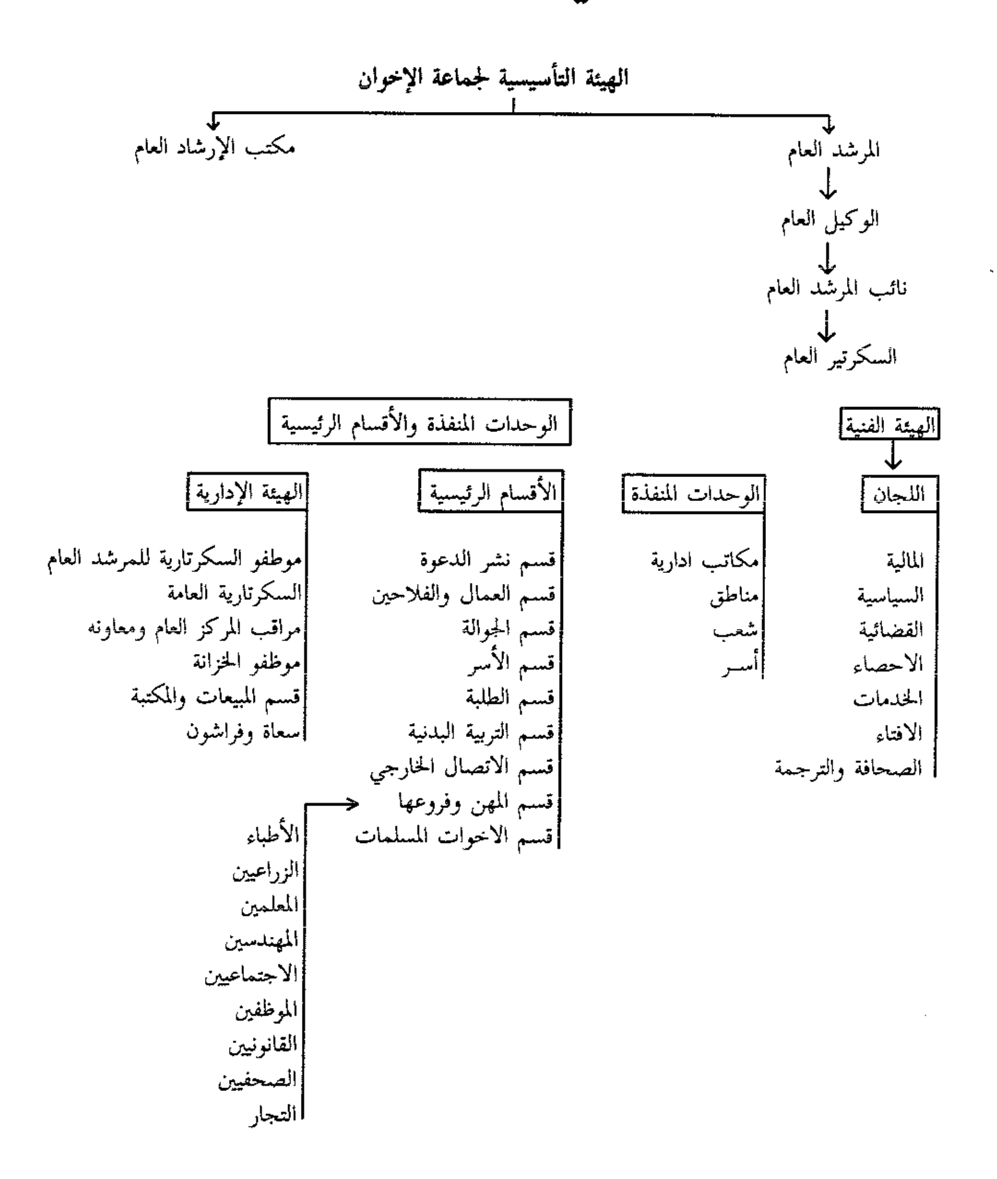
المطلب الأول : الهيكل التنظيمي الإداري للإخوان المسلمين.

المطلب الثاني : تعريف بالهيكل الإداري للإخوان المسلمين.

المطلب الثالث : الجهاز الخاص.

المطلب الأول

الهيكل التنظيمي الإداري للإخوان المسلمين(1)



(1) انظر: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

المطلب الثاني

تعريف بالهيكل الاداري للإخوان المسلمين

١ ـ الهيئة التأسيسية[١]:

وهي الهيئة التي تنبع منها السلطة الأولى في الإخوان، وهي تقوم مقام الجمعية العمومية في سائر المنظمات الأخرى، لأن الجمعية العمومية الحقيقية للإخوان لا سبيل إلى اجتماعها لأنها تبلغ عدة ملايين، ومن ثم استعيض عنها بالهيئة التأسيسية. والهيئة التأسيسية هي مجلس الشورى العام للإخوان المسلمين، والجمعية العمومية لمكتب الإرشاد العام.

وتتكوّن الهيئة التأسيسية من الإخوان الذين سبقوا بالعمل للدعوة، ومهمتها:

- الإشراف العام على سير الدعوة.
- إختيار أعضاء مكتب الإرشاد.
- إنتخاب مراجع حسابات[٢].

وإجتماعات الهيئة الدورية أول شهر المحرم من كل عام هجري.

---

(١) انظر: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) يكون من بين الإخوان المتخصصين الموجودين بالهيئة، وألا يكون من المختارين لمكتب الارشاد.

٢ ـ المرشد العام:

أولاً: التعريف به:

هو «الرئيس العام للهيئة ولمكتب الإرشاد وللهيئة التأسيسية»[١] وكان يكفي أن يشير النص إلى أن المرشد العام هو الرئيس العام للهيئة ويكفي هذا ليسحب رئاسته على سائر التشكيلات التي تتكوّن منها الهيئة وان يشفع لواضع النص في ذلك أنه أراد أن يؤكد رئاسة المرشد العام لمكتب الإرشاد وللهيئة التأسيسية.

ويشترط فيمن يختار مرشداً عاماً على نحو ما حددته المادة العاشرة من القانون المذكور، ما يلي:

أ ـ أن يكون من أعضاء الهيئة التأسيسية وقد مضى على اتصاله بها خمس سنوات.

ب ـ ألا تقل سنه عن ثلاثين سنة هلالية.

جـ ـ أن تتوافر فيه الصفات العلمية والخلقية والعملية التي تؤهله لذلك.

وتطبيقاً لهذا النص، اختير الأستاذ حسن الهضيبي مرشداً عاماً في اكتوبر ١٩٥٧[٢] وكان قد اتصل بالدعوة منذ الثلاثينات وقدمته جريدة المصري صبيحة إختياره بأنه عضو الهيئة التأسيسية، وملحوظة أخرى جديرة بالاهتمام وهي اشتراط الصفة العلمية في الفقرة (ج) من المادة، فلم تقتصر على ذكرها مؤهلاً علمياً كما هو الشأن في عضو مكتب الإرشاد بل قدمت الصفة العلمية على غيرها من الصفات، الأمر الذي يعني ضرورة اختيار شخص يمتاز بثاقب النظر والرأي وهما صفتان لازمتاه كما لزمتا سلفه المرحوم حسن البنا طيلة حياتهما وقد تميزا برجاحة العقل في معالجة القضايا على ضوء الإسلام مما أبعد الجماعة عن التزمّت والجمود.

---

(١) انظر: الفقرة الأولى من المادة التاسعة من قانون التنظيم الأساسي للهيئة.

(٢) انظر: الإخوان المسلمون، إسحق موسى الحسيني، ص ٣٧.

ثانياً: كيفية تنصيب المرشد العام:

١ - نصت المادة الحادية عشرة من قانون الهيئة على أن:

«ينتخب المرشد العام من بين أعضاء الهيئة التأسيسية في اجتماع يحضره على الأقل أربعة أخماس أعضاء هذه الهيئة. ويجب أن يكون حائزاً لثلاثة أرباع أصوات الحاضرين. واذا لم يحضر الإجتماع العدد القانوني أجّل الى موعد آخر لا يقل عن اسبوعين ولا يزيد عن شهر من تاريخ الإجتماع الأول، ويجب أن تتوفر في هذا الإجتماع النسبة المقررة في الإجتماع الأول من عدد الحاضرين والموافقين، فاذا لم يتوفر العدد القانوني في هذا الإجتماع أجّل مرة ثانية وعلى الهيئة تحديد موعد إجتماع آخر في مدة كالسابق بيانها مع الإعلان عنه وعن المهمة التي سيعقد من أجلها وعن أن الاجتماع التالي سيكون صحيحاً مهما كان عدد الحاضرين، ويكون الإختيار صحيحاً بأغلبية ثلاثة أرباع الحاضرين».

٢ - ثم يقسم المرشد العام اليمين أمام الهيئة التأسيسية بعد انتخابه قائلاً:

«أقسم بالله العظيم أن أكون حارساً أميناً لمبادئ الإخوان المسلمين ونظامهم الأساسي، وألا أجعل مهمتي سبيلاً إلى منفعة شخصية، وأن أتحرى في عملي وإرشادي مصلحة الجماعة وفق الكتاب والسنة، وأن أتقبل كل اقتراح أو رأي أو نصيحة من أي شخص بقبول حسن، وأن أعمل على تنفيذه متى كان حقاً، وأشهد الله على ذلك».

٣ - ثم يبايعه بعد ذلك، في أول لقاء معه، الإخوان في الشعب المختلفة عن طريق رؤسائهم، بعد أن يجدد البيعة أعضاء الهيئة التأسيسية على نحو ما أوضحته المادة (٤) من النظام المذكور.

٤ - على المرشد العام - (وفقاً للمادة ١٣ من النظام الأساسي) - بعد ذلك أن يستقيل من عمله الخاص ليتفرغ للمهمة التي أختير لها[١].

وهذا ما فعله المرشد حسن البنا، فقد استقال من عمله مدرّساً بوزارة المعارف عام ١٩٤٦م وتفرغ لتحرير مجلة الشهاب التي صدرت عام ١٩٤٧م واستقال كذلك المرشد

(١) وكأن الإخوان بهذا النص قد استلهموا ما سار عليه صحابة رسول الله رضوان الله عليهم عندما تولى أبو بكر الخلافة.

حسن الهضيبي من منصبه بالقضاء، وكان نائب رئيس محكمة النقض والإبرام التي تعتبر أعلى سلطة قضائية بمصر.

وفيما يلي نقتصر على دراسة بعض الأقسام الهامة في البناء العضوي لحركة الإخوان المسلمين والتي تختص بنشر فكرها:

أولاً: قسم نشر الدعوة:

نصت المادة (٥٨) من اللائحة التنفيذية على أن «الغرض من انشاء قسم نشر الدعوة هو تنظيم الدعاية لفكرة الإخوان تنظيماً فنياً ونشر الدعوة بكافة الوسائل التي لا تتنافى مع روح الإسلام ومن ذلك:

أ ـ إعداد الدعاة للخطابة والمحاضرات والكتائب على ألاّ يسمح لهؤلاء أن يخطبوا في الاحفال العامة إلاّ بعد التأكد من صلاحيتهم.

ب ـ إصدار ما تحتاج إليه الدعوة من رسائل ونشرات علمية وثقافية ورياضية.

جـ ـ تنظيم إصدار الرسائل والكتب التي يصدرها الإخوان المسلمون ولها مساس بالدعوة بحيث لا تطبع أي رسالة إلاّ بعد عرضها على القسم وإقرار نشرها. على كل أخ يؤلف كتاباً أو رسالة من هذا القبيل ألاّ يطبعها قبل عرضها على القسم، فاذا أقرها القسم اعتبرت من رسائل الإخوان (وقد عالجت المادة ٦١ من اللائحة حقوق المؤلفين بقولها) يطبع مكتب الإرشاد على نفقته ما يراه صالحاً من الرسائل والكتب بعد الإتفاق مالياً مع مقدميها ويتولى المكتب الإشراف على نشرها وبيعها».

د ـ إعداد الإخوان بصفة عامة إعداداً إسلامياً من النواحي الدينية والروحية والعلمية عن طريق تنظيم المحاضرات والرسائل في المواضيع التي تهم الأخ معرفتها وتوجيههم إلى قراءة الكتب النافعة التي تزيد من ثقافتهم الإسلامية وتبعث الروح الرياضية في محيط الإخوان المسلمين ونشر الألعاب الرياضية المناسبة لتقوية أبدانهم وتحسين صحتهم.

هـ ـ امداد الشعب والمناطق بالدعاة والمحاضرين في الحالات التي يراها المركز العام أو تفوّض إليه.

ثانياً: قسم العمال والفلاحين:

عالجت أولهما المواد (٦٣ ـ ٦٥)، وعالجت ثانيهما المواد (٦٦ ـ ٦٨). ونذكر كليهما لتشابه النصوص؛ نص على أن الأغراض في القسمين هي: (مادة ٦٣، مادة ٦٦).

أ ـ تنظيم نشر الدعوة في محيط العمال (والفلاحين) وايجاد جو إسلامي في المصانع والشركات والنقابات العمالية (المزارع والنقابات الزراعية).

ب ـ توجيه العمال (الفلاحين) إلى الاستفادة من النقابات والنشاط العمالي وإلى ما يحفظ حقوقهم.

جـ ـ تنظيم التعاون بين العمال (الفلاحين) والقيام على حاجاتهم ومطالبهم،

د ـ دراسة مشاكل العمال (الفلاحين) وإيجاد الوسائل الصالحة لحلها والعمل على التقريب بين العمال وأرباب العمل (بين الفلاحين والملاك).

هـ ـ دراسة نظم العمل (الاستغلال الزراعي) ومحاولة تصحيحها وردها إلى أصل إسلامي.

و ـ تثقيف العمال (الفلاحين) ثقافة إسلامية وتوجيههم إلى ما يرفع مستواهم التعليمي والخلقي والإجتماعي والصحي.

ويقوم قسم العمال (الفلاحين) بدراساته الفنية ويضع رسائله ونشراته، وهذه تعرض على المرشد العام فإن وافق عليها بلّغت للمكاتب الإدارية لتنفيذها (المادتان ٦٤، ٦٧).

ونظّم قسم العمال «مدرسة للتوجيه النقابي والشئون العمالية»(١) ألقيت فيها محاضرات فنية عامة اسبوعياً لتعليم الإخوان العمال كيف يديرون شئونهم النقابية ويحلّون مشاكلهم على أسس سليمة من القوانين العمالية.

كما قدّم قسم العمال وكذلك قسم الفلاحين خدمات اجتماعية لكلتا الفئتين وذلك بمساعدتهم في حل مشاكلهم فوجد في كلتيهما محامون متخصصون في الشئون العمالية والزراعية لتوجيه العمال وإرشادهم إلى ما فيه صالحهم وكذلك المساعدة في حالة البطالة.

---

(١) نشرة إدارية رقم (٣) إلى الإخوان، ديسمبر ١٩٥٢م صفحة ١٢.

ثالثاً: قسم الطلبة:

نصت المادة (٧٠) يقوم قسم الطلاب على الأغراض الآتية:

أ - تنظيم نشر الدعوة الإسلامية في محيط الطلاب وايجاد جو إسلامي بصفة عامة في المعاهد الدراسية.

ب - تقديم الثقافة الإسلامية المناسبة للطلاب على إختلاف معاهدهم وأعمارهم.

جـ - القيام على حاجات الإخوان الطلاب وتنظيم التعاون المدرسي بينهم.

د - تنظيم الإستفادة من الطلبة في العطلة الصيفية وإفادتهم.

هـ - توجيه الطلبة إلى الإستفادة من النشاط المدرسي.

والمادتان (٧١ و٧٢) تعالجان وضع الدراسات الفنية والاتصال بالمندوبين وهما شبيهتان بما سبق عرضهما في قسمي العمال والفلاحين.

ولعل هذا القسم قد لعب دوراً بارزاً في حياة الطلاب خاصة في الجامعة، وهو لا ريب قدّم سبل تنمية روحية وفكرية من خلال إنضمام الطلاب إلى حركة الإخوان، وخير الأدلة على ذلك تفوّقهم في انتخابات مجالس إتحادات الجامعات.

رابعاً: قسم التربية البدنية:

ونصت المادة (٧٦) من اللائحة «يضع قسم التربية البدنية المناهج والدراسات اللازمة لتربية الإخوان تربية بدنية إسلامية وإعدادهم للقيام برسالتهم. ويشرف القسم على تنظيم هذه الناحية طبقاً للسياسة التي يضعها مكتب الإرشاد»، وتنوعت الفرق الرياضية قبل الحل الصادر في ٨ ديسمبر ١٩٤٩م، فكان للإخوان وفقاً لما ورد بمجلة «الإخوان المسلمون» ٩٩ فرقة كرة قدم في مناطق مصر المختلفة منها ٣٦ فرقة في القاهرة وحدها و٣٢ فرقة لكرة السلة و٢٨ فرقة لكرة الطاولة (بنج بنج) و١٩ فرقة لرفع الأثقال و١٦ فرقة للملاكمة و٩ فرق للمصارعة و٨ فرق للسباحة أشرف عليها سبّاح مصر حسن عبد الرحيم وكان عضواً في الجماعة كذلك فرق الدراجات والرجبي».

خامساً: قسم المهن:

ضم هذا القسم عدداً كبيراً من المختصين في النواحي المختلفة وتفرع إلى ٩ فروع داخلية هي الأطباء، المهندسين، القانونيين، المعلمين، التجاريين، الزراعيين، الإجتماعيين، الصحفيين، والموظفين.

وقد نصت المادة ٧٨ من اللائحة التنفيذية «يقوم قسم المهن على الأغراض الآتية»:

أ ـ نشر الدعوة في محيط أصحاب المهن وإيجاد جو إسلامي عام في بيئاتهم.
ب ـ حصر الإخوان في كل مهنة والعمل على الإستفادة من المهنة بالنسبة للدعوة والأفراد والإخوان.
جـ ـ الإستفادة من النقابات المهنية المختلفة والعمل على إيجاد جو إسلامي فيها.
د ـ إعداد المناهج المختلفة في شتى النواحي على أساس من الإسلام والعمل على تنفيذها بواسطة أصحاب المهن.
هـ ـ توجيه الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي وصبغها بالصبغة الإسلامية.

المطلب الثالث

الجهاز الخاص

إلى جانب التنظيم الإداري السالف الذكر، فقد استجد عام ١٩٤٠م تشكيل جهاز يتولى المقاومة المسلحة ضد عصابات اليهود في فلسطين، نورد فيما يلي نبذة عن هذا الجهاز، والذي أطلق عليه خصوم الإخوان المسلمين «الجهاز السرّي»:

وهذا الجهاز قد عرف داخل الإخوان بالجهاز الخاص وخارج نطاقهم أَطلق عليه خصومهم الجهاز السري. وتعود نشأته إلى عام ١٩٤٠م حيث طرح حسن البنا فكرة إقامته بعد اتضاح التواطؤ الاستعماري مع الصهيونيين على تسليمهم فلسطين. وأيقن المرشد أن الإنجليز يسلحون عصابات اليهود وأدرك أيضاً أن الحكومات العربية بما فيها الحكومات المصرية المتعاقبة على كرسي الحكم متخاذلة إن لم يكن بعضها متواطئاً مع الإنجليز. فكان طبيعياً والإخوان المسلمون ينادون بتحرير وطنهم والوطن الإسلامي جميعه التفكير في الإستعداد للقوة ورد العدوان بالنار. وفي عام ١٩٤٠م عرض مرشد الإخوان حسن البنا على خمسة أشخاص هم صالح عشماوي والدكتور حسين كمال الدين والشيخ حامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم إنشاء نظام خاص تواجه به الجماعة مسؤوليتها ازاء الإنجليز في الداخل والصهيونيين في فلسطين، وأسند إلى هؤلاء الخمسة قيادة هذا النظام وعهد إليهم بإنشائه وتدريب أفراده على أساس الأصول الإسلامية للجندية، وكان برنامج هذا النظام يشمل دراسة عميقة للجهاد في الإسلام وما ورد بشأنه في القرآن والسنة، والتاريخ الإسلامي، وكان العضو يأخذ نفسه بأنواع العبادات المختلفة كالصوم والتهجد والذكر والتلاوة والتدريب على الأعمال الشاقة واستعمال الأَسلحة[1].

(١) الإخوان المسلمون، محمود عبد الحليم ص ٢٥٨.

واشتركت أعداد كبيرة من إخوان هذا النظام في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م[١] وقد شهد ببسالتهم وحسن مرانهم قادة الحملة المصرية في ذلك الوقت وأُقيمت العقبات في سبيل نجدتهم لبعض القوات المحاصرة في الفالوجا كما ذكرت ذلك جريدة الأهرام بتاريخ ١٩ ديسمبر عام ١٩٥٠م بقولها «إن الإخوان قد أعدوا جماعتين انتحاريتين لنجدة قوات الفالوجا أثناء حرب فلسطين لكن رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي رفض التصريح لهم بذلك. أكان تخطيطاً لإعتقال الإخوان وتوقيع الهدنة؟ لا نشك في ذلك حيث أنه في ٨ ديسمبر ١٩٤٨م صدر قرار حل الإخوان ووقعت الهدنة في ٢٤ فبراير ١٩٤٩م».

ومن العجيب في الأمر أن قرار الحل الذي أصدره النقراشي بوصفه حاكماً عسكرياً آنئذ قد استند إلى مجموعة من الوقائع كذّبها القضاء وسلطات التحقيق في سني حكمه. وهذه الوقائع التي ذكرها قرار الحل تشمل الاتهام للإخوان بإثارة طبقات الفلاحين للمطالبة بدفع قيمة إيجارية معتدلة في تفاتيش الدولة الزراعية أو في أراضي بعض الإقطاعيين، ومنها أحداث لعب فيها النظام الخاص دوراً أساسياً في إحباط محاولة الإنجليز لإرهاب مواطني القنال وذلك بالتعرض لفندق الملك جورج في الإسماعيلية في شهر ديسمبر ١٩٤٦م وقد كان مقراً لمخابرات البريطانيين في منطقة القنال ومكان التقائهم ببعض المصريين ممن يعاونونهم بالمعلومات، وما استند إليه قرار الحل أيضاً بذكره أنه في ١٩ يناير سنة ١٩٤٨م ضبط خمسة عشر شخصاً من جماعة الإخوان المسلمين بمنطقة جبل المقطم يتدربون على إستعمال الأسلحة النارية والمفرقعات والقنابل وكانوا يحوزون كميات كبيرة من هذه الأنواع وغيرها من أدوات التدمير والقتل، من الغريب أن هذه الحادثة قد شهد تحقيقها ـ بنفسه ـ النقراشي حيث ثبت أمام القائمين على التحقيق بضبط ١٦٥ قنبلة ومفرقعات أن من أوقفوا من أفراد الإخوان قد ثبت تدربهم للقتال في فلسطين وأصدر المحامي العام وقتها قراره بالإفراج عنهم جميعاً في حضور رئيس الوزراء النقراشي[٢].

(١) لم يكن اشتراك الحكومات العربية خلال هذه الحرب جاداً بل كان رمزياً.

(٢) جريدة المصري في ٣١ يناير سنة ١٩٤٨م صفحة ٦ .

المبحث الخامس

في تقويم الجماعة

يشتمل هذا المبحث على مدخل ومطلبين:

المطلب الأول : الخصائص والسمات المميزة للجماعة.

المطلب الثاني : المآخذ والقصور والتقصير.

مدخل

كان للأثر الكبير الذي خلفته جماعة الإخوان في المجتمع المصري خاصة والمجتمع الإسلامي عامة في جميع مناحيه السياسية والدينية والعسكرية والإقتصادية. ولتعدد عطاءاتها في كل مجال. لذا فقد تناول دراسة فكر الإخوان المسلمين العديد من الأقلام المتباينة في إتجاهاتها المختلفة في أهدافها وأغراضها، فإختفت ـ تبعاً لهذا جميعه ـ نظرتهم في تقويمها، وتضاربت ـ نتيجة لذلك ـ آراؤهم في الحكم عليها.

ويمكننا رد هؤلاء إلى فئات ثلاث:

فئة من الكتّاب إتجهت الإتجاه العلمي الأصيل، ونهجت في تقويمها لهذه الجماعة المنهج القويم، لتقدم الحقائق الأصيلة لا إدعاءات وأقاويل، فنجد منها الأستاذ أحمد حسن الزيات[1] يقول: «الإخوان المسلمون هم وحدهم الذين يمثّلون في هذا المجتمع الممسوخ: عقيدة الإسلام الخالص وعقلية المسلم الحق. إنهم لا يفهمون الدين على أنه صومعة منعزلة، ولا الدنيا على أنها سوق منفصلة، وإنما يفهمون أن المسجد منارة السوق، وأن السوق عمارة المسجد، وكان للإخوان المسلمين في الإرشاد لسان، وفي الاقتصاد يد، وفي الجهاد سلاح، وفي السياسة رأي، لهم في كل بلد من البلدان العربية أتباع، وفي كل قطر من الأقطار الإسلامية أشياع، وما يقظة الوعي العام في مصر والسودان، وفي العراق وسوريا، وفي اليمن والحجاز، وفي الجزائر ومراكش، إلاّ شعاع من هذه الروح سيكون له بعيد حين نبأ»[2].

(١) هو الأستاذ أحمد حسن الزيات عضو مجمع اللغة العربية، أصدر مجلة الرسالة عام ١٩٣٢م، وهو صاحب مؤلفات في الأدب العربي، كما كان رئيساً لتحرير مجلة الأزهر.

(٢) مجلة الرسالة العدد ٩٦٦ الصادر في يناير سنة ١٩٥٢م، المقال الافتتاحي للأستاذ أحمد حسن الزيات.

وفئة من الكتّاب ركبت موجة الضلال، واستسلمت لأهوائها فعمدت إلى ليّ الحقائق وحجب الحق، ممالأة منها لسلطان جائر، أو سعياً منها وراء جاه زائل؛ فنجد منها من يقول: «إن حسن البنا من سلالة يهودية، وأن دعوته حركة إسرائيلية هادمة»[١]، وخرج آخرون بفتوى: «إن الإخوان كالخوارج لا يقبل في أمرهم توبة ولا شفاعة»[٢]

وفئة ثالثة من الكتّاب ضلّت طريق الصواب في مستهل تقويمها للإخوان للأسباب السالفة الذكر في الفئة الثانية، فيقول أحدها في يوم ما على صفحات مجلة الشبان المسلمين عام ١٩٦٥م: إن الإخوان المسلمين «فرقة من الحشاشين» ثم يتساءل في اغتياب: «وكيف لا ومرشدها الأول والثاني يحملان اسم الحسن الصباح زعيم هذه الفرقة، أي فرقة الحشاشين؟! ثم لا يلبث أن يهديه الله للحق، وتنكشف عن بصره الغيامة، وبعد أن تغيرت الأحوال فيقول: «إن هذه الجماعة لعبت دوراً إسلامياً رائعاً في حياة الصبيان والشباب والرجال، وغرست أخلاق الإسلام في الملايين، وجعلت الإنتساب للإسلام مفخرة يعتز بها الكثيرون، وربطت بين المسلمين في مختلف الأنحاء وكوّنت من المسلمين قوة هائلة هزّت غطرسة الإستعمار وقوى الغرب وطلائع الصهيونية، ودفعت إلى المكاتب والمصانع والوظائف جماعات تعرف الله وتخافه. وبالتالي تنتج بجد، وتعمل دون رقيب من الناس، ولا تمتد لها الشبهات، ولا يمسها الإنحراف وكانت كلمة (من الإخوان المسلمين) طابعاً للتنزه عن الصغائر، والبعد عن الرشوة، وعن الإهمال والحرص على أداء الواجب، وحيثما رأيت الآن رجلاً يبرز به هذا الطابع فأعرف أنه غالباً كان منتسباً إلى جماعة الإخوان المسلمين[٣] وكما اختلف فيها، تباينت آراء الكتاب في شخصيات القائمين عليها فلاكتهم الألسنة وتبارى المفتون الذين يقولون بأفواههم ما لا تؤمن به قلوبهم إسترزاقاً لرضى الحاكم ورهبة من غير رضاه».

---

(١) مقال للعقاد، في جريدة الأساس لسان حال الحزب السعدي عقب قرار الحل في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨م.

(٢) بيان شيخ الأزهر عبد الرحمن تاج بجريدة الأهرام في ١٧ نوفمبر ١٩٥٤م ص ٨، أيضاً بيان جماعة كبار العلماء في الأهرام بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٥٤م، ص ٤، ولا تخرج فتاوي العلماء سنة ١٩٦٥ عن ذلك.

(٣) هذا قول الدكتور أحمد شلبي أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بدار العلوم جامعة القاهرة وهذا القول أورده في كتابه: «رحلة حياة».

وبعد أن لمسنا هذه الاتجاهات الثلاثة عند من تناول فكر الجماعة بالنقد أو بالتأييد، يجدر بنا أن نجمل ما نراه من ميزات وخصائص ميّزت فكر هذه الجماعة، وكذا ما يؤخذ عليها في منهج تفكيرها وسلوك رجالها. وذلك في مطلبين:

المطلب الأول : الخصائص والسمات المميزة للجماعة.

المطلب الثاني : المآخذ والقصور والتقصير.

المطلب الأول

الخصائص والسمات المميزة للجماعة

بعد أن تناولنا الجماعة ومؤسسها وعرفنا غاياتها ووسائلها وأفكارها نستطيع أن نخلص إلى بعض ما يميّز منهجها الفكري والعملي فيما يلي:

أولاً:

ان من أسمى ما خص الله تعالى به الدين الإسلامي «شموليته» وجعل هذا الدين محيطاً بكل شئون الحياة. وقد اتخذ الإخوان هذا المفهوم «شمولية الإسلام» طريقاً لهذا الفكر فالإسلام دين ودولة، عقيدة وقيادة، شريعة وعبادة، وحضارة وأمة؛ وأن الدين الإسلامي كل لا يتجزأ.. يشمل كل شئون الإنسان ومشكلات حياته، فالإسلام نظام متكامل مترابط الأجزاء، فأي إهمال لبعضه، أو ترقيع فيه؛ يؤثر على بقية الأجزاء. وقد حذّر القرآن الكريم من أخذ بعض أحكام الله دون بعض فقال تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب، وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾[1].

وقال تعالى يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك**﴾[2]. وقد فهمت الجماعة هذا المبدأ وطبقته تماماً حتى قال مؤسسها رحمه الله: «أيها الإخوان أنتم لستم جمعية خيرية

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

ولا هيئة موضعية، ولا ضرباً سياسياً، ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيبدد ظلام المعاد بمعرفة الله، وصوت مدوّ يعلو مردّداً دعوة الرسول ﷺ»[1].

وبذلك شملت دعوة الإخوان المسلمين لكل التعاليم والأحكام الإسلامية لأنها اتخذت القرآن الكريم دستوراً ونبراساً لها، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾[2].

فكان ذلك تحقيقاً للشطر الأول من شعار الجماعة: «الله غايتنا، والقرآن دستورنا».

ثانياً: التطوّر الدائم لخطتها العملية:

أن الحركة من أظهر علامات الحياة، والموت أبرز دلائل الموت هذا واضح في عموم الكائنات الحية، وخاصة في الإنسان.

والجماعة الحية كالفرد الحي، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلاّ بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث، فإذا سد عليها طريق شقّت لنفسها طريقاً آخر أو طرقاً[3]، وإذا أغلق في وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر[4].

وهكذا كانت دعوة الإخوان متطوّرة في خطتها العملية، وهذه الصفة تعني أن الخطوط العريضة للجماعة، تتسع لكل جديد في حركة الناس، في كل زمان ومكان[5]. ويقول مفكر من رجال الجماعة ومؤرخ لدعوتها:

«أنه لا بد من تطوير الجماعة يومياً، وبشكل دائم حتى تكون في كل لحظة على

---

(١) مجموعة الرسائل، الإمام حسن البنا، ص ٢٣١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٣) قد تغلق دور الجماعة الرسمية ولكن لن تغلق أمامها المساجد، وقد تصادر صحيفة الحركة، أو يمنع إصدارها، ولكن رجالها يستطيعون الكتابة في صحف الآخرين... وهلم جرا.

(٤) انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، د/ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ طبعة ثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ٢٥٠.

(٥) الطريق إلى جماعة المسلمين، مرجع سابق، ص ٤١٥.

مستوى الأحداث التي تواجهها، وعلى طريق الأهداف التي ينبغي أن تحققها». ويقول: «نحن جماعة يحكمها في سيرها شيئان: حكم الله تعالى، ثم الشورى، وعن الشورى تنبثق القاعدة، وبالشورى تتطور القاعدة»[1].

ثالثاً: الصحوة الإسلامية:

إن الحركة الإسلامية الحديثة[2] أحدثت صحوة في العالم الإسلامي كله، وأعادت للناس الثقة بالإسلام، وربّت عشرات الألوف من الشباب الواعين المخلصين الذين وصفوا بأنهم: «رهبان الليل وفرسان النهار» صحوة عملت على تجديد الدين، وإنهاض الدنيا به. صحوة صحّحت المفاهيم المغلوطة، وقوّمت المسالك العوج، وأيقظت العقول النائمة، وحرّكت الحياة الراكدة، ونفخت الروح في الجثة الهامدة، فأعادت إليها الحياة والحركة والنمو[3].

فكانت هذه الدعوة بفضل الله ظلاً ظليلاً في سماء الإسلام مصداقاً لقول الله تعالى: **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**[4].

رابعاً: الأفعال بعد الأقوال:

لم يقتصر عمل الإخوان على حلو الكلام ومداد الأقلام، ولكنهم أثبتوا بالفعل قبل القول، وجاور مداد العلماء، دماء الشهداء التي روت أرض النبوات «فلسطين» في عام ١٩٤٨م، حيث تعلّم شباب الحركة الإسلامية «صناعة الموت»: كيف يموت في سبيل الله؟ وكيف يميت أعداء الله؟ فتوهب له الحياة!!

ودماء أخرى روت ضفاف القناة في مقاومة الإحتلال الأجنبي (الإنجليزي) سنة

(١) المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين، سعيد حوي، ص ١٣.
(٢) جماعة الإخوان المسلمين.
(٣) من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوي ص ٥.
(٤) سورة ابراهيم، الآية: ٢٤.

١٩٥١م. ودماء زكية غيرها ذهبت في مقاومة الطغيان، يوم حنى الأكثرون رؤوسهم له خوفاً، وسار كثيرون في ركابه طمعاً![1].

وهذا مما حدا بالناس النظر إلى هؤلاء على أنهم أصحاب عقيدة صحيحة وبطولات حقيقية عالية، وليست دعائية فقط.

وبهذه الخصيصة السالفة يمكننا القول بأنهم بذلك حققوا باقي شعار الجماعة «... الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

(١) انظر: الحل الإسلامي فريضة، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

المطلب الثاني

من المآخذ والقصور والتقصير

وعلى الرغم مما أوردناه من خصائص وسمات طيبة، وشواهد بارزة مضاءة بالفخار والإعتزاز للحركة الإسلامية الحديثة ورجالها في تلك الحقبة، «فليس معنى هذا أن الحركة سليمة من العيوب، خالية من المآخذ، كلا![1]» فانها مجموعة من البشر تخضع في خططها، واجتهاداتها لقاعدة القصور البشري، والضعف البشري، والخطأ البشري[2].

وعلى هذا نستطيع أن نورد بعضاً مما نراه في هذا الجانب فيما يلي:

١ ـ المواجهة المبكرة:

لقد كان الوقت مبكراً بل مبكراً جداً في المواجهة بين جماعة الإخوان وأعداء دعوتهم سواء من الأحزاب التي كانت في تلك الحقبة، أو من الحكومات والحاكمين.

ولكن هي الظروف التي أحاطت بالدعوة في بداياتها الأولى فالقائم عليها شاب في أول حياته الوظيفية والعملية، وليس «باشا» ولا من ذوي الجاه والسلطان. وأين بدأ دعوته أنها في بلدة بعيدة عن عاصمة البلاد حيث الصحافة والإذاعة ومقر السلطة والسلطان. وهذا ما جعل الدعوة في بدايتها شبه سرية لم تلتفت إليها الأنظار، وعند ظهورها على المجتمع ولتأخذ مكانها على مسرح الأحداث. كان شأنها في ذلك شأن صاحب الدار القديمة المتهدمة لمّا

(١) الحل الإسلامي فريضة، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٢) الطريق إلى جماعة المسلمين، ص ٤١٦.

أراد أن يبنيها من جديد حجب الناس عنها بسور ضخم حتى أتم بناءه. فلما أتمه أزال الأسوار فظهر البناء ضخماً كاملاً قوياً[1]. فجاءتها الرياح عاصفة من كل جانب[2]. متعاونة كلها لضربها وتدميرها. فكان ما كان من ضرب الجماعة، وقتل قادتها، وتشريد رجالها. ومصادرة أموالها وممتلكاتها[3].

ويقول أحد الباحثين عن هذه المواجهة المبكرة من الجماعة لأعدائها: «تحديدها لمرحلة المواجهة مع الباطل قبل أن تمتاز عنه ففي عقدها الأول اتخذت موقفاً معادياً من جميع الأحزاب السياسية المصرية، وطالبت الدولة بإلغائها، وكذلك واجهت الجماعة التبشير وأعلنت موقفها منه وطالبت الدولة بتشديد الرقابة عليه. وفي سنة ستة وثلاثين أي قبل أن تتجاوز السنة العاشرة من تأسيسها دخلت في صراع مع الدولة[4].

٢ ـ الاستمرار في تقديم النصح بدلاً من التقدم لتسلم زمام الحكم:

مع قسوة الظروف المحيطة بالجماعة سارت الحركة في اتجاهها الصحيح وتخطت كل ما واجهها من عقبات ـ رغم كونها أصبحت هدفاً ظاهراً ـ فقد أصبحت أكبر هيئة سياسية في مصر كما قال جمال البنا عنها: «أنها أكبر الهيئات السياسية في مصر دون منازع»[5].

ويقول الدكتور زكريا بيومي في أسباب حل الجماعة سنة ١٩٤٨م: «ان الحكومة تخلصت بهذا من ألد خصومها، التي كانت دولة داخل دولة»[6].

ويقرر د/ ريتشارد ميتشيل «أن عدد الجماعة في ١٩٤٨م مليون رجل منهم ٧٠ ألف مسلح هم الجوالة (الجهاز السري)»[7].

---

(١) انظر: الإخوان المسلمون كبرى الحركات، إسحق الحسيني، ص ١٩.
(٢) من الأحزاب التي تمثل ملايين الشعب المصري، ومن التبشير وهو يمثل الصليبية العالمية، ومن الشيوعية ومن الدولة وهي مدعومة من بريطانيا في ذلك الوقت.
(٣) الطريق إلى جماعة المسلمين، مرجع سابق، ص ٢١٧.
(٤) الإخوان المسلمون والجماعات السياسية في الحياة المصرية، زكريا سليمان بيومي، ص ٨٦ ـ ٨٨.
(٥) الدعوة الإسلامية في مصر ما لها وما عليها، جمال البنا، ص ١٨٧.
(٦) الإخوان المسلمون والجماعات، ص ١٢٢.
(٧) ايديولوجية الإخوان المسلمين، ص ٨٨.

«ومن الإنصاف للتاريخ أن نقرر أنه لا الحكومة العسكرية المصرية ولا أي حكومة سواها كانت قادرة على إقناع الإنجليز بإجلاء قواتهم - مهما كانت حدود ذلك الجلاء - لولا الكفاح الشاق الذي قام به شباب مصر المؤمن لإرهاق الجيش المحتل ومقاطعته والتضييق عليه».

ثم يتابع الأستاذ كامل الشريف كلامه عن معركة الإخوان في قناة السويس فيقول: «لقد استطاعت معركة القناة أن تضع بريطانيا!! وجهاً لوجه أمام هذه الحقيقة حين اضطرت قواتها أن تقف موقف الاستعداد والحذر، وأن تحارب عدوّاً مستتراً، لا تراه ولا تحس به إلاّ حين تقع ضرباته السريعة في مقاتلها، وأن تعيش في حالة من الذعر والترقب القاتل..»[1].

فهل يليق بجماعة آمنت بما تدعو له، وبلغ بها الإعداد إلى أن وصلت إلى هذه القوة التي شهد بها العدو والصديق، والقريب والبعيد، ثم تجنح إلى تقديم النصح والتوجيه لحكومات تلك الفترة دون أن تتقدم هي لتسلّم زمام الحكم، وهو موقف قاصر في فهم مسار الحركة الإسلامية لدى رسل الله الكرام على مدار تاريخ البشرية كما ورد في القرآن الكريم. في قوله تعالى: ﴿**فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿**فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين**﴾[5].

وقد كان حقيقاً بها في تلك الفترة ألا تثق بغيرها من القيادات واكتفائها بتقديم النصح لهم والاكتفاء بمطالبة تلك القيادت بجعل الحكم اسلامياً، وكانت الجماعة في تلك الفترة خاصة بعد حرب فلسطين تملك أكبر قوة مؤمنة، وكانت قادرة على تسلم مقاليد

(١) المقاومة السرية في قناة السويس، كامل الشريف، مكتبة المنار - الزرقاء، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٧٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

الحكم لتصلحه حسب منهجها، لا أن تسلم رقابها وأموالها وكل منجزاتها لأيدي أعداء الإسلام ليقضوا عليه قضاء مبرماً.

والله جل وعلا يقول: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير**﴾[1].

ولكنها مشيئة الله وأقداره النافذة، وقد يكون ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه، ولأجل أن يعتبر أولو الألباب من أرباب الدعوات الإسلامية، ويأخذوا الأمور بالأسباب.

﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين**﴾[2].

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٦.

فهرس الموضوعات

المقدمة

الباب التمهيدي
الأوضاع السياسية والفكرية في العالم الاسلامي عامة وفي مصر خاصة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري

الفصل الأول
أوضاع العالم الاسلامي سياسياً وفكرياً

الفصل الثاني
مصادر فكر المسلمين في مصر في تلك الفترة وخصائصه

الفصل الثالث

المؤسسات التعليمية في مصر

القسم الأول
الاتجاهات الفكرية في الجانب العقدي

الباب الأول
في الاتجاه الصوفي

الفصل الثاني
أثر الصوفية في الفكر الاسلامي

الباب الثاني
في الاتجاه العقلي

الفصل الأول
في مفهوم العقل وموقف الاسلام منه

الفصل الثاني
المدرسة العقلية القديمة

الفصل الثالث

المدرسة العقلية الحديثة

الفصل الرابع
في منهج المدرسة الحديثة ورجالها

الباب الثالث

الاتجاه التغريبي

الفصل الأول

الاستشراق والتبشير

الفصل الثاني
الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب

الباب الرابع
الاتجاه الأصيل

الفصل الأول
الجمعية الشرعية

الفصل الثاني
جماعة الاخوان المسلمين